الكِفايـة

في التَّفسيرِ بِالمأْثورِ والدِّرايـة

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي[1]

الجزء الأول

المقدمة والتمهيد وتفسير سورة الفاتحة

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

---

(١) عبد الله خضر حمد بن بيرداود الكردسوري-بالكاف الأعجمية-، باحث عراقي كردي، ولد في مدينة أربيل عام ١٩٧٧م، ونشأ في منطقة قوشتبة في قرية «كردةسؤر»، حاصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها/البلاغة والنقد، صدر له مجموعة من الكتب في مجال اللغة العربية والأدب والنقد والبلاغة، مارس التدريس في تخصصه، ثم أحيل إلى التقاعد، متفرغ للبحث العلمي والتأليف.

الرقم الدولي(ISBN):٥-٧١٥-٧٢-٩٩٥٣
الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
الناشر: دار القلم- بيروت – لبنان

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

Abdulla.khdhir@gmail.com
Abdulla. khdhir@hotmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[آل عمران: ١٠٢].{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا] [النساء : ١].{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[الأحزاب : ٧٠ ، ٧١].

أما بعد :

يعد تفسير القرآن الكريم الركيزة المهمة لدارسي العلوم الإسلامية، والدراسات المرتكزة عليها، كالدراسات الاسلامية، والثقافة الإسلامية...الخ، والتفسير هو فهم القرآن الكريم، وفق إحدى مدارس المفسرين، كالمدرسة اللغوية، والمدرسة الموضوعية، والمدرسة الإعجازية، وتفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنّة النبوية، إلى غيرها من المدارس الأخرى، وتؤكد نتائج الدراسات التي أجريت أخيراً حول موضوع تفسير القرآن ومصادره، كدراسة عبد العليم صبّاح(١٩٩٩)، ودراسة محمد عبد النبي محمود (٢٠٠٤)، وغيرها من الدراسات بأن دراسة التفسير لها أهمية كبيرة للطلبة في كافة مراحل التعليم، سواء على الصعيد الجامعي، أو التعليم في الدراسات العليا، وأكدّت هذه الدراسات على أن للتفسير دوراً كبيراً في فهم مقصود المولى – عز وجل – في آياته في كافة الوقائع واألحداث، كما أشارت دراسة عبد الوافي المعلم(١٩٩٧)، بأن عن طريق دراسة تفسير القرآن الكريم يمكن الوقوف على بعض الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم، ومعرفة أسباب نزول الآيات القرآنية الكريمة .

وقد أفرد الإمام القرطبي في مقدمة تفسيره باباً سمّاه: " باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه والحث عليه، وثواب من قرأ القرآن معرباً"[(١)]، ضمنه مجموعة من الأحاديث والأخبار التي تدل في مجموعها على تفضيل من قرأ القرآن معرباً وذم اللحن فيه وذلك "صوناً من تحريف الكلم عن مواضعه ودرءاً للخروج على مراد اهلل تبارك وتعالى"[(٢)].

ومن الاحاديث والأخبار في هذا الشأن ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه"[(٣)].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: " جوّدوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات، وأعربوه فإنه عربي، والله يحب أن يعرب به"[(٤)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٢٣/١.

(٢) مدرسة التفسير في الأندس، مصطفى إبراهيم المشني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان،ط١، ١٩٨٦،ص: ٣٩٣.

(٣)أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١١٦)، وأبو يعلى الموصلي(٦٥٦٠):ص١١/ ٤٣٦، والحاكم : ٢/ ٤٧٧، والبيهقي في شعب الإيمان: ٣/ ٥٤٨. وإسناده ضعيف.

(٤)النشر ١/ ٢١٠، وانظره في "الوجيز" للقرطبي ص٨٨، ويؤيده ما رُوي عن البراء بن عازب من قول الرسول ﷺ: "زينوا القرآن بأصواتكم" وهو صحيح الإسناد. أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤، وأبو داود ٢/

وقال أبو بكر[١]، وعمر[٢] رضي الله عنهما: " لبعض إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ حروفه"[٣].

وقال ابن عمر:"أعربوا القرآن"[٤].

قال السيوطي:"والمقصود من الإعراب في هذه النصوص ليس ما اطلع به علماء النحو، وإنما المقصود تفسير ألفاظه وتوضيح معانيه وبيان غريبه"[٥].

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله ، وتفسير ذلك ، وطلبه من مظانه ، وتَعلُّم ذلك وتعليمه ، كما قال تعالى : [وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ] [آل عمران : ١٨٧] ، وقال تعالى : [إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] [آل عمران : ٧٧].

فذمّ الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم ، وإقبالهم على الدنيا وجمعها ، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله، فعلينا أن ننتهي عما ذمَّهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تَعَلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه ، قال الله تعالى : [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نزلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ] [الحديد : ١٦ ، ١٧]. ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها ، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي ، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك ، إنه جواد كريم.

المنهج في التفسير

٧٤، برقم: ١٤٦٨، والنسائي ٢/ ١٧٩، ١٨٠، برقم: ١٠١٥، ١٠١٦، وابن ماجه ١/ ٤٢٦، برقم: ١٣٤٢، والدارمي ٢/ ٥٦٥، برقم: ٣٥٠٠، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٧١-٥٧٥، والطيالسي في مسنده، انظر: منحة المعبود ٢/ ٣، برقم: ١٨٨٦.

(١) هو : أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة بن عامر ، خليفة رسول الله -ﷺ- وأفضل الأمة ، وأحد المبشرين بالجنة ، هو أشهر من أن يعرف . توفي سنة (١٣هـ) وله (٦٣) سنة . وسيرته ومناقبه في أغلب كتب التاريخ ، أفرد له المحب الطبري مجلدا خاصا من أربعة مجلدات في ترجمته للعشرة المبشرين بالجنة في كتابه المسمى (الرياض النضرة). [انظر : تذكرة الحفاظ :١\ ٤، وشذرات الذهب:١ \ ٢٤].

(٢) هو : عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح . لقبه رسول الله -ﷺ- بالفاروق ، وتولى الخلافة بعد أبي بكر الصديق ، ولقب بأمير المؤمنين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . قتله أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة سنة ٢٣ هـ ، وعمره (٦٣) سنة. [انظر : تذكرة الحفاظ: ١\ ٨، وشذرات الذهب:١ \ ٣٣].

(٣) حكاه عنهما القرطبي في تفسيره: ٢٣/١، ولم أجده بهذا اللفظ وإنما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عمر أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري فقال : "أما بعد : فتفقهوا في السنة وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن فإنه عربي فتمعددوا فإنكم معديون" . أ . هـ . أي تشبهوا بجدكم معد بن عدنان ، انظر : المصنف (١٠ \ ٤٥٦).

(٤) أخرجه أبو علي الصواف في " الفوائد " (٢/١٦١/٣) و أبو علي الهروي في " الأول من الثاني من الفوائد " (٢/١٨) عن ليث عن طلحة بن مصرف عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله مرفوعا وإسناده ضعيف. انظر: السلسلة الضعيفة والموضوعة، للألباني:٥٢١/٣.

(٥) الإتقان، السيوطي: ٢٢٤/٢.

المنهج لغة: نَهَجَ: الطريق الواضح و (المَنْهَجُ) و (المِنْهَاجُ) مثله و (نَهَجَ) الطريق (يَنْهَجُ) بفتحتين (نُهُوجًا) وضح و استبان و (أَنْهَجَ) بالألف مثله و (نَهَجْتُهُ) و (أَنْهَجْتُهُ) أوضحته يستعملان لازمين و متعديين[١] نهج النهج: الطريق الواضح، وكذلك المنهج والمنهاج. وأنهج الطريق، أي استبان وصار نهجا واضحا بينا، قال يزيد بن الخذاق العبدى[٢]:

وَلَقَدْ أَضَاءَ لَكَ الطَّرِيقُ وأَنْهجَتْ　　سُبُلُ المَسَالِكِ والهُدَى يُعْدِي

ونهجت الطريق، إذا أبنته وأوضحته، يقال: اعمل على ما نهجته لك، ونهجت الطريق أيضا، إذا سلكته. وفلان يستنهج سبيل فلان، أي يسلك مسلكه[٣]، وفي التنزيل {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}(المائدة: ٤٨)[٢] .

والمنهج اصطلاحاً : هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن حقيقة حين نكون بها جاهلين ، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين "[٣] وهذا تعريف عام لمنهج البحث العلمي والتعريف الاصطلاحي العام هو قريب من التعريف اللغوي لأن كليهما يعتمد على التوضيح والاستبانة للطريق.

ويعرف المنهج بأنه "أداة التربية ووسيلتها، وهو ذلك الطريق الواضح الذي يسلكه المربي أو المدرس مع مَنْ يربيهم لتنمية معارفهم، ومهاراتهم، واتجاهاتهم، أو هو مجموع الخبرات التربويّة، والثقافيّة، والاجتماعيّة، والرياضيّة، والفنيّة، التي يهيئها المدرس لتلاميذه داخل المدرسة وخارجها بقصد مساعدتهم على النّمو الشامل في جميع النواحي وتعديل سلوكهم طبقاً لأهدافها التربويّة"[٢].

وانطلاقاً من هذا المفهوم الشامل للمنهج الدراسيّ المعاصر؛ فإنَّ للمنهج أربعة أركان رئيسية:

أولها: الأهداف التربويّة.

ثانيها: المادة العلميّة الشاملة للمعارف، وأوجه النشاط والخبرات التي تتكوّن منها مادة المنهج.

ثالثها: طُرق وأساليب التدريس المتبعة مع التلاميذ لدفعهم إلى التعلُّم وتحقيق أهدافه المرسومة.

رابعها: طُرق التقويم والقياس[٢].

---

(١) مصباح المنير ٦٢٧/٢.

(٢) ديوان المفضليات، المفضل الضبي، تحقيق: احمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، دار المعرف، ط٦: ٢٩٦/١.

(٣)صحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تأليف: إسماعيل بن حماد الجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. الناشر: دار العلم للملايين - بيروت. الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م. ٣٤٦/١، و ابن منظور ، لسان العرب (٢ /٣٨٣) .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب (٢ /٣٨٣) .

(٣) عبد الفتاح خضر ، أزمة البحث العلمي في العالم العربي ص ١٢ .

(٢) فلسفة التّربية: د. الدمرداش ود. منير، ٣٠١/١.

(٢) مناهج الدّراسات الإسلامية: د. عابدين توفيق، ٣٢/١.

أمَّا المنهج الإسلاميّ فإنَّه يعرف بأنَّه قانون الحياة الذي أنزله الله سبحانه إلى الجنس الإنسانيّ ليحكّموه في حياتهم وشؤونهم المختلفة، وهو منهج يتجاوب مع الفطرة الإنسانيّة التي فطر الله تعالى الناس عليها، والله أعلم بها؛ لأنَّه خالقها، قال تعالى: [أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٤]، ذلك أنَّ الخالق أعلم بتصميم منهاج الحياة من الإنسان الذي يجهل طبيعة نفسه وطبيعة عقله، قال تعالى: [مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}[الكهف: ٥١].

إنَّ الإنسان يعلم ما يبدو له من ظاهر الحياة الدنيا، قال تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}[الروم: ٧].

ومن هنا؛ فإنَّ الإطار العام لهذا المنهج التربويّ الربانيّ المُنْزَل في جميع الأديان متفق في تجاوبه مع الفطرة الإنسانيّة الكامنة في كل إنسان؛ لأنَّ الناس جميعاً صفتهم الفطرة مشتركة عقلاً، ونفساً، وروحاً، وقلباً، وجسماً، فهو منهاج متكامل للإنسان في هذه المجالات الخمسة، قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[الروم: ٣٠].

وبناءً على ما تقدّم؛ فإنَّا نقصد بـ "مناهج المفسّرين": "الطُرق التي يتبعها المفسّرون في تفسير كتاب الله تعالى". ذلك أنَّ منهم الذي يعتمد على الرواية، ومنهم مَنْ يعتمد على الدّراية، ومنهم مَنْ يجمع بين الرواية والدّراية، ومنهم مَنْ يعتمد على الفهم الشَّخصيّ والمجال الذي تخصَّص فيه.

ومن هنا برزت عدّة مسمّيات، منها: "التَّفسير بالمأثور"، "التَّفسير الموضوعيّ"، "التَّفسير الصوفيّ الإشاريّ"، "التَّفسير الصوفيّ النَّظريّ"، "التفسير العلميّ"، و"التَّفسير البدعيّ" الذي يؤول كلام الله ويحمّله معاني فاسدة وبعيدة عن النَّص القرآنيّ الكريم.

إن أصح الطرق في ذلك أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، ومن ثم بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، كما قال الشافعي-رحمه الله-: "كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى : { إِنَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } [النساء : ١٠٥] ، وقال تعالى : { وَأَنزلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نزلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل : ٤٤] ، وقال تعالى : { وَمَا أَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [النحل : ٦٤]"(١).

وعن أيوب السختياني أن رجلا قال لمطرف بن عبد الله بن الشخير -وهو من كبار التابعين (ت ٩٥ هـ): لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له مطرف: "والله ما نريد بالقرآن بدلا، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا"(٢).

وقال مكحول الشامي -وهو من ثقات التابعين وفقهائهم- (ت ١١٣ هـ): "القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن"(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٣٦٣، وتفسير ابن كثير: ٤/١.

(٢)أخرجه أبو خيثمة في (كتاب العلم) ص ٤١ رقم (٩٧)، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ص ٥٦٣.

(٣)أخرجه المروزي في (السنة) رقم (١٠٤)، وابن شاهين في (شرح مذاهب أهل السنة) رقم (٤٨)، وابن بطة في (الإبانة الكبرى) رقم (٨٩)، والخطيب في (الكفاية) ص ١٤، وأورده ابن عبد البر في (جامع ببان العلم) ص ٥٦٣، وعزاه إلى سعيد بن منصور.

وعن حسان بن عطية -وهو أحد ثقات التابعين، مات بعد سنة ١٢٠ هـ- قال: "كان الوحي ينزل على رسول الله -ﷺ-، ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك"(١).

وقال يحيى بن أبي كثير -وهو من صغار التابعين الثقات الأثبات، ت ١٢٩ هـ-: "السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاض على السنة" (٢).

وقال الإمام الطبري -رحمه الله-: "تأويلُ القرآن غيرُ مدرك إلا ببيان من جعل الله إليه بيان القرآن" (١).

وجاء هذا عن الإمام الأوزاعي -راويه عن مكحول، وهو من كبار أتباع التابعين، وأئمة الفقه المشهورين، ت ١٥٧ هـ- أنه قال: "الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب". أورده ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) ص ٥٦٣، وعلق عليه فقال: "يريد أنها تقضي عليه وتبين المراد منه ، وهذا نحو قولهم: ترك الكتاب موضعا للسنة، وتركت السنة موضعا للرأي".

وجاء أيضا عن حماد بن زيد -وهو من أتباع التابعين، مات سنة ١٧٩ هـ- قال: " إنما هو الكتاب والسنة، والكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب" أخرجه الخطيب في (الفقيه والمتفقه) ١: ٢٣١ رقم (٢٣١).

(١)أخرجه بهذا اللفظ: ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ص ٥٦٣، وذكره القرطبي في تفسيره ١: ٣٩.

وأخرجه الخطيب في (الكفاية) ص ١٥، ولفظه: (كان جبرائيل ينزل على النبي -ﷺ- بالقرآن، والسنة تفسر القرآن).

وأخرجه الدارمي رقم (٥٨٨) في المقدمة: باب السنة قاضية على كتاب الله ، والمروزي في (السنة) رقم (١٠٢) (٤٠٢)، ونعيم بن حماد في زوائده على (الزهد) ص ٤٣٩ رقم (٩١)، وابن بطة في (الإبانة الكبرى) رقم (٩٢)، واللالكائي في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة) ١: ٨٣ رقم (٩٩) والخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) ١: ٢٦٦ - ٢٦٧ رقم (٢٦٨) (٢٦٩) (٢٧٠)، وفي (الكفاية) ص ١٢ بنحوه. وصحح إسناده ابنُ حجر في (فتح الباري) ١٣: ٣٠٥.

(٢)أخرجه الدارمي رقم (٥٨٧) في المقدمة: باب السنة قاضية على كتاب الله، والمروزي في (السنة) رقم (١٠٣)، وابن شاهين في (شرح مذاهب أهل السنة) رقم (٤٧)، وابن بطة في (الإبانة الكبرى) رقم (٩٠) (٩١)، والخطيب في (الكفاية) ص ١٤. وأورده ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث) ص ٣٨٠ وعلق عليه فقال: "أراد أنها مبينة للكتاب، منبئة عما أراد الله تعالى فيه". وأورده السيوطي في (مفتاح الجنة) ص ٩١، وعقب عليه فقال: "قال البيهقي: ومعنى ذلك أن السنة مع الكتاب أقيمت مقام البيان عن الله ،كما قال الله: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}، لا أن شيئًا من السنن يخالف الكتاب".

قلت -القائل السيوطي-: "والحاصل أن معنى احتياج القرآن إلى السنة؛ أنها مبينة له، ومفصلة لمجملاته، لأن في لِوَجازته كنوز تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها، وذلك هو المنزل عليه -ﷺ-، وهو معنى كون السنة قاضية عليه، وليس القرآن مبينا للسنة ولا قاضيا عليها، لأنها بينة بنفسها إذ لم تصل إلى حد القرآن في الاعجاز والإيجاز، لأنها شرح له، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح، والله أعلم".

وجاء هذا عن الأوزاعي قال: "إن السنة جاءت قاضية على الكتاب، ولم يجيء الكتاب قاضيا على السنة". أخرجه الحاكم في (معرفة علوم الحديث) ص ٦٥.

وقال الفضل بن زياد: سمعت أحمد بن حنبل -وسئل عن الحديث الذي روي أن السنة قاضية على الكتاب- قال: "ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكن السنة تفسر الكتاب، وتعرف الكتاب، وتبينه). أخرجه الخطيب في (الكفاية) ص ١٤ - ١٥، وأورده ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ص ٥٦٤، والقرطبي في تفسيره ١: ٣٩.

وجاء في (مسائل الإمام أحمد) رواية ابنه عبد الله رقم (١٥٨٦): "قال عبد الله: سألت أبي ، قلت: ما تقول في السنة تقضي على الكتاب؟ قال: قد قال ذلك قوم منهم مكحول والزهري. قلت: فما تقول أنت؟ قال: أقول: السنة تدل على معنى الكتاب". وأخرجه الخطيب في (الفقيه والمتفقه) ١: ٢٣٠ - ٢٣١.

وفهم ابن القيم من عبارة الإمام أحمد معنى الإنكار، فقال في (الطرق الحكمية) ص ١٠٧: "وقد أنكر الإمام أحمد على من قال: السنة تقضي على الكتاب، فقال: بل السنة تفسر الكتاب وتبينه".

وقال ابن تيمية -رحمه الله-: "اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين؛ أن السنة تُفَسِّر القرآن، وتبينه، وتدل عليه، وتعبر عن مجمله" [٢].

وقال الشاطبي -رحمه الله-: "لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقتصار عليه دون النظر في شرحه وبيانه، وهو: السنة"[٣].

ولهذا قال رسول الله ﷺ : "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه" [٤]، قال ابن القيم -رحمه الله- معلقا على الحديث: "هذا هو السنة بلا شك"[٥]، وقال ابن كثير:"يعني : السنة، والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن"[٦]، إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن ، وقد استدل الإمام الشافعي ، رحمه الله وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسيرَ القرآن منه ، فإن لم تجدْه فمن السنة ، كما قال رسولُ الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : "بم تحكم ؟ ". قال : بكتاب الله. قال : "فإن لم تجد ؟". قال : بسنة رسول الله. قال : "فإن لم تجد ؟ ". قال : أجتهد برأيي. قال : فضرب رسول الله ﷺ في صدره ، وقال : "الحمد لله الذي وفَّق رَسُولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله"[٧]، وهذا الحديث في المساند والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر في موضعه، وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم ، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا جابر بن نوح ، حدثنا الأعمش ، عن أبي الضُّحَى ، عن مسروق ، قال : قال عبد الله - يعني ابن مسعود - : والذي لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ؟ وأين نزلت ؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم، بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته[٨].

---

(١)تفسير الطبري ٢: ١٨١.

(٢)مجموع الفتاوى ١٧: ٤٣٢.

(٣)الموافقات ٣: ٣٦٩.

(٤)رواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٣١)، وأبو داود في السنن برقم (٤٦٠٤)، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٣٣٢، والطبراني في "الكبير" (٢٠/ ٢٨٣)، والمروزي في السنة (٢٤٤،٤٠٣)؛ والخطيب في الكفاية (١/ ٨٠)؛ وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٤٩ - ١٥٠)، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان ١/ ١٨٨ رقم (١٢)، والطحاوي في (شرح معاني الآثار) ٤/ ٢٠٩، من حديث المقدام بن معدى كرب ، رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في "مشكاة المصابيح" (١/ ٥٧/ ١٦٣).

(٥)التبيان في أقسام القرآن ص ١٥٦.

(٦) تفسير ابن كثير:٧/١.

(٧)رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٣٠) وأبو داود في السنن برقم (٣٥٩٢) والترمذي في السنن برقم (١٣٢٨) من طرق عن شعبة عن أبي عون عن الحارث بن عمرو عن ناس من أصحاب معاذ عن معاذ به ، وقال الترمذي : "هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده عندي بمتصل ، وأبو عون الثقفي اسمه محمد بن عبيد الله". وللشيخ ناصر الألباني مبحث ماتع بين فيه كلام العلماء في نقد الحديث. انظر : السلسلة الضعيفة برقم (٨٨١).

(٨)تفسير الطبري (١/ ٨٠) وجابر بن نوح ضعيف لكنه توبع ، فرواه البخاري في صحيحه برقم (٥٠٠٢) عن عمر بن حفص عن أبيه عن الأعمش به.

وقال الأعمش أيضًا ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود قال : "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن ، والعمل بهن"(١).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : "حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا"(٢).

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وترجمان القرآن وببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال : "اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل"(٣).

قال ابن مسعود: "نِعْم ترجمان القرآن ابنُ عباس"(٤).

فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود : أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود ، رضي الله عنه ، في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح ، وعُمِّر بعده ابن عباس ستًا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود ؟.

وقال الأعمش عن أبي وائل : "استخلف علِيّ عبد الله بن عباس على الموسم ، فخطب الناس ، فقرأ في خطبته سورة البقرة ، [وفي رواية : سورة النور] ، ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا"(٥).

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره ، عن هذين الرجلين : عبد الله بن مسعود وابن عباس ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب ، التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال : "بَلِّغوا عني ولو آية ، وحَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج ، ومن كذب عَلَيَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار" رواه البخاري عن عبد الله(٦)، ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

وتجدر الإشارة بأن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد ، لا للاعتضاد ، كما أنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح.

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرًا ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدّتهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن ، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نَقْلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز ، كما قال

---

(١)رواه الطبري في تفسيره (١/ ٨٠) من طريق الحسين بن واقد عن الأعمش به.

(٢)رواه الطبري في تفسيره(٨٢):ص ١/ ٨٠، إسناده صحيح.

(٣)رواه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٧) وأصله في صحيح البخاري برقم (٧٥).

(٤)أخرجه الطبري في تفسيره(١٠٥):ص١/٩٠.

(٥)رواه الطبري في تفسيره(٨٥)، و(٨٦):ص١/ ٨١، والفسوي في تاريخه:١/ ٤٩٥، من طريق الأعمش به.

(٦)صحيح البخاري(٣٢٧٤):ص١٢٧٥/٣، ومسند الإمام احمد(٦٤٥٠):ص١٥٩/٢.

تعالى : { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا } [الكهف : ٢٢] ، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث ، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فقال في مثل هذا : { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ } فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ، ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال : { فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا } أي : لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف : أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافًا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه. أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ، فهو ناقص أيضًا. فإن صحح غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب ، أو جاهلا فقد أخطأ ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته ، أو حكى أقوالا متعددة لفظًا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان ، وتكثر بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبي زور ، والله الموفق للصواب.

قال سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد : "كان ابن عباس إذا سئل عن الآية في القرآن قال به ، فإن لم يكن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به ، فإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، فإن لم يكن اجتهد برأيه"(١) .

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين ، كمجاهد بن جَبْر، فإنه كان آية في التفسير ، كما قال محمد بن إسحاق : حدثنا أبان بن صالح ، عن مجاهد ، قال : عَرضْتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات ، من فاتحته إلى خاتمته ، أوقفه عند كل آية منه ، وأسأله عنها"(٢).

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا طَلْق بن غنام ، عن عثمان المكي ، عن ابن أبي مُلَيْكَة قال : "رأيت مجاهدًا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ، ومعه ألواحه ، قال : فيقول له ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كله"(٣).

ولهذا كان سفيان الثوري يقول : "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به"(٤).

وكسعيد بن جُبَيْر ، وعِكْرِمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن البصري ، ومسروق ابن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مُزاحم ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ ، يحسبها من لا علم عنده اختلافًا فيحكيها أقوالا وليس كذلك ، فإن منهم من يعبّر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن ، فليتفطن اللبيب لذلك ، والله الهادي.

---

(١)سنن الدارمي(١٦٨):ص ٢٦٥/١.
(٢)رواه الطبري في تفسيره (١٠٨)(ص١/ ٩٠).
(٣)تفسير الطبري(١٠٧) ص٩٠/١.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره(١٠٩):ص ١/ ٩١ من طريق أبي بكر الحنفي سمعت سفيان فذكره.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره : "أقوال التابعين في الفروع ليست حجة ؟ فكيف تكون حجة في التفسير؟، يعني : أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح ، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون بعضهم حجة على بعض ، ولا على من بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة في ذلك "[١].

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام[٢]، لما رواه محمد بن جرير ، رحمه الله ، بسنده عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : " من قال في القرآن برأيه ، أو بما لا يعلم ، فليتبوأ مقعده من النار "[٣].

وفي رواية أخرى: "من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ "[٤].

لأنه قد تكلف ما لا علم له به ، وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ، لأنه لم يأت الأمر من بابه ، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرمًا ممن أخطأ ، والله أعلم ، وهكذا سمى الله القَذَفة كاذبين ، فقال : { فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [النور : ١٣] ، فالقاذف كاذب ، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر، لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ، ولو كان أخبر بما يعلم، لأنه تكلف ما لا علم له به ، والله أعلم.

ولهذا تَحَرَّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، كما روى شعبة ، عن سليمان ، عن عبد الله بن مرة ، عن أبي مَعْمَر ، قال : قال أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه : أيّ أرض تقلّني وأي سماء تظلني ؟ إذا قلت في كتاب" الله ما لا أعلم"[٥].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا محمد بن يزيد ، عن العَوَّام بن حَوْشَب ، عن إبراهيم التَّيْمِي، أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله : { وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } [عبس : ٣١] ، فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني ؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. منقطع[٦].

وقال أبو عبيد أيضًا : "حدثنا يزيد ، عن حميد ، عن أنس، أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر : { وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } [عبس : ٣١] ، فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأبّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر"[٧].

---

(١) تفسير ابن كثير: ١٠/١، وانظر: تفسير البغوي: ١٧/١، ومقدمة في أصول التفسير ص: ٥٠،

(٢) انظر: شرح مقدمة التفسير: لابن تيمية: ١٣٩/١.

(٣)تفسير الطبري(٧٤) ص/١ ٧٧، وأخرجه الترمذي في سننه:(٢٩٥٢)، وقال حديث حسن، والنسائي في سنن النسائي الكبرى(٨٤ ٨٠)، وأبو داود في سننه(٣٦٥٢) ، والحديث مداره على عبد الأعلى بن عامر قال أبو زرعة : ضعيف ، وتركه ابن مهدي.

(٤)تفسير الطبري(٨٠) ص/١ ٧٩. وانظر: سنن أبي داود برقم (٣٦٥٢) وسنن الترمذي برقم (٢٩٥٣)، قال الترمذي: غريب، وسنن النسائي الكبرى برقم (٨٠٨٦).

(٥)رواه الطبري في تفسيره(٧٩): ص(١/ ٧٨).

(٦)فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٥١٣) عن محمد بن عبيد عن العوام بن حوشب به.

(٧)فضائل القرآن (ص ٢٢٧) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٥١٢) عن يزيد به ، ورواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٤) من طريق يزيد عن حميد به ، وقال : "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه".

وقال عَبْد بن حُمَيْد : "حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : كنا عند عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وفي ظهر قميصه أربع رقاع ، فقرأ : { وَفَاكِهَةً وَأَبًّا } فقال : ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا لهو التكلف فما عليك ألا تدريه"[١].

وهذا كله محمول على أنهما ، رضي الله عنهما ، إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبتا من الأرض ظاهر لا يجهل ، لقوله : { فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا } الآية [عبس : ٢٧ ، ٢٨].

وأخرج الطبري بسنده الصحيح عن ابن أبي مُلَيْكَة : "أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها ، فأبى أن يقول فيها"[٢].

وقال أبو عبيد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، عن أيوب ، عن ابن أبي مليكة ، قال : "سأل رجل ابن عباس عن { يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ } [السجدة : ٥] ، فقال له ابن عباس : فما { يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } [المعارج : ٤] ؟ فقال له الرجل : إنما سألتك لتحدثني. فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه ، الله أعلم بهما. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم"[٣].

وأخرج - أيضًا - ابن جرير الطبري : عن مَهْدي بن ميمون ، عن الوليد بن مسلم ، قال : "جاء طَلْق بن حبيب إلى جُنْدُب بن عبد الله ، فسأله عن آية من القرآن ؟ فقال : أحرِّج عليك إن كنت مسلمًا إلا ما قمتَ عني ، أو قال : أن تجالسني"[٤].

وقال مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب : "إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن ، قال : لا أقول في القرآن شيئًا" [٥].

وقال الليث ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب : "إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن" [٦].

وقال شعبة ، عن عمرو بن مُرَّة ، قال : "سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن القرآن ، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء ، يعني : عكرمة"[٧].

وقال ابن شَوْذَب : حدثني يزيد بن أبي يزيد ، قال : "كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت ، كأن لم يسمع" [٨].

---

(١)ورواه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٢٧) ، ورواه البخاري في صحيحه برقم (٧٢٩٣) عن سليمان بن حرب به مختصرًا ولفظه : "نهينا عن التكلف".

(٢)تفسير الطبري(٩٨):ص ١/ ٨٦.

(٣)فضائل القرآن: ٢٢٨.

(٤)تفسير الطبري(٩٩):ص١/ ٨٦.

(٥)رواه الطبري في تفسيره(٩٣):ص١/ ٨٥، من طريق ابن وهب عن مالك به.

(٦)رواه الطبري في تفسيره(٩٥):ص ١/ ٨٦، من طريق ابن وهب عن مالك به.

(٧)رواه الطبري في تفسيره(١٠١):ص١/ ٨٧، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٥١١) من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به.

(٨)رواه الطبري في تفسيره(١٠٠):ص (١/ ٨٦) عن العباس بن الوليد عن أبيه عن ابن شوذب به.

وأخرج ابن جرير الطبري بسنده عن عبيد الله بن عمر ، قال : "لقد أدركتُ فقهاء المدينة ، وإنهم ليعظِّمون القول في التفسير ، منهم : سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع"(١).

وقال أبو عبيد : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن الليث ، عن هشام بن عُرْوَة ، قال : "ما سمعت أبي تَأَوَّل آية من كتاب الله قط" (٢).

وقال أيوب ، وابن عَوْن ، وهشام الدَّسْتوائِي ، عن محمد بن سيرين : "سألت عبَيدة السلماني ، عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن ؟ فاتَّق الله ، وعليك بالسداد"(٣).

وقال أبو عبيد : حدثنا معاذ ، عن ابن عون ، عن عبد الله بن مسلم بن يسار ، عن أبيه ، قال : "إذا حدثت عن الله فقف ، حتى تنظر ما قبله وما بعده"(٤).

حدثنا هُشَيْم ، عن مُغيرة ، عن إبراهيم ، قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه(٥).

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السَّفْر ، قال : "قال الشعبي : والله ما من آية إلا وقد سألت عنها ، ولكنها الرواية عن الله عز وجل"(٦).

وقال أبو عبيد : حدثنا هشيم ، حدثنا عمر بن أبي زائدة ، عن الشعبي ، عن مسروق ، قال : "اتقوا التفسير ، فإنما هو الرواية عن الله"(٧).

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا ، فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى : { لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ } [آل عمران : ١٨٧] ، ولما جاء في الحديث المروى من طرق : "من سئل عن علم فكتمه ، أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار"(٨).

---

(١)تفسير الطبري(٩٢):ص١/ ٨٥.

(٢)فضائل القرآن: ٢٢٩.

(٣)رواه الطبري في تفسيره(٩٧):ص ١/ ٨٦، من طريق ابن علية عن أيوب وابن عون به.

(٤)فضائل القرآن:٢٢٩.

(٥)فضائل القرآن (ص ٢٢٩) ورواه أبو نعيم (٤/ ٢٢٢) من طريق جرير عن المغيرة به.

(٦)فضائل القرآن (ص ٢٢٩).

(٧)جاء من حديث أبي هريرة ، ومن حديث أنس ، وأبي سعيد الخدري ، رضي الله عنهم. أما حديث أبي هريرة ، فرواه أحمد في المسند (٢/ ٢٦٣) وأبو داود في السنن برقم (٣٦٥٨) والترمذي في السنن برقم (٢٦٤٩) وابن ماجة في السنن برقم (٢٦١) من طريق علي ابن الحكم عن عطاء عن أبي هريرة ، وقال الترمذي : "حديث حسن". وأما حديث أنس ، فرواه ابن ماجة في السنن برقم (٢٦٤) من طريق يوسف بن إبراهيم عن أنس ، وقال البوصيري في الزوائد (١/ ١١٧) : "هذا إسناد ضعيف". وأما حديث أبي سعيد ، فرواه ابن ماجة في السنن برقم (٢٦٥) من طريق محمد بن داب عن صفوان بن سليم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبي سعيد ، وقال البوصيري في الزوائد (١/ ١١٨) : "هذا إسناد ضعيف".

(٨)تفسير الطبري(٢٣٧٥):ص١/ ٨٤، ورواه أبو يعلى في مسنده (٨/ ٢٣) من طريق معن القزاز عن فلان بن محمد بن خالد ، عن هشام بن عروة به ، ورواه البزار في مسنده برقم (٢١٨٥) "كشف الأستار" عن محمد بن المثنى ، عن محمد بن خالد بن عثمة ، عن حفص - أظنه ابن عبد الله - عن هشام عن أبيه به.

فأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير بسنده عن عائشة ، قالت : لم يكن النبيُّ ﷺ يفسر شيئًا من القرآن ، إلا آيًا بعَددٍ ، علمهنّ إياه جبريل عليه السلام"[١]. فإنه حديث منكر غريب[٢].

وتكلَّم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى ، مما وقفه عليها جبريل. وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث، فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله ، كما صرح بذلك ابن عباس في رواية الأعرج عنه:" التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله" [٣].

قال ابن جرير : "وقد روى نحوه في حديث في إسناده نظر : حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي ، أنبأنا ابن وهب قال : سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبي ، عن أبي صالح ، مولى أم هانئ ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : "أنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام ، لا يعذر أحد بالجهالة به. وتفسير تفسره [العرب ، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله عز وجل ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب"[٤].

والنظر الذي أشار إليه في إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبي؛ فإنه متروك الحديث؛ لكن قد يكون إنما وهم في رفعه. ولعله من كلام ابن عباس ، كما تقدم، والله أعلم بالصواب.

والطَّرِيقةُ التي اتَّبعها في التفسير:

أولا: ذكر الروايات حول اسم السورة.

ثانيا: ذكر مكان نزولها و عدد آياتها، وسبب نزولها -إن وجد-.

ثالثا: أغراض السورة ومحتويات السورة وفضائلها-إن وجد-.

رابعا: تفسير السورة: أذكر الآيةَ، ثم أذكر مَعْناها العام[٥]، ثم أقوم بتَفْسيرَها من القُرْآن أو من السُّنَّة أو من أقوال الصحابة والتَّابعين، وأحْيانًا أذكر كل ما يتعلَّق بالآية من قضايا أو أحْكام، مع ذكر الأدِلةَ من الكِتَاب والسُّنة، وأقْوَال المذاهب الفِقْهِيَّة وأدِلتَهَا والتَّرْجِيحَ بَيْنَها.

خامسا: الاهتمام باللغة وعلومها، والإحتكام كثيرًا عند الترجيح والاختيار إلى المعروف من كلام العرب، والإعتماد على أشعارهم، والرجوع إلى مذاهبهم النحوية واللغوية.

سادسا:إختيار مذهب السلف في إثبات الصفات وإمرارها كما جاءت من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل.

سابعا: إضافة الأقوال إلى قائليها والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله.

---

(١)تفسير الطبري (٩١):ص١/ ٨٤.

(٢) انظر: حاشية تفسير الطبري: ٨٤/١.

(٣)تفسير الطبري(٧١):ص١/ ٧٥.

(٤)تفسير الطبري (٧٢):ص١/ ٧٦.

(٥) وذلك معتمدا على كتاب: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، الطبعة: الثانية، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م.

ثامنا: الإضراب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لا بد منه، وما لا غنى عنه للتبيين.
تاسعا: تقدير الإجماع وإعطائه اعتبارا كبيرًا في الإختيار والترجيح.
عاشرا: بيان أوجه القراءات السورة.
الحادي عشر: ذكر فوائد كل آية[1].
الثاني عشر: الإعجاز البياني والدراسة الأسلوبية للسورة: إذ خصصت مبحثا للدراسة الأسلوبية لكل سورة، مبينا الظواهر الأسلوبية في المستويات (التركيبية والدلالية والصوتية). وذلك في مجلد خاص نهاية التفسير.

كما تولدت رغبتنا في تخصيص مهاد عام حول(علوم القرآن واتجاهات التفسير)، وذلك من خلال فصلين:

الفصل الأول: مهاد عام حول علوم القرآن، وقد اختص بشرح مفاهيم مفردات علوم القرآن الكريم، وبعد تعريف القرآن الكريم لغة واصطلاحا تناول البحث المواضيع الآتية:
(أولا:- مفهوم الوحي، ثانيا:- نزول القرآن، ثالثا:- مراحل جمع القرآن الكريم وترتيبه، رابعا:- المكي والمدني، خامسا:- أسباب النزول، سادسا:- المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، سابعا:- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، ثامنا:- القراءات، تاسعا:- الإسرائيليات، عاشرا:- تفسير القرآن وشرفه، حادي عشر: إعجاز القرآن، ثاني عشر:- ترجمة القرآن الكريم بغير لغته، الثالث عشر:- فضائل القرآن).

الفصل الثاني: فقد اختص بعلوم التفسير واتجاهاته، وذلك من خلال محورين:
المحور الأول: تناولنا فيه أنواع التفسير وذلك من خلال محاور:
(١- التفسير بالمأثور، ٢- التفسير بالدراية، ٣- التفسير الإشاري).

في حين تطرقنا في المحور الثاني الى: اتجاهات التفسير، وذلك من خلال العناوين الآتية:
(١-الاتجاه اللغوي، ٢- الاتجاه العلمي، ٣- الاتجاه الموضوعي، ٤- الاتجاه الفقهي، ٥-الاتجاه البلاغي).
وفي الخاتمة: استظهرنا أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا التمهيد.

أقولُ ذلك ملتمِسًا العُذْرَ مِنْ عالِمٍ سَقَط عَلَى زَلَل، أو قارئ وَقَعَ على خَطَأ، فَمِثْل هذَا العَمَلِ الكبِير لا بُدَّ أنْ تَظْهرَ فيهِ بَعْض الأخطاءِ المطبعيةِ، والأوْهامِ الْيَسِيرةِ، وصَدَقَ المُزَنيُّ - رحمه الله - حين قال : "لَوْ عُورِضَ كتابٌ سَبْعِينَ مرةً لَوُجِدَ فيه خَطَأ، أَبَى اللهُ أن يكون صَحِيحًا غَيْر كِتابِهِ" ، فالمرْجُو من أهْلِ العِلْمِ أن يُرْسِلُوا لِي ما لَدَيْهِم من مُلاحظاتٍ أو اسْتِدْراكٍ أو تَعْقِيبٍ حتى أتَدَارك ذلك في الطبعةِ اللاحقةِ إن شَاءَ اللهُ.

ولا أنْسَى في خِتَامِ كَلِمَتي أنْ أرْفَعَ شُكْرِي إلى مَقَامِ والديَّ الَّلذَيْنِ كان لهما الفَضْلُ في تَنْشِئَتِي، وإرْشَادِي إلى العِلْمِ وحُبِّهِ، والاجْتِهادِ فِي طَلَبِهِ: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا } [نوح : ٢٨].

---

(١) أخذت جلّها من تفسير ابن عثيمين، مع تصرف بسيط وبعض الإضافات فيها.

واللهَ أسْألُ أنْ يَنْفعَ به الجميعَ، وأنْ يجْعَلَهُ خالصًا لِوجْهِهِ الْكَرِيم ، وأنْ يَكُونَ من الثَّلاث التي يَنْقطِعُ عَمَلُ ابْنِ آدمَ إذا مات إلا مِنْها ، وأنْ يكْتُبَ لجميع من أسْهَمَ فيه الأجْرَ والمثوبَةَ ، إنه وَلِيُّ ذلك والقادِرُ عليه ، وصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعينَ. وكتبه :

عبدالله بن خضر بن حمد بن بيرداود

العراق/ أربيل : ٢/ شعبان/ ١٤٣٨هـ

الفصل الأول
مهاد عام حول علوم القرآن

توطئة

لقد فصل أبو شهبة في كتابه،المدخل لدراسة القرآن الكريم، المعنى المقصود بعلوم القرآن[١]، إذ بدأ أولا بكلمة علوم،فذكر أن معنى العلم _مفرد علوم_ في اصطلاح أهل التدوين، "جمله من المسائل المضبوطة بجهة واحدة"[٢]، والعلم في اللغة نقيض الجهل ، وهو مصدر مرادف للفهم والمعرفة والإدراك، ويراد به إدراك الشيء على حقيقته، ثم نُقل بمعنى المسائل المختلفة المضبوطة ضبطاً علمياً والمتعلقة بعلم ما، ومن أحسن ما قيل في كلمة العلم أنها أشهر من أن تعرف.

وإن تعريف القرآن عند الأصوليين والفقهاء "هو كلام الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المنقول بالتواتر، المكتوب في المصاحف، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس"[٣]. تخصيص التعريف بهذا الشكل يخرج منه الكتب السماوية الأخرى _التي لم تنزل على محمد ﷺ،وتخرج أيضا الأحاديث القدسية التي هي أيضا لفظا من الله تعالى، لكنها غير معجزة ولا يتعبد بتلاوتها[٤].

أما المركب الإضافي، علوم القرآن، فمكون من كلمتين، كلمة علوم وقرآن .

وقد عرف الكفافي والشريف علوم القرآن بأنه[٥]:علم أو دراسة تدور حول أي جانب من جوانب القرآن الكريم، وهذا يتضمن علوم كثيرة مثل علم: رسم القرآن، إعراب القرآن، تفسير القرآن،أسباب النزول،المكي والمدني، الناسخ والمنسوخ، غريب القرآن، القراءات، فضل القرآن، الأحرف السبعة، مجاز القرآن، أقسام القرآن، أمثال القرآن، حجج القرآن، نزول القرآن

---

(١) أبو شهبة، محمد بن محمد، المدخل لدراسة القرآن الكريم ،بيروت، دار الجيل، ص١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم.أبو شهبة،مرجع سابق،ص٢٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الكفافي،د. محمد عبد السلام و الأستاذ الشريف، عبد الله،في علوم القرآن دراسات و محاضرات، بيروت_لبنان، دار النهضة العربية،١٩٧٢،ص ٢٧.

وتنجيمه، جمع القرآن وكتابته، المصاحف العثمانية، فواتح السور،المحكم والمتشابه، إعجاز القرآن، تشبيه القرآن واستعاراته،الإعجاز في نغم القرآن، ترجمة القرآن،ترتيب القرآن،العام والخاص،المطلق والمقيد،المنطوق والمفهوم،جدل القرآن،قصص القرآن، وغيرها[1].

وأوضح الدكتور زرزور[2] أن هذه العلوم من الأجدر أن تسمى"علوم التفسير" أو "علوم تفسير القرآن"، لأن غرضها الرئيسي إنما هو لتسهيل فهم وتفسير القرآن. و قد دعم رأيه هذا بأن كتب التفسير الكبيرة عادة ما تشتمل على مقدمة تذكر فيها أهم هذه العلوم قبل البدء بالتفسير،أمثال كتاب الطبراني و الأصفهاني. وأفضل كما ذكرت بالمقدمة،تقسيم محاور هذه العلوم الى:العلوم للمحافظة على المحتوى، العلوم للمحافظة على القراءة،والعلوم للمحافظة على التفسير، والعلوم لإظهار الإبداع القرآني.

والقرآن في اللغة : اختلفت فيه أقوال العلماء هل هو مصدر أم وصف؟ ثم هل هو مهموز أم غير مهموز؟

والذي نختاره أنه مصدر مهموز على وزن فُعلان بالضم كالغفران، والشكران، من قرأ يقرأ قراءةً ، وقرآناً ، ويشهد لهذا الاختيار ورود القرآن بمعنى القراءة في قوله تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨)} [القيامة : ١٧ - ١٨] أي: قراءته عليك حتى تعييه[3] .

فـ"قرأ": تأتي بمعنى الجمع والضم والتلاوة، والقراءة : ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وقد نقل من هذا المعنى المصدري، وجعل اسماً للكلام المعجز، المنزل على محمد ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله، فأصبح كالعلم الشخصي له، ومنه قوله تعالى : {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس : ٣٧] .

ولعلوم القرآن معنيان :

أحدهما: معنى عام: وهوأنواع المعارف والعلوم المتصلة بالقرآن الكريم ، سواء كانت خادمة له ، أو دل القرآن على مسائلها وأحكامها[4].

فعلوم خادمة للقرآن كعلم التجويد ، وعلم التفسير ، وعلوم اللغة العربية ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، ونحو ذلك ، وعلوم دل القرآن على مسائلها وأحكامها ، كعلم الفقه ، وعلم التوحيد ، وعلم الفرائض ، وعلم التاريخ، ونحو ذلك .

وقد توسع بعض العلماء في ذلك حتى أدخلوا علم الطب ، وعلم الفلك، والجبر ، والهندسة ، وغيرها.

ولكن ليس هنالك شك أن كل العلوم الدينية والعربية داخلة في معنى علوم القرآن في معناه العام .

---

(١) د. الصالح،صبحي،مباحث في علوم القرآن،الطبعة الخامسة والعشرون،بيروت_لبنان، دار العلم للملايين،٢٠٠٢م،و القطان،مناع، مباحث في علوم القرآن،الطبعة الثانية،الرياض،مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،١٤١٧ه/١٩٩٦م.

(٢) د.زرزور،عدنان محمد، فصول في علوم القرآن،الطبعة الأولى،بيروت_لبنان،المكتب الإسلامي،١٤١٩ه/١٩٩٨م،ص ١٠.

(٣) انظر: تفسير السمعاني: ١١٥٥، وتفسير الطبري: ٤٩٩/٢٣.

(٤) انظر: مناهل العرفان: ٢٣، ودراسات في علوم القرآن الكريم، فهد الرومي:٣٢.

والثاني: ومعنى خاص باعتباره علما مدونا:
إن علوم القرآن باعتباره فناً مدوناً عبارة عن مباحث أساسية ينبغي الإلمام بها لكل مقبل على فهم ودراسة القرآن الكريم وإلا ضل عن سواء السبيل ، لذا يمكن تعريفه بأنه : "أنواع المعارف والعلوم الخادمة للقرآن الكريم كعلم النزول ، وعلم الرسم ، وعلم التجويد والقراءات، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم التفسير ونحو ذلك"(١).
وفي القرن الثاني بدأ تدوين هذه العلوم في كتب منفصلة، كل علم يدرس ويدون على حده، ثم جمعت هذه العلوم في كتاب واحد لتأخذ الشكل المسمى بعلوم القرآن المتعارف عليه الآن. وقد ذكر الدكتور صبحي الصالح٢ أن بداية ظهور الشكل المعاصر لعلوم القرآن إنما بدأ في كتاب "البرهان في علوم القرآن" للحوفي (ت٤٣٠هـ). بينما حدد كفافي والشريف بداية بلورة المفهوم المعاصرلعلوم القرآن في القرن الثامن على يد الزركشي (ت٧٩٤هـ) في كتابه "البرهان في علوم القرآن" (٣).
فوائد معرفة علوم القرآن:
ولمعرفة علوم القرآن فوائد جمة، منها(٤):
١- أن دراسة القرآن الكريم وفهمه وتفسيره إنما تتطلب معرفة المفسر لهذه العلوم،لمعرفة أسباب النزول، لمعرفة الناسخ والمنسوخ و غيرها من علوم القرآن حتى يتفادى الخطا والزلل، والإسلام يحث على العلم والمعرفة، وبالعلم ترقى الأمم، فكيف إذا تكون ثقافة الدارس لعلوم القرآن، فهي أشرف الثقافات والعلوم.
علوم القرآن من أهم العلوم، وأعلاها، وأنفعها، إذ هو السبيل لفهم كتاب الله، ومعرفة أحكامه ، وحكمه ، ولذا تظهر علوم القرآن الكريم من جوانب عديدة أبرزها ما يأتي :
٢- يساعد على فهم وتدبر القرآن الكريم ، واستنباط أحكامه ، ومعرفة حكمه ، وحل مشكله ، وفهم متشابهه، بصورة صحيحة دقيقة ، لأنه لا يمكن أن يفهم القرآن ويفسره من لا يعرف نطقه، ورسمه، وأوجه قراءته، وأسباب نزوله ، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ونحو ذلك ، فهو الأساس، والمفتاح لفهم القرآن الكريم.
٣- زيادة الثقة واليقين بهذا القرآن العظيم ، خاصة لمن يتعمق في معرفة إعجازه، وأحكامه، وحكمه، ويقف على دقيق أسراره، إذ الجهل بمثل هذه العلوم يجعل المسلم عرضة للشبهات التي يقصد من ورائها زعزعة اليقين.
٤- معرفة الجهود العظيمة ـ الممتدة عبر التاريخ وفي كل القرون ـ التي بذلها العلماء لخدمة هذا الكتاب ، ودور هذه الجهود في حفظه من التغيير والتبديل، وفي تيسير فهمه .
٥- التسلح بعلوم قيمة تمكن من الدفاع عن هذا الكتاب العزيز ضد من يتعرض لـه من أعداء الإسلام، ويبث الشكوك والشبهات في عقائده وأحكامه، وتعاليمه، وهو من أعظم الواجبات .
٦- زيادة ثقافة الفرد المسلم بالمصدر الأول لدينه ، وأعظم ما يملكه في وجوده ، إذ ينبغي لكل مسلم أن يأخذ حظه من القرآن مهما كان تخصصه، ومهنته، وحرفته .
٧- نيل الأجر والثواب ، إذ تعلم مثل هذه العلوم من أوسع أبواب العبودية لله ﷻ.

---

(١) مناهل العرفان: ٢٣.
(٢)مباحث في علوم القرآن، د الصالح :ص١٢٤.
(٣) في علوم القرآن،الكفافي و الشريف، مرجع سابق،ص٣٣.
(٤) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم.أبو شهبة،مرجع سابق،ص٢٦.

٨- تطهير القلب ، وتهذيب النفس ، وزيادة الإيمان، إذ تعلم علوم القرآن يربط المسلم بصورة قوية بكتاب الله الذي أنزله الله شفاء للناس ورحمة .

وبعد هذه التوطئة لعلوم القرآن سوف نتناول القرآن لغة واصطلاحا:

١- تعريف القرآن لغة

اختلف العلماء في تعريف القرآن لغة، على أقوال:

القول الأول : أن كلمة القرآن مهموزة على وزن فُعلان، مشتق من (القرء) بمعنى الجمع. وهذا قول قتادة[١]، والزجاج[٢]، وأبو عبيدة[٣].

وفي سبب تسميته بالقرآن وجهان:

أحدهما: أنه سمّى قرآنا، لأنه يجمع السور فيضمها، قال تعالى:{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة : ١٧]، أي: "تأليف بعضه إلى بعض، ثم قال {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة : ١٨] ، أي: فإذا ألّفنا منه شيئا، فضممناه إليك فخذ به، واعمل به وضمّه إليك، وقال عمرو ابن كلثوم في هذا المعنى[٤]:

ذراعى حرّة أدماء بكر   هجان اللّون لم تقرأ جنينا

أي لم تضمّ فى رحمها ولدا قط،[٥]...وفى آية أخرى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ} [النحل : ٩٨]، أي: إذا تلوت بعضه فى إثر بعض، حتى يجتمع وينضمّ بعضه إلى بعض ومعناه يصير إلى معنى التأليف والجمع"[٦].

والثاني: أنه سُمي قرآنًا؛ لأن القارئ يُظهرُه ويبينه ويلقيه من فيه، أخذ من قول العرب: ما قَرَأَتِ الناقة سلًا قَط، أي: ما رمت بولد. حكاه قطْرب[٧]، وأبو هيثم[٨]، واللحياني[٩]، واستشهدوا بقول الشاعر[١٠]:

أَرَاها الوليد أن الخلا فتشذّرتْ   مرَاحًا ولم يقرأ جنينًا ولا دمَا

معناه: "لم ترمِ بجنين، وسمي قرء المرأة من هذا على مذهب أهل العراق، والقرآن يلفظه القارئ من فيه ويلقيه، فسمي قرآنًا، ومعنى قرأت القرآن: لفظت به مجموعًا"[١].

---

(١) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:٢٤/١.

(٢) انظر: معاني القرآن: ٣٠٥/١، وتهذيب اللغة:٢٩١٣/٣.

(٣) انظر: مجاز القرآن: ١/١، والبرهان للزركشي:٥٧٦/٣.

(٤)البيت من معلقته، وانفرد أبو عبيدة بهذه الرواية، أنظر شرح العشر للتبريزى ١١١، وهو فى جمهرة الأشعار ٧٦، والأضداد للأصمعى ٦، والطبري ٢٩/ ١٠٢، والجمهرة ١/ ٢٢٨، والقرطبي ٣/ ١١٤، واللسان والتاج (قرأ) .

(٥)«أي لم تضم ... قط» : رواه أبو الطيب اللغوي عن أبى عبيدة (الأضداد ٨٠ ب) ، وهو فى الأضداد للاصمعى ٦، وأخذه البخاري، وقال ابن حجر: هو قول أبى عبيدة أيضا قاله فى المجاز رواية أبى جعفر المصادرى عنه، وأنشد قول الشاعر: «هجان» البيت.

والسلى بفتح المهملة وتخفيف اللام. وحاصله أن القرآن عنده من «قرأ» بمعنى جمع، لا من «قرأ» بمعنى تلا. (فتح الباري ٨/ ٣٤٠)

(٦) مجاز القرآن: ٢/١-٣.

(٧) انظر: تهذيب اللغة" ٣/ ٢٩١٢، "التفسير الكبير" ٥/ ٨٦.

(٨)تهذيب اللغة" ٣/ ٢٩١٢، "اللسان" ٦/ ٣٥٦٥.

(٩)تهذيب اللغة" ٣/ ٢٩١٢، "اللسان" ٦/ ٣٥٦٥.

(١٠)البيت لحميد بن ثور في "ديوانه" ص ٢١، "لسان العرب" ٦/ ٣٥٦٥ (قرأ).

قال أبو إسحاق: "وهذا القول ليس بخارج من الصحة وهو حسن. قَرَأْتُه، أي: جَمَعْتُه"[٢].

وذكر الأشعري[٣] -رحمه الله- هذا المعنى في بعض كتبه فقال: "إن كلام الله يسمى قُرآنًا؛ لأن العبارةَ عنه قرن بعضه إلى بعض"[٤].

قال الفراء: "ظن أن القرآن سمي من القرائن، وذلك أن الآيات يصدق بعضها بعضًا، ويشبه بعضها بعضًا، فهي قرائن، فمذهب هؤلاء أنه غير مهموز"[٥].

القول الثاني:أن كلمة القرآن مشتقة من (قرأ) بمعنى ألقى وأظهر. وهذا قول ابن عباس[٦].

وذلك استشهاداً بقوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة : ١٨] ، يعني إذا بيناه فاعمل به[٧].

وعلى هذا القول فإن: "القرآن مأخوذ من (قرأ) بمعنى: تلا، وهو مصدر مرادف للقراءة، وقد ورد بهذا المعنى في قوله تعالى:[إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ] {القيامة:١٧-١٨}، أي: قراءته، ومنه قول حسان بن ثابت -رضي الله تعالى عنه- في رثاء عثمان بن عفان-رضي الله تعالى عنه-[٨]:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ [٩]عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ   يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا [١٠]

أي: قراءة"[١١].

فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يسمى "قرآنًا" بمعنى القراءة، وإنما هو مقروء؟

قيل: كما جاز أن يسمى المكتوب: كتابًا، بمعنى: كتاب الكاتب[١٢]، كما قال الشاعر في صفة كتاب طَلاقٍ كتبه لامرأته[١]:

---

(١)تهذيب اللغة" ٣/ ٢٩١٢، "اللسان" ٦/ ٣٥٦٥.

(٢)"تهذيب اللغة" ٣/ ٢٩١٢.

(٣)هو: علي بن إسماعيل بن أبي بشر، أبو الحسن تتلمذ في العقائد على الجبائي زوج أمه، وبرع في علمي الكلام والجدل على طريقة المعتزلة، ثم رجع فرد عليهم، وشُهر بمذهب ينسب إليه، وقيل إنه رجع بعده إلى مذهب السلف، له: "مقالات الإسلاميين"، و"الإبانة"، توفي سنة ٣٢٤ هـ. انظر: "شذرات الذهب" ٢/ ٣٠٣، "الأعلام" ٤/ ٢٦٣.

(٤) في (م): (كتاب).

(٤)البرهان، للزركشي: ١/ ٢٧٨. ونقله الواحدي في التفسير البسيط: ٥٧٦/٣، وهذا مذهب الأشاعرة واعتقاد السلف إثبات صفة الكلام لله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل على حد قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

(٥) نقلا عن التفسير البسيط: ٥٧٧/٣، والتفسير الكبير: ٨٦/٥.

(٦) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون: ٢٣/١.

(٧)انظر: النكت والعيون: ٢٣/١.

(٨)البيت لحسان بن ثابت، ديوانه: ٤١٠، وضحى: ذبح شاته ضحى النحر، وهي الأضحية. واستعاره حسان لمقتل عثمان في ذي الحجة سنة ٣٥، رضي الله عنهما، انظر: "المغني" ١/ ٢١٨، رقم ٣٦٣، "البحر المحيط" ٢/ ٣٢، والعنوان: الأثر الذي يظهر فتستدل به على الشيء.

(٩) الشمط: في الرَّجُل شيب اللحية. انظر: لسان العرب، مادة (شمط): ٧ / ٣٣٥ - ٣٣٦.

(١٠) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ص١٣٤، تحقيق: فوزي عطوى، دار صعب- بيروت، ط/الأولى ١٩٦٨م.

(١١) لسان العرب لابن منظور ٢٩/١.

(١٢) انظر: تفسير الطبري: ٩٧/١.

تُؤَمِّل رَجْعةً مِنّى، وفيها كِتابٌ مثْلَ ما لَصِق الغِرَاء

القول الثالث: أن "لفظ القرآن ليس مشتقاً، ولا مهموزاً، وأنه قد ارتجل وجعل عَلَمَاً للكتاب المنزل، كما أطلق اسم التوراة على كتاب موسى، والإنجيل على كتاب عيسى صلى الله عليهما وسلم". وها قول الإمام الشافعي-رحمه الله-[2].

والقول الراجح هو أن القرآن مأخوذ من (قرأ) بمعنى: تلا، وهو مصدر مرادف للقراءة يدل على ذلك الآية السابقة: [إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآَنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآَنَهُ] {القيامة:١٧-١٨}أي قراءته – وقوله: [وَقُرْآَنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآَنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا] {الإسراء:٧٨}، أي: قراءة الفجر[3]. والله أعلم.

٢- تعريف القرآن في الاصطلاح:

إن القرآن الكريم مصدر العلوم وأصل الحقائق الثابتة ومرجع العلماء يرجع إليه الفقهاء والأصوليون لمعرفة الأحكام الشرعية إجمالاً وتفصيلاً ويرجع إليه علماء اللغة لإظهار إعجازه والإفادة من أسلوبه ومعاني كلماته الإفرادية والتركيبية ، ويرجع إليه علماء القراءات لتحقيق هدفهم في معرفة كيفية النطق بألفاظه الكريمة .

ذكر الإمام السيوطي في الإتقان: "أن القرآن كلام الله المنزل، ثم أخذ في تفصيل معنى الكلام وكيفية التنزيل، وعقد بعد ذلك فصلاً في تواتر نقل القرآن وذكر أن الأمة متعبدة بفهم معانيه، وإقامة حدوده، وحروفه على الصفة المتلقاه، ثم ذكر أن القرآن معجز، وأخذ في تفصيل القدر المعجز منه"[4]، وعليه فيمكن تلخيص كلامه على مقتضى الحد الجامع المانع فيقال: هو كلام الله المنزل على محمد -ﷺ- بواسطة جبريل، المتواتر، المعجز، المتعبد بتلاوته وتطبيق أحكامه.

وقال الشوكاني[5]: "القرآن كلام الله تعالى، المنزل على نبينا محمد -ﷺ-، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا نقلًا متواترًا، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه"[6]، وهذا التعريف مزيد فيه على ما سبق قوله: "المكتوب في المصاحف" وهذا قيد غير لازم، ولا يشترط في إثبات القرآن أن يكون في المصاحف؛ لأن هذا القيد لا يشمل ما كان محفوظاً في الصدور، والكل يسمى قرآناً سواء كان مكتوباً أو محفوظاً.

---

(١) البيت من شواهد الطبري في تفسيره:٩٧/١، ولم أتعرف على قائله.

(٢)مناقب الشافعي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي١/ ٢٧٦، تحقيق أحمد صقر، مكتبة دار التراث – القاهرة، ط/ ١٩٧١م.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي٢٩٨/٢، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط/ الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١٥٨/١-١٧٠، بتصرف.

(٥) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الإمام العلامة الرباني، ولد في هجرة شوكان سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف من الهجرة، تولى منصب قاضي قضاة القطر اليماني، وكان نابذا للتقليد داعياً للاجتهاد، صاحب التصانيف، توفى عام خمسين ومأتين وألف، انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ٢٠٧/٢، دار المعرفة- بيروت، (بدون). والأعلام للزركلي ٦ /٢٩٨.

(٦) إرشاد الفحول، محمد بن على الشوكاني٨٦/١، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، ط/الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م (بتصرف بسيط).

وقيل القرآن: "هو الكلام المعجز، المنزل على النبي -ﷺ- المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته"(١).

وقيل القرآن: "هو كلام الله المعجز المنزل على خاتم الأنبياء، والمرسلين محمد -ﷺ- بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختتم بسورة الناس، والمتحدى بأقصر سورة منه"(٢).

وقولهم في التعريف: "كلام" جنس يشمل كل كلام، خصص هذا الجنس بالإضافة إلى لفظ الجلالة ليخرج كل كلام سوى كلام الله، بيد أن كلام الله منه ما هو متعبد بتلاوته، ومنه غير ذلك، فتكون نسبة التخصيص هنا نسبية بالنسبة لما سوى كلام الله، والكلام صفة لله قائمة به، أثبتها ربنا عز وجل لنفسه، بدون تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل، وعُرّف القرآن في العقيدة الطحاوية بأنه: "كلام الله، منه بدا، بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر"(٣).

وهذا التعريف فيه زيادة تفصيل في جانب، وخلا من قيود مهمة في جانب آخر، فمثلا قوله: "بالحقيقة": إما أن تكون صفة كاشفة، أو تأكيداً معنوياً وعلى كلا التقديرين دخولها في التعريف معيب، كما يلاحظ الباحث أن هذا التعريف خلا من وصف القرآن بالمعجز؛ فهل الإعجاز صفة مختصة بكلام الله؟ وهل في الحديث القدسي أو النبوي شيء من الإعجاز فتدخل في التعريف؟ على كلا الأمرين سيخرج غير القرآن من التعريف بقولهم: "المتعبد بتلاوته" أي: بإقامة حروفه وألفاظه، وبأنه لا يجزئ في الصلاة غيره.

وعُرّف كذلك بأنه: "كلام الله تعالى المنزل على محمد -ﷺ- للبيان، والإعجاز، المجموع بين دفتي المصحف، المتعبد بتلاوته، المنقول بالتواتر"(٤).

نستنتج مما سبق أن كل التعريفات تدور في الجملة حول معنى واحد غير أن في بعضها زيادة قيود، وإسهاب، والأصل في الحدود أن تكون جامعة مانعة، وعليه فإن الباحث يرى أن التعريف المختار هو: أن القرآن كلام الله المنزل على محمد -ﷺ- لفظاً، للبيان، والتحدي، والإعجاز، المتعبد بتلاوته، وبأحكامه، المنقول بالتواتر.

شرح محترزات وقيود التعريف:

قوله: كلام الله: الكلام صفة من صفات الله أثبتها سبحانه لنفسه، وأثبتها له رسوله -ﷺ-، وقولنا كلام الله الكلام جنس في التعريف يشمل كل كلام وإضافته إلى (الله) يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة، "فقد كلم سبحانه عبده ورسوله موسى بلا واسطة، بل أسمعه كلامه الذي هو صفته اللائقة بذاته كما شاء وعلى ما أراد، قال الله عز وجل: [تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ] {البقرة:٢٥٣} [وَرُسُلًا قَدْ

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني١/١٥.

(٢) نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد معبد ص١٣، مكتبة طيبة– المدينة المنورة، ط/ الأولى ١٩٨٦م.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية١/٢٥٤، القاضي علي بن علي أبي العز الدمشقي، تحقيق عبدالله عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط/ الثانية ١٤٢٠هـ.

(٤) اللآليء الحسان في علوم القرآن ص٩، د/ موسى شاهين لاشين، مطبعة الفجر الجديد،(بدون).

قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا] {النساء:١٦٤}، فأكده بالمصدر مبالغة في البيان والتوضيح"[١].

وقوله: "المنزل على محمد -ﷺ-": خرج بقوله المنزل: كلام الله الذي استأثر به نفسه سبحانه: قال تعالى: [قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا] {الكهف:١٠٩}، وخرج بقوله على محمد -ﷺ- الكتب السماوية السابقة لنزول القرآن كالتوراة والانجيل وغيرها، قال تعالى:[نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ] {الشعراء:١٩٣-١٩٤}.

وقوله: "لفظاً": قيدٌ خرج به الحديث القدسي والنبوي، إذ لم ينزل كل واحد منهما لفظاً، وإنما نزل الحديث النبوي معنى على الصحيح، وفي الحديث القدسي خلاف مشهور.

وقوله: "للبيان": أي: للبيان التشريعي وغيره، وهو من مهام محمد -ﷺ-، قال تعالى:[بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] {النحل:٤٤}.

وقوله: "والتحدي": "إن القرآن قد تحدى الإنس والجن جميعاً، مكيهم، ومدنيهم، وعربيهم، وعجميهم، أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة من سور القرآن فعجزوا أجمعين "(٢)، قال تعالى:

[قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا] {الإسراء: } ، وقال تعالى:

[وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] {البقرة:٢٣}.

وقوله: "والاعجاز": "فالقرآن كتاب معجز بكليته وبجزئيته بكل وجوه الإعجاز، وهذا الإعجاز للبشرية كلها هو مقصد من مقاصد إنزال القرآن، إثباتاً لرسالة ونبوة محمد -ﷺ-، كما أن إعجازه "في فصاحته وبلاغته، وأنباء الغيب، وأخبار الأمم السابقة، وما حواه القرآن من إعجاز علمي، وتشريعي محكم دقيق صالح لكل زمان ومكان"[٣].

وقوله: "المتعبد بتلاوته": المأمور بقراءته في الصلاة، وغيرها، ومتعبد بإقامة ألفاظه، وهذا قيد خرجت به الأحاديث القدسية، وهي المسندة إلى الله عز وجل إن قلنا أنها منزلة من عند الله بألفاظها، والأحاديث النبوية، وإن كانت مما نؤجر على قرأتها، واستخراج الأحكام الشرعية منها؛ ولكن لا يصح القراءة بها في الصلاة، ولا متعبدون بإقامة ألفاظها على الصحيح.

وقوله: "المنقول بالتواتر":"المتواتر هو: ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه"[٤]، أي: من النبي -ﷺ- إلى أصحابه إلى التابعين وهكذا حتى وصل إلينا دون نقص أو تحريف مصداقاً لقول الله تعالى:[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] {الحجر:٩}،

---

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول حافظ بن أحمد بن علي الحكمي ١/ ٢٤٧، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم – الدمام، ط/الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن ٢١٨/١.

(٣) الواضح في علوم القرآن : ١٦٧، د/ مصطفى ديب البغا ومحي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب ودار العلوم الإنسانية - دمشق ، ط الأولى ١٤١٧هـ.

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٦٤/١.

وهذا قيد خرجت به القراءات المنقولة إلينا بطريق الآحاد، والأحاديث القدسية، وهي المسندة إلى الله عز وجل إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها.

وسوف يتناول البحث في هذا المبحث المحاور الآتية:

أولا:- مفهوم الوحي

الوحي لغة: مصدر وحيْتُ، وأوحيت وحياً،ومعناه الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخطي، وكل ما ألقيته إلى غيرك(١).

قال الزبيدي: "أوحى إليه: كلمه بكلام يخفيه"(١).

قال في (المصباح):" الوحي الإشارة، والكتابة، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليَعْلمه وَحْي كيف كان قاله ابن فارس وهو مصدر وَحَى إليه يَحِي من باب وعد وأوحى إليه بالألف مثله، وجمعه وُحِيّ، والأصل فُعول مثل فلوس وبعض العرب يقول وحيت إليه ووحيت له، وأوحيت إليه وله ثم غلب استعمال الوحي فيما يُلقى إلى الأنبياء من عندالله تعالى ولغة القرآن الفاشية أوحى بالألف والوَحَا السرعة وَحِيّ مثل سريع وزناً ومعنىً، فعيل بمعنى فاعل، وذكاةٌ وُحِيّةٌ أي سريعة أيضا ويقال وحيت الذبيحة أحيها من باب وعد أيضا ذبحتها ذبحاً وَحِيّاً، ووحّى الدواء الموت توحية عجّله، وأوحاه بالألف مثله، واستوحيت فلاناً استصرخته"(٢).

قال في (الأساس): "وَحَى إليه، وأوحى إليه بمعنى، ووحيت إليه، وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، وأوحى الله إلى أنبيائه. {وأوحى ربك إلى النحل} [النحل:٦٨]"(٢).

قال الراغب: "أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: " أمر وُحِيٌّ " وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح،وقد حُمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا:{ فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}[مريم: ١١]"(٣).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "الوحي الإعلام السريع الخفي إما في اليقظة وإما في المنام"(٤).

بهذا يظهر أن الوحي في الأصل:الخفاء والسرعة، وعلى هذا فالوحي في اللغة: "الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره"(٥).

جاء في بيان المعاني:" واعلم أن معنى الوحي الإيماء بالتكليم خفية عن أن يفهمه الغير، وأصله الإشارة السريعة على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وباشارة بعض الجوارح وبالكتابة، وحمل عليه قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام

---

(١) انظر: اللسان مادة (وحي) ومختار الصحاح، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦/ ٩٣، مادة (وحي)، ومشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة ٢/ ١١٢، والمفردات للراغب الأصفهاني (وحي) ٨٥٨-٨٥٩، والبرهان: ١/ ٢٨٠، وفتح الباري ١/ ٩، ١/ ١٤.

(١)تاج العروس: الزبيدي ٣٥٨/١٠، مادة: (وحي).

(٢) المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المصري، مكتبة لبنان، ١٩٨٧م، ص٢٥٠.

(٢) أساس البلاغة:٣٢٤/٢، مادة:(وحي).

(٣) الفمردات في غريب القرآن:٨٥٨، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

(٤)مجموع الفتاوى لابن تيمية: ج١٢ ص٣٩٨.

(٥)الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا ص٣٧.

{فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}[المريم: ١١]، ولم يتكلم، وحمل على الإيماء قول الشاعر(١):

نظرت إليْها نظرةً فَتَحَيَّرَتْ دَقَائِق فِكْرِي فِى بَدِيْع صِفَاتِهَا
فَأوحَى إِلَيْهَا الطرفُ أنّي أحبّهَا فأثَّر ذَاكَ الوَحيُ في وَجنَاتِهَا

وقول الآخر(٢):

أشارت بطرف العين خيفة أهلها اشارة محزون ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالجبيب المتيم

وحمل على الاشارة قوله تعالى: {آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً} [آل عمران:٤١].

هذا وقد اتخذت الملوك والأمراء حروفا وكلمات بأرقام اصطلحوا عليها وعبروا عنها باسم شفره، كناية عن هذا المعنى، واستنباطا منه، منعا من أن يفهم الغير ما يتخابرون به، لأن الله تعالى علم البشر كيف يتخاطبون، وكيف يتنعمون، وكيف يعذبون ويعذبون، مما وصفه من أحوال أهل الجنة والنار، وقصه في كتابه المنزل هذا وكتبه السابقة أيضا، وجعل أوائل السور رموزا بينه وبين حبيبه، فلا يعرف معناها إلا هما كما سنبينه في مواضعه إن شاء الله، هذا وان القول الجامع في معنى وحي الله لأنبيائه، هو إعلام خفي سريع خاص بمن بوحيه اليه، بحيث يخفي عن غيره الملاحق له، كما كان يوحي اليه في فراش عائشة فيعلم ما هو المراد وهي لا تدري ما هو، وكذلك كان يوحي اليه بمحضر من أصحابه فيعي ما يتلقاه، وهم لا يعلمون شيئا منه إلا تغيّر حال الرسول عما كان عليه قبل الوحي لأنه عليه السلام كان يعتريه ثقل وشدة حال نزوله حتى أنه ليعرق في الوقت البارد، من عظم ما يلاقي من هيبة كلام الرب ﷺ(٣).

والوحي بمعناه اللغوي يتناول:

١- الأوامر الإلهية للملائكة، كقوله تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ} [الأنفال : ١٢].

٢- تبليغ الملائكة للأنبياء، ومنه تبليغ الآيات إلى رسول الله – ﷺ-بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام الموكل بالوحي كما ورد في قوله سبحانه: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم : ٣-٤](٤). وهذان الجنسان من أعلى وأعظم درجات الوحي.

٣- الإلهام الفطري للإنسان، كالوحي إلى أم موسى، والوحي للحواريين كما ورد في الآيات التاليات: : {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [القصص : ٧]، وفي قوله تعالى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [المائدة : ١١١](٥).

---

(١) البيتان دون نسبة في منار القاري: ٢٤/١، وبيان المعاني: ٥٤/١.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة في شرح ابيات مغني اللبيب: ٤٧٦/١، والأغاني: ٣٥٦/١، وشرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية، محمد بن محمد حسن شُرَّاب:٢٧/٣، وغير منسوب في شرح شذور الذهب: ٣٦، والخزانة: ٢٢٦/١. وفيهما أن الإشارة نوع من الكلام، أو أن الكلام قد يكون بالإشارة.

(٣) انظر: بيان المعاني، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، مطبعة الترقي - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٥ م:ص٥٤/١.

(٤)للتفصيل أنظر: تفسير ابن كثير: ٣٩٨/٣.

(٥) انظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ:ص:١٢٣/١.

٤- الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى:{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}[النحل:٦٨] (١). أي:" أنَّ الله سخرها عن طريق الغريزة أنْ تصنع هذه الأشياء العجيبة"(٢).

٥- الإشارة السريعة برمز أو إيماء كما ورد رمزاً قوله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم : ١١]، فقد ذكر ابن كثير أن زكريا أشار إلى قومه إشارة سريعة ولم يتكلم(١١).

وأما الإيماء، فمثاله قول الشاعر(٣):

نظرت إليـها نظـرةً فتـحيرت   دقائق فكري في بديع صفاتهـا

فأوحى إليها الطـرف أني أحبها   فأثر ذاك الوحـي في وجـناتها

٦- الكتابة، ومن ذلك قول لبيد (٤):

فمدافعُ الرَّيَّان عُرِّي رَسْمُها   خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلاَمُها

فالْوُحِيُّ جمع وَحْيٍ وهو الكتابة، وإنما سميت الإشارة والكتابة وحياً لدلالتهما على المعنى بسرعة لا يدانيهما فيها غيرهما. والعرب تسمي السرعة وحياً، فيقولون: تَوَحَّى الرجل إذا جاء بسرعة، فهما يرجعان إلى أصل واحد وهو السرعة(٥).

٧- وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان، قال تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ}[الأنعام:١٢١]، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [الأنعام:١١٢]، وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحج : ٥٢] (٦).

وإنما سمي " الإلهام " و " التسخير الغرْيزي " و " الوسوسة الشيطانية " وحياً، لأنّها إعلام في خفاء، والعرب تسمي الإعلام الخفي وَحْياً(٧).

قال الكسائي: "تقول: وحيت إليه، إذا كلمته بكلام تخفيه عن غيره"(٨).

ولغة القرآن:(أوحى)، بالألف -ولم يستعمل مصدرها- وإنما جاء فيه مصدر الثلاثي: {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}[النجم:٤].

---

(١) انظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ:ص:١٢٣/١.

(٢) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري: حمزة محمد قاسم: ٢٤/١.

(١١) مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت،١٤٠٢ه/١٩٨١م، م٢،ص٤٤٤.

(٣) البيتان دون نسبة في منار القاري: ٢٤/١، وبيان المعاني: ٥٤/١.

(٤)ديوانه: ٢٩٧.

(٥) انظر: منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم:٢٤/١

(٦) انظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ:ص:١٢٣/١.

(٧) انظر: منار القاري:٢٤/١-٢٥.

(٨) لسان العرب(وحي).

وعليه فان المعنى المستفاد من مادة الكلمة يشتمل على السرعة والخفاء ولو نظرنا لما استخدم هذه الأيام من وسائل الاتصال الحديثة فان فيها السرعة والخفاء، وسترى ذلك واضحاً في معنى الوحي في نظر العلم.

في العلم: وهو ما توصل إليه علماء الصناعة من اكتشافات، وما فيه من الدقة، وما اكتشف من معلومات حو ل النمل والنحل والمخلوقات. فمن ذلك:

التنويم المغناطيسي .

الهاتف واللاسلكي، والراديو، والفاكس، والإنترنت وغيرها.

التسجيلات الإلكترونية على أشرطة التسجيل وأسطواناته فتنقل صوت الغائب والميت وهكذا.

أعمال النمل، والنحل وحشرات الإكسيكلوب وما فيه من الدقة والإتقان.

العبقرية :ويعرِّفُها أفلاطون بأنها حال إلهية مولدة للإلهامات العلوية للبشر. ويقرر الفلاسفة بأنها حال علوية لا شأن للعقل بها. ويقول عباد الطبيعة بأنها هبة من الطبيعة نفسها لا تحصلها دراسة، ولا يوجدها تفكير.

الحالات الروحانية التي يفتح على الإنسان بها بما لا مقدور له عليه[٣].

في العقل: "ما جرى للنبي محمد-ﷺ- وما أخبر به. ويشهد له المعجزات التي أظهرها أو خبَّر بها. وقد اعترف العقلاء بما أخبر به في زمانه وبعده، وما زال العقل مستسلما. والعقل هو مناط التكليف"[١].

الوحي في الاصطلاح الشرعي:

هو إعلام الله نبياً من أنبيائه أو رسولاً من رسله ما يشاء من كلام أو معنى بطريقة تفيد النبي أو الرسول العلم اليقيني القاطع بما أعلمه الله به، على وجه الخفية والسرعة[٤]. وهذا ما يسمى بالناموس وهو الوسيلة للإعلام الربّاني لإبلاغ خلقه من البشر والمتمثل بملك الوحي جبريل عليه السلام[٥].

أو أن يُعلِم الله تعالى مصطفاه من عباده بما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، بطريقة سرّية سريعة غير معتادة للبشر[٦].

أو إعلام الله تعالى النبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه[٧] .

أو عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. والفرق بينه وبين الإلهام وجدان تستيقنه النفس، وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور[٨].

---

(٣)مناهل العرفان، محمد عبدالعظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج١،ص٦٣-٧٣.

(١) الوحي في القرآن الكريم، د. أمين محمد سلام المناسية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مجلد٢٠، ع٢-٢٠٠٤:ص: ٣٥٨.

(٤) عبد الرحمن حسن حبنكة١الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها،ط٣،دار القلم، دمشق،١٤٠٣ه/١٩٨٣م،ص٥٢٨ بتصرف فقد قدمت النبي على الرسول لسبق النبوة للرسالة .

(٥) المصدر السابق.

(٦) مناهل العرفان، محمد عبدالعظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج١،ص٦٣.

(٧) ذكره محمد رشيد رضا بأنه تعريف أستاذه للوحي. الوحي المحمدي،ص٤٥..

(٨) الوحي المحمدي،ص٤٥..

أنواع الوحي الإلهي:

تكرر وورود كلمة (الوحي) في القرآن الكريم كثيراً، فبلغ ثمانياً وسبعين مرة[٩]، والوحي جنس ونوع وصورة. فأجناسه اثنان، وأنواعه ثلاثة، وصوره أكثر من ذلك. وقد كشف، قوله تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الشورى : ٥١]، أن أنواع الوحي متنوعة، فهذا ما يخص البشر دون غيره ، فيتنوع الوحي بتنوع الموحى إليهم ، وأما الصور فهي تنوع المثال في طريقة الوحي للنوع الواحد ، فيمكن القول: بأن الوحي منه ظاهر، وخفي . ومنه متلو، وغير متلو؛ فالقرآن متلو، والسنة غير متلوة .

وإذا قلنا بالتعميم فإن أنواع الوحي هي:

الإلهام الفطري للإنسان . يقذفه الله تعالى في قلب مصطفاه على وجه من العلم الضروري .

الإلهام الغريزي للحيوان .

والإشارة السريعة من الإنسان.

الوحي النفسي [١٤].

والتبليغ بطرقه المختلفة مناماً ويقظةً .

وأما صور الوحي الإلهي إلى نبينا- ﷺ- فهي:

الرؤيا الصادقة .

ما يلقيه الملك في روعه.

أن يسمع كصلصلة الجرس .

مثل دوي النحل .

الملك بصورته الملائكية .

الملك بصورة بشرية معروفة.

الملك بصورة بشرية غير معروفة .

أن يأتيه الملك مناماً.

التكليم الإلهي يقظة(خلاف النوم). كقوله تعالى: { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء : ١٦٤].

ومن أدلته النقلية :

قول الله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)} [الحاقة : ٤٤ - ٤٦].

ومن الحديث:

ما ورد عن رسول الله-ﷺ- فيما رواه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله-ﷺ- فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله-ﷺ-: "أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس- وهو أشده علي- فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال . وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول" [١٨] .

---

(٩) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر- بيروت، ١٩٧٢م.

(١٤) وقد تكلم عليه محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدي بما لا مزيد عليه.

(١٨) البخاري حديث رقم (٢)وطرفه(رواية بلفظ آخر)رقم (٣٢١٥).

وقد روى الحديث أيضا الربيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن عائشة رضي الله عنها[١٩] .

الفرق بين الوحي والإلهام

من المعلوم عند المسلمين أن الوحي الذي هو أساس الأحكام قسمان: متلو وهو القرآن الكريم، وغير متلو وهو السنة النبوية الشريفة، وأما الإلهام فهو نوع من أنواع الوحي لكنه لا تنبني عليه الأحكام الشرعية وإليك بيان ذلك.

إن القرآن الكريم هو الأساس الذي بني عليه دين الإسلام، فهو المعجزة الخالدة، به نزل جبريل عليه السلام على رسول الله محمد ﷺ ليبلغه الناس، وكونه أساس حجية الأحكام عند المسلمين أمر مسلم لا يحتاج إلى تبيين .

وأما السنة النبوية الشريفة وأنها من أسس حجية الأحكام فتدل عليه الأدلة التالية:

ثبوت عصمة النبي ﷺ في التبليغ عن ربه في الكتاب والسنة.

تقرير الله تمسك الصحابة بالسنة، في عصره ﷺ[٢٠].

الكتاب الكريم لقوله تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف : ١٥٨].

السنة الشريفة نفسها كإخباره- ﷺ -وهو المعصوم من الكذب –بأنه قد أوحي إليه القرآن وغيره؛ وأن ما بينه وشرعه-من الأحكام-فإنما هو؛ بتشريع الله تعالى ومن عنده؛ وليس من عنده صلى الله عليه وسلم .

تعذر العمل بالقرآن وحده، إذ لا بد أن تبينه السنة.

السنة نفسها فإن منها ما يقصد به تشريع الأحكام ومنها ما لا يقصد به ذلك.

الإجماع[٢٢].

وأما بالنسبة للإلهام فإنه وإن كان نوعاً من أنواع الوحي فليس له حجة في بناء الأحكام عليه . وذلك لعدة أمور :

١- لم نجد في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ما يشير إلى أنه حجة.

٢- لم يرد عن سلف الأمة الصالح من اعتمده حجة.

٣- إجماع أمة الإسلام على عدم حجيته.

٤- لو قبل الناس الإلهام حجة لفتح باب لا يمكن إغلاقه لأن الكمال في الناس مستحيل، كما أن دعوى الإلهام دعوى واسعة تفتح باب الكذب والتزوير .

٥- قبول الإلهام يفتح بابا للشيطان على الناس.

وهكذا فإن الإلهام ليس حجة في بناء الأحكام عليه، لكن إذا صح الإلهام مع عدم المخالفة للشرع فقد يستفاد منه في بعض الهدايات والله أعلم .

---

(١٩) الجامع الصحيح(مسند الربيع بن حبيب)،ضبط وتخريج مجمد إدريس، مراجعة وتقديم عاشور بن يوسف، دار الحكمة،بيروت، ومكتبة الاستقامة،سلطنة عمان،ط١٤١٥،١ه/١٩٩٥م،حديث رقم٢، واللفظ الأول للبخاري حديث رقم(٢).

(٢٠) أنظر حجية السنة، عبدالغني عبدالخالق،(من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي)،ط١، دار القرآن الكريم: بيروت، ١٤٠٧ه/١٩٨٦م،ص٢٨٢ وما بعدها.

(٢٢) مختصراً من كتاب حجية السنة، عبدالغني عبدالخالق، ص٢٤٣-٣٨٢.

النبي والرسول والفرق بينهما

النبوة لغة : من النبأ، وهو الإخبار؛ وأيضاً هي بمعنى العلو والارتفاع[١]، وكلُّ رسولٍ نبيّ[٢]؛ والرسول لفظةٌ مشتقّةٌ من الإرسال، وتعني التوجيه والبعث [٣].

أما اصطلاحا : فقد اختلف أهل العلم فيها، وافترقوا على مذاهب:

أولاها : أنه لا فرق بين النبي والرسول، بل هو من قبيل الترادف، فيطلق النبي على الشخص الذي اصطفاه الله لإنذار قومه، والرسول تطلق عليه من جهة تكليفه بمهمة التبليغ والإرسال. وهو مذهبٌ ضعيف كما نصّ عليه القاضي عياض وبيّنه رحمه الله[٤].

ثانيهما : أن النبي لم يؤمر بالتبليغ، في حين أن الرسول هو المأمور بتبليغ شرعه، وهو قولٌ مخالفٌ للأدلة أيضا، فكلاهما مبلّغٌ عن الله تعالى.

ثالثهما : وهو مذهب جمهور أهل العلم، والذي نرجّحه، أن الرّسول هو المبعوث إلى قومٍ برسالة جديدة وشرعٍ جديد، في حين أن النبيّ هو مذَكِّرٌ لقومه برسالةٍ سابقةٍ، فيكون كلّ رسولٍ نبيّاً، وليس كلُّ نبيٍّ رسولا [٥].

و(الأنبياء) جمع نبي ويمد مهموزاً فيقال: نبيء ، كما هي قراءة ورش عن نافع في جميع القرآن أو في غالبه، وهو عائد إلى الاشتقاق الأول الذي تقدم في كلمة النبوَّة[٢٣].

شبه الجاحدين للوحي والرد عليها[٥٤]:

لقد تفنن الحاقدون من أعداء الإسلام. وما زالوا يخططون ويجددون وضع الشبه واختلاقها، وهذا لا يؤثر على عظمة دين الإسلام فتنبه! ومن ذلك قولهم:

١-لو كان الوحي ممكنا لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة، ولم يخص به عدداً قليلاً... ورده أن هذا من سذاجة القول فان الأعمال العادية التي يتفاوت الناس في إنجازها لا توكل أحياناً لكل الأفراد فكيف بالوحي وهو شديد الخطورة يحتاج إلى مؤهلات لا تتوفر إلا في نوادر البشر.

٢-إن الوحي الذي تدعونه، وتدّعون تنجيمه جاء بهذا القرآن غير مرتب، ولا منظم، فلم يفرد كل غرض من أغراضه بفصل أو باب...وهذا كلام من لا يعرف حقيقة القرآن الذي بهر نظمه وتنسيقه أصحاب الاختصاصات والفنون المختلفة في اللغة والحساب مع أن القرآن ليس كتاب تأليف، بل كتاب وحي ومنهج حياة، وأين موقعه إذا ما قورن بالكتب السماوية التي بين أيدي المدعين عليه.

---

(١)لسان العرب لابن منظور، الجزء ٧، مادة نبأ.

(٢) فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس.فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها"٢٤ ولننتقل الآن لبيان أجناس وأنواع وصور الوحي.

(٣)كتاب الشفا للقاضي عياض، ٢/ ٧٢٦.

(٤)المرجع السابق:٢/ ٧٢٩ فما فوقها.

(٥) انظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني، المجلد الأول، ص : ٤٩.

(٢٣) عقيدة المؤمن : أبو بكر الجزائري ، ص٢٥٨.

(٥٤) انظر: مناهل العرفان للزرقاني: ٧٦/١، وما بعدها بتصرف بسيط، وللتوسع: اقرأ في المجلد العاشر من مجلة الأزهر عام ١٣٥٨ه ما كتبه محمد فريد وجدي، وما كتبه الزرقاني في المجلد الخامس من مجلة الهدية الإسلامية عام ١٣٥١ه وما كتبه محمد عبدالله دراز في كتابه النبأ العظيم.

٣-اتهام النبي ﷺ بمرض الهستريا والهلوسة...ورده أن صاحب الهستريا والهلوسة لا يستطيع أن يحل مشاكله، ولا أن يقود نفسه!! والنبي -ﷺ- قاد أمة ونظم شعوبا وقضى على إمبراطوريات، وتحدى العباقرة الأصحاء.
٤-إنكم تستدلون على الوحي بإعجاز القرآن، وتستدلون على إعجاز القرآن بما فيه من أسرار، ونحن لا ندرك الإعجاز ولا تلك الأسرار٠٠٠وجوابه إنّ قِصَر أفهامكم، وضعف عقولكم حجة عليكم لا لكم.وقد أدرك ذلك أهل الاختصاص واعترفوا به.كما أن في القرآن ما تعرفون من أنواع الإعجاز ولا قدرة لكم على الوقوف أمامه. ٥-إعجاز القرآن بالعربية للعرب لا يدل على أنه وحي الله بل كلام محمد نسبه إلى ربه٠٠٠والرد على هذه الفرية كذبها القرآن بأسلوبه المتنوع؛ فمرة بألفاظ(قُل)، وأخرى بآيات العتاب، وأخرى بالنهي.ومن غير المعقول أن يأمر الإنسان نفسه وينتقدها ويفضحها أمام الناس، بل المعروف أن الإنسان يتستر على عيوبه ونقائصه ولا يكشفها للآخرين هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن محمداً – ﷺ- معروف للعرب الذين نشأ بينهم وتربى عندهم، وقام بخدمتهم فلِمَ لم يشهر كتابه ومؤلفه إلا بعد هذه المدة المديدة من الزمان وكذلك إن محمداً ﷺ ما كان يجيب على التساؤلات حتى يأتيه الوحي ويخبره بجواب الله عن تلك الأمور.كما أن أخبار القرآن فيها من أنواع الغيب المستقبلي فكيف يؤلف هذا ؟!ومزيداً على ذلك إعجاز الائتلاف الموجود في القرآن لم يشتمل عليه مؤلف لا قديماً ولا حديثاً ولا يمكن أن يحصل له مثيل في المستقبل.ألا تراه جمع في ثلاث وعشرين سنة دون أن يكون فيه اختلاف أو تعارض فافهم ؟! {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء : ٨٢]، وأين أنت من محمد ﷺ الذي اعترف بأمانته وطهره من عاصره وشب معه، فهو حرب على الكذب والخنا والفساد والجهالة.

من خلال ما تقدم يمكن استخلاص أنَّ الحاجة الماسة لوجود الوحي ملحة جداً لقطع الطريق على المعترضين من المغرضين.وذلك أن الوحي يعطي القول الفصل والحجة التي لا مزيد عليها لبيان الإله الحقيقي الذي يستحق العبادة، وبيان الحلال والحرام وما يحتاج إليه الناس في جميع شؤونهم دون الشعور بالظلم والتحيز والكيل بأكثر من مكيال.يضاف إلى ذلك حصول القناعة والرضا المترتبة حينما يثق الإنسان بأن هذا هو حكم الله تعالى، وليس حكماً قابلاً للنقض صدر من إنسان يعتوره الهوى وحب المصالح. فالله تعالى مبرأ من التحيز والظلم بخلاف البشر.

والقيام بأمر النبوة والرسالة وظيفة ثقيلة تحتاج إلى من يقدر على حملها، ومصداق ذلك قوله تعالى {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل : ٥]، والنبوة والرسالة يقدر عليها الرجال بصفة عامة أكثر من النساء لما يكتنفها من ظروف وأخطار المرأة في منأى عنها.وما ورد من أقوال بأن النبوة قد حصلت للنساء فأقوال فيها نظر لضعف المرأة عن هذه المهام الجسام إلا إذا اعتبرنا ذلك مقصوراً عليها وحدها.وعدم وقوعه هو الراجح عند جمهور العلماء، فالوحي إذن وظيفة شريفة يستحق من يتميز بها الطاعة والاحترام والتقدير والإجلال والنصرة والمتابعة.وهذا لايقدره إلا من خالطت بشاشة الإيمان قلبه فاستحق بذلك المغفرة والرحمة من الله

تعالى.وبعكسه من أنكر الوحي وكذب الأنبياء فعوقب بالنار والخلود الأبدي فيها وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه[1].

ثانيا:- نزول القرآن

يطلق الإنزال في اللغة على معنيين :-

أحدهما : الهبوط من علو : يقال : نزل فلان من الجبل ، ومنه قوله تعالى {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [الرعد : ١٧].

الثاني : الحلول : يقال : (نزل فلان بالمدينة)، أي: حلَّ بها[2]، ومنه قوله تعالى : {وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ} [المؤمنون : ٢٩].

وكلا المعنيين يشعر بالمكانية والجسمية فلا مجال لتحققهما في كلام الله ووحيه فالتعبير إذن هو من قبيل المجاز ولا يمكن حمله على الحقيقة وقد ذهب العلماء إلى أن إنزال القرآن فيها توجيهان :

أ- أن يقصد من إنزال القرآن إنزال حامله وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام .

ب- أن يقصد من الإنزال لازمة وهو الإعلام فمعنى إنزال القرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم- إيصاله إليه وإعلامه به .

واختير لفظ الإنزال أيضاً لحكمة عظيمة وهي بيان شرف هذا القرآن وعلو منزلته وأنه من العالم العلوي ومن هنا اختيرت لفظة الإنزال على لفظة الإعلام والإيصال قال تعالى {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الإسراء : ١٠٥] [3] .

تنزلات القرآن الكريم :

في هذه المسألة طرفان ، أحدهما متفق عليه ، والآخر مختلف فيه، أما الطرف المتفق عليه ، فهو أن القرآن لم ينزل على رسول الله ﷺ من السماء جملة واحدة ، بل كان ينزل الوحي به من عند الله ، مفرقا حسب الحوادث والأحوال.

وقد جاءت الآيات تقرر ذلك بوضوح تام لا لبس فيه ، وتقرر حكمة النزول على تلك الصفة:

١- قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان : ٣٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله - : " لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن ازداد طمأنينةً وثباتاً ، وخصوصاً عند ورود أسباب القلق ؛ فإن نزول القرآن عند حدوث السبب ، يكون له موقع عظيم ، وتثبيت كثير ، أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك ثم تذكره عند حلول سببه.

{وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا}، أي : مهلناه ودرجناك فيه تدريجاً ، وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن، وبرسوله محمد ﷺ ، حيث جعل إنزال كتابه جارياً على أحوال الرسول ومصالحه الدينية "[4].

---

(١) انظر: مَنْهَجِيَّةُ البَحْثِ في التَّفْسِيرُ المَوْضُوعِي للكلمة، والآية، والسورة القرآنية، د. أمين محمد سلام المناسية البطوش(بحث منشور في الشبكة الالكترونية(بتصرف بسيط).

(٢) المعجم الوسيط – د. إبراهيم أنيس – ٩٥١/٢ .

(٣) انظر: إتقان البرهان: ص ١٤٦ وما بعدها .

(٤) تفسير السعدي: ٥٨٢.

٢- قال تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء : ١٠٦].
قال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله - : " {عَلَى مُكْثٍ} على مهل ، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه ويستخرجوا علومه، {وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً}، شيئًا فشيئًا مفرَّقًا في ثلاث وعشرين سنَة"[١].

ومما يؤكد نزول القرآن مفرَّقاً : انقطاع الوحي في حادثة الإفك التي اتهمت فيها عائشة رضي الله عنها بالزنى ، وقد انتظر النبي ﷺ نزول القرآن ؛ لعظيم وقع المصيبة بتهمة زوجه حتى نزل قوله {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النور : ١١].

ومما يؤكد نزول القرآن مفرَّقاً – أيضاً - : الآيات الأولى من سورة " عبس " ؛ وذلك عندما أعرض النبي ﷺ عن تعليم ابن أم مكتوم الأعمى طمعاً في إسلام كبار قريش.

وأما الذي وقع الخلاف فيه ، فهو أول وأصل نزول القرآن : هل نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم نزل على الرسول ﷺ مفرقا ، أو كان نزوله على صفة واحدة ، مفرقا حسب الوقائع ، كما سبق.

وسبب ذلك الخلاف هو فهم بعض الآيات التي تدل على نزول القرآن في وقت واحد ، مثل قوله تعالى:{ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ }[البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى:{ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}[القدر: ١]، مع تصريح ابن عباس رضي الله عنه بذلك الفهم.

وقد اختلف العلماء في هذا النزول على أقوال:

أولها : أن القرآن قد نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملةً واحدة ، ثم نزل بعد ذلك منجَّماً في ثلاث وعشرين سنة. قاله ابن عباس وهو قول الأكثرين. وهو الراجح.
قال عنه الزركشي" إنه أشهر وأصح وإليه ذهب الأكثرون"[٢].

ووصفه ابن حجر بأنه: "الصحيح المعتمد"[٣]. وقال ذلك عنه -أيضا- القسطلاني في لطائف الإشارات[٤].

وذكر السيوطي أن القرطبي حكى الإجماع على أنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا[٥].

وحكاية الإجماع في ذلك لا تصح لوجود المخالف في ذلك وتعدد المذاهب فيه.

وأدلة هذا القول:

١-أنه ظاهر الآيات الثلاث في قوله تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } [القدر:١] وقوله سبحانه: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة } [الدخان: ٣] وقوله جل وعلا: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } [البقرة: ١٨٥].

فقد دل ظاهر هذه الآيات الثلاث أن القرآن الكريم أنزل جملة في ليلة واحدة توصف بأنها مباركة من شهر رمضان. وهذا وصف مغاير لصفة نزول القرآن الكريم على الرسول صلى الله

---

(١)تفسير السعدي: ٤٦٨.
(٢) البرهان: ٢٢٨/١.
(٣) فتح الباي: ٤/٩.
(٤) انظر: لطائف الإشارات:٢٢.
(٥)الإتقان (١ / ١٤٨)، ومناهل العرفان (١ / ٣٩)، تفسير القرطبي (٢ / ٢٩٧).

عليه وسلم حيث إنه من المعلوم المقطوع به أن القرآن نزل على الرسول ﷺ منجما مفرقا في نحو ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث.

فتعين أن يكون هذا النزول الذي دل عليه ظاهر الآيات نزولا آخر غير النزول المباشر على النبي ﷺ.

٢- أنه صريح الآثار الواردة عن ابن عباس، والتي لها حكم الرفع إلى الرسول ﷺ، ومن الأخبار التي استند إليها أصحاب هذا المذهب :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة". ثم قرأ : {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان : ٣٣]، {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء : ١٠٦]"[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبي ﷺ ويرتله ترتيلا "[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:"أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ونزله جبريل على محمد ﷺ بجواب كلام العباد وأعمالهم"[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض قال الله

---

(١)أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٣٦٨)، وانظر طبعة المغرب بتحقيق أحمد الخياطي (٢ / ٢٠٢) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢ / ٢٢٢) و(٢ / ٣٦٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١ / ٣٦٨) وشعب الإيمان (٢ / ٤١٥) رقم ٢٢٤٩، والنسائي في التفسير (٢ / ١٣١) رقم ٣٩٢ وقال المحقق صحيح. وأخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥ / ١٧٨) و(٣٠ / ٢٥٨). وانظر: فضائل القرآن للنسائي (٥٩)، وابن الضريس (٧٢). والمرشد الوجيز (١٤-) وذكره ابن كثير في فضائل القرآن (٦) عن أبي عبيد ثم قال: هذا إسناد صحيح.

وقال أبو عبيد : ولا أدري كيف قرأ يزيد في حديثه "فرقناه" مشددة أم لا؟ إلا أنه لا ينبغي أن تكون على هذا التفسير إلا بالتشديد "فرقناه".

وقراءة الجمهور بالتخفيف، وقرأ بالتشديد أبي، وعبد الله بن مسعود وعلي وابن عباس، وأبو رجاء وغيرهم. انظر تفسير ابن جرير (١٥ / ١٧٨)، والبحر المحيط (٦ / ٨٧). ومعجم القراءات القرآنية (٣ / ٣٤٢).

(٢)أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١ / ٣٦٨)، والطبراني في الكبير (١٢ / ٢٦) رقم ١٢٣٨١، والحاكم في المستدرك (٢ / ٢٢٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وأخرجه النسائي في فضائل القرآن (٥٩-٦٠) وزاد في آخره: قال سفيان: خمس آيات، ونحوها. وانظر المرشد الوجيز لأبي شامة (٢٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه (١ / ٤٥٧) وزاد نسبته للفريابي وابن جرير ومحمد بن نصر وابن مردويه والضياء المقدسي في المختارة. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ١٥٧) وقال: رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف.

(٣)أخرجه الطبراني في الكبير (١٢ / ٢٦) رقم (١٢٣٨٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ١٤٠) وقال عنه: رواه الطبراني والبزار باختصار ورجال البزار رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني عمرو بن عبد الغفار وهو ضعيف. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨ / ٥٦٧) وزاد نسبته لابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل.

تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان : ٣٢]"[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي رَمَضَانَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً، ثُمَّ أُنْزِلَ نُجُومًا" [٢] .

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل القرآن إلى السماء الدنيا في ليلة القدر فكان الله إذا أراد أن يوحي منه شيئا أوحاه أو أن يحدث منه شيئا أحدثه"[٣].

وعن مقسم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: سأله عطيه بن الأسود فقال: إنه وقع في قلبي الشك في قوله تعالى: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } [البقرة: ١٨٥] وقوله: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } [القدر: ١] وقوله: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة } [الدخان: ٣] وقد أنزل في شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، وشهر ربيع الأول؟ فقال ابن عباس - رضي الله عنهما-: إنه أنزل في رمضان، وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة؛ جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلا [٤]في الشهور والأيام"[٥].

وعن سعيد بن جبير قال: "نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان فجعل في بيت العزة، ثم أنزل على النبي ﷺ في عشرين سنة جواب كلام الناس"[٦].

وعن سعيد بن جبير أيضا قال: "نزل القرآن جملة من السماء العليا إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم نزل مفصلا"[٧].

وعن الربيع بن أنس في قوله: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } قال: "أنزل الله القرآن جملة في ليلة القدر كله"[٨].

---

(١)أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١ / ٣٦٧) وفي شعب الإيمان (٣ / ٣٢٠) رقم (٣٦٥٩)، والحاكم في المستدرك (٢ / ٢٢٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه. وابن الضريس في فضائل القرآن (٧٢). وذكره أبو شامة في المرشد الوجيز (١٧) وذكر السيوطي -نحوه- في الدر المنثور وزاد نسبته لابن جرير وابن مردويه ومحمد بن نصر والطبراني وأخرجه النسائي في تفسيره (٢ / ٥٣٩) رقم (٧٠٩) وقال المحقق: صحيح

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١ / ٢٤٧) رقم (١١٨٣٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ١٤٠) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

(٣)أخرجه النسائي في فضائل القرآن (٥٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١ / ٣٦٨). والحاكم في المستدرك (٢ / ٢٢٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي وأخرجه ابن الضريس بنحوه في فضائل القرآن (٧١-).

(٤)رسلا: قطعة قطعة وفرقة فرقة. انظر: حاشية تفسير الطبري (٣ / ٤٤٦).

(٥)أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١ / ٣٦٩-) وأخرجه الطبري في تفسيره بسنده (٣ / ٤٤٨) ولم يسم فيه السائل. وأخرجه الطبراني في الكبير (١١ / ٣٠٩) رقم (١٢٠٩٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٣١٦) وقال عنه: وفيه سعد بن طريف وهو متروك. وذكره السيوطي في الدر المنثور (١ / ٤٥٦) وزاد نسبته لابن أبي حاتم، وابن مردويه، ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة.

(٦)أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٧٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (١ / ٤٥٧) ولم ينسبه لغير ابن الضريس.

(٧)أخرجه سعيد بن منصور في سننه بسنده (٢ / ٢٩٤) رقم (٧٩) وفيه حكيم بن جبير ضعيف. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧ / ٣٩٩) ولم ينسبه لغير سعيد بن منصور.

(٨)أخرجه عبد بن حميد كما ذكر السيوطي في الدر المنثور (٨ / ٥٦٧).

وعن إبراهيم النخعي في قوله عز وجل: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة } قال: "أنزل جملة على جبريل عليه السلام، وكان جبريل يجيء بعد إلى محمد ﷺ"[١].

ووجه الاستدلال بهذه الأحاديث والآثار التي أخرجها الأئمة وصححوا بعضها، والتي يعضد بعضها بعضا أنها وإن كانت موقوفة في جملتها على ابن عباس رضي الله عنهما فإن لها حكم الرفع إلى النبي ﷺ لأن قول الصحابي الذي لا يأخذ عن الإسرائيليات، فيما لا مجال للرأي فيه له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ وابن عباس لن يقول ما قال من هذا التفصيل والتحديد بمحض رأيه ومن عند نفسه فهو إذا محمول على سماعه من النبي ﷺ أو ممن سمعه منه من الصحابة والصحابة كلهم عدول.

٣-عدم معارضته للقول الثاني مع توجيه أدلة هذا القول والرد عليها.

٤-ضعف الأقوال الأخرى.

٥-انتفاء المحذور العقدي بالتصريح بسماع جبريل للقرآن من الله عز وجل دون واسطة.

٦-شهرة القول وكثرة القائلين به، والمصححين له، حتى حكى القرطبي[٢] الإجماع عليه.

القول الثاني : أنه ابتُدئ إنزال القرآن في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجَّما في أوقات مختلفة حسب الحوادث والوقائع وحاجات الناس ، وهذ قول التابعي الجليل الشعبي[٣]، ومحمد ابن إسحاق[٤]، واختاره النسفي[٥].

وأدلتهم[٦]:

١- الواقع الفعلي لنزول القرآن الكريم على الرسول ﷺ وأنه نزل منجما مفرقا حسب الحوادث والوقائع على نحو من ثلاث وعشرين سنة.

٢-قوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء : ١٠٦]، فصريح القرآن، وواقع نزوله يدل على تنجيمه وتفريقه.

٣-أن الآيات الثلاث الواردة في وصف نزول القرآن المراد بها ابتداء نزول القرآن الكريم على الرسول ﷺ وأنه ابتدأ نزوله في ليلة القدر من شهر رمضان وهي الليلة المباركة وفي هذا جمع بين هذه الآيات وقوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} [الإسراء : ١٠٦] .

٤-أن ما جاء من الآثار الدالة على نزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا وإن كانت صحيحة الإسناد فهي موقوفة على ابن عباس وغير متواترة. وهذه مسألة غيبية عقدية ولا يؤخذ في الغيبيات إلا بما تواتر يقينا في الكتاب والسنة فصحة الإسناد لا تكفي وحدها لوجوب اعتقاده. فكيف وقد نطق القرآن بخلافه.

---

(١)أخرجه سعيد بن منصور في سننه بسنده (٢ / ٢٩٢) رقم (٧٨) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧ / ٣٩٩) ولم ينسبه لغير سعيد بن منصور.

(٢)الإتقان (١ / ١٤٨)، ومناهل العرفان (١ / ٣٩)، تفسير القرطبي (٢ / ٢٩٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري: ٥٣١/٢٤.

(٤) نسبه له الفخر الرازي في تفسيره :٥ / ٨٥.

(٥)انظر تفسيره:١ / ٩٤، حيث قال: "{ الذي أنزل فيه القرآن}: أي ابتدئ فيه إنزاله وكان في ليلة القدر.."، وأشار إلى الإنزال جملة بصيغة التضعيف في تفسير سورة القدر (٤ / ٣٧٠) فقال: "روي أنه أنزل جملة".

(٦)انظر: مباحث في علوم القرآن. د. صبحي الصالح. (٥١) وتفسير جزء «عم» للشيخ محمد عبده ص(١٢٢) ط. بولاق.

وهذا القول قول قويّ، إلاّ أنّه يُردّ من أوجه ثلاثة:
الأوّل: أنّ أثر الشّعبي رحمه الله رواه عنه الطّبري[١]، بإسناد ضعيف، ففيه:
أ- عمران أبو العوّام، وهو صدوق يهم[٢].
ب- وفيه عمرو بن عاصم الكلابي، فهو صدوق في حفظه شيء[٣].
الثّاني: أنّ الثّابت عن الشّعبي هو ما يوافق الجمهور، رواه عنه الطّبري بإسناد صحيح[٤].
الثّالث: أنّه مخالف لما ذكره ابن عبّاس رضي الله عنه، وأقوال الصّحابة هي الحجّة في كلّ باب عند انعدام النّصوص.
الرابع: كما يجاب على أدلة القول الثاني - على سبيل الإيجاز - بما يأتي:
١-أن صفة نزول القرآن المباشر على الرسول ﷺ وكونه نزل عليه مفرقا، وكونه صريح قوله تعالى: { وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث } هو محل إجماع ولا خلاف حوله ولا يعارض النزول جملة.
٢-القول بأن المراد بالآيات الثلاث من سور البقرة، والدخان، والقدر، هو ابتداء النزول؛ هو صرف لها عن ظاهرها بغير صارف ويجعلها تحتاج إلى تقدير محذوف. فقوله تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } أي ابتدأنا إنزاله. وهو يقتضي حمل القرآن على أن المراد به بعض أجزائه وأقسامه[٥] فقوله تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } أي أنزلنا بعضه.
٣-أن القول بأن المسألة عقدية لا بد لها من أدلة متواترة قطعية الثبوت لإفادة العلم اليقيني ولا يكفي فيها الآثار الموقوفة؛ قول غير مسلم. واستبعاد الاستدلال بأحاديث الآحاد على العقائد غير صحيح فالعبرة بصحة الحديث فمتى صح الحديث احتج به سواء كان آحادا أم متواترا وسواء كان في الأحكام أم العقائد[٦].
القول الثالث: أنّه نزل إلى السماء الدّنيا في ثلاث وعشرين ليلةِ قدر، في كلّ ليلة ينزل ما يقدّر الله إنزاله تلك السّنة.
وهذا قول ابن جريج[٧]، وأبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي[٨]، ومقاتل بن حيان[٩]،وقال بنحوه مقاتل بن سليمان [١]، ونسبه السيوطي للفخر الرازي[٢]، كما ينسب هذا القول في كثير من كتب علوم القرآن للماوردي[٣].

---

(١)انظر: تفسير الطبري: ٥٣١/٢٤.
(٢)كما في "التّقريب" (٨٣/٢).
(٣)كما في "التّقريب" (٧٢/٢).
(٤) انظر: تفسير الطبري(٢٨٢٠):ص٤٤٧/٣، و:ص٥٣٢/٢٤، ولفظه:" "بلغنا أن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا". كما عد السخاوي في جمال القراء:٢٠/١، الشعبي من القائلين بالقول الأول مع ابن عباس وابن جبير .
(٥) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٥/٥.
(٦)انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم (٥٢).
(٧)انظر: تفسير الطبري (٣ / ٤٤٧). وتفسير أبي الليث السمرقندي (١ / ٥٦٣) والدر المنثور للسيوطي (١ / ٤٥٧).
(٨) قاله في كتابه المنهاج (٢ / ٢٣٤-)، وانظر: البرهان (١،٢٢٩)، ولطائف الإشارات للقسطلاني (١ / ٢٢)، والمرشد الوجيز (١٩).
(٩)انظر: الإتقان للسيوطي (١ / ١٤٨)، والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي (١ / ٢١٥) بتحقيق د.محمد صفاء حقي. رسالة ماجستير غير منشورة. قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين. الرياض.

وهذا القول ضعيف مدفوع أيضا بمذهب الصّحابيّ.
قال عنه ابن حجر : "وهذا أورده ابن الأنباري من طريق ضعيفة ومنقطعة أيضا" [٤].
وقال عنه القرطبي : "قلت: وقول مقاتل هذا خلاف ما نقل من الإجماع "أن القرآن أنزل جملة واحدة" [٥].
وحكاية القرطبي للإجماع هنا غير مسلمة لما علمته من الأقوال في ذلك.
القول الرابع: أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل نجمه على النبي ﷺ في عشرين سنة. حكاه بعض المفسرين عن ابن عباس[٦].
قال ابن حجر:" وهذا -أيضا- غريب"[٧].
وقال أبو شامة:" وهو قول مردود لأنه ليس بين الله وجبريل واسطة في تلقي القرآن الكريم"[٨].
وقال ابن العربي متعقبا هذا القول: "ومن جهلة المفسرين أنهم قالوا: إن السفرة ألقته إلى جبريل في عشرين ليلة وألقاه جبريل إلى محمد - عليهما السلام - في عشرين سنة وهذا باطل، ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد صلى الله عليهما واسطة"[٩].
وقد نقل أبو شامة في المرشد الوجيز عن تفسير علي بن سهل النيسابوري عن جماعة من العلماء أن جبريل هو من أملاه على السفرة. قال: "قال جماعة من العلماء: تنزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزة، فحفظه جبريل عليه السلام، وغشي على أهل السماوات من هيبة كلام الله فمر بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا: { ماذا قال ربكم قالوا الحق } [سبأ: ٢٣] يعني القرآن وهو معنى قوله: { حتى إذا فزع عن قلوبهم }

---

(١)انظر: حاشية المرشد الوجيز بتحقيق طيار آلتي قولاج (١٨). وتفسير مقاتل بن سليمان (١ / ٢٢خ)، وتفسير أبي الليث السمرقندي (١ / ٥٦٢).
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٨٥/٥. وهي نسبة غير محررة فقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره هذا القول وجعله محتملا، وتوقف في الترجيح بينه وبين القول بنزوله جملة واحدة من اللوح المحفوظ ثم نزوله منجما بعد ذلك. لكنه في موضع آخر وبعد صفحة واحدة رجح القول الثاني. فقال: "..التنزيل مختص بالنزول على سبيل التدريج والإنزال مختص بما يكون النزول فيه دفعة واحدة، ولهذا قال الله تعالى: { نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل } إذا ثبت هذا فنقول: لما كان المراد ههنا من قوله تعالى: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } . نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. لا جرم ذكره بلفظ الإنزال دون التنزيل وهذا يدل على أن هذا القول راجح على سائر الأقوال".
(٣) انظر: المرشد الوجيز لأبي شامة (١٨،١٩)، والبرهان (١ / ٢٢٩)، والإتقان (١ / ١٤٨)، والزيادة والإحسان لابن عقيلة (١ / ٢١٥)، وهي نسبة غير محررة من حيث تحديد القول، وتعيين القائل.
(٤) فتح الباري (٩ / ٤)، ونقله القسطلاني في لطائف الإشارات (١ / ٢٢).
(٥) تفسير القرطبي (٢ / ٢٩٨)، وانظر الإتقان (١ / ١٤٨).
(٦)انظر:الدر المنثور: ٣٤٥/٥، وحكاه الماوردي عن ابن عباس في النكت والعيون (٦ / ٣١١)، وابن كثير في تفسيره:٥٤٤/٧، الإتقان: السيوطي: ج١ ص٥٤. وأخرجه - بنحوه - ابن أبي حاتم، وانظر الزيادة والإحسان (٢١٨/١،١٧٢) .
(٧)فتح الباري لابن حجر (٩ / ٤-)، ونقل القسطلاني كلام ابن حجر في كتابه لطائف الإشارات (١ / ٢٢).
(٨) المرشد الوجيز: ١٩.
(٩)أحكام القرآن لابن العربي (٤ / ١٩٦١-) وانظر تفسير القرطبي (٢٠ / ١٣٠).

[سبأ: ٢٣] فأتى به جبريل إلى بيت العزة فأملاه جبريل على السفرة الكتبة. يعني الملائكة وهو قوله تعالى: { بأيدي سفرة }{ كرام بررة } [عبس: ١٥-١٦]"[١].

وذهب إلى هذا المعنى من إملاء جبريل القرآن على السفرة علم الدين السخاوي في جمال القرآن في معرض حديثه عن حكمة إنزاله جملة فقال: "..وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه على السفرة الكرام البررة -عليهم السلام- وإنساخهم إياه، وتلاوتهم له" [٢] فيكون قولا خامسا.

وقد حاول ابن عقيلة المكي الإجابة عما تضمنه ذلك الخبر من عدم أخذ جبريل للقرآن من الله. فقال بعد أن ساق الخبر:"فهذا يقضي أن جبريل ما أخذه إلا عن السفرة. قلت: لا تنافي، لاحتمال أن جبريل -عليه السلام- سمعه من الله سبحانه وتعالى كما تقدم بصفة التجلي فعلمه جميعه ثم أمره الله أن يأخذه من اللوح المحفوظ فيضعه في بيت العزة عند السفرة، ثم أمر الله سبحانه وتعالى السفرة أن تنجمه على جبريل عليه السلام في عشرين ليلة لكل سنة ليلة وإنما كان التنجيم من السفرة على جبريل لما ذكره الحكيم الترمذي : إن سر وضع القرآن في السماء الدنيا ليدخل في حدها لأنه رحمة لأهلها. فأخذ جبريل عن السفرة إشارة إلى أنه صار مخصوصا بهم فلا يؤخذ إلا عنهم"[٣].

ولا يخفى ما في هذا القول الأخير من ضعف، في كون جبريل عليه السلام يأخذ القرآن إلى السفرة ثم يأخذه منهم؛ ، دون إنكار صلة السفرة بالقرآن، قال تعالى: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)} [عبس : ١٣ - ١٦].

والاتفاق حاصل والإجماع قائم على صفة نزول القرآن الكريم المباشر على الرسول ﷺ وأنه نزل منجما مفرقا من بعثته ﷺ إلى قرب وفاته ينزل أحيانا ابتداء بغير سبب وهو أكثر القرآن الكريم وأحيانا أخرى ينزل مرتبطا بالأحداث والوقائع والأسباب.

وأما نزوله جملة فهو ظاهر القرآن في قوله تعالى: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } وقوله: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة } وقوله سبحانه: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } فهو أنزل في ليلة اسمها ليلة القدر، وصفتها أنها مباركة، وشهرها شهر رمضان. وهو صريح الأخبار الواردة عن ابن عباس، والتي لها حكم الرفع إلى الرسول ﷺ.

وما دام أن النزول جملة لا يعارض صراحة النزول السابق، ولا يرتبط به من خلال تلك النصوص. بل هو نزول خاص، ووجود معين حيث القرآن الكريم كلام الله ومنزل من عند الله يتلقاه جبريل عليه السلام من الله بلا واسطة عند نزوله به على الرسول ﷺ مباشرة.

وإن كان قد نزل به إلى بيت العزة فذلك نزول خاص. وأحد وجودات القرآن الكريم المتعددة. حيث يوجد القرآن الكريم في اللوح المحفوظ[٤].

ويوجد - أيضا - في الصحف المطهرة الموجودة في أيدي الكرام البررة من الملائكة كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)} [عبس : ١١ - ١٦].

---

(١) المرشد الوجيز (٢٣)، وانظر تفسير القرطبي (٢٠ / ١٣٠).

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي (١ / ٢٠).

(٣) الزيادة والإحسان لابن عقيلة (١ / ١٧٢) بتحقيق: د. محمد صفاء حقي

(٤) عد الشيخ عبد العظيم الزرقاني هذا الوجود تنزلا. وجعله التنزل الأول والصواب أنه وجود إذ لم يرد لفظ النزول مقترنا به فلا يصح أن يعد نزولا أو تنزلا. وانظر: المدخل لدراسة القرآن للشيخ محمد أبو شهبة (٤٧).

ويوجد - كذلك - في بيت العزة من السماء الدنيا كما دلت على ذلك الأخبار عن ابن عباس . وجائز أن يكون الوجودان الأخيران مختلفين متغايرين وجائز أن يكونا وجودا واحدا بأن يكون القرآن الكريم في تلك الصحف في بيت العزة وبأيدي أولئك الملائكة الكرام كما يوجد في الأرض بنزوله على الرسول ﷺ والنزول مقترن بما عدا الأول من الوجودات المذكورة.

يقول البيهقي - رحمه الله -: "وقوله تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } يريد به والله أعلم إنا أسمعناه الملك، وأفهمناه إياه، وأنزلناه بما سمع فيكون الملك منتقلا به من علو إلى سفل"(١).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بعد عرض قرر فيه أن القرآن الكريم كلام الله منزل من عند الله كما هو صريح القرآن، قال: "فعلم أن القرآن العربي منزل من الله لا من الهواء، ولا من اللوح، ولا من جسم آخر، ولا من جبريل، ولا من محمد، ولا غيرهما، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك (٢) فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيرا منه من هذا الوجه.

ثم قال : "وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس وغيره من السلف في تفسير قوله: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } أنه أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث. ولا يتنافى أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله، كما قال تعالى: { بل هو قرآن مجيد }{ في لوح محفوظ } وقال تعالى: { إنه لقرآن كريم }{ في كتاب مكنون }{ لا يمسه إلا المطهرون } وقال تعالى: { كلا إنها تذكرة }{ فمن شاء ذكره }{ في صحف مكرمة }{ مرفوعة مطهرة }{ بأيدي سفرة }{ كرام بررة } . وقال تعالى: { وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم } . فإن كونه مكتوبا في اللوح المحفوظ وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك وإذ كان قد أنزله مكتوبا إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله..."(٣).

فعلى هذا الوجه لا إشكال في القول بأن للقرآن تنزلين: نزول جملة، ونزول مفرق، ولا يترتب عليه محذور. وإنما يقع المحذور ويحصل الإشكال في القول بأن جبريل يأخذ القرآن من الكتاب أو من بيت العزة عند نزوله به على الرسول ﷺ من دون سماع من الله تعالى. كما نقل أبو شامة عن الحكيم الترمذي - في معرض حديثه عن حكمة نزول القرآن جملة - قوله: "ثم أجرى من السماء الدنيا الآية بعد الآية عند نزول النوائب.."(٤).

وكما قد يفهم من ظاهر بعض الآثار فمثل هذا القول، ومثل هذا الفهم للقول بأن للقرآن تنزلين؛ لا يصح. فهو أولا لم يرد في تلك النصوص المفسرة والمفصلة لنزول القرآن جملة. وثانيا أنه يلزم منه أن جبريل عليه السلام لم يسمع القرآن من الله عز وجل وأن القرآن نزل من مخلوق لا من الله وهذا باطل.

---

(١)كتاب الأسماء والصفات للبيهقي (١ / ٣٦٢).

(٢)إشارة إلى قوله تعالى: والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين الأنعام، من الآية / ١١٤.

(٣)الفتاوى لابن تيمية (١٢ / ١٢٦-)

(٤)المرشد الوجيز (٢٦).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله:"والنبي ﷺ سمعه من جبريل، وهو الذي نزل عليه به، وجبريل سمعه من الله تعالى، كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة. قال تعالى: { قل نزله روح القدس من ربك بالحق } فأخبر سبحانه أنه نزله روح القدس وهو الروح الأمين، وهو جبريل من الله بالحق.." [١].

وذكر ابن تيمية عن أبي حامد الإسفرائيني قوله: "مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال: مخلوق فهو كافر، والقرآن حمله جبريل مسموعا من الله، والنبي ﷺ سمعه من جبريل، والصحابة سمعوه من رسول الله ﷺ وهو الذي نتلوه نحن بألسنتنا، وفيما بين الدفتين، وما في صدورنا: مسموعا، ومكتوبا، ومحفوظا.." [٢].

فالقرآن كلام الله لفظه ومعناه سمعه منه جبريل، وبلغه عن الله إلى محمد، ومحمد سمعه من جبريل وبلغه إلى أمته، فهو كلام الله حيث سمع، وكتب، وقرئ، كما قال تعالى: { وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه } [٣].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أيضا :"ومن قال إن جبريل أخذ القرآن من الكتاب لم يسمعه من الله كان هذا باطلا من وجوه: منها أن يقال إن الله سبحانه وتعالى قد كتب التوراة لموسى بيده فبنو إسرائيل أخذوا كلام الله من الكتاب الذي كتبه هو سبحانه وتعالى فيه فإن كان محمد أخذه عن جبريل، وجبريل عن الكتاب كان بنو إسرائيل أعلى من محمد بدرجة"[٤].

وقد أبان الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - مذهب أهل السنة فقال: "فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة أن الله تعالى لم يزل متكلما إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وأن جبريل عليه السلام، سمع القرآن الكريم من الله تعالى وبلغه محمد ﷺ"[٥].

وهذا الخلاف – كما ترى – ليس له كبير أثر في واقع تنزيل القرآن على النبي ﷺ ، وقد قيل إن هذا التنزيل سببه إظهار كرامة القرآن وعظيم منزلته في العالَم العلو.

قال بدر الدين الزركشي – رحمه الله – : " فإن قيل : ما السر في إنزاله جملة إلى السماء ؟

قيل : فيه تفخيم لأمره وأمر مَن نزل عليه ، وذلك بإعلان سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم"[٦].

والراجح أن القرآن الكريم له تنزلان :-

الأول : نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا .

الثاني : نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرقاً منجماً في نيف وعشرين سنة [٧] .

الحكمة من تنجيم القرآن :

إن لتنجيم القرآن الكريم حكم، نذكر منها:

---

(١)الفتاوى (١٢ / ٢٩٨) باختصار.
(٢)الفتاوى (١٢ / ٣٠٦).
(٣)المصدر السابق (١٢ / ٥٦٦).
(٤)الفتاوى (١٢ / ١٢٧-)
(٥)الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم للعلامة الشيخ محمد بن إبراهيم، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، عام ١٣٦٩هـ:ص٣.
(٦)البرهان في علوم القرآن : ١ / ٢٣٠.
(٧) مباحث في علوم القرآن – مناع القطان – ص ١٠٤ .

الحكمة الأولى : تثبيت فؤاد النبي وذلك من خلال الآتي :-
أ- أن في تجدد الوحي ، وتكرار نزوله من جانب الحق إلى رسوله يملأ قلب الرسول الكريم سروراً ، ويشعر بالعناية الإلهية .
ومما لا شك فيه أن كثرة نزول الوحي أقوى بالقلب وأشد عناية بالمرسل إليه، فيحصل للنبي ﷺ الأُنْس والارتباط بالله تعالى يقول الإمام أبو شامة (١):كك "فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقائه جبريل" (٢).
ومنها تسليته ﷺ ببيان ما يثبت قلبه على الحق ويشحذ عزمه للمضي قدمًا في طريق دعوته لا يبالي بظلمات الجهالة التي يواجهها من قومه، فما حصل للنبي محمد ﷺ قد حصل للأنبياء السابقين قال تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف : ٦] {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)} [الأنعام : ٣٣ - ٣٤]، وكلما اشتد أذى المشركين للرسول ﷺ نزلت الآيات لطمأنة الرسول ﷺ وتسليته، وتهديد المشركين والمكذبين بأن الله يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أشد الجزاء، قال تعالى: {فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [يس : ٧٦]، {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يونس : ٦٥]، {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} [المزمل : ١٠]، {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف : ٣٥]، {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} [النحل : ١٢٧]، {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [هود : ١١٥]، فكان لاتصال الوحي بالرسول ﷺ وتتابع نزول الآيات عليه تسليةً له بعد تسلية تشد من أزره وتحمله على الصبر والمصابرة، وكان لذلك أبلغ الأثر في مواساته والتخفيف عنه، ولو أن القرآن نزل جملةً واحدة لكان لانقطاع الوحي بعد ذلك أثر كبير في استشعار الوحشة والغربة.
ب- ومنها تسليته ﷺ بذكر قصص الأنبياء السابقين، قال تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود : ١٢٠]، {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف : ١١١]، {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف : ٣٥].
ج- أن في التنجيم تيسيراً عليه من الله في حفظه وفهمه ومعرفة أحكامه وحكمه .

---

(١) أبو شامة هو العلامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي أبو القاسم شهاب الدين، فقيه شافعي له كتاب (المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز)، وكتب أخرى، توفي سنة ٦٦٥ه، انظر الأعلام ٢٩٩.
(٢) انظر البرهان ١ ٢٣١، الإتقان ١ ١٢١.

فقد نزل القرآن مفرقًا لكي يسهل حفظه وفهمه، فكانت الآيات تنزل على النبي محمد ﷺ وكان النبي يعلمها أصحابه فكلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة، وتدبروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها [١] بل صار الصحابة والتابعون يعلمون من بعدهم بنفس الطريقة فصارت سنة متبعة فعن أبي العالية الرِّياحي [٢] أنه قال "تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن رسول الله ﷺ كان يأخذه خمسًا خمسًا "[٣].

وقال عبد الله بن مسعود "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن" [٤].

وفي بعض الروايات أن أبا عبد الرحمن السلمي [٥] قال حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا [٦].

ثم إن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة للكُتَّاب على ندرتهم، فلو أنزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه وكتابته، فاقتضت حكمة الله العليا أن ينزله إليهم مفرقًا ليسهل عليهم حفظه ويتهيأ لهم استظهاره[٧].

د- أن هذا التنزيل فيه نوع من الإعجاز ، حيث تحدى كفار قريش في كل مرة أن يأتوا بمثل هذا التنزيل – ولا شك أن هذه المعجزة تقوي أزر الرسول الكريم .

قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)} [الطور : ٣٣ - ٣٤]، وقوله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود : ١٣]، وقال: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة : ٢٣].

هـ- أن في هذا النزول دحض شبهات كفار قريش ورداً على أسئلتهم ، وتسلية للرسول الكريم وتأييداً له .

فالمشركين تمادَوا في غيهم وأسئلتهم للرسول ﷺ فكانوا يسألون الرسول ﷺ أسئلة تعجيز وتحد ومبالغة مثل متى الساعة، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}[الأعراف:١٨٧]، فينزل الجواب من الله تعالى:{ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف : ١٨٧] .

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم ٧١، مباحث في علوم القرآن ٩٥.

(٢) اسمه رُفَيْع بن مهران، من رواة الحديث، ثقة كثير الارسال، التقريب ٢١٠.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، في تعليم القرآن كم آية ١٠ ٤٦١، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢ ٢١٩، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٩).

(٤) المصنف ٣ ٣٨٠.

(٥) هو عبد الله بن حبيب بن رُبَيِّعَة الكوفي المقرئ، مشهور بكنيته، ولأبيه صحبة، التقريب ٢٩٩.

(٦) انظر المصنف للصنعاني ٣ ٣٨٠، والمصنف لابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، في تعليم القرآن كم آية ١٠ ٤٦٠، وقال الهيثمي في المجمع، باب السؤال عن الفقه، رواه أحمد وفيه عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره. مجمع الزوائد ١ ١٦٥ وأخرجه الصنعاني في المصنف بنحوه، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم القرآن وفضله ٣ ٣٨٠.

(٧) مناهل العرفان ١ ٥٦.

ومثل ما المراد بالروح {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [الإسراء : ٨٥]، فيقول القرآن: { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء : ٨٥]

فرد الله عليهم بقوله: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} [الفرقان : ٣٣]، وحيث عجبوا من نزول القرآن منجمًا بين الله لهم الحق في ذلك، فإن تحديهم به مفرقًا مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل في الإعجاز، وأبلغ في الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم: جيئوا بمثله، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان : ٣٢]، أي: لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وبما هو أبين معنى في إعجازهم وذلك بنزوله مفرقًا [١].

الحكمة الثانية : التدرج في التشريع، وذلك من خلال:

أ- التدرج في انتزاع العادات الضارة، وذلك بالتخلي عنها شيئًا فشيئًا والتدرج في نقل الناس من حياة الفوضى والتفلت إلى حياة النظام والتقييد بالمعايير الإسلامية الصحيحة، فقد بُعث النبي ﷺ إليهم وهم يعبدون الأصنام، ويشركون بالله ومع الله، ويسفكون الدماء ويشربون الخمر ويزنون، ويقتلون الأولاد خشية الفقر، ويتعاملون بالربا الفاحش، ويلعبون الميسر، ويستقسمون بالأزلام، وينكحون نساء الآباء ويجمعون بين الأختين ويكرهون الفتيات على البغاء، وذكر العلماء في كتب التاريخ أن الحروب كانت تقع بين القبائل العربية لأوهى الأسباب ومجرد حب الانتقام، حتى أدى هذا إلى قطع حبال المودة بينهم وجعلهم شيعًا متباغضة يتربص كل فريق منهم بغيره الدوائر، واعتادوا على كثير من هذه الأخلاق المنحطة وتغلغلت فيهم حتى صارت جزءًا لا يتجزأ منهم ومن المعلوم أنه يصعب على المرء والمجتمع ترك هذه الأمور مرة واحدة لأن للعقائد حتى ولو كانت باطلة وللعادات ولو كانت مستهجنة سلطانًا على النفوس، والناس أَسْرى ما أَلفوا ونشأوا عليه، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة وطالبهم بالتخلي عما هم منغمسون فيه من كفر وجهل وشرك مرة واحدة لما استجاب إليه أحد ولكن القرآن نجح معهم في هدم العادات الباطلة وانتزاعها بالتدريج بسبب نزول القرآن عليهم شيئًا فشيئًا [٢].

وأبلغ دليل على ذلك هو انتزاع الخمر من ذلك المجتمع الذي كان يشربه كالماء، فعن أبي هريرة ﷺ قال: "حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر، فسألوا رسول الله عنهما فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة : ٢١٩]، فقال الناس: ما حرم علينا إنما قال فيهما إثم كبير، وكانوا يشربون الخمر حتى إذا كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أمَّ أصحابه في المغرب خَلَط في قراءته فأنزل الله فيها آية أغلظ منها {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء : ٤٣]، وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة : ٩٠]، فقالوا: انتهينا يا رب، فقال الناس: يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم

---

(١) انظر مباحث في علوم القرآن ٩٤.

(٢) انظر مناهل العرفان ١ ٥٦، المدخل لدراسة القرآن الكريم ٧٢.

كانوا يشربون الخمر ويلعبون الميسر وقد جعله الله رجسًا ومن عمل الشيطان فأنزل الله {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة : ٩٣]، فقال النبي ﷺ لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم " [١].

ومن هذا الحديث نستنبط أن الخمر حرمت على مراحل فتاب الناس والصحابة منها حتى جرت في سكك المدينة، ولو حرمت دفعة واحدة لاستمروا عليها، ولذلك تقول عائشة رضي الله عنها "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل [٢] فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا قالوا: لا ندع الزنا أبدًا "[٣].

ب-التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علمًا وعملًا، فبدأت الآيات تنزل على النبي ﷺ سالكة التدرج في تربية الأمة، فأول ما نزلت الآيات المتعلقة بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره والتوحيد وما يتعلق بذلك من أمور العقيدة، بدأت الآيات أولًا بفطامهم عن الشرك والإباحية وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء، فإذا اطمأنت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه انتقل بهم بعد ذلك إلى العبادات فبدأهم بالصلاة ثم الزكاة ثم الصوم ثم الحج ثم الأمور الأخرى، ولذلك كان مدار الآيات في القسم المكي على إثبات العقائد والفضائل التي لا تختلف باختلاف الشرائع، بخلاف القسم المدني فكان مدار التشريعات فيه على الأحكام العملية وتفصيل ما أجمل قبل ذلك [٤].

لذا أنزل القرآن مفرقًا فحصلت النتيجة المطلوبة وهي التغير في العادات من حسن إلى أحسن ومن شر إلى خير ومن تفرق في الكلمة إلى اتحاد واعتصام بحبل الله المتين فكانت خير الأمم.

الحكمة الثالثة: بيان بلاغة القرآن الكريم فقد نزل مفرقًا في ثلاثة وعشرين عامًا، وكلما نزلت آية أو آيات قال لهم الرسول ﷺ " ضعوا هذه الآيات في موضع كذا من سورة كذا " [٥]، ومع ذلك فهو مترابط في الألفاظ والمعاني، حسن التنسيق، محكم النسج، دقيق السبك، متناسق الآيات والسور، متين الأسلوب، قوي الاتصال، لا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك كأنه عِقْدٌ فريد نظمت حباته بما لم يعهد له مثيل في كلام البشر {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود : ١].

---

(١) أخرجه الإمام احمد في المسند، انظر الفتح الرباني، كتاب التفسير، باب قول الله(يسألونك عن الخمر والميسر) ١٨ ٨٥، ٨٦ وإسناده ضعيف، وله شواهد تقويه منها حديث عمر بن الخطاب (اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا) فنزلت الآيات الثلاثة بالتدريج، حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٨ ٨٦، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر ٣ ٣٢٥، وأخرجه الترمذي في سننه كتاب التفسير، باب ومن سورة المائدة ٥ ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥ وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ٢ ٢٧٨.

(٢) سور القرآن على أربع أقسام وأنواع فمنها السبع الطوال أولها البقرة، ومنها المئون، والمثاني، والمفصل: ما وَلِيَ المثاني من قصار السور، وسمي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة، انظر الإتقان ١ ١٧٩، ١٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن ص١٠٨٧ (٤٩٩٣).

(٤) المدخل لدراسة القرآن ٧٤.

(٥) الترمذي تفسير القرآن (٣٠٨٦) ، أبو داود الصلاة (٧٨٦) ، أحمد (٦٩/١).

وكل ذلك فيه دلالة على أن القرآن مُنَزَّلٌ من الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وأنه كلام الله تعالى ولا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه، وصدق الله إذ يقول: {قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان : ٦].

الحكمة الرابعة: مسايرة الحوادث والطوارئ في تجددها وتفرقها:

فكانت تحدث حوادث لم يكن لها حكم معروف في الشريعة الإسلامية، فيحتاج المسلمون إلى معرفة ذلك فتنزل الآية من الله تبارك وتعالى لحكم تلك الحوادث، ومن ذلك حادثة خولة بنت ثعلبة [(١)]، حين ما جاءت إلى رسول الله ﷺ تشتكي زوجها، وتصف لنا ذلك عائشة رضي الله عنها ذلك فتقول "تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ تَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكَلَ شَبَابِي وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ فَمَا بَرِحَتْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة : ١]" [(٢)] .

وكذلك حادثة الإفك فعندما حصل ما حصل من المنافقين والمشركين واتهموا السيدة عائشة رضي الله عنها أنزل الله تعالى براءتها من فوق سبع سماوات وأدان الذين رموها بدون شهود ولا بينة فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢)} [النور : ١١ - ١٢]، إلى قوله تعالى {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)} [النور : ٢٠] [(٣)].

والقرآن مليء بتلك القصص والمواقف المشابهة، ومما هو طبيعي ومعروف أن هذه الحوادث لم تكن لتقع في وقت واحد فنزل القرآن في هذه الحوادث مفرقًا لذلك.

الحكمة الخامسة: : تنبيه المسلمين من وقت لآخر لأخطائهم التي وقعوا فيها وكيفية تصحيحها، وتحذيرهم من عواقب المخالفة وبيان الامتنان عليهم بالنصر مع القلة، ولنقرأ ما قصه الله تعالى في سورة آل عمران بشأن غزوة بدر وأحد من الامتنان والتنبيه والتحذير، ففي غزوة أحد خالف الرُّماة نصيحة رسول الله ﷺ متأولين فكانت النتيجة أن أوتي المسلمون من جهتهم وأن شاعت الهزيمة بينهم وشُجَّ وجه النبي ﷺ وكسرت رُباعيته فأنزل الله تعالى الآيات محذرًا المخالفين: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران : ١٥٢][(٤)].

---

(١) خولة بنت ثعلبة الأنصارية الخزرجية، صحابية، وهي التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فنزلت فيها سورة قد سمع، الإصابة ٤ ٢٨٩، أسد الغابة ٥ ٤٤٢.

(٢) انظر ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب الظهار ١ ٦٦٦ (٢٠٦٣)، والنسائي في كتاب الطلاق، باب الظهار ٦ ١٨٦ (٣٤٦٠)، والحديث صحيح.

(٣)انظر الحديث في البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا ص٥٣٠ (٢٦٦١)، وانظر مسلم في كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠).

(٤) وانظر القصة في البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد ص٨٣٢ (٤٠٤٣).

وكذلك في غزوة حنين والأحزاب وغير ذلك كثير، ففي يوم حنين أعجب المسلمون بكثرتهم فكانت الهزيمة فقال تعالى لهم: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)} [التوبة : ٢٤ - ٢٦]، وتعلم المسلمون من ذلك أن النصر ليس بالعدد والعُدَّة فحسب، وإنما هو من عند الله {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران : ١٢٦]"[١].

الحكمة السادسة: توثيق وقائع السيرة النبوية المباركة والتاريخ، وذلك عن طريق معرفة الحادثة ووقتها وأين كانت ومتى، فنستطيع أن نرتب السيرة النبوية من خلال الحوادث وضمها إلى قصص الأنبياء وسير المرسلين وحياة الأمم السابقين [٢].

الحكمة السابعة: معرفة الناسخ والمنسوخ:

إن في القرآن الكريم ناسخًا ومنسوخًا ولا يمكن أن يكون ذلك إذا نزل القرآن جملةً على المصطفى عليه الصلاة والسلام، إذ لا يُتصور النسخ إلا مع التفريق ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا على تباعد الزمن فإن حكمة التربية الانتقالية قد تقتضي تشريعًا تجيء به آية إلى أجل مسمى ثم تجيء آية أخرى بتشريع آخر، ولا يكون هذا إلا مع تنجيم النزول[٣].

الحكمة الثامنة : تفضيل القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية :

لقد جمع الله له النزولين : النزول جملة واحدة ، والنزول مفرقاً وبذلك شارك الكتب السماوية في الأولى ، وانفرد في الفضل بالثانية ، وهذا يعود بالتفضيل لنبينا محمد على سائر إخوانه من الأنبياء – عليهم السلام – وإن الله جمع له من الخصائص ما لغيره ، وزاد عليها[٤] ، وكذلك تفخيم المنزل وهو القرآن الكريم، وتعظيم قدر من سوف ينزل عليه وهو الرسول ﷺ، وتكريم من سوف ينزل إليهم وهم المسلمون. وذلك بإعلام سكان السماوات بأن هذا القرآن آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم[٥].

يقول السخاوي في جمال القراء: "فإن قيل: ما في إنزاله جملة إلى سماء الدنيا؟ قلت: في ذلك تكريم بني آدم، وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله عز وجل بهم، ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفا من الملائكة لما أنزل سورة الأنعام أن تزفها[٦].

وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه على السفرة الكرام البررة - عليهم السلام - وإنساخهم إياه، وتلاوتهم له وفيه أيضا إعلام عباده من الملائكة

---

(١) وانظر منهج الفرقان ٢٦، ٢٧.
(٢) الواضح في أصول القرآن ٥٢.
(٣) القرآن الكريم إبراهيم أبو الخشب ٤٤.
(٤) المرجع السابق .
(٥) انظر: المرشد الوجيز:٢٤.
(٦)قال ابن الصلاح في الخبر الوارد بذلك: وفي إسناده ضعف ولم نر له إسنادا صحيحا..) فتاوى ابن الصلاح (٢٤٨/١).

وغيرهم أنه علام الغيوب لا يغرب عنه شيء إذ كان في هذا الكتاب العزيز ذكر الأشياء قبل وقوعها"[١].

يقول السخاوي: "وفيه أيضا التسوية بينه وبين موسى عليه السلام في إنزال كتابه جملة، والتفضيل لمحمد ﷺ في إنزاله عليه منجما ليحفظه. قال الله عز وجل: { كذلك لنثبت به فؤادك } [الفرقان: ٣٢] وقال عز وجل: { سنقرئك فلا تنسى } [الأعلى: ٦]"[٢].

وقت نزول القرآن الكريم:

أكثر نزول القرآن الكريم نهارا حضرا، وقد نزل يسير منه في السفر وقليل منه في الليل.

١- الآيات والسور المتفق على نزولها ليلاً:

لقد تتبع العلماء ذلك فذكروا ما وقفوا عليه منه، فمن ذلك:

أولاً : أواخرُ آلِ عمران :

عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّ بلالاً أتى النبيَّ ﷺ يُؤْذِنه لصلاةِ الصبح فوجده يبكي فقال:يا رسول الله ما يُبكيك؟ قال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران : ١٩٠] إلى قوله:{سبحانك فقنا عذاب النار}. ثم قال: {وَيْلٌ لمن قَرَأَهَا ولَمْ يَتَفَكَّرْ فِيْهَا}"[٣] .

وعن إبراهيم بن سويد النخعي حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء قال : دخلت أنا وعبيد ابن عمير على عائشة رضي الله عنها فقال عبد الله بن عمير : حدثينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ ؟ فبكت وقالت : قام ليلة من الليالي فقال : " يا عائشة ! ذريني أتعبد لربي " ، قالت : قلت : والله إني لأحب قربك وأحب ما يسرك قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل حجره ، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال : يا رسول الله ! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ! قال : " أفلا أكون عبدا شكورا ؟ لقد نزلت علي الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران : ١٩٠]"[٤] .

فهذه الروايات الصحيحة تؤكد نزول هذه الآيات ليلاً على النبي ﷺ .

ثانياً: آيات الثلاثة الذين خلفوا من سورة التوبة :

فقد جاء عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ - وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تِيبَ عَلَيْهِمْ - قال : " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَوْبَتَنَا عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَقِيَ

---

(١)جمال القراء للسخاوي (١ / ٢٠)، وانظر: المرشد الوجيز (٢٧) والإتقان للسيوطي ١٠ / ١٤٩).

(٢)جمال القراء للسخاوي (١ / ٢٠). وانظر ما استحسنه أبو شامة فنقله من كلام للحكيم الترمذي في تفسيره بهذا الشأن. المرشد الوجيز (٢٦).

(٣) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه ح رقم ٦٢٠، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣ / ١٧٦) "لعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في التفكر ، وابن المنذر ، وابن حبان في صحيحه ، وابن مردويه ، والأصبهاني في الترغيب ، وابن عساكر ، قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم . انظر: صحيح ابن حبان بأحكام الأرناؤوط (٢ / ١٣١) .

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه ح رقم ٦٢٠، والمنذري في الترغيب والترهيب ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب ح رقم ١٤٦٨ ، وفي السلسلة الصحيحة ح رقم ٦٨.

الثُّلُثُ الْآخِرُ مِنْ اللَّيْلِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ ، وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي ، مَعْنِيَّةً فِي أَمْرِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَا أُمَّ سَلَمَةَ تِيبَ عَلَى كَعْبٍ ، قَالَتْ : أَفَلَا أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُبَشِّرَهُ ؟ قَالَ : " إِذًا يَحْطِمَكُمْ النَّاسُ فَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ ، حَتَّى إِذَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْفَجْرِ آذَنَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَانَ إِذَا اسْتَبْشَرَ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْ الْقَمَرِ "(١) .

فهذه الروايات الصحيحة التي هي في البخاري ومسلم من رواية كعب ابن مالك تؤكد نزول هذه الآيات ليلاً بما لا يجعل مجالاً للاختلاف في ذلك ، بل نزلت ليلاً في الثلث الأخير كما قال كعب بن مالك : " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَوْبَتَنَا عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَقِيَ الثُّلُثُ الْآخِرُ مِنْ اللَّيْلِ "(٢)

ثالثاً : أول سورة الفتح :

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا عُمَرُ نَزَرْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلُّ ذَلِكَ لا يُجِيبُكَ ، قَالَ عُمَرُ : فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزِلَ فِيَّ قُرْآنٌ فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بِي ، قَالَ : فَقُلْتُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ وَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ : " لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ثُمَّ قَرَأَ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا"(٣) .

فهذه الرواية الصحيحة تؤكد أنها نزلت ليلاً بعد صلح الحديبية بين مكة والمدينة ، كما جاء في الحديث: " لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ثُمَّ قَرَأَ {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} وليس في ذلك خلاف .

رابعاً : صدر سورة العلق :

لا شك أن الآيات الأولى من القرآن نزلت ليلاً ، وقد ثبت أن ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان ليلاً، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)} [البقرة : ١٨٥]البقرة:١٨٥)، وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣)} [الدخان : ٣]، وقال تعالى : {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)} [القدر : ١ - ٣]، فبركة تلك الليلة ، وشرفها وسمو قدرها ؛ لأن الله تعالى جعلها مبدأ الوحي إلى رسوله الكريم.

قال ابن عاشور: " فيجوز أن يراد به القرآنُ كلُّه فيكون فعل : (أنزلنا) مستعملاً في ابتداء الإنزال لأن الذي أُنزل في تلك الليلة خمس الآيات الأول من سورة العلق ثم فتر الوحي ثم عاد إنزاله منجماً ولم يكمل إنزال القرآن إلا بعد نيف وعشرين سنة ، ولكن لما كان جميع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير ، باب : " وعلى الثلاثة الذين خلفوا " ح رقم ٤٦٧٧ ، ومسلم كتاب : التوبة ، باب : حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ح رقم ٢٧٦٩.

(٢)من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى لقد تاب الله على النبي.. ٦ / ٢٠٩، وفي المغازي باب حديث كعب بن مالك، ٥ / ١٣٠ وأخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب، ٤ / ٢١٢٠ رقم ٢٧٦٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: التفسير، باب : سورة الفتح (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) ح رقم ٤٨٣٣.

القرآن مقرراً في علم الله تعالى مقدارُه وأنه ينزل على النبي ﷺ منجَّماً حتى يتم ، كان إنزاله بإنزال الآيات الأول منه لأن ما ألحق بالشيء يعد بمنزلة أوله "[١] .

وهذا هو الذي يقتضيه حديث بَدْء الوحي كما جاء عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ : "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ ـ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ ، قَالَ : " مَا أَنَا بِقَارِئٍ " ، قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ ، قُلْتُ : " مَا أَنَا بِقَارِئٍ " ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ فَقُلْتُ : " مَا أَنَا بِقَارِئٍ " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ : لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ... "[٢] .

فهو يدل على نزول الوحي عليه في وقت تعبده ليلاً .

وقد جاء عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " نَزَلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الإِنْجِيلُ لِثَلاثِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَانِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَالْقُرْآنُ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ "[٣] .

قال ابن حجر (ت : ٨٥٢هـ) :" فيحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السنة كانت تلك الليلة فأنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا ثم أنزل في اليوم الرابع والعشرين إلى الأرض أول اقرأ باسم ربك"[٤] .

فهذه الروايات المختلفة تشير إلى أن ابتداء نزول القرآن كان ليلاً،ولا شك أن أول ما نزل من القرآن هو صدر سورة العلق .

خامساً وسادساً : المعوذتان :

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أُنْزِلَ أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ " . وفي رواية أخرى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) وَ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)"[١] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠ / ٤٥٦) اعتنى به وخرج أحاديث عبد الحميد الدخاخني ، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : بدء الوحي ، باب : بدء الوحي ح رقم ٣ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب : بدء الوحي إلى رسول الله ﷺح رقم ٢٣٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ح رقم ١٦٩٨٤، والبيهقي في سننه ح رقم ١٨٤٢٩ ،وأبو يعلى في مسنده ح رقم ٢١٩٠ ، والهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ح رقم ٩٥٩ ،وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عمران بن داود القطان ضعفه يحيى ووثقه ابن حبان .وقال أحمد : أرجو أن يكون صالح الحديث . وبقية رجاله ثقات ، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة إسناده حسن ورجاله ثقات ح رقم ١٥٧٥.

(٤) فتح الباري لابن حجر (٩ / ٥) تحقيق على بن عبد العزيز الشبل ، ورقم وكتبها وأبوابها وأحاديثها الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار السلام ، الرياض ، ط١ / ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .

فهذه الروايات الصحيحة تؤكد نزولهما ليلاً .

٢- الآيات والسور المختلف في نزولها ليلاً :

هنالك آيات تكلم العلماء في نزولها ليلاً ؛ ولكن اختلفت فيها أقوالهم بسبب ضعف الرواية وعدم صحتها ،أو لأنها محتملة ، أو لتعارضها مع روايات أخرى ، وهي على النحو التالي :

أولاً : آيات تحويل القبلة :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : بَيْنَا النَّاسُ بِقُبَاءٍ فِي صَلاةِ الصُّبْحِ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ : " إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا ، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّأْمِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ"(٢) .

وعنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَنَزَلَتْ : { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِى سَلِمَةَ وَهُمْ رُكُوعٌ في صَلاَةِ الْفَجْرِ وَقَدْ صَلَّوْا رَكْعَةً فَنَادَى أَلاَ إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ . فَمَالُوا كَمَا هُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ "(٣) .

وعَنْ الْبَرَاءِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ - أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ - مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاةٍ صَلَّاهَا صَلاةَ الْعَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ "(٤) .

قال ابن حجر : " الأقوى أن نزولها كان نهارا ، والجواب عن حديث ابن عمر أن الخبر وصل وقت العصر إلى من هو داخل المدينة وهم بنو حارثة ، ووصل وقت الصبح إلى من هو خارج المدينة وهم بنو عمرو بن عوف أهل قباء ، وقوله قد أنزل عليه الليلة مجاز من إطلاق الليلة على بعض اليوم الماضي والذي يليه "، وقال السيوطي بعد نقله لكلام ابن حجر " فهذا يقتضي أنها نزلت نهارا بين الظهر والعصر"(٥) .

والأرجح أنها نزلت ليلاً ؛ لأن حديث أنس لا يعارض رواية ابن عمر ، لأن حديث أنس في وقت بلوغ الخبر لبني سلمة كما في قوله : "فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِى سَلِمَةَ وَهُمْ رُكُوعٌ في صَلاَةِ الْفَجْرِ وَقَدْ صَلَّوْا رَكْعَةً فَنَادَى أَلاَ إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ " ، وابن عمر يتحدث عن وقت نزولها،وقرينة النص تدل على ذلك: " إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا " فهو يتحدث عن نفس الليلة ، وهو يؤكد أنها نزلت ليلاً ، وهي

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب : فضل قراءة المعوذتين ، ح رقم ٨١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب :التفسير باب : { وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ إِلَى قَوْلِهِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنْ الظَّالِمِينَ } ح رقم ٤٤٩٠، ومسلم في كتاب :المساجد ومواضع الصلاة باب : تحويلة القبلة من القدس إلى الكعبة ح رقم ٥٢٦.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب :المساجد ومواضع الصلاة باب : تحويلة القبلة من القدس إلى الكعبة ح رقم ٥٢٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير باب : { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ح رقم ٤٤٨٦، ومسلم في كتاب : المساجد ومواضع الصلاة باب : تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة ح رقم ٥٢٥.

(٥) الإتقان في علوم القرآن (١ / ٤٩).

الرواية الوحيدة التي تنص على زمان النزول ، وحديث البراء لا يتحدث عن وقت النزول ، وإنما يتحدث عن أول صلاة صلاها ، وقد تكون هي أول صلاة لراوي الحديث ، ودائماً تقليب النظر والتأمل والتفكر في السماء يكون بالليل أكثر من النهار ، كما أن نزولها ليلاً يواكب مقتضيات التحول ؛ إذ الفجر بداية يوم جديد وهو بداية تحول لعهد جديد، وهو التحول من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام ؛ ولهذا قال القاضي جلال الدين البلقيني (ت : ٨٢٤) : " والأرجح بمقتضى الاستدلال نزولها بالليل لأن قضية أهل قباء كانت في الصبح وقباء قريبة من المدينة فيبعد أن يكون رسول الله أخر البيان لهم من العصر إلى الصبح "[١] . والله أعلم

ثانياً : آية {اليوم أكملت لكم دينكم} :

عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ : "قَالَتِ الْيَهُودُ لِعُمَرَ : لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ يَهُودَ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا(٣)} [المائدة : ٣] نَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي أُنْزِلَتْ فِيهِ لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا.قَالَ:فَقَالَ عُمَرُ:" فَقَدْ عَلِمْتُ الْيَوْمَ الَّذي أُنْزِلَتْ فِيهِ وَالسَّاعَةَ وَأَيْنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ . نَزَلَتْ لَيْلَةَ جَمْعٍ وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَرَفَاتٍ "[٢] .

وفي رواية أخرى "أُنْزِلَتْ بِعَرَفَةَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ)"[٣] . وفي رواية: (نزلت عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ"[٤].

فالرواية الأولى أنها "نَزَلَتْ لَيْلَةَ جَمْعٍ وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَرَفَاتٍ" ، والرواية الثانية أنها "أُنْزِلَتْ بِعَرَفَةَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ"، والرواية الثالثة أنها" نزلت عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ" فهنالك اتفاق في المكان في عرفات ، واليوم وهو يوم الجمعة ، وهنالك اختلاف في الزمان الذي نزلت فيه،والراجح أنها نزلت يوم عرفة عشية والرسول ﷺ واقف على الموقف لم يدفع،وكان يوم جمعة،وهذا ما نص عليه عدد من أهل العلم منهم ابن جرير (ت :٣١٠هـ)[٥] ، وشيخ الإسلام ابن تيمية[٦]، وابن كثير(ت :٧٧١هـ) [٧] ، والسيوطي[٨].

قال ابن جرير بعد أن سرد جميع الروايات التي ذكرت في سبب نزولها:" وأولى الأقوال في وقت نزول الآية، القولُ الذي رُوي عن عمر بن الخطاب: أنها نزلت يوم عرفة يوم جمعة، لصحة سنده، وَوَهْيِ أسانيد غيره "[٩] .

وقال القرطبي " أنها نزلت في يوم جمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر ورسول الله ﷺ واقف بعرفة على ناقته العضباء ، فكاد عضد الناقة ينقد من ثقلها فبركت "[١٠] .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١ / ٤٩) .
(٢) أخرجه مسلم في كتاب : التفسير ، باب (١)ح رقم ٧٧١١.
(٣) أخرجه مسلم في كتاب التفسير ، باب (١) ح رقم ٧٧١٠.
(٤) مسند أحمد بن حنبل ح رقم ١٨٨ ،والواحدي في أسباب نزول القرآن الكريم (١ / ١٨٢، وإسناده صحيح على شرط الشيخين . انظر : مسند أحمد بن حنبل (١ / ٢٨).
(٥) جامع البيان في تأويل آي القرآن (٤/. ٢٦٩٨) .
(٦) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٥٢).
(٧) تفسير القرآن العظيم ابن كثير (٣ / ٢٨).
(٨) الإتقان في علوم القرآن (١ / ٤٤).
(٩) جامع البيان (٤ / ٢٧٠٣)
(١٠) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦ / ٦١).

وما جاء أنها نزلت ليلة جمع مراد بها عشية عرفة لأن النبي ﷺ دفع بعد المغيب، كما جاء في الحديث: " فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلاً حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ خَلْفَهُ وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ شَنَقَ لِلْقَصْوَاءِ الزِّمَامَ حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى : أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ "(١) . والله أعلم .

ثالثاً: { والله يعصمك من الناس} من سورة المائدة :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ(٦٧)} [المائدة : ٦٧] ،فَأَخْرَجَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ فَقَالَ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ "(٢).

فهذه الرواية وإن لم تنص على وقت النزول ولكن يفهم من دلالات النص أنها نزلت ليلاً ؛ لأن النبي ﷺ كان يحرس ليلاً ، قال السيوطي : "فأخرج رأسه من القبة فقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله . في هذا الحديث دليل على أنها ـ أي الآية ـ ليلية نزلت ليلا فراشية ـ والرسول في فراشه "(٣) .

رابعاً : سورة الأنعام :

عن ابن عباس ـرضي الله عنهما ـقال:" نزلتْ سورةُ الأنعامِ بمكةَ ليلا جملةً ، حولَها سبعونَ ألفَ مَلَكٍ يجأرون بالتسبيح "(٤)،

فإن صحت هذه الرواية تكون نزلت هذه السورة جملة ليلاً . والله أعلم .

خامساً : سورة مريم :

روى الطبراني عن أبي مريم الغساني قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ولدت لي الليلة جارية فقال:" والليلة نزلت عليّ سورة مريم سمها مريم "(٥)

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب : الحج ، باب : حجة النبي ﷺ ح رقم ٣٠٠٩.

(٢) أخرجه الترمذي ح رقم ٣٠٤٦، وقال : حديث غريب ، والبيهقي في السنن الكبرى ح رقم ١٨١٨٦ ، والحاكم في المستدرك ح رقم ٣٢٢١،وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، وعلق الذهبي في التلخيص : صحيح ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي .

(٣) تفسير الجلالين (٢/ ٣٣٣) ، ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (١/ ٨٢).

(٤) أخرجه أبو عبيدة في فضائل القرآن ص ١٢٩ ح رقم ٣٧٢ ، والطبراني في المعجم الكبير ح رقم ١٢٩٣٠ ، ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن ص ١٥٧ ، والسيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور(٣ / ٢٤٣) وزاد نسبته لابن مردويه ، وابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٣٧) وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف كما في التقريب ص٦٩٦ برقم ٤٧٦٨، وله شاهد من حديث ابن عمر وأنس رضي الله عنهم أخرجهما الطبراني في الصغير (٨١/١) والأوسط كما في مجمع البحرين (٢٢/٦) ح رقم ٣٣١٦ ، ٣٣١٧ ، وضعف الهيثمي في الزوائد إسناده حيث قال : رواه الطبراني في الصغير وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو ضعيف جدا (٢٠/٧) ، وقد جاء في الضعفاء الكبير للعقيلي (٩ / ٤٢٢) قال البخاري: يوسف بن عطية منكر الحديث ، وقال محققو كتاب الإتقان في مركز الدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية : " ولعله يتقوى بشواهده ، وانظر شواهده في مجمع الزوائد (٧ / ١٩ ، ٢٠) من حديث ابن عمر وأنس وأسماء بنت يزيد مع بعض الاختلاف" .

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير ح رقم ٨٣٤ وهو ضعيف جدا مداره على سليمان بن سلمة الخبائري ، متروك كما في المغني في الضعفاء للذهبي (٢٨٠/١) وبه ضعفه الهيثمي في المجمع (٥٥/٨)، وفيه أيضاً : أبو بكر بن أبي مريم ضعيف كما في التقريب ص١١١٦ برقم ٨٠٣١ . وانظر : الإتقان للسيوطي (١٤٢/١) .

فالحديث ضعيف لم يصح في سنده ، ولذا لم يثبت في وقت نزولها شيء .

سادساً : أول الحج :

ذكره ابن حبيب ومحمد بن بركات السعدي في كتابه الناسخ والمنسوخ ، وجزم به السخاوي (ت : ٦٤٣)[١] .

قال السيوطي في الإتقان : "وقد يستدل له بما أخرجه ابن مردويه عن عمران بن حصين أنها نزلت على النبي ﷺ وقد نعس بعض القوم وتفرق بعضهم فرفع بها صوته الحديث"[٢] ، والحديث جاء عن عَبْد اللَّهِ بن أَحْمَدَ بن حَنْبَلٍ، حَدَّثَنَا هُدْبَةُ بن خَالِدٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بن سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ،قَالَ: "نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)} [الحج : ١] (الحج آية ١) وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ وَقَدْ نَعَسَ بَعْضُ الْقَوْمِ، وَتَفَرَّقَ بَعْضُهُمْ، فَرَفَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺصَوْتَهُ... "[٣] الحديث .

فلم تنص أي رواية على أن ذلك كان ليلاً إلا رواية الطبراني حيث جاء فيها : "نزلت هذه الآية {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)} [الحج : ١] ونحن مع رسول الله ﷺ في سفر وقد نعس بعض القوم وتفرق بعضهم فرفع بها رسول الله ﷺصوته " علماً بأن جميع الروايات تثبت أنها نزلت في سفر ، وما جاء فيها من قول الراوي " وقد نعس بعض القوم وتفرق بعضهم فرفع بها رسول الله ﷺصوته" فقط هو الذي يشير للنزول الليلي .

سابعاً : آية الإذن في خروج النسوة في الأحزاب:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : "خَرَجَتْ سَوْدَةُ بَعْدَمَا ضُرِبَ الْحِجَابُ لِحَاجَتِهَا وَكَانَتْ امْرَأَةً جَسِيمَةً لا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَعْرِفُهَا ، فَرَآهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ : يَا سَوْدَةُ أَمَا وَاللَّهِ مَا تَخْفَيْنَ عَلَيْنَا فَانْظُرِي كَيْفَ تَخْرُجِينَ ، قَالَتْ : فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَةً وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّى وَفِي يَدِهِ عرْقٌ فَدَخَلَتْ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي فَقَالَ لِي عُمَرُ كَذَا وَكَذَا ، قَالَتْ: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ وَإِنَّ الْعرْقَ فِي يَدِهِ مَا وَضَعَهُ فَقَالَ:" إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَاجَتِكُنَّ "[٤] .

وعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْلِ إِذَا تَبَرَّزْنَ إِلَى الْمَنَاصِعِ وَهُوَ صَعِيدٌ أَفْيَحُ وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ احْجُبْ نِسَاءَكَ. فَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُ فَخَرَجَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي عِشَاءً وَكَانَتِ امْرَأَةً طَوِيلَةً فَنَادَاهَا عُمَرُ أَلاَ قَدْ عَرَفْنَاكِ يَا سَوْدَةُ. حِرْصًا عَلَى أَنْ يُنْزِلَ الْحِجَابَ . قَالَتْ عَائِشَةُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحِجَابَ "[٥].

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء (١/١٤).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٤٢) .

(٣) الحديث أخرجه أحمد في المسند ح رقم ١٩٩١٥ ،النسائي ح رقم ع٦٠،والترمذي ح رقم ٣١٦٨ ، والحاكم في المستدرك (١/٣٦) ، الطبراني في المعجم الكبير ح رقم ٣٤٠ ، وقال الترمذي صحيح الإسناد ، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي ، وقال الحاكم : صحيح على شرطهما جميعا و لم يخرجاه ولا واحد منهما ، وقال الذهبي: صحيح الإسناد .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : التفسير ، باب : سورة الأحزاب ح رقم ٤٥١٦، ومسلم كتاب : السلام ، باب : إباحة الخروج للنساء لقضاء الحاجة ح رقم ٥٧٩٦.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب : السلام ، باب : إِبَاحَةُ الْخُرُوجِ لِلنِّسَاءِ لِقَضَاءِ حَاجَةِ الإِنْسَانِ ح رقم ٥٧٩٩.

قال القاضي جلال الدين البلقيني: " وإنما قلنا أن ذلك كان ليلا لأنهن إنما كن يخرجن للحاجة ليلا كما في الصحيح عن عائشة في حديث الإفك "(١) .

فهذه الروايات ليس فيها ما ينص على نزولها في الليل ولكنها محتملة .

ثامناً : قوله تعالى:{ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ : أَنَا فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ : أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي ، فَقَالَ : هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)} [الحشر : ٩](٢) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : "أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَنِي الْجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لامْرَأَتِهِ : ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا ، قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ الْعَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ فَفَعَلَتْ ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ ضَحِكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)} [الحشر : ٩]"(٣) .

فليس فيها ما هو صريح في وقت نزولها على أنها نزلت ليلاً ، ولكنها محتملة ، لأنه قد يكون هنالك تراخ بين سبب النزول ووقت النزول .

تاسعاً : سورة المنافقون :

عَنْ السُّدِّيِّ عَنْ أَبِي سَعْدٍ الْأَزْدِيِّ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ قَالَ : "غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ مَعَنَا أُنَاسٌ مِنْ الْأَعْرَابِ فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ ، وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبِقُونَّا إِلَيْهِ ، فَسَبَقَ أَعْرَابِيٌّ أَصْحَابَهُ فَيَسْبِقُ الْأَعْرَابِيُّ فَيَمْلَأُ الْحَوْضَ وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً وَيَجْعَلُ النِّطْعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ ، قَالَ : فَأَتَى رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ أَعْرَابِيًّا فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَتِهِ لِتَشْرَبَ فَأَبَى أَنْ يَدَعَهُ فَانْتَزَعَ قِبَاضَ الْمَاءِ فَرَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ خَشَبَتَهُ فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الْأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ ، فَأَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ فَأَخْبَرَهُ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ثُمَّ قَالَ : لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ . يَعْنِي الْأَعْرَابَ ، وَكَانُوا يَحْضُرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ الطَّعَامِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ إِذَا انْفَضُّوا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَأْتُوا مُحَمَّدًا بِالطَّعَامِ فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، قَالَ زَيْدٌ : وَأَنَا رِدْفُ رَسُولِ اللَّهِ

---

(١) إتمام الدراية لقراء النقاية، للسيوطي (١ / ٢٤) ، والإتقان في علوم القرآن (١ / ١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب : مناقب الأنصار ، باب : قَوْلِ اللَّهِ { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } ح رقم ٣٧٩٨ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب : مناقب الأنصار ، باب : قَوْلِ اللَّهِ { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } ح رقم ٤٨٨٩ .

ﷺ فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ فَأَخْبَرْتُ عَمِّي فَانْطَلَقَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺفَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَلَفَ وَجَحَدَ قَالَ : فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبَنِي ، قَالَ : فَجَاءَ عَمِّي إِلَيَّ فَقَالَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ مَقَتَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَذَّبَكَ وَالْمُسْلِمُونَ ، قَالَ: فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنْ الْهَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ ، قَالَ : فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ قَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنْ الْهَمِّ إِذْ أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الْخُلْدَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَحِقَنِي فَقَالَ : مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قُلْتُ : مَا قَالَ لِي شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي وَجْهِي ، فَقَالَ : أَبْشِرْ ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْرٍ فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ "(١) .

وفي ذلك دليل على نزولها ليلاً وتلاوتها للناس بعد أن أصبحوا . والله أعلم .

عاشراً : سورة المرسلات :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَارٍ فَنَزَلَتْ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَإِنَّا لَنَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ إِذْ خَرَجَتْ حَيَّةٌ مِنْ جُحْرِهَا فَابْتَدَرْنَاهَا لِنَقْتُلَهَا فَسَبَقَتْنَا فَدَخَلَتْ جُحْرَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا "(٢) .

وفي رواية أخرى له في البخاري : "قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَارٍ بِمِنًى إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ وَالْمُرْسَلاتِ وَإِنَّهُ لَيَتْلُوهَا وَإِنِّي لَأَتَلَقَّاهَا مِنْ فِيهِ وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا إِذْ وَثَبَتْ عَلَيْنَا حَيَّةٌ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : اقْتُلُوهَا فَابْتَدَرْنَاهَا فَذَهَبَتْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وُقِيَتْ شَرَّكُمْ كَمَا وُقِيتُمْ شَرَّهَا"(٣) .

قال السخاوي في جمال القراء : " روي عن ابن مسعود أنها نزلت على رسول الله ﷺ ليلة الجن بحراء "(٤) .

قال السيوطي : " قلت هذا أثر لا يعرف ثم رأيت في صحيح الإسماعيلي وهو مستخرجه على البخاري أنها نزلت ليلة عرفة بغار منى ، وهو في الصحيحين بدون قوله ليلة عرفة ، والمراد بها ليلة التاسع من ذي الحجة فإنها التي كان النبي ﷺ يبيتها بمنى "(٥) .

فإن صحت هذه الرواية تكون دليلاً على نزولها ليلاً . والله أعلم.

وقد ذكر أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري (ت٤٠٦) في كتابه التنبيه على فضل علوم القرآن من وجوه شرف علوم القرآن؛ معرفة تفصيل نزول القرآن الكريم زمانا، ومكانا، وأوصافا. فقال:

"من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدنية، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيعا، وما نزل مفردا، والآيات المدنيات، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما

---

(١) أخرجه الترمذي ح رقم ٣٣١٣ ، والطبراني في المعجم الكبير ح ٥٠٤١، وابن أبي شيبة في مسنده ح رقم ٥٢١ وقَالَ الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وقال الألباني في حكمه على أحاديثه : صحيح الإسناد .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الحج ، باب : خَمْسٌ مِنْ الدَّوَابِّ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ ح رقم ٣٣١٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب : الحج ، باب : مَا يَقْتُلُ الْمُحْرِمُ مِنْ الدَّوَابِّ ح رقم ١٨٣٠.

(٤) جمال القراء وكمال الإقراء (١/ ١٤٦) .

(٥) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٥١) .

حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى الحبشة، وما نزل مجملا، وما نزل مفسرا، وما اختلف فيه فقال بعضهم: مدني، وقال بعضهم: مكي، فهذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها، ويميز بينها، لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى"(١).

وقد فسرت وفصلت هذه الأنواع مع التمثيل لها بما وردت به الروايات في البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي، والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي مما لا حاجة معه لزيادة الكلام في بسطه ونقله"(٢).

وما ذكره النيسابوري هنا من وجوب معرفة هذه الأنواع والتمييز بينها وجعل ذلك شرطا للتفسير لا يسلم له وفيه نظر. فليس كله مما له أثر في التفسير.

مدة نزول القرآن الكريم:

اختلف العلماء في تحديد مدة نزول القرآن الكريم على الرسول ﷺ على أقوال:

أحدها: أنها ثماني عشرة سنة. روي هذا القول غير المشتهر عن الحسن . وأنه كان يقول ذكر لنا أنه كان بين أوله وآخره ثماني عشرة سنة، وأنه أنزل على الرسول ﷺ ثماني سنين في مكة قبل الهجرة وعشر سنين بعدها(٣).

وهو قول ضعيف ينتج عنه أن الرسول ﷺ توفي عن ثمان وخمسين سنة وهو ما لم يقل به أحد.

قال ابن عطية: "وهذا قول مختل لا يصح عن الحسن والله أعلم"(٤).

والثاني: أنها عشرون سنة: روي عن ابن عباس، وعكرمة، والشعبي وقتادة، واختاره ابن جزي الكلبي (٥).

والثالث: أنها ثلاث وعشرون سنة. وهو قول الجمهور(٦).

والرابع: أنها خمس وعشرون سنة. وهو قول من يذهب إلى أن الرسول ﷺ عاش خمسا وستين سنة خلافا للمشهور(٧).

وتجدر الإشارة بأن منشأ هذا الاختلاف يعود إلى عدة أسباب:

أحدها: الخلاف في مدة إقامته-عليه الصلاة والسلام-بمكة بعد البعثة، فقيل: ثمان، وقيل عشر، وقيل ثلاث عشرة، وقيل خمس عشرة سنة. بناء على اختلاف الروايات في ذلك. فإذا أضيف إليها عشر سنين وهي مدة إقامته-عليه الصلاة والسلام-بالمدينة بعد الهجرة المتفق عليها كما

---

(١)التنبيه على فضل علوم القرآن. لأبي القاسم النيسابوري. منشور في مجلة المورد العراقية. بتحقيق محمد عبد الكريم كاظم. عدد (٤)، مجلد (١٧)، عام ١٤٠٩ه. الصفحات (٣٠٥-٣٢٢).

(٢)انظر البرهان للزركشي (١ / ١٩٢)، والإتقان للسيوطي (١ / ٣٦-) والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي (١ / ٢٦٣).

(٣)انظر: تفسير الطبري:(١٥ / ١٧٩-١٨٠)، والمحرر الوجيز: (١٠ / ٣٧٥)، وزاد المسير: (١ / ٥)، والبحر والبحر المحيط: (٦ / ٨٧)، وفضائل القرآن، لابن الضريس :(٧٤).

(٤) المحرر الوجيز:٣٥٧/١٠.

(٥) تفسير ابن جزي الكلبي (١ / ٦، ٤ / ٢١٠).

(٦)انظر البرهان (١ / ٢٢٨)، والإتقان ١ / ١٤٦ وانظر علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، رسالة دكتوراه، د. محمد صفاء حقي، ٢ / ٤١٢.

(٧)انظر البرهان (١ / ٢٢٨)، والإتقان ١ / ١٤٦ وانظر علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، رسالة دكتوراه، د. محمد صفاء حقي، ٢ / ٤١٢.

نص على ذلك ابن كثير حيث قال: "أما إقامته بالمدينة عشرا فهذا مما لا خلاف فيه.."[١]، فينتج عن ذلك الأقوال السابقة.
والثاني: ومن الأسباب كذلك: اختلاف الاعتبار الذي يبدأ منه حساب تلك المدة، هل هو من بداية الرؤيا الصادقة، أو من البعثة التي تلاها فتور في نزول الوحي، أو من الرسالة وتتابع الوحي بعد ذلك.
والثالث: ومنها ايضا: التسامح والتساهل في تحديد الوقت، وجبر الكسور في حساب السنوات اختصارا وعادة، يقول ابن كثير : "إن العرب كثيرا ما يحذفون الكسور من كلامهم"[٢].
والرابع: ومنها: الخلاف في عمره -عليه الصلاة والسلام-. حيث قيل إنه ستون سنة، وقيل ثلاث وستون، وقيل خمس وستون.

والمعتمد كما يقول ابن حجر أنه ﷺ عاش ثلاثا وستين سنة وأن ما ورد مما يخالف ذلك فهو محمول إما على إلغاء الكسر في السنين أو جبر الكسر في الشهور[٣].

وأضاف ابن كثير معنى جديدا في الجمع وهو: اعتبار قرن جبريل بالرسول ﷺ في نزول الوحي حيث روي أنه قرن به عليه السلام ميكائيل في ابتداء الأمر. يلقي إليه الكلمة والشيء ثم قرن به جبريل[٤].

كما أنه بعث ﷺ على رأس أربعين سنة. كما قال النووي : "واتفقوا أنه ﷺ أقام بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين وبمكة قبل النبوة أربعين سنة وإنما الخلاف في قدر إقامته بمكة بعد النبوة وقبل الهجرة. والصحيح أنها ثلاث عشرة فيكون عمره ثلاثا وستين وهذا الذي ذكرناه أنه بعث على رأس أربعين سنة هو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء"[٥].

وقد حاول الشيخ محمد الخضري اختيار تحديد دقيق للمدة فذكر أن مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة هي اثنتا عشرة سنة، وخمسة أشهر، وثلاثة عشر يوما من يوم ١٧رمضان سنة ٤١ من ميلاده الشريف إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ منه.

ومدة إقامته بالمدينة بعد الهجرة هي تسع سنوات، وتسعة أشهر، وتسعة أيام من أول ربيع الأول سنة ٤٥ إلى تاسع ذي الحجة سنة ٦٣ من ميلاده الشريف، وهي سنة عشر من هجرته ﷺ[٦].

فصارت المدة بين مبتدأ التنزيل ومختتمه اثنتان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوما[٧].

وهذا التحديد هو ما أشار إليه الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان حيث ذكره وتعقبه فقال: "لكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاث: ذلك لأنه أهمل من حسابه باكورة الوحي إليه ﷺ عن طريق الرؤيا الصادقة ستة أشهر على أنها ثابتة في

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير. بتحقيق: ابن إسحاق الحويني الأثري:٣٦.
(٢) فضائل القرآن لابن كثير: ٣٦.
(٣) انظر: فتح الباري: ٤/٩.
(٤)فضائل القرآن الكريم لابن كثير:٣٦
(٥)شرح صحيح مسلم للنووي (١٥ / ٩٩)، وانظر الزيادة والإحسان (١ / ٢٥٢).
(٦) انظر تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ محمد الخضري بك. ص٨ وتاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني ص٧١. فقد ذكر تحديد الفترة المكية كما هنا.
(٧) انظر: تاريخ التشريع:٥.

الصحيح. ثم جرى فيه على أنه ابتداء نزول القرآن كان ليلة السابع عشر من رمضان وهي ليلة القدر على بعض الآراء، غير أنه يخالف المشهور الذي يؤيده الصحيح.
ثم ذهب فيه مذهب القائلين بأن آخر ما نزل من القرآن هو آية: { اليوم أكملت لكم دينكم } [المائدة: ٣] وذلك في تاسع ذي الحجة سنة عشر من الهجرة، وسترى في مبحث آخر ما نزل من القرآن أن هذا المذهب غير صحيح [١]"[٢].
ومما يعترض به على هذا التحديد أن يوم الفرقان هو يوم ١٧رمضان هو يوم الجمعة يقول الخضري عن يوم الفرقان، ويوم ابتداء إنزال القرآن الكريم :"...فهما متحدان في الوصف، وهو أنهما جميعا يوافقان الجمعة ١٧ رمضان وإن لم يكونا في سنة واحدة"[٣].
والقول بأن يوم ابتداء إنزال القرآن يوافق يوم الجمعة معارض لما ثبت في صحيح مسلم عن يوم الاثنين وقوله ﷺ حين سئل عنه: " ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت - أو أنزل علي فيه "[٤].
كما حدد الشيخ محمد محمد أبو شهبة مدة نزول القرآن الكريم بأنها اثنتان وعشرون سنة وخمسة أشهر، ونصف الشهر. راعى في هذا التحديد ما ذهب إليه الجمهور من أنه صلى الله عليه وسلم ولد في الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل، وتوفي في الثاني عشر أيضا من ربيع الأول عام إحدى عشرة من الهجرة.
وبين ذلك بأن النبي ﷺ نبئ على رأس الأربعين من ميلاده الشريف وذلك من الثاني عشر من ربيع الأول وقد بدئ الوحي إليه بالرؤيا الصادقة ومكث على ذلك إلى السابع عشر من رمضان وجملة ذلك ستة أشهر وخمسة أيام حين نزل عليه صدر سورة اقرأ. وآخر آية نزلت عليه من القرآن هي قوله تعالى: { واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله } الآية [البقرة: ٢٨١]، وقد روي أن ذلك قبل وفاة النبي ﷺ بتسعة أيام، وقيل بأحد عشر يوما، وقيل بواحد وعشرين يوما فلو أخذنا بالمتوسط تكون جملة المدة التي لم ينزل فيها القرآن ستة أشهر وستة عشر يوما. وجملة عمر ﷺ ثلاث وستون عاما، ومدة نبوته ثلاث وعشرون سنة فإذا أنقصنا منها ستة أشهر وستة عشر يوما يكون الباقي اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يوما.
ثم قال أبو شهبة بعد هذا معبرا عن فرحه به: "والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. ثم انتقد حساب الخضري السابق بأنه بني على أن آخر آية نزلت هي قوله تعالى: { اليوم أكملت لكم دينكم } الآية [المائدة: ٣]"[٥].
وما ذكره أبو شهبة - رحمه الله - من تحديد فيه نظر كذلك. إذ جعل يوم السابع عشر من رمضان بداية إنزال القرآن على الرسول ﷺ وقد تقدم أنه يوافق يوم الجمعة - على قول الخضري - وأنه بهذا يعارض ما ثبت في الصحيح
وكذلك أنه بناه على الأخذ بأحد الأقوال في مدة بقاء الرسول ﷺ بعد آخر آية نزلت عليه دون

---

(١)الصواب في آخر ما نزل، قوله تعالى: {واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون} [البقرة / ٢٨١]
(٢) مناهل العرفان:٤٥/١.
(٣)تاريخ التشريع ص:٦،٧
(٤)أخرجه مسلم في صحيحه من حديث طويل (٢ / ٨١٩) رقم (١١٦٢). وراجع ص(٤٩).
(٥) المدخل لدراسة القرآن الكريم:٥٥،٥٦.

دراسة ترجيحية له. فيبقى ملخص القول أن المدة نحوا من ثلاث وعشرين سنة تقريبا لا تحديدا[١].

يوم إنزال القرآن:

الصحيح أن أول يوم أنزل فيه القرآن هو يوم الاثنين. لحديث أبي قتادة الأنصاري الصحيح، وفيه: وسئل عن صوم يوم الاثنين. قال: " ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت - أو أنزل علي فيه "[٢].

وفي رواية أخرى: ..فقال: " فيه ولدت، وفيه أنزل علي"[٣].

وأخرج الواحدي عن أبي قتادة :" أن رجلا قال لرسول الله: أرأيت صوم يوم الإثنين: "قال فيه أنزل علي القرآن "[٤].

وقد ذكر ابن سعد في طبقاته عن ابن عباس قال: "نبئ نبيكم ﷺ يوم الاثنين"[٥].

وعن أنس قال: استنبأ النبي ﷺ يوم الاثنين[٦].

قال الواحدي : "وأول يوم أنزل القرآن فيه يوم الاثنين"[٧].

وذكر البلقيني أنه يوم الاثنين نهارا[٨].

ولذا قال ابن القيم :" ولا خلاف أن مبعثه -ﷺ- كان يوم الاثنين"[٩].

وقال ابن كثير : "وهكذا قال عبيد بن عمير وأبو جعفر الباقر وغير واحد من العلماء أنه -عليه الصلاة والسلام- أوحي إليه يوم الاثنين. وهذا ما لا خلاف فيه بينهم"[١٠].

شهر إنزال القرآن الكريم:

اختلف في شهر إنزال القرآن الكريم على الرسول ﷺ، على أقوال:

الأول: أنه شهر رجب، في السابع عشر منه. وهو قول غير مشهور لكنه مذكور[١١].

الثاني: أنه في شهر ربيع الأول. قيل في أوله، والمشهور في ثامنه سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. وقد جعله ابن القيم قول الأكثرين[١٢].

---

(١) انظر: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد النبي-ﷺ-، عبدالودود مقبول حنيف(بحث منشور في الشبكة الالكترونية).(بتصرف بسيط).

(٢)أخرجه مسلم في صحيحه من حديث طويل. كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام، حديث ١١٦٢، (٢ / ٨١٩).

(٣)صحيح مسلم (٢ / ٨٢٠).

(٤)أسباب النزول للواحدي:١٣-١٤.

(٥)طبقات ابن سعد :١ / ١٩٣.

(٦) طبقات ابن سعد :١ / ١٩٤.

(٧)أسباب النزول للواحدي. تحقيق السيد أحمد صقر :١٣.

(٨) فتح الباري:٣٥٦/١٢.

(٩) زاد المعاد :١ / ١٨

(١٠) السيرة النبوية لابن كثير :١ / ٣٩٢.

(١١)انظر: فتح الباري - كتاب التعبير (١٢ / ٣٥٧). وزاد المعاد لابن القيم (١ / ١٨). والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي (١ / ٢٥٠).

(١٢)انظر المصادر السابقة.

وقيل في الثاني عشر من ربيع الأول يوم الاثنين كما روي عن جابر وابن عباس أنهما قالا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات(١).

وعن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين في ربيع الأول، وأنزلت عليه النبوة يوم الاثنين في أول شهر بيع الأول وأنزلت عليه البقرة في ربيع الأول(٢).

الثالث: أنه في شهر رمضان، قال الواحدي : "وأول شهر أنزل فيه القرآن شهر رمضان"(٣)، قال الله تعالى: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } [البقرة: ١٨٥].

وجعله ابن كثير : المشهور. فقال: والمشهور أنه بعث عليه الصلاة والسلام في شهر رمضان كما نص على ذلك عبيد بن عمير، ومحمد بن إسحاق وغيرهما"(٤).

قال ابن القيم : "وإليه ذهب جماعة منهم يحيى الصرصري حيث يقول في نونيته: شمس النبوة منه في رمضان، وأتت عليه أربعون فأشرقت"(٥).

وقال ابن إسحاق : ابتدئ رسول الله ﷺ بالتنزيل في رمضان - ثم استدل له فقال- قال الله تعالى: { شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن } [البقرة: ١٨٥] وقال سبحانه: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } [القدر: ١] وقال تعالى: { إنا أنزلناه في ليلة مباركة }[الدخان:٣](٦).

واختلف في أي الأوقات من رمضان: فقيل في سابعه(٧)، وقيل في الرابع عشر(٨)، وقيل في السابع عشر منه.

فقد أخرج ابن سعد عن الواقدي عن أبي جعفر الباقر، قال نزل الملك على رسول الله ﷺ بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان. ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة. وجبريل الذي كان ينزل عليه بالوحي(٩).

وقيل في الرابع والعشرين من رمضان، قال أبو عبد الله الحليمي : "يريد ليلة خمس وعشرين"(١٠).

وقال ابن كثير : "ولهذا ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن ليلة القدر ليلة أربع وعشرين"(١١).

---

(١)انظر السيرة النبوية لابن كثير (١ / ١٩٩)، و(١ / ٣٩٢). وقال: رواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عفان عن سعيد بن ميناء عنهما.

(٢)ذكره ابن كثير في السيرة النبوية (١ / ٢٠٠) بسنده وقال عنه: وهذا غريب جدا، رواه ابن عساكر.

(٣)أسباب النزول للواحدي:١٤.

(٤)انظر السيرة النبوية :١ / ٣٩٢.

(٥) زاد المعاد :١ / ١٨.

(٦)انظر: مختصر السيرة لابن هشام (٣٩) والسيرة النبوية للذهبي (٧٥).

(٧)انظر فتح الباري (١٢ / ٣٥٦)

(٨)انظر فتح الباري (١٢ / ٣٥٦)

(٩) أخرجه ابن سعد في الطبقات بسنده (١ / ١٩٤). وانظر: السيرة النبوية لابن كثير (١ / ٣٩٢) والزيادة والإحسان في علوم القرآن لابن عقيلة المكي (١ / ٢٥٠-٢٥١). وانظر: تاريخ التشريع للخضري (٦،٧). فقد ذكر هذا التاريخ لكن جعله يوم الجمعة .

(١٠)المرشد الوجيز لأبي شامة (١٣).

(١١) السيرة النبوية لابن كثير (١ / ٣٩٢).

واستدل لهذا بحديث واثلة بن الأسقع [١].

وجعله السخاوي في النزول المباشر على الرسول ﷺ فقال بعد أن ساقه بنحوه: "فهذا الإنزال يريد به - ﷺ أول نزول القرآن عليه- ثم قال: وقوله عز وجل: { إنا أنزلناه في ليلة القدر } يشمل الإنزالين" [٢].

أما البيهقي فقد حمل حديث واثلة بن الأسقع على أن المراد به الإنزال جملة فقال: "قلت: وإنما أراد - والله أعلم - نزول الملك بالقرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا"[٣].

ويشهد لهذا المعنى ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي قلابة قال: "..أنزلت الكتب كاملة ليلة أربع وعشرين من رمضان.."[٤].

وقد ذهب صفي الرحمن المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم إلى تحديد دقيق، ورأي جديد وهو أن يوم نزول القرآن وشهره كان يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من رمضان ليلا. الموافق عشرة أغسطس سنة ٦١٠م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك أربعون سنة قمرية وستة أشهر و١٢ يوما، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر و٢٢ يوما.

وهو قول لم يقل به أحد قبله وقد بناه على ما يأتي[٥]:

أولا: كونه يوم الاثنين بناء على ما صح من حديث أبي قتادة الأنصاري وفيه ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت أو أنزل علي فيه، وهو ما اتفق عليه أهل السير.

ثانيا: وكونه شهر رمضان عملا بالآيات الثلاث في سور: البقرة، الدخان، والقدر. وكونه شهر الجوار والتحنث بحراء.

ثالثا: كونه لإحدى وعشرين مضت من رمضان. بناء على أن حساب التقويم العلمي لذلك الشهر في تلك السنة لا يوافق يوم الاثنين إلا يوم السابع، والرابع عشر، والحادي والعشرين، والثامن والعشرين. ولأن ليلة القدر إنما تقع في الوتر من ليالي العشر من شهر رمضان، تعين كون ذلك يوم واحد وعشرين[٦].

وهذا جهد طيب ومنهج جيد في التحديد إلا أنه يرد عليه ما يأتي[٧]:

---

(١)أخرجه أحمد في المسند (٤ / ١٠٧) وأبو عبيد في فضائل القرآن (٣٦٨) وأخرجه ابن الضريس بسنده عن أبي الخلد (٧٤) بزيادة في آخره. وابن جرير في تفسيره (٢ / ١٤٥). والواحدي في أسباب النزول (١٤). والطبراني في المعجم الكبير (٢٢ / ٧٥) حديث (١٨٥). غير أنه وقع في النسخة: «وأنزل القرآن لأربع عشرة» بدلا من أربع وعشرين. فلعله خطأ. وذكره الألباني في الصحيح رقم (١٥٧٥) وقال عنه: «هذا إسناد حسن، رجاله ثقات، وفي القطان كلام يسير، وله شاهد من حديث ابن عباس مرفوعا نحوه، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١،٣٦٧)، وقال عنه: خالفه عبيد الله بن أبي حميد وليس بالقوي فرواه عن أبي المليح عن جابر بن عبد الله من قوله. ورواه إبراهيم بن طهمان عن قتادة من قوله لم يجاوز به إلا أنه قال: لاثنتي عشرة »وكذلك وجده جرير بن حازم في كتاب أبي قلابة دون ذكر صحف إبراهيم. وانظر السيرة النبوية لابن كثير (١ / ٣٩٣). وتفسير الماوردي بتحقيق الباحث (٢ / ٥٦٩) والمرشد الوجيز (١٢) والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي (١ / ٢٥٢).

(٢)جمال القراء: (١ / ٢٢)

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (١ / ٣٦٧)، والمرشد الوجيز (١٤).

(٤)المرشد الوجيز :١٣.

(٥) انظر: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد لرسول-ﷺ-:٦٤.

(٦)انظر: الرحيق المختوم ص(٦٦) وحاشيته (٢).

(٧) انظر: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد لرسول-ﷺ-:٦٤.

أولا: أن كون ذلك يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلا. يجعل تلك الليلة هي ليلة الثلاثاء اثنتين وعشرين فلا تصير بذلك من ليالي الوتر التي تتحرى بها ليلة القدر.[1].
ثانيا: أن الاستدلال بالآيات الثلاث في سور: البقرة، والدخان، والقدر. على ابتداء النزول ليس صريحا، وقد فسرت بأن المراد بها النزول جملة إلى السماء الدنيا. وهو ما يتفق مع الروايات الأخرى الواردة عن ابن عباس وغيره في ذلك.
ثالثا: أن حمله تلك الآيات على ابتداء النزول يعني أن ليلة القدر صارت معروفة على وجه اليقين لأن معرفة ابتداء نزول القرآن ميسور للصحابة رضي الله عنهم لو تعلق به أمر تعيين ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. ومعلوم أنها قد أخفيت عينها. فاختلف في تحديدها. وإذا سلم هذا الإيراد كان دليلا على نزول القرآن في غير شهر رمضان. وكان ترجيحا للقول بنزوله في شهر ربيع الأول إلا أن تكون ليلة تسع وعشرين على ما ذكر من الحساب.

وقد رجح ابن حجر كون ابتداء النزول في رمضان فقال: "قلت: ورمضان هو الراجح لما تقدم من أنه الشهر الذي جاء فيه الرسول ﷺ حراء فجاءه الملك وعلى هذا يكون سنه حينئذ أربعين سنة وستة أشهر"[2].

كما رجح في موضع آخر أنه في آخر شهر رمضان ولم يحدده بتاريخ فقال: "..فيستفاد من ذلك أن يكون آخر شهر رمضان، وهو قول آخر يضاف لما تقدم ولعله أرجحها"[3].

وجعل ابن حجر شهر رمضان زمانا لنزول القرآن جملة، ونزوله مفرقا أيضا، فقال عن حديث مدارسة جبريل عليه السلام للرسول ﷺ للقرآن "..وفيه إشارة إلى أن ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان لأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان كما ثبت من حديث ابن عباس"[4].

وذكر ابن عرفة في تفسيره مثل هذا التوجيه بعد أن ساق بعض الأقوال في معنى قوله تعالى: { أنزل فيه القرآن } قال: "قال الضحاك : أنزل القرآن في فرضه وتعظيمه، والحض عليه. وقيل: الذي أنزل القرآن فيه. قال ابن عرفة : ولا يبعد أن يراد الأمران فيكون أنزل القرآن فيه تعظيما له وتشريفا.. وقيل: أنزل فيه القرآن جملة إلى سماء الدنيا. قال ابن عرفة فالقرآن على هذا الاسم للكل، وعلى القول الثاني: بأنه أنزل فيه بعضه يكون القرآن اسم جنس يصدق على القليل والكثير"[5].

وإلى مثل ذلك ذهب أبو شامة في تعليقه على ما نسب للشعبي من أن الله عز وجل ابتدأ إنزال القرآن في ليلة القدر فقال: "هو إشارة إلى ابتداء إنزال القرآن على النبي ﷺ فإن ذلك كان وهو متحنث بحراء في شهر رمضان - ثم قال - وقد بينت ذلك في شرح حديث المبعث وغيره[6].

---

(١)يصدق تعليله على ما ذكره من موافقة يوم الاثنين لثمان وعشرين من رمضان حيث تكون ليلة تسع وعشرين. وهي من ليالي الوتر، ولكنه لم يذكره ولم يختره.
(٢)فتح الباري، كتاب التعبير :١٢ / ٣٥٦.
(٣)فتح الباري، كتاب التعبير :١٢ / ٣٥٧.
(٤)فتح الباري، كتاب بدء الوحي :١ / ٣١.
(٥)تفسير ابن عرفة برواية تلميذه الأبي :٢ / ٥٣٩.
(٦)كتاب للمؤلف سماه في كتابه الذيل على الروضتين: شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى. انظر المرشد الوجيز (٢٠) حاشية (٢).

وهذا وإن كان الأمر فيه كذلك إلا أن تفسير الآية به بعيد مع ما قد صح من الآثار عن ابن عباس : أنه نزل جملة إلى السماء الدنيا" [١]، ففرق أبو شامة بهذا بين جعل رمضان شهر نزول القرآن والاستدلال له بالآيات.

وقال في موضع آخر مبينا صلة شهر رمضان بالقرآن: "... ويجوز أن يكون قوله: { أنزل فيه القرآن } إشارة إلى كل ذلك، وهو كونه أنزل جملة إلى السماء الدنيا، وأول نزوله إلى الأرض، وعرضه وإحكامه في شهر رمضان. فقويت ملابسة شهر رمضان للقرآن: إنزالا جملة وتفصيلا وعرضا وإحكاما فلم يكن شيء من الأزمان تحقق له من الظرفية للقرآن ما تحقق لشهر رمضان فلمجموع هذه المعاني قيل: { أنزل فيه القرآن }[٢].

مقدار التنزيل:

لقد ثبت نزول القرآن الكريم على الرسول ﷺ منجما مفرقا ابتداء أو حسب الحاجة والوقائع. وغالب القرآن الكريم نزل آيات مفرقات وبعضه نزل سورا كاملة، ونزلت سورتان من قصار السور معا هما المعوذتان.

فأول ما نزل من القرآن الكريم الآيات الخمس الأولى من سورة العلق. وهي قوله تعالى: { اقرأ باسم ربك الذي خلق }{ خلق الإنسان من علق }{ اقرأ وربك الأكرم }{ الذي علم بالقلم }{ علم الإنسان ما لم يعلم } ثم نزل باقيها بعد نزول سورة المدثر.

كما نزلت الخمس الآيات الأولى من سورة الضحى إلى قوله: { ولسوف يعطيك ربك فترضى } وصح نزول عشر آيات من قصة الإفك جملة واحدة من سورة النور. وصح كذلك نزول عشر آيات جملة من أول سورة المؤمنون. ونزلت آية { اليوم أكملت لكم دينكم } (المائدة: ٣) في عرفة في يوم جمعة.

وصح نزول قوله { غير أولي الضرر } وحدها، وهي بعض آية. فقد أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما نزلت: { لا يستوي القاعدون من المؤمنين } (النساء: ٩٥) دعا رسول الله ﷺ زيدا فكتبها فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته: فأنزل الله: { غير أولي الضرر } [٣].

وكذا قوله: { وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم } (التوبة: ٢٨) نزلت بعد نزول أول الآية ، فهي بعض آية [٤].

وقد تنزل السورة كاملة ومن ذلك سورة الفاتحة، والإخلاص، والكوثر، والمسد، والنصر، والمرسلات، والصف.. وغيرها[٥].

وأما ما ورد من نزول سورة الأنعام جملة يشيعها سبعون ألف ملك. فلم يخل من خلاف. فقد قال ابن الصلاح في فتاويه: "الحديث الوارد في أنها نزلت جملة رويناه من طريق أبي بن كعب وفي إسناده ضعف، ولم نر له إسنادا صحيحا. وقد روي ما يخالفه فروي أنها لم

---

(١)المرشد الوجيز لأبي شامة المقدسي :٢٠.

(٢)المرشد الوجيز لأبي شامة المقدسي :٢٤.

(٣)أخرجه البخاري. كتاب التفسير، باب ١٨ لا يستوي القاعدون من المؤمنين.. (٥ / ١٨٢-) وانظر: سنن أبي داود (٣ / ١٧) والمرشد الوجيز (٣٤-) وأسباب النزول للواحدي (١٦٨-) وانظر الإتقان (١ / ١٥٥).

(٤)انظر تفسير الطبري (١٤ / ١٩٤). والتبيان للشيخ طاهر الجزائري (٥٩).

(٥) انظر: الإتقان (١ / ١٣٦). والزيادة والإحسان (١ / ٣٩٩).

تنزل جملة واحدة بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا في عددها، فقيل ثلاث، وقيل: ست، وقيل غير ذلك[1].

وقد قال ابن عقيلة المكي في توجيه هذا الاعتراض. بأن نزول غالبها في حكم نزولها كلها. قال: "أقول: من قال: إن السورة نزلت كلها فإنما يعني - والله أعلم- الغالب، ولا يضر أن ينزل بعضها بعد ذلك وتمامها، فإن القرآن غالبه إنما ينزل مفرقا آيات. ومثل هذه السورة العظيمة إذا نزل غالبها فيحكم لها بالكل، فإنه نادر الوقوع" [2].

وقد نزلت سورتا المعوذتين معا بسبب سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله جل شأنه المعوذتين فقرأهما وتعوذ بهما فانحل السحر[3].

فتبين مما سبق أن القرآن نزل مفرقا: الآية ، والآيتان، والخمس، والعشر، وأقل وأكثر. كما نزل جزء الآية . ونزلت سورة كاملة، ونزلت سورتا المعوذتين معا.

ولا شك أن هذه المتابعة الدقيقة من قبل العلماء لجزئيات نزول القرآن الكريم في وقته، وصفته، ومقداره، ويوم إنزاله، وشهره، وكون ذلك ليلا ونهارا، حضرا وسفرا؛ دليل عناية الأمة البالغة بالقرآن الكريم التي ميز الله بها كتابه فصارت من خصائصه التي تفرد بها، وجعلها الله وسيلة حفظ كتابه الذي تكفل به في قوله سبحانه: { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } [الحجر:٩].

كما كان الرسول ﷺ يتلقى القرآن من جبريل فيحفظه ولا ينساه { سنقرئك فلا تنسى } فيبلغه أصحابه، ويحفظهم إياه، ويأمرهم بكتابته. فتوفر للقرآن الكريم بالغ العناية به، وكامل وسائل حفظه، والمحافظة عليه. وتلك نعمة ومنة من الله تعالى على الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولا يشكرون[4].

ثالثا:- مراحل جمع القرآن الكريم وترتيبه

المراد بجمع القرآن عند العلماء أحد معنيين : أولهما الحفظ، وهذا المعنى هو الذي ورد في قوله عز وجل في خطابه لنبيه ﷺ «لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه»[5].

وثانيهما : الكتابة والتدوين، أي كتابة القرآن كله مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعا[6].

وقد اجتمع للقرآن الكريم ما لم يجتمع لغيره من الكتب السابقة فاعتمد في طريقة نقله المشافهة والحفظ والكتابة والتدوين، وتعتبر مسألة المشافهة والحفظ وهي أولى مراحل الجمع، من أعظم خصيصة شرفت بها الأمة الإسلامية دون سائر الملل والنحل.

جمع القرآن في عهد النبي ﷺ.

---

(١) فتاوى ابن الصلاح (١ / ٢٤٨)، والبرهان (١ / ١٩٩)، والإتقان (١ / ١٣٧).

(٢) الزيادة والإحسان (١ / ٤٠١).

(٣)انظر: أسباب النزول للواحدي. (٥١٥) والجامع لأحكام القرآن (٢٠ / ٢٥٤)، والزيادة والإحسان (١ / ٤٠٥).

(٤)انظر: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد لرسول-ﷺ-:٦٨-٧١، والزيادة والإحسان:٤٠٥/١.

٥ : القيامة الآيات : ١٦ - ١٧ - ١٨.

٦ : أنظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ١١٩ وكذلك الإتقان للسيوطي.

اعتبرت طريقة الحفظ* والمشافهة الوسيلة الوحيدة التي اعتمد عليها في جمع القرآن الكريم في العهد النبوي، فالقرآن الكريم لما نزل بروعة نظمه ونقاء ألفاظه وشدة تأثيره على العقول والمشاعر اشتد اهتمام العرب به، وخاصة الذين كانوا من السابقين إلى الإيمان به، وكانوا يترقبون كل جديد ينزل به الوحي يجمعون بين حفظه والعمل به، وهكذا اهتم جم غفير من الصحابة كالخلفاء الأربعة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت ... بجمع القرآن الكريم وحفظه، وكان النبي ﷺ كلما نزل عليه شيء من الوحي أمر كتبة الوحي بكتابته فورا، سماعا من فمه ثم ينتشر ما نزل بين الناس، فكانت العلاقة بين المسلمين وكتاب ربهم هي الحفظ استنادا لما سمعوه من في رسول الله ﷺ، وهذه خصيصة خص الله بها الأمة المحمدية. قال بن الجزري : «إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة»[1].

ومع حرص الصحابة على مدارسة القرآن واستظهاره، فإن رسول الله ﷺ كان يشجعهم على ذلك، ويختار لهم من يعلمهم القرآن، عن عبادة بن الصامت قال : «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا»[2].

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله ﷺ ما لديهم من القرآن حفظا وكتابة، ولم تكن الوثائق* التي كتبوها في العهد النبوي مجتمعة في مصحف عام بل عند هذا ما ليس عند ذاك، وهذا يعزى إلى اختلاف قراءات الصحابة لكون القرآن أنزل على سبعة أحرف.

وقبض النبي عليه الصلاة والسلام والقرآن محفوظ في الصدور ومكتوب في الصحف، مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط وكل سورة في صحيفة على حدة، بالأحرف السبعة الواردة، ولم يجمع في مصحف عام، حيث كان القرآن ينزل فيحفظه القراء ويكتبه الكتبه، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه في مصحف واحد، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يترقب نزول الوحي من حين لآخر، وقد يكون منه الناسخ لشيء نزل من قبل، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تكتب الآية بعد نزولها حيث يشير ﷺ إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا في سورة كذا قال الزركشي: «وإنما لم يكتب في عهد النبي ﷺ مصحف لئلا يقضي إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ»[3]، وبهذا يفسر ما روي عن زيد بن ثابت قال : «قبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شيء»[4] .

وقال الخطابي : " إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة* فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر "[5].

---

* : المقصود به الحفظ في الصدور والسطور.
١ : مباحث في ع. القرآن ص ١٢٣.
(٢) : نفسه، ص ١٢١.
* : المقصود بها العسب والرقاع واللخاف ... التي كان يدون فيها القرآن.
(٣) مباحث في علوم القرآن ص ١٢٥.
(٤) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.
* إشارة إلى قوله عز وجل : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ".
(٥) مباحث في علوم القرآن ص ١٢٥.

خلاصة القول أن الهدف من الجمع الأول كان هو حفظ القرآن واستظهاره خشية أن يفلت منه شيء، قال تعالى : { وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه : ١١٤].

جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-

بعد وفاة النبي ﷺ واستقرار نصوص الوحي دعت الضرورة إلى كتابة القرآن الكريم وترتيبه بمحضر من حفظته لاسيما بعد استشهاد كثير من حملته وظهور حركة الردة من جهة، ومن جهة أخرى دخول الناس في دين الله أفواجا وهم لا يعرفون من القرآن شيئا.

وبعد أن استحر القتل بالقراء في معركة اليمامة وخشية أن يضيع القرآن أو يلتبس الأمر على المسلمين في شأن من آياته أشار عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على الخليفة أبو بكر الصديق بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع، فتردد أبو بكر في قبول ذلك خشية أن يفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ وبعد تردد شرح الله صدره لذلك، فكلف زيد بن ثابت -وهو ممن شهد العرضة الأخيرة مع النبي ﷺ- بجمع القرآن ولا يخفى ما في هذا التكليف من مشقة قال زيد " والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان علي أثقل مما أمرت به من جمع القرآن "(١).

ويتجلى جمع أبي بكر في جمع الوثائق التي كتبها كتبة الوحي في حضرة رسول الله، بمعنى تنسيق وثائق كل سورة مرتبة آياتها على نسق نزولها، ولا معنى لهذا الجمع الاما تم ذكره، وإطلاق وصف المصحف عليه إطلاق مجازي القصد منه أن يكون مرجعا موثوقا به عند اختلاف الحفاظ.

ومما يجب التنبيه إليه أن الجمع في هذه المرحلة لم يضف شيئا أو يحذفه من تلك الوثائق الخطية التي تم تدوينها في حياة النبي ﷺ وإملاء منه على كتبة وحيه الأمناء الصادقين.

وكان عمل الصديق رضي الله عنه محل إكبار الصحابة كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه " أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله "(٢).

جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وامتد سلطانها واختلطت شعوبها، وتداخلت لغاتها وأخذ كل إقليم يلتفت حول صحابي ليعلمه القرآن، فكان من الطبيعي أن تتعدد القراءات وتتباعد اللهجات ويقع الاختلاف في القرآن خاصة في وجود مصاحف الصحابة التي لم يمكن ترتيبها وضبط تلاوتها ورسمها لتباعد الأمصار الإسلامية عن المدينة، وخشي بعض الصحابة أن تتسع دائرة الخلاف فطلبوا من الخليفة أن يوحد الناس على مصحف واحد قال حذيفة ابن اليمان لعثمان : " يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى "(٣).

فأدرك عثمان عظم الأمر وقال للصحابة، اجتمعوا يا أصحاب محمد واكتبوا للناس إماما. فأرسل إلى حفصة أن إرسل إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأمر طائفة من

---

(١) مباحث في علوم القرآن ص ١٢٧.

(٢) www.al-islam.com/articles/articles.asp?fname=ALISLAM_L١١_A

(٣) مباحث في علوم القرآن ص ١٣٠.

الصحابة (كزيد بن ثابت، عبد الله بن الزبير، سعيد بن العاص ...) فنسخوها في المصاحف وقام عثمان بإرسال نسخ منها إلى كل الأمصار[١].

واتفق الصحابة رضي الله عنهم على هذا العمل وعدوه من مفاخر عثمان وحسناته، من ذلك قول الإمام علي -رضي الله عنه- " لا تقولوا في عثمان إلا خيرا فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملإٍ منا "[٢].

وكان هدف عثمان من هذا الجمع هو توحيد الأمة على القراءات الصحيحة التي قرأها النبي عليه الصلاة والسلام في العرضة الأخيرة على جبريل، وهذا ما يؤكده الباقلاني من أن ما قصد عثمان هو جمع المسلمين على القراءات الثابتة المعروفة وإلغاء ما ليس كذلك وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير[٣].

وهكذا عمل الخليفة عثمان على " حمل الناس على القراءة بوجه واحد، على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات "[٤].

وبهذا قطع عثمان دائرة الفتنة وحسم مصدر الاختلاف، وحض القرآن من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان.

رابعا:- المكي والمدني

للعلماء في معنى المكي والمدني ثلاثة اصطلاحات [٥] :

الاصطلاح الأول : باعتبار المكان :

إن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة ، ويرد على هذا التعريف أنه غير ضابط ولا حاصر ، لأنه يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيها ، كقوله تعالى : {لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوك ...} [التوبة : ٤٢]، فإنها نزلت بتبوك ، وقوله تعالى : {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ...} [الزخرف:٤٥]، نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء.

الاصطلاح الثاني : باعتبار المخاطب :

أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، ويحمل على هذا ما نقل عن ابن مسعود أنه قال : "ما كان في القرآن (يا أيها الذين آمنوا) أنزل بالمدينة أي مدني ، وما كان من القرآن بلفظ (يا أيها الناس) و (يا بني آدم) فهو مكي ، وذلك أن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة ، فخوطبوا بيا أيها الذين آمنوا ، وكذلك خطاب الكافرين بيا أيها الناس، لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة .

وهذا التقسيم لوحظ فيه المخاطبون ، لكنه غير ضابط ولا حاصر لجميع آيات القرآن الكريم لأمرين :-

---

(١) أنظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان وصبحي الصالحي، والإتقان للسيوطي.

(٢) www.al-islam.com/articles/articles.asp?fname=ALISLAM_L١١_A

(٣) أنظر: إعجاز القرآن للباقلاني.

(٤) أنظر: مباحث في علوم القرآن ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٥) انظر: هذه الآراء بالتفصيل في الإتقان للسيوطي – ج١ ص ٦ وما بعدها ، البرهان للزركشي – ج٢ ص ٢٤٤-٢٤٥ ، مناهل العرفان للزرقاني – ج١ ص ١٩٣-١٩٤ ، المدخل لدراسة القرآن لأبي شهبة – ص ٢٢١-٢٢٢

الأمر الأول : إنه يوجد آيات مدنية صُدِّرت بصيغة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} مثل ما جاء في سورة النساء التي اتفق على أنها مدنية ، ولكنها تبدأ بـ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}[النساء:١]، وكذلك هناك آيات مكية صدرت بصيغة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الحج:١]، وكذلك سورة البقرة مدنية وفيها {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ...}[البقرة:٢١]، وأيضاً ما جاء في سورة الحج المكية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا ...}[الحج:٧٧].

الأمر الثاني : يوجد سور كثيرة في القرآن الكريم ليس فيها الخطاب بـ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} و {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} فعلى هذا الاعتبار فهي غير مكية ولا مدنية ، مثال قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ...}[الأحزاب:١]، وقوله تعالى : {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ }[المنافقين:١].

وعلى هذا فإن هذا التقسيم غير ضابط ولا حاصر .

الاصطلاح الثالث : باعتبار زمن النزول :

وهو ما عليه جمهور العلماء أن المكي ما نزل قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، وإن كان نزوله بغير مكة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة .

وهذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول ، هو تقسيم صحيح سليم لأنه ضابط حاصر لجميع آيات القرآن الكريم .

الطريق إلى معرفة المكي والمدني :

لقد اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين هما :-

المنهج الأول : السماعي النقلي :

العمدة في معرفة المكي والمدني النقل الصحيح عن الصحابة – رضي الله عنهم – الذين شاهدوا أحوال الوحي والتنزيل ، والتابعين الآخذين عنهم ، ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول ، ويؤيد ذلك ما نقله السيوطي عن القاضي أبي بكر في الانتصار حيث قال : "إنما يُرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول، لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب في بعض أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ، وقد يعرف ذلك بغير نص عن الرسول ﷺ"(١).

وقد اشتهر بمعرفة المكي والمدني من الصحابة – رضي الله عنهم – عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال : "والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه" (٢) .

المنهج الثاني : القياس الاجتهادي :

عرفنا فيما مضى أن مرد العلم بالمكي والمدني هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين، ولكن هناك علامات وضوابط ومميزات وضعها العلماء يُعرف بها المكي والمدني هي :-

أولاً : ضوابط القرآن المكي هي (٣) :

---

(١) الإتقان للسيوطي – ج١ ص ١٦ .

(٢) انظر : مناهل العرفان – الزرقاني – ج١٢ ص ١٩٦ .

(٣) الإتقان للسيوطي – ج١ ص ٩ بتصرف ، وانظر بالتفصيل مناهل العرفان للزرقاني ج١ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

١- كل سورة فيها لفظ (كلا) وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة ، كلها في النصف الأخير من القرآن ، قال العماني : "وحكمة ذلك إن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة ، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم ، بخلاف النصف الأول ، وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه، لذلتهم وضعفهم"(١) .
٢- كل سورة في أولها حرف تهجي غير سورة البقرة وآل عمران فهما مدنيتان .
٣- كل سورة فيها سجدة أو مبدوءة بقسم .
٤- كل سورة فيها تفصيل لقصص الأنبياء وللأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة ، وفيها ذكر – تعالى – تلك القصص لأخذ العبرة والعظة بسنته – تعالى – في هلاك أهل الكفر والطغيان وانتصار أهل الإيمان .
٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة .
ثانياً : مميزات القرآن المكي :
١- الدعوة إلى أصول الإيمان الاعتقادية من الإيمان بالله واليوم الآخر وما فيه من البعث والحشر والجزاء ، والإيمان بالرسالة ، وذلك لأن أهل مكة كانوا منغمسين في الشرك والوثنية ، كذلك ناقشهم بالأدلة العقلية والكونية في عقائدهم الضالة .
٢- محاجة المشركين ومجادلتهم وإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادتهم للأصنام ، وبيان أنها لا تنفع ولا تضر .
٣- إنه تحدث عن عاداتهم القبيحة، كالقتل وسفك الدماء ، ووأد البنات واستباحة الأعراض ، وأكل مال اليتيم ، للفت أنظارهم إلى ما في ذلك من أخطار .
٤- الدعوة إلى أصول التشريعات العامة والآداب والعقائد الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، ولا سيما التي يتعلق منها بحفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسب ، وأيضاً أمرهم بالصدق والعفاف وبر الوالدين وصلة الرحم والعفو والعدل وغير ذلك .
٥- قصر أكثر آياته وسوره ، فقد سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه لهم ، وذلك لأنهم كانوا أهل البلاغة والبيان ، صناعتهم الكلام ، فيناسبهم الإيجاز والإقلال دون الإسهاب والإطناب .
ثالثاً : ضوابط القرآن المدني :
١- تتميز الآيات المدنية بذكر وبيان الحدود والفرائض ، وذلك لأنها شرعت بعد إقامة المجتمع الإسلامي .
٢- كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد والصلح والمعاهدات فهي مدنية سوى سورة الحج .
٣- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت مكية الآيات الإحدى عشرة الأولى ، وذلك لأن ظاهرة النفاق بدت تظهر في المدينة .
رابعا:- مميزان القرآن المدني (٢) :

---

(١) نقلا عن: مناهل العرفان للزرقاني ج١ ص ٢٠٢ .
(٢) الإتقان للسيوطي – ج١ ص ٩ بتصرف ، وانظر بالتفصيل مناهل العرفان – ج١ ص ٢٠٢-٢٠٣ ، وانظر المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة – ص ٢٢٨-٢٣٣ .

وللسور المدنية مميزات، منها:
١- التحدث عن دقائق التشريع ، وتفاصيل الأحكام في العبادات والمعاملات كأحكام الصلاة والصيام والزكاة ... وكذلك البيوع والربا والسرقة والكفارات كما في سورة البقرة والنساء والمائدة والنور ، وذلك أن حياة المسلمين بدأت تستقر وأصبح لهم كيان ودولة وسلطان .
٢- محاجة أهل الكتاب وبيان ضلالهم في عقائدهم ، وبيان تحريفهم لكتب الله وهذا ما توضحه سورة البقرة والمائدة والفتح .
٣- تمتاز آيات القرآن المدني بطول المقاطع، وذلك لأنها تتحدث عن التشريعات ومخاطبة أهل الكتاب .

فوائد معرفة المكي والمدني (١) :

١- معرفة المكي والمدني يساعد على تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان متعارضتان وإحداهما مكية والأخرى مدنية ، فإننا نحكم بنسخ المدنية للمكية لتأخرها عنها .
٢- أنه يعين على معرفة تاريخ التشريع ، والوقوف على سنة الله الحكيمة في تشريعه ، وهي التدرج في التشريعات بتقديم الأصول على الفروع والإجمال في التفصيل ، وبذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد .
٣- معرفة هذا العلم يزيد الثقة بهذا القرآن العظيم ، وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف ، ويدل على ذلك اهتمام المسلمين بهذا العلم عن طريق تناقلهم لهم وما نزل من قبل الهجرة وبعدها في السفر والحضر وفي الليل والنهار .
٤- معرفة هذا العلم يفيد ويساعد على تفسير القرآن الكريم ، فإن معرفة مكان النزول وزمنه يعين على فهم وتفسير القرآن العظيم .
٥- أيضاً يفيدنا في معرفة أحداث السيرة النبوية من خلال متابعة أحوال النبي وموقف المشركين من دعوته في العصر المكي والعصر المدني ، والوقوف على الغزوات التي غزاها الرسول كغزوة بدر وأحد وبني قريظة والفتح وحنين وغير ذلك .
٦- تذوق أساليب القرآن المتنوعة في خطابه لخصومه والاستفادة منها في الدعوة إلى الله ، فمخاطبة الكفار يحتاج إلى الأسلوب الخطابي في العهد المكي عن طريق التركيز على إثبات وجود الله والبعث والعقيدة ، ومخاطبة أهل الكتاب والمنافقين يحتاج إلى أسلوب الخطابة في العهد المدني عن طرق مناقشتهم في عقيدتهم المنحرفة وبيان التحريف في كتبهم .

خامسا:- أسباب النزول

إن سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه ، أو مبينة لحكمةٍ أيام وقوعه (٢)، والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله – تعالى – ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال.

وذلك مثل حادثة خولة بنت ثعلبة ، التي ظاهر منها زوجها "أوس بن الصامت" فنزلت آيات الظهار : {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ*الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إلا اللائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ

---

(١) بالتفصيل مناهل العرفان – ج١ ص ١٩٥ ، وانظر المدخل لدراسة القرآن الكريم ، ص ٢٢٠ .
(٢) أسباب النزول – الواحدي – ص ٦٦ .

يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[المجادلة:١-٤].

ومثل ما حدث بين الأوس والخزرج من خصومة ، بسبب تأليب أحد اليهود العداوة بينهما ، فقد نزل بحقها قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)} [آل عمران : ١٠٠ - ١٠٣] .

ومثل ما نزل إجابة لسؤال وجه إلى النبي قوله تعالى : {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً}[الإسراء:٨٥]، وقوله تعالى : {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً}[الكهف:٨٣]، وقوله تعالى : {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}[البقرة:١٨٥].

ومثل ما نزل إرشاداً وهداية وتعليماً للرسول كما في قوله تعالى {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)} [الكهف : ٢٣ - ٢٤]، والأمثلة كثيرة على ذلك .

وعندما نقول بأن سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثةً عنه أو مبينةً لحكمه أيام وقوعه، فذا يعني أن هناك ارتباطا بين وقوع الحدث والآية التي نزلت مبينة لحكم هذا أو هذه الحال، هذا احترز به عمَّا شاع وذاع عند بعض المفسرين حينما يذكرون مثلاً سورة الفيل نزلت قصة الفيل هل هناك ارتباط بين الحادثة والآيات ؟ الجواب : لا ، نقول : سبب النزول أن تكون الآية نزلت مبينةً لحكم الحادثة ، وهذه الحادثة سبقت بزمنٍ يسير نزول الآيات حينئذٍ لا بد من ارتباطٍ بين الآيات وبين الواقع ، فإذا كانت الواقعة قد خلا عليها الدهر كقصة أصحاب الفيل ثم نزل قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}[الفيل : ١] . لا نقول : هذه الآيات أو هذه السورة سبب نزولها ماذا ؟ قصة أصحاب الفيل نقول : لا ، قصة أصحاب الفيل تضمنت السورة بيانًا لحادثةٍ قد وقعت ومضى عليها الزمان الطويل حينئذٍ ليس ثم ارتباط بين السورة وبين هذه القصة ، إذًا ما نزلت الآية أو الآيات متحدثةً عنه أو مبينةً لحكمه أيام وقوعه هذا فيه ردٌ على كل من وضع أمام قصةٍ من قصص الأنبياء أو سورةٍ تضمنت حادثة سابقة ربطها بماذا ؟ بتلك الحادثة نقول : لا ، جاءت هذه الآيات مبينة لحادثةٍ واقعةٍ في زمنٍ قد مضى ، تحدثت كما تتحدث الآيات عن نوحٍ مع قومه ، أو عن هودٍ مع قومه ، أو عن صالحٍ ، أو شعيب مع قومه هل نزلت هذه الآيات بسبب قوم نوح ؟ لا ، سورة نوح نقول : نزلت بسبب قوم نوح ؟ الجواب : لا ، وإنما تضمنت حادثة وواقعة وحكايةً لحالة أممٍ قد خلت في هذه السورة وليس ثَمَّ ارتباط من حيث النزول ، يعني لم يكن سبب نزول الآيات هو تلك الحادثة[1] .

---

(١) انظر: شرح منظومة التفسير، الشيخ عبد العزيز الزمزمي، شرحه وعلق عليه الشيخ أحمد بن عمر الحازمي(الشريط السادس).

طريق معرفة سبب النزول [1] :

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح ، ولا مجال للعقل فيه إلا بالتمحيص والترجيح ، قال الواحدي : "لا يحل القول في أسباب نزول القرآن بالرواية والسماع ، إلا ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن عللها" [2] .

وعلى هذا فإن رُوي سبب النزول عن صحابي فهو مقبول ، وإن لم يعزز برواية أخرى ، لأن قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه حكمه المرفوع إلى النبي .

وأما ما روي من سبب النزول بحديث مرسل ، أي سقط من سنده الصحابي وانتهى إلى التابعي ، ففي حكمه قولان:

الأول: تقبل بأربعة شروط:

١ – التصريح بالسبب.

٢ – صحة الإسناد.

٣ – أن يكون من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة.

٤ – أن يعتضد برواية تابعي آخر تتوفر فيه هذه الشروط. وهو قول السيوطي وجماعة.

الثاني: لا تُقبل لأنها في حكم الحديث المرفوع وهو مرسل من التابعي، والمرسل لون من ألوان الحديث الضعيف وبالتالي فهو غير مقبول، والله أعلم .

إذن لاتقبل رواية التابعي إلا إذا صح سنده ، واعتضد بمرسل آخر ، وكان الراوي له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة مباشرة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير .

أقسام أسباب النزول :

ينقسم القرآن الكريم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين :

القسم الأول : قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق ، وإرشادهم على الأفضل في هذه الحياة ، وهو كثير ظاهر في القرآن الكريم .

القسم الثاني : قسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة وهو موضوع البحث ، وهو كثير في القرآن الكريم ، مثل حديث الإفك ، أو إجابة عن سؤال ، أو بيان لأمر يتعلق بحادثة معينة[3] .

فوائد معرفة سبب النزول [4] :

١- الاستعانة على فهم الآية وإزالة الإشكال عنها : مثاله :

أنه أشكل على عروة بن الزبير – رضي الله عنهما – أن يفهم فريضة السعي بين الصفا والمروة من قوله {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}[البقرة:١٨٥]، وذلك لأن الآية نفت الجُناح ، ونفي الجناح لا يدل على الفرضية ، حتى سأل خالته السيدة عائشة – رضي الله عنها

---

(١) مناهل العرفان – الزرقاني – ج١ ص ١٠٦ .

(٢) المدخل لدراسة القرآن – ص ١٣٤-١٣٥ ، مناهل العرفان – ج١ ص ١١٤ .

(٣) الإتقان – السيوطي – ج١ ص ٢٩ بتصريف ، مناهل العرفان – الزرقاني – ج١ ص ١٠٦ .

(٤) انظر بالتفصيل الإتقان – السيوطي – ج١ ص ٢٩ بتصرف ، وانظر المدخل لدراسة القرآن الكريم – أ.د. محمد أبو شهبة – ص ١٣٦-١٣٧ .

ـ عن ذلك ، فأفهمته أن نفي الجُناح ليس نفياً للفرضية ، إنما هو نفي لما وقر في أذهان المسلمين يومئذٍ من التحرج والتأثم من السعي بين الصفا والمروة ؛ لأنه من عمل الجاهلية [١] .

وقد اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية على أقوال[٢]:

أحدها: قالت:عائشة-رضي الله عنها-: "أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله - ﷺ - عن ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[٣].

الثاني: قال الشعبي: "أن وَثَنًا كان في الجاهلية على الصفا يسمى (إسافًا)، ووثنًا على المرْوة يسمى(نائلة)، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت مَسحوا الوثَنين. فلما جاء الإسلام وكُسرت الأوثان ، قال المسلمون : إنّ الصفا والمرْوة إنما كانَ يُطاف بهما من أجل الوَثنين ، وليس الطواف بهما من الشعائر! قال : فأنزل الله : إنهما من الشعائر ، " فمن حَجّ البيتَ أو اعتمر فلا جُناحَ عليه أن يطوّف بهما " [٤].

وروي عن عامر[٥]، ويزيد[٦]، وأنس بن مالك[٧]، وابن عمر[٨]، ومجاهد[٩]، وابن زيد[١٠]، نحو ذلك.

وقد ذكر ابن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافا ونائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قُريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبدا ، ثم حولا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك ، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ، ولهذا يقول أبو طالب، في قصيدته المشهورة :

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم   بمفضى السيول من إساف ونائل[١١]

الثالث: وقال قتادة: "قوله :{إنّ الصفا والمرْوَة من شعائر الله}، الآية ، فكان حَيٌّ من تهامة في الجاهلية لا يسعون بينهما ، فأخبرهم الله أنّ الصفا والمروة من شعائر الله ، وكانَ من سُنة إبراهيم وإسماعيلَ الطواف بينهما"[١٢].

---

(١) مناهل العرفان – الزرقاني – ج١ ص ١٠٩ .

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي:٤٤-٤٧، والعجاب: ٤٠٦/١-٤١١.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ٤٤-٤٥. و أخرجه البخاري (فتح الباري: ٦١٤/٣ - ح: ١٧٩٠ ٤٩٧/٣ - ح: ١٦٤٣) ومسلم (٩٢٨/٢ - ح: ٢٦٠ ٩٢٩/٢ - ح: ٢٦١، ٩٣٠/٢ - ح: ٢٦٣) والإمام مالك (الموطأ: ٢٥٧ - ح: ٨٣٥ رواية يحيى الليثي) والإمام أحمد (الفتح الرباني: ١٨/ ٧٨ - ح: ١٧٣، ٧٩/١٨ - ح: ٧٤) وأبو داود (٤٥٣/٢ - ح: ١٩٠١) والترمذي (٢٠٨/٥ - ح: ٢٩٦٥) والنسائي (جامع الأصول: ١٨/٢) وابن ماجه (٩٩٤/٢ - ح: ٢٩٨٦) وابن جرير (٢٩/٢، ٣١) كلهم عن عائشة رضي الله عنها به.

(٤) أخرجه الطبري(٢٣٣٥):ص٣/ ٣٣١.

(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٣٣٦):ص٣/ ٢٣١-٢٣٢.

(٦)انظر: تفسير الطبري(٢٣٣٧):ص٣/ ٢٣٢.

(٧)انظر: تفسير الطبري(٢٣٣٨)،و(٢٣٣٩):ص٣/ ٢٣٢.

(٨)انظر: تفسير الطبري(٢٣٤٠):ص٣/ ٢٣٣.

(٩)انظر: تفسير الطبري(٢٣٤٣)، و(٢٣٤٤):ص٣/ ٢٣٥.

(١٠)انظر: تفسير الطبري(٢٣٤٥):ص٣/ ٢٣٥.

(١١)السيرة النبوية لابن إسحاق (رقم النص ٤) ط ، حميد الله ، المغرب.

(١٢) أخرجه الطبري(٢٣٤٩):ص ٢٣٦/٣، و(٢٣٥٢):ص٢٣٨/٣.

وروي عن عائشة[١]، نحو ذلك.

الرابع: وقال مقاتل بن سليمان:" وذلك أن الخمس: وهم قريش، وكنانة، وخزاعة، وعامر بن صعصعة، قالوا: ليست الصفا والمروة من شعائر الله، وكان على الصفا صنم يقال له نائلة، وعلى المروة صنم يقال له يساف في الجاهلية. قالوا، إنه حرج علينا في الطواف بينهما، فكانوا لا يطوفون بينهما فأنزل الله- عز وجل- {إن الصفا والمروة من شعائر الله}"[٢].

الخامس: وقال ابن كثير: "قال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى : {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}[٣].

السادس:قال ابن عباس:" أنه كانَ في الجاهلية شَياطين تعزِفُ الليل أجمعَ بين الصفا والمروة، وكانت بَينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام وظَهر ، قال المسلمون : يا رَسولَ الله ، لا نطوف بين الصفا والمروة ، فإنه شركٌ كنا نفعله في الجاهلية! فأنزل الله :{ فلا جُناح عليه أن يطوَّف بهما}"[٤].

ومن هذا قول الله تعالى : {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[المائدة:٩٣]، فهذا اللفظ الكريم يدل بظاهره على أن للإنسان أن يصلي إلى أي جهة شاء ، ولا يجب عليه أن يولي وجهه شطر البيت الحرام لا في سفر ولا في حضر ، لكن إذا علم أن هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة ، أو فيمن صلى باجتهاده ثم ظهر له خطأ ذلك [٥] فلا بد أن يقصرها على هذا السبب ويعلم أنه في صلاة الفرض لا بد من التوجه قِبَل الكعبة المشرفة .

٢- معرفة الحكمة من تدرج التشريع :

إن الشريعة الإسلامية قائمة على رعاية المصالح ودفع الضرر ، خصوصاً إذا لاحظ الإنسان تدرج التشريع في موضوع واحد ، ويكفي شاهداً على ذلك تحريم الخمر ، وما نزل فيه ، أيضاً تشريع الكفارات لمن حنث في اليمين .

٣- العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب :

آيات الظهار في مفتتح سورة المجادلة سببها أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت ثعلبة والحكم الذي تضمنته هذه الآيات خاص بهما وحدهما على هذا الرأي ، أما غيرهما فيعلم بدليل آخر قياساً ، وبدهي أنه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم والقياس عليه إلا إذا علم السبب ، وبدون معرفة السبب تصير الآيات معطلة خالية الفائدة.

سادسا:- المحكم والمتشابه في القرآن الكريم

المحكم لغة :الحاء والكاف والميم أصل واحد، وهو"المنع"[٦]، و"المحكم" :ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى"[٧].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(٢٣٥٠)، و(٢٣٥١):ص ٢٣٦/٣-٢٣٧.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٥٢/١.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٧٠/١.
(٤) أخرجه الطبري(٢٣٤٢):ص٢٣٤/٣، و تفسير القرطبي: ١٧٩/٢، وانظر: أسباب النزول للواحدي: ٤٦، حكاه عن السدي.
(٥) الإتقان – السيوطي – ج١ ص ٢٩ ، وانظر البرهان – الزركشي – ج١ ص ٥٢-٥٣
(٦)معجم مقاييس اللغة،ابن فارس، ج٢، مادّة"حكم"، ص٩١.
(٧) مفردات ألفاظ القرآن، راغب الأصفهاني، مادّة"حكم"، ص٢٥١.

قال ابن منظور:" فالمحكم من أصل حكم والـمُـحْكَمُ الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب، أُحْكِمَ فهو مُـحْكَمٌ" [١].

قال الفيروز آبادي: "وسُورَةٌ مُحْكَمَةٌ: غَيْرُ مَنْسوخَةٍ، والآياتُ المُحْكَماتُ مثل قوله تعالى: { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ }[الأنعام /١٥١ .]، إلى آخِرِ الآية ، أو التي أُحْكِمَتْ فلا يَحْتاجُ سامِعُها إلى تأويلِها لِبيانِها، كأَقاصِيصِ الأَنْبِياءِ" [٢].

قال الزركشي : فأما (المحكم)، فأصله لغة :المنع ، تقول : أحكمت بمعنى رددت ، والحاكم لمنعه الظالم من الظلم ، حكمة اللجام هي التي تمنع الفرس من الاضطراب [٣].

وعليه، فالمحكم هو ما كان ذا دلالة واضحة، بحيث لا يحتمل وجوهاً من المعاني.

المعنى الاصطلاحي : ذُكِرَت للمحكم تحديدات عدّة، منها [٤]:

١- ما أنبأ لفظه عن معناه من غير أن ينضم إليه أمر لفظ يبيّن معناه، سواء أكان اللفظ لغوياً أم عرفياً، ولا يحتاج إلى ضرب من ضروب التأويل.

٢-المحكم: ما استقلّ بنفسه، ولم يفتقر إلى غيره.

٣-المحكمات: هي آيات واضحة المُراد، لا اختلاف فيها ولا اضطراب.

قال ابن عباس: "قرأت المحكم على عهد رسول الله -ﷺ- " [٥] ، يريد المفصل من القرآن لأنه لم ينسخ منه شيء.

والمتشابه لغة : "الشين والباء والهاء أصل واحد يدلّ على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً... والمشبّهات من الأمور المشكلات، واشتبه الأمران إذا أشكلا" [٦].

والْمُتَشَابِه من القرآن: "ما أُشكِلَ تفسيره لمشابهته بغيره، إمّا من حيث اللَّفظ، وإمّا من حيث المعنى" [٧].

قال الفيروز آبادي: "و الـمُشْتَبِهَات من الأُمور: الـمُشْكِلاتُ: و الـمُتشابِهَاتُ: الـمُتَماثِلات، وأُمورٌ مُشْتَبِهَةٌ ومُشَبَّهَةٌ، كَمُعْظَّمَةٍ: مُشْكِلَةٌ. والشُّبْهَةُ، بالضم: الالْتَبِاس، والمِثْلُ. وشُبِّهَ عليه الأَمْرُ تَشْبيهاً: لُبِّسَ عليه" [٨].

---

(١)لسان العرب: (حكم) :٩٥٢/٢.

(٢)القاموس المحيط (الحكم).

(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي : ٦٨/٢ وانظر : مناهل العرفان - الزرقاني : ١٦٦/٢

(٤)انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي : ٦٨/٢، ومناهل العرفان، الزرقاني : ١٦٦/٢، والإتقان في علوم القرآن، السيوطي: ٦/٢، و لسان العرب ١٤١/١٢ .

(٥)أخرجه البخاري بسنده عن سعيد بن جبير قال : وقال ابن عباس : (ثم توفي رسول الله S وأنا بن عشر سنين وقد قرأت المحكم) (٤٧٤٨) ١٩٢٢/٤.

(٦)معجم مقاييس اللغة، م.س، ج٣، مادّة"شبه"، ص٢٤٣.

(٧)مفردات ألفاظ القرآن، م.س، مادّة"شبه"، ص٤٤٣.

(٨) القاموس المحيط (ش) (الشِّبْهُ) .

قال ابن منظور:" و شَبَّهَ عليه: خَلَّطَ عليه الأَمر حتى اشْتَبَه بغيره" [1].
قال الخليل: "والشبه ضرب من النحاس ، يلقى عليه دواء فيصفر ، وسمي شبها لأنه شبه بالذهب ، وفي فلان شبة من فلان أي شبيهه ، وتقول : شبهت هذا بهذا ، وأشبه فلان فلانا ، وأشبه الشيء الشيء ماثله ، والمشبهات من الأمور المشكلات ، تشابه الشيئان أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا ، وشبه فلان علي إذا خلط ، واشتبه الأمر"[2] .
قال الزركشي : "أما المتشابه فأصله أن يشتبه اللفظ في الظاهر مع اختلاف المعاني ، ويقال للغامض متشابه لأن جهة الشبه فيه ، والمتشابه مثل المشكل لأنه أشكل و دخل في شكل غير شكله "[3].
المعنى الاصطلاحي : ذُكِرَت للمتشابه تحديدات عدّة، منها[4]:
١- ما كان المراد به لا يُعرَف بظاهره، بل يحتاج إلى دليل، وهو ما كان محتملاً لأمور كثيرة أو أمرين، ولا يجوز أن يكون الجميع مراداً، فإنّه من باب المتشابه.
٢- المتشابه: ما لا يستقلّ بنفسه إلا بردّه إلى غيره.
٣- الآيات المتشابهة: هي آيات ظاهرها ليس مُراداً، ومُرادها الواقعي الذي هو تأويلها لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، ويجب الإيمان بها، والتوقّف عن اتّباعها، والامتناع عن العمل بها... والآيات المتشابهة منجهة المدلول والمُراد ترجع للآيات المحكمة، وبمعرفة المحكمات يُعرَف معناها الواقعي... فالمتشابه هو الآية التي لا استقلال لها في إفادة مدلولها، ويظهر بواسطة الردّ إلى المحكمات، لا أنّه ما لا سبيل إلى فهم مدلوله.
ورد في كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر بأن المُتَشَابه: ما لم يُتَلَقَّ معناه من لَفْظِه، وهو على ضربين: أحدُهُما إذا رُدَّ إلى المُحْكَم عُرِف معناه، والآخر ما لا سبيل إلى معرفة حقيقته. فالمُتَتَبِّع له مُبْتَغ لِلْفتنَة، لأنه لا يكادُ ينتهي إلى شيءٍ تسكن نَفْسُه إليه" [5].
وفي حديث حذيفة[6]: وذكر فتنةً فقال: "تُشَبِّهُ مُقْبِلَةً وتُبَيِّنُ مُدْبِرَةً"[7]، قال شمر[8]: "معناه أَنَّ الفتنة إذا أَقْبلت شَبَّهَتْ على القوم وأَرَتْهُم أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها ويَرْكَبُوا منها ما لا يحل، فإذا أَدْبرت وانقضت بانَ أَمرها، فعَلِمَ مَنْ دخل فيها إنه كان على الخطأ"[1].

---

(١)لسان العرب (شبه) :٢١٩٠/٤ .
(٢)كتاب العين، الفراهيدي : أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، تحقيق د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي ، نشر دار ومكتبة الهلال ٤٠٤/٣ ، والمعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية، نشر دار المعارف ، ط٣ ، ٤٩٠/١ .
(٣)البرهان، الزركشي : ٦٩/٢ .
(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن ، ج٢، ص٦٩-٧١، الإتقان في علوم القرآن ، ج٢، ص٥-٧، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج٢، ص٢١٥-٢١٩.
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (شبه) . ٤٤٢/٢
(٦) حذيفة بن اليَمان حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين . أنظر : تقريب التهذيب ١٥٤/١
(٧)وتمامه عن حذيفة قال: (إياك والفتن لا يشخص لها أحد فوالله ما شخص منها أحد إلا نسفته كما ينسف السيل الدمن ، إنها مشبهة مقبلة حتى يقول الجاهل هذه تشبه مقبلة وتتبين مدبرة ، فإذا رأيتموها فاجتمعوا في بيوتكم واكسروا سيوفكم وقطعوا أوتاركم وغطوا وجوهكم) قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرك على الصحيحين ، ٤٩٥/٤ .
(٨) لعله شِمْرُ بنُ عَطِيَّة الأَسَدِي الكَاهِلِي الكُوْفِي. وقال النَّسائي: ثقة. وذكره ابنُ حِبَّان في كتاب «الثِّقات». تهذيب الكمال - المزي ترجمة (٣١٠١) قال ابن حجر : صدوق، من السادسة. تقريب التهذيب : ٢٦٨/١ .

وقد اختلف العلماء في وجود المتشابهات في القرآن الكريم، وفيه قولان:
أحدهما: أنه لا وجود للمتشابهات في القرآن، لأن القرآن كتاب هداية عامّة لكلّ الناس.

ودليهم قوله تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران : ١٣٨]، وقال تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود : ١]، فلا وجود فيه لآيٍ متشابهة بالذات، وأمّا التعبير بالتشابه في آيِ القرآن، فهو بمعنى التشابه بالنسبة إلى أُولئك الزائغين الذين يحاولون تحريف الكلِم عن مواضعه.

والثاني: القول بوجود المتشابهات في القرآن : إذ يشتمل القرآن الكريم على آيات متشابهات، كما هو مشتمل على آيات محكَمات، لقوله تعالى :{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران : ٧] ، فيشتمل على تقسيم آيات القرآن إلى المحكم والمتشابه.

والراجح هو القول الثاني، إذ أن المراد بالإحكام في قوله: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران : ٧]، غير الإحكام الذي وُصِفَ به جميع الكتاب في قوله تعالى :{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود : ١]، وكذا المراد بالتشابه فيه غير التشابه الذي وُصِفَ به جميع الكتاب في قوله تعالى :{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا}[الزمر: ٢٣]. والله أعلم.

سابعا- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم

يعد الناسخ والمنسوخ في القرآن من المسائل التي كثر فيها الجدل بين المؤيدين والمعارضين، فيعرض البحث تعريف هذا الفن و منشأه وأدلة القائلين به وأنواعه وشروطه. ويتناول البحث حجج المعارضين التي تدحض النسخ أساسا وشكلا ثم يعرض بعض القضايا التي ذُكرت في الآيات الشريفة وادعى البعض أنها منسوخة. ويتم تفنيدها من خلال حجج معارضي النسخ ويتبين أن كل قضية من تلك القضايا يمكن معالجتها علي حدة وان كل آية شريفة تعبر عن قضية مختلفة أو أنها متناسجة مع بعضها البعض. يستتبع ذلك تأمل في دلالات نسخ الآية بما يتعلق بقضية تطور الإنسان عندما يقرأ الإنسان آيات الله في الأفاق وفي نفسه. وبقدر صدق الإنسان في قراءته لآيات الله ، يكتب بالله في نسخة كتابه ويثبت الفعل الحسن ويمحو منها السيئ ليأخذ كتابه بيمينه فيكون بذلك آية ومثل أفضل من قديمه. إن نسخ الآية لجديد أفضل هو تعبير عما هو أفضل للإنسان فلا ينبغي التشبث بالألفاظ ونسيان ما فيها من دلالات. ويعرض الباحث رؤيته في تلك القضايا التي تتعلق بما يجب أن يكون عليه الإنسان. فجميع القضايا المذكورة في القرآن ليست بمنأى عن الإنسان فجميعها وجوه للحقيقة لتشخص للإنسان داءه وتصف دواءه فمن أحصى منها شيئاً ارتقى.

---

(١)أنظر : غريب الحديث (حكم). ٤١٩/١ .

لقد اهتم المفسرون،وعلماء القرآن منذ القدم بالناسخ والمنسوخ حتى ألَّفوا في ذلك مصنفات كثيرة منهم أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السجستاني، وأبو جعفر النحاس، وابن الأنبا ري،ومكي بن أبي طالب القيسي،وابن العربي وآخرون[١].

وقيل أن بدء التدوين فيه يرجع إلى القرن الثاني الهجري،وكتب فيه : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الأصمعي، ،وكان الصحابة وعلى رأسهم الإمام علي (عليه السلام) يرون أن معرفة الناسخ والمنسوخ شرطا في أهلية المفسر للتفسير والمحدث للحديث.

قال الأئمة : "ولا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال علي بن أبي طالب لقاص:أتعرف الناسخ والمنسوخ ؟ قال: الله أعلم، قال هلكت وأهلكت"[٢].

وللمفسرين في الآيات المنسوخة آراء مختلفة تداخلت مع غيرها واشتبهت على كثير منهم . فظن بعض منهم أنه نسخ، ولو تمعنوا جيدا لوجدوها أنه ليس بنسخ، قال الزركشي :"إنما نسأ وتأخير، أو مجمل أُخِر بيان لوقت الحاجة، أو خطاب قد حال بينه وبين أوَله خطاب آخر غيره،أو مخصوص من عموم، أو حكم عام لخاص، أو لمداخلة معنى في معنى، وأنواع الخطاب كثيرة فظنوا ذلك نسخا وليس به..."[٣].

وللناسخ والمنسوخ الدور الكبير في استنباط الأحكام الشرعية، إذ به يعرف الحكم الثابت الباقي الذي يعمل به عن الحكم الزائل المتروك .

تعريف النسخ

النسخ لغة: رفع شيء وإثبات غيره مكانه،أو تحويل شيء إلى غيره، ومنه نسخ الكتاب ومنه: أمر كان يعمل به من قبل ثم ينسخ بحادث غيره ٠٠وكل شيء خلف شيئا فقد انتسخه، فيقال : انتسخت الشمس الظل، والشيب الشباب ٠٠ومنه نسخ الكتاب[٤].

وقيل النسخ في اللغة يطلق على معنيين[٥]:

الأول: بمعنى الإزالة ومنه قوله تعالى {فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آَيَاتِهِ} (الحج: ٥٢)، تقول العرب: نسخت الشمس الظل، أي أزالته حلت محله.

والثاني: نقل الشيء من كان إلى مكان دون تغير، ومنه نسخ الكتاب أي تكتب كتابا عن كتاب حرفا بحرف وكلمة بكلمة.

وبمعنى التبديل، ومنه قوله تعالى {وَإِذَا بَدَّلْنَا آَيَةً مَكَانَ آَيَةٍ}[النحل: ١٠١].

وبمعنى التحويل، كتناسخ المواريث، بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد.

وبمعنى النقل من موضع إلى موضع، ومنه نسخت الكتاب، إذ نقلت ما فيه حاكيا للفظه وخطه[٦].

والنسخ في الشرع(الاصطلاح):- أجمع العلماء والمفسرون وكل من بحث في علوم القرآن أنَّ اختصاص النسخ في العلوم القرآنية هو إبطال حكم آية قرآنية بآية قرآنية أخرى.

---

(١) انظر: الإتقان / السيوطي / ٥١/٣.
(٢)البرهان / الزركشي / ٣٤/٢.
(٣) المصدر نفسه: والصحيفة نفسها.
(٤)معجم مقاييس اللغة، مادة نسخ .
(٥)لسان العرب ، ابن منظور: مادة(نسخ.٩
(٦) الإتقان: ٥١/٣.

فقيل النسخ في الشرع:"إزالة ما كان ثابتا بنص شرعي،سواء عمل به أم لم يعمل به"[١].
وعرفه الراغب بأنه:"إزالة مثل الحكم الثابت بالشرع بشرع آخر مع التراخي"[٢].
وهناك تعريف للنسخ في اصطلاح الشريعة جامع مانع وكل التعاريف التي قيلت تنصب فيه هو "رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه"[٣].
وهذا المعنى الشرعي يتصل بالمعنى اللغوي الأول للنسخ[٤].

أهمية النسخ في التفسير

من أساسات علوم التفسير علم الناسخ والمنسوخ وهو من العلوم التي لا يقوم إلا بها وكذلك لا يمكن معرفة الأحكام الشرعية المستنبطة وتفسير تعارض النصوص إلا بمعرفته، ولذلك أفرد له علماء أصول التفسير وعلماء أصول الفقه مصنفات قديما وحديثا .

قال القرطبي :" معرفة هذا الباب أكيدة، وفائدته كبيرة، لا يستغنى عنه معرفته العلماء ولا ينكره إلا الجهلة أنصاف المتعلمين، لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام ومعرفة الحلال والحرام روى البختري قال : دخل علي رضي الله عنه المسجد، فإذا رجل يخوف الناس، قال: ما هذا ؟ قالوا : رجل يذكر الناس .فقال: ليس برجل يذكر الناس، لكنه يقول: أنا فلان بن فلان اعرفوني . فأرسل إليه فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ فقال: لا، قال: فاخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه، وفي رواية : أعلمت الناسخ والمنسوخ ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت . ومثله عن ابن عباس رضي الله عنهما"[٥].

اهتم العلماء والمفسرون والباحثون منذ القدم بموضع الناسخ والمنسوخ، وهي من الأمور التي يسر الله تعالى بها على المؤمنين وقت تنزيل القرآن في تطبيق الأحكام والوقوف على الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم من الأمور الواجب معرفتها عند كل من يريد أن يتصدى للتفسير القرآني، إذ يدخل في تحديد المراد من النصوص القرآنية وهذا ما أكده العلماء وقالوا "لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف من الناسخ والمنسوخ وقد رويت كثير من الأخبار عن الصحابة"[٦].

ومن الكثيرين الذين بحثوا في الناسخ والمنسوخ أكدوا على أهمية هذا العلم في فهم مراد الله تعالى من نصوص القرآن الكريم وهو يعد علما من الواجب على العالم معرفته حتى يكون بحثه في هذا العلم رصينا وموافقا لما أمر به سبحانه وتعالى.

يقول مكي بن أبي طالب بهذا الخصوص: "وأن من أكد ما عني أهل العلم والقرآن بفهمه، وحفظه والنظر فيه من علوم القرآن وسارعوا إلى البحث عن فهمه وعلم أصوله، علم ناسخ القرآن ومنسوخه فهو علم لا يسع كل من تعلق بأدنى علم من علوم الديانة جهله"[٧].

---

(١)المصباح المنير ، أحمد بن محمد الفيومي ، مادة (نسخ) ص٦٠٢.
(٢)مقدمة جامع التفاسير ، الراغب : ص٨٢.
(٣) انظر: النسخ في القرآن، مصطفى زيد: ١٠٥/١ظ،الإحكام في أصول الأحكام/ الآمدي ٩٨/٣، الوجيز في أصول الفقه، عبد الكريم زيدان ص٩٣٢.
(٤)الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ، مكي ابن أبي طالب : ص٤٣.
(٥)الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي :٦٢/٢.
(٦) انظر: فهم القرآن، الحارث المحاسبي ص٣٢٧ ظ،الناسخ والمنسوخ النحاس ص٥٠٤ ظ، تلخيص التمهيد/ محمد هادي معرفة: ٤١٧/١.
(٧)الإيضاح ، مكي طالب : ٤٥ـ ٤٦.

وللنسخ أهمية كبيرة في مجال العرض على القرآن الكريم فمع ثبوت النسخ في بعض من الآيات القرآنية لا يمكن الرجوع إليها في تفسير الآيات الكريمة الأخرى .

فالزركشي يقول في هذا الشأن :"إن العلم بالناسخ والمنسوخ عظيم الشأن وقد صنف به جماعة كثيرون"(١).

وقال الزرقاني :"أنه طويل الذيل، كثير التفاريع، متشعب المسالك ..المسائل التي يتناوله دقيقة،إذن على الباحث الذي يتناول النسخ أن يكون يقضا ودقيقا وأن يتصف بحسن الاختيار ..والنسخ يكشف النقاب عن مسيرة التشريــع الإسلامي، ويصبح الإنسان مطلعا على حكمة الله تعالى في تربيته للخلق وسياسته للبشر وابتلائه للناس وهذا ما يدل باليقين والتواتر على أن الرسالة الإسلامية هي من الله تعالى العزيز الحكيم .... إن معرفة الناسخ والمنسوخ يعد ركنا مهما وعظيما في فهم الإسلام،وفي الاهتداء إلى صحيح الإسلام"(٢).

تاسعا:- القراءات

فالقرآن الكريم، كتاب الله الخالد، ومعجزة رسوله محمد ﷺ، التى لا تفنى إلى الأبد. وهو كتاب منتظم الآيات، متعاضد الكلمات، لا نفور فيه ولا تعارض، ولا تضاد ولا تناقض، صدق كلها أخباره، عدل كلها أحكامه، وصدق الله إذا يقول: {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً}[الأنعام: ١١٥]، هذه الآية تنفى عن القرآن الكريم التناقض فى معانيه ومبانيه، أما من جهة المعنى، فلا تجد آية تثبت معنى تنقضه آية سواها، ولا يَرِد على ذلك الناسخ والمنسوخ، فإن ذلك ليس من التناقض ولا من الاختلاف فى شئ، لأن النسخ رفع لحكم، وإثبات لآخر، فالباقى إذن حكم واحد هو المحصلة النهائية، فليس ثمت ما يعارضه، ولا يرد على ذلك أيضاً موهم الاختلاف، فإنه متناقض فى نظر من لا نظر له، لكن عند التدبر يتم التوفيق والالتئام، ولا يرد على ذلك أيضاً الاختلاف بين قراءاته، فهو اختلاف تلازم وتنوع، وليس اختلاف تضاد وتناقض، ولذلك فإن القراء لم يعترض بعضهم على بعض، فالكل صحيح ما دام مستوفياً لشروطه، كما سيأتى ذلك فى محله إن شاء الله تعالى، ولا يرد على ذلك الاختلاف حول تفسيره، أو وجوه إعرابه، أو معانى لغاته، لأن ذلك ليس اختلاف فى القرآن، بل هو اختلاف فى كلام البشر عن القرآن، والفرق بين القرآن والتفسير، تماماً كالفرق بين الخالق والمخلوق(٣).

وقد سئل الإمام الغزالى عن معنى قوله تعالى: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) فأجاب بما صورته: الاختلاف لفظ مشترك بين معان، وليس المراد نفى اختلاف والناس فيه، بل نفى الاختلاف عن ذات القرآن. يقال هذا كلام مختلف فيه، أى: لا يشبه أوله آخره فى الفصاحة، إذ هو مختلف، أى: بعضه يدعو إلى الدين، وبعضه يدعو إلى الدنيا، أو هو مختلف النظم فبعضه على وزن الشعر، وبعضه منزحف، وبعضه على أسلوب مخصوص فى الجزالة، وبعضه على أسلوب يخالفه، وكلام الله منزه عن هذه الاختلافات، فإنه على منهاج واحد فى النظم مناسب أوله آخره، وعلى مرتبة واحدة فى غاية الفصاحة، فليس يشتمل على الغث

---

(١)البرهان / الزركشي/ ٣٣/٢.

(٢)مناهل العرفان في تفسير القرآن / الزر قاني٦٩/٢ـ ٧٠ .

(٣) بين القراءات والتفسيرتأصيل وتطبيق، أ٠د/أحمد سعد الخطيب، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر(بحث منشور بتصرف بسيط).

والسمين، ومسوق لمعنى واحد، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى، وصرفهم عن الدنيا إلى الدين[١].

وقريب من هذا ما نقل عن ابن مسعود رضى الله عنه :" لا تنازعوا فى القرآن فإنه لا يختلف ولا يتلاشى، ولا ينفد لكثرة الرد، وإنه شريعة الإسلام وحدوده وفرائضه، ولو كان شئ من الحرفين -أى القراءتين - ينهى عن شئ يأمر به الآخر، كان ذلك الاختلاف، ولكنه جامع ذلك كله لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض، ولا شئ من شرائع الإسلام ولقد رأيتنا نتنازع عند رسول - ﷺ -، فيأمرنا فنقرأ فيخبرنا أن كلنا محسن....."[٢].

ومن الأسباب التى كانت وراء هذه الآراء الكثيرة المتناثرة فى كتب التفسير، ولاسيّما المعنيّ منها بالتفسير المأثور والسبب المختار هو "اختلاف القراءات" إذ أن اختلاف القراءات كان سبباً فى اختلاف المفسرين حول بيان المعنى المقصود من النص القرآنى، وعليه قام العلماء بوضع ضوابط وقواعد كلية تساعد على حسم هذا الخلاف، و الوصول إلى المعنى الراجح.

القراءات لغة واصطلاحا

القراءات :جمع قراءة، والقراءة فى اللغة مصدر قرأ، وفى الاصطلاح: مذهب من مذاهب النطق فى القرآن، يذهب إليه إمام من الأئمة مخالفاً به غيره، سواء أكانت هذه المخالفة فى نطق الحروف، أو فى نطق هيئاتها[٣].

وعلم القراءات: هو علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقاً واختلافاً، مع عزو كل وجه لناقله. فموضوع علم القراءات إذن، كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها، وكيفية أدائها [٤] .

نشأة القراءات:

إن الزمن الذى نشأت فيه القراءات القرآنية، هو زمن نزول القرآن الكريم نفسه، ضرورة أن هذه القراءات، قرآن نزل من عند الله فلم تكن من اجتهاد أحد، بل هى وحى أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ، وقد نقلها عنه أصحابه الكرام - رضى الله عنهم - حتى وصلت إلى الأئمة القراء، فوضعوا أصولها، وقعدوا قواعدها، فى ضوء ما وصل إليهم، منقولاً عن النبى -صلى الله عليه وسلم - وعلى ذلك، فالمعول عليه فى القراءات، إنما هو التلقى بطريق التواتر، جمع عن جمع يؤمن عدم تواطؤهم على الكذب، وصولاً إلى النبى ﷺ. أو التلقى عن طريق نقل الثقة عن الثقة وصولاً كذلك إلى النبى ﷺ، ويضاف إلى هذا القيد قيدان آخران سيذكران فى محلهما عند الحديث عن شروط القراءة الصحيحة، أو ضوابط قبول القراءة.

وانطلاقاً من ذلك وبناءً عليه، فإن إضافة هذه القراءات إلى أفراد معينين، هم القراء الذين قرأوا بها، ليس لأنهم هم الذين أنشأوها أو اجتهدوا فى تأليفها، بل هم حلقة فى سلسلة من الرجال الثقات الذين رووا هذه الروايات ونقلوها عن أسلافهم، انتهاءً بالنبى ﷺ، الذى تلقى هذه

---

(١) انظر : البرهان فى علوم القرآن ١/ ٤٦ ، معترك الأقران ١ / ٩

(٢) أخرجه الطبري(١٨):ص١/٢٨. إسناده ضعيف جدا.

(٣) المهذب فى القراءات العشر ١ / ٦

(٤) المهذب فى القراءات العشر: ١ / ٦

القراءات وحياً عن ربه - جل وعلا. وإنما نسبت القراءات إلى القراء لأنهم هم الذين اعتنوا بها وضبطوها ووضعوا لها القواعد والأصول.

أما سبب اختلاف القراءات، ذلك أن الصحابة - رضى الله عنهم - كانوا من قبائل عديدة، وأماكن مختلفة، وكما هو معروف أنه كما تختلف العادات والطباع باختلاف البيئات، فهكذا اللغة أيضاً، إذ تنفرد كل بيئة ببعض الألفاظ التى قد لا تتوارد على لهجات بيئات أخرى، مع أن هذه البيئات جميعها تنضوى داخل إطار لغة واحدة، وهكذا كان الأمر، الصحابة عرب خلص بيد أن اختلاف قبائلهم ومواطنهم أدى إلى انفراد كل قبيلة ببعض الألفاظ التى قد لا تعرفها القبائل الأخرى مع أن الجميع عرب، والقرآن الكريم جاء يخاطب الجميع، لذلك راعى القرآن الكريم هذا الأمر، فجاءت قراءاته المتعددة موائمة لمجموع من يتلقون القرآن، فالتيسير على الأمة، والتهوين عليها هو السبب فى تعدد القراءات.

- والأحاديث المتواترة الواردة حول نزول القرآن على سبعة أحرف تدل على ذلك:

-جاء فى الصحيحين :عن ابن عباس رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : " أقرأنى جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[١]، وزاد مسلم: " قال ابن شهاب: بلغنى أن تلك السبعة فى الأمر الذى يكون واحداً لا يختلف فى حلال ولا حرام"[٢].

- وأخرج مسلم بسنده عن أبى بن كعب، أن النبى - ﷺ - كان عند أَضَاة بنى غفار[٣] قال: " فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتى لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتى لا تطيق ذلك، ثم جاء الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتى لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف. فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا" [٤].

والأحاديث الواردة فى هذا المقام كثيرة، لكنى أكتفى بما ذكرت، والمزيد فى مظانه، ويؤخذ من ذلك ما يلى:

١- إن الأحرف السبعة جميعها قرآن نزل من عند الله، لا مجال للاجتهاد فيها.

٢- أن السبب فى هذه التوسعة هو التهوين على الأمة، والتيسير عليها فى قراءة القرآن الكريم.

أقسام القراءات وبيان ما يقبل منها ومالا يقبل

نقل السيوطى عن ابن الجرزى أن أنواع القراءات ستة:

الأول : المتواتر: وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم إلى منتهاه، حتى يبلغوا به النبى - ﷺ -، ومثاله ما اتفقت الطرق على نقله عن السبعة - أو غيرهم - وهذا هو الغالب فى القراءات.

---

(١) انظر صحيح البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف

(٢) انظر : صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسفرين ، باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف

(٣) مستنقع ماء كالغدير ، كان بموضع بالمدينة نزل عنده بنو غفار فنسب إليهم

(٤) انظر صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف

الثانى: المشهور: وهو ما صح سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله، وهكذا ووافق العربية ولو بوجه، ووافق رسم المصحف العثمانى، واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ، إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر. ومثاله ما اختلفت الطرق فى نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض، وقد ذكر كثيراً من هذا النوع الدانى فى التيسير والشاطبى فى الشاطبية، وغيرهما. وهذان النوعان، هما اللذان يقرأ بهما، مع وجوب اعتقادهما ولا يجوز إنكار شئ منهما.

الثالث: ما صح سنده، وخالف الرسم أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده، ومثاله قراءة (متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان) وقراءة (لقد جاءكم رسول من أنفَسِكم) بفتح الفاء.

الرابع : الشاذ، وهو ما لم يصح سنده، قراءة ابن السَّميفع (فاليوم ننحيك ببدنك) بالحاء المهملة (لتكون لمن خَلَفك آية) بفتح اللام من كلمة (خَلَفك).

الخامس: الموضوع، وهو ما نسب إلى قائله من غير أصل، مثل القراءات التى جمعها محمد بن جعفر الخزاعى، ونسبها إلى أبى حنيفة.

السادس: ما يشبه المدرج من أنواع الحديث، وهو ما زيد فى القراءات على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبى وقاص (وله أخ أو أخت من أم) بزيادة لفظ (من أم).

قال ابن الجزرى: "وربما كانوا يدخلون التفسير فى القراءات إيضاحاً وبياناً ، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبى - ﷺ - قرآناً، فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه"(١) .

ومن خلال هذا النقل خلصنا إلى أن النوعين الأولين هما اللذان يقرأ بهما وأما غيرهما، فلا. والنوع الأول، وهو المتواتر مقطوع بقرآنيته بلا نزاع. وأما النوع الثانى وهو المشهور الذى اتفقت فيه الضوابط الثلاثة المذكورة، وهى صحة السند، وموافقة اللغة العربية ولو بوجه، وموافقة الرسم العثمانى ولو احتمالاً، أقول:

هذا النوع لم يوافق عليه بعض العلماء، بل اشترطوا التواتر دون صحة السند - أى لم يكتفوا بصحة السند- جاء فى الإتقان تعليقاً على ذلك.

وهذا مما لا يخفى ما فيه، فإن التواتر إذا ثبت، لا يحتاج فيه إلى الركنين الأخيرين من العربية والرسم، إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبى - ﷺ - وجب قبوله والقطع بكونه قرآناً سواء وافق الرسم أو لا. ا.هـ (٢)

ومن ثم قال بعض العلماء تعليقاً على هذا الرأى فى محاولة لتقريب وجهة النظر حول قبول هذه القراءة، أو عدم قبولها، قال: إن هذا القسم - يعنى الذى استجمع الأركان الثلاثة المذكورة - يتنوع إلى نوعين:

الأول: ضرب أو نوع، استفاض نقله وتلقته الأمة بالقبول، وهو يلحق بالمتواتر من حيث قبوله والعمل بمقتضاه ، لأنه وإن كان من قبيل الآحاد إلا أنه احتفت به قرائن جعلته يفيد العلم لا الظن.

---

(١) انظر الإتقان ١ /٧٩ ، مناهل العرفان ١ / ٤٢٩ ، وما بعدها

(٢) الإتقان: ١ / ٧٨

قال صاحب المناهل : إن ركن الصحة فى ضابط القرآن المشهور، لا يراد بالصحة فيه مطلق صحة، بل المراد صحة ممتازة، تصل بالقراءة إلى حد الاستفاضة والشهرة، وتلقى الأمة لها بالقبول حتى يكون هذا الركن بقرينة الركنين الآخرين فى قوة التواتر الذى لابد منه فى تحقق القرآنية (١).

والنوع الثانى: وهو ما لم تتلقه الأمة بالقبول ولم يستفض، وهذا فيه خلاف بين العلماء، من حيث قبوله، والقراءة به، أو عدم ذلك والأكثرون على قبوله (٢).

أوجه الاختلاف بين القراءات الثابتة

سبق أن علمنا بأن القراءات مرجعها النقل الثابت عن النبى -ﷺ- ولذلك، لم يكن الاختلاف بينها على سبيل التضاد فى المعانى، بل القراءة إما مؤكدة لغيرها، أو موضحة، أو مضيفة إليها معنى جديداً، فتكون كل قراءة بالنسبة للأخرى، بمنزلة الآية مع الآية، وكما أن الاختلاف بين هذه القراءات لم يكن على سبيل التضاد فى المعانى، فإنه كذلك لم يكن على سبيل التباين فى الألفاظ، وقد حصر بعضهم أوجه الاختلاف بين القراءات فى الوجوه الآتية:

الأول: الاختلاف فى شكل آخر الكلمات، أو بنيتها، مما يجعلها جميعاً فى دائرة العربية الفصحى، بل أفصح هذه اللغة، المتسقة فى ألفاظها، وتآخى عباراتها، ورنة موسيقاها، والتواؤم بين ألفاظها ومعانيها.

الثاني: الاختلاف فى المد فى الحروف، من حيث الطول والقصر، وكون المد لازماً أو غير لازم، وكل ذلك مع التآخى فى النطق فى القراءة الواحدة، فكل قراءة متناسقة فى ألفاظها من حيث البنية للكلمة، ومن حيث طول المد أو قصره.

الثالث: الاختلاف من حيث الإمالة، أو عدمها فى الحروف، كالوقوف بالإمالة فى التاء المربوطة، أو عدم الإمالة فيها.

الرابع: الاختلاف من حيث النقط ومن حيث شكل البنية فى مثل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) (الحجرات: ٦) حيث قرئ متواتراً كذلك (فتثبتوا) ومع ذلك فالقراءتان متلاقتيان فى المعنى، فالأولى طالبت بالتبين المطلق، والأخرى بينت طريق التبين، وهو التثبت بتحرى الإثبات.

الخامس: زيادة بعض الحروف فى قراءة، ونقصها فى أخرى، مثل قراءة ابن عامر - وهو أحد القراء السبعة- (قالوا اتخذ الله ولدا)[البقرة: ١١٦] بدون (واو) قبل (قالوا) بينما قرأ غيره بالواو هكذا(وقالوا اتخذ الله ولدا) (البقرة: ١١٦)، ومثل ذلك قراءة ابن كثير - وهو أحد القراء السبعة كذلك - (تجرى من تحتها الأنهار) بزيادة (من) بينما قرأ غيره (تجرى تحتها الأنهار)[التوبة: ١٠٠].

وتجدر الإشارة بأن المصاحف العثمانية - وعددها ستة أو سبعة - أثبت فيها كل ما يحتمله الرسم بطريقة واحدة (١)، وأما ما لا يحتمله الرسم كالزيادة والنقصان فى حالتنا هذه، فإنه كان يثبت فى بعض المصاحف بقراءة، وفى بعضها بقراءة أخرى.

---

(١) انظر مناهل العرفان: ١ / ٤٧٠

(٢) انظر: مناهل العرفان : ١ / ٤٦٧ ، الرقاءات القرآنية – تاريخ وتعريف ص ٦٦

وقد قال القرطبى فى ذلك: "وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم، وينقصها بعضهم، فذلك لأن كلاً منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه، إذ كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ، ولم يكتبها فى بعض، إشعاراً بأن كل ذلك صحيح، وأن القراءة بكل منها جائزة" [٢].

فوائد اختلاف القراءات

مسألة اختلاف القراءات وتعددها، كانت ولا زالت محل اهتمام العلماء، ومن اهتمامهم بها بحثهم عن الحكم والفوائد المترتبة عليها، وهى عديدة نذكر الآن بعضاً منها، فأقول - وبالله التوفيق-: إن من الحكم المترتبة على اختلاف القراءات ما يلى:-

١- التيسير على الأمة الإسلامية، ونخص منها الأمة العربية التى شوفهت بالقرآن، فقد نزل القرآن الكريم باللسان العربى، والعرب يومئذٍ قبائل كثيرة، مختلفة اللهجات، فراعى القرآن الكريم ذلك، فيما تختلف فيه لهجات هذه القبائل، فأنزل فيه - أى بين قراءاته - ما يواكب هذه القبائل -على تعددها - دفعاً للمشقة عنهم، وبذلاً لليسر والتهوين عليهم.

٢- الجمع بين حكمين مختلفين مثل قوله تعالى: (فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن)(البقرة:٢٢٢)، حيث قرئ (يطهرن) بتخفيف الطاء وتشديدها، ومجوع القراءتين يفيد أن الحائض، لا يجوز أن يقربها زوجها إلا إذا طهرت بأمرين: أ- انقطاع الدم، ب- الاغتسال.

٣- الدلالة على حكمين شرعيين فى حالين مختلفين، ومثال ذلك قوله تعالى: (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين)[المائدة:٦] إذ قرئ (وأرجلكم) بالنصب عطفاً على (وجوهكم) وهى تقتضى غسل الأرجل، لعطفها على مغسول وهى الوجوه. وقرئ (وأرجِلكم) بالجر عطفاً على (رءوسكم) وهذه القراءة تقتضى مسح الأرجل، لعطفها على ممسوح وهو الرءوس. وفى ذلك إقرار لحكم المسح على الخفين.

٤- دفع توهم ما ليس مراداً: ومثال ذلك قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله)[الجمعة:٩]، إذ قرئ (فامضوا إلى ذكر الله)، وفى ذلك دفع لتوهم وجوب السرعة فى المشى إلى صلاة الجمعة المفهوم من القراءة الأولى، حيث بينت القراءة الثانية أن المراد مجرد الذهاب [٣].

٥- إظهار كمال الإعجاز بغاية الإيجاز، حيث إن كل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية، وذلك من دلائل الإعجاز فى القرآن الكريم، حيث دلت كل قراءة على ما تدل عليه آية مستقلة.

٦- اتصال سند هذه القراءات علامة على اتصال الأمة بالسند الإلهى، فإن قراءة اللفظ الواحد بقراءات مختلفة، مع اتحاد خطه وخلوه من النقط والشكل، إنما يتوقف على السماع والتلقى والرواية، بل بعد نقط المصحف وشكله ، لأن الألفاظ إنما نقطت وشكلت فى المصحف على وجه واحد فقط، وباقى الأوجه متوقف على السند والرواية إلى يومنا هذا. وفى ذلك منقبة عظيمة لهذه

---

(١) أعنى طريقة واحدة تجمع القراءات الواردة فى الكلمة مثل قوله تعالى: { مــلك يوم الدين } فإن كلمة { مــلك } كتبت بهذه الطريقة لتشمل قراءتى { مالك } و { ملك } وهكذا كلمة { فتـبـيـنـوا } الحجرات: ٦ ، حيث كتبت هكذا لتشمل قراءتى { فتثبتوا } و { فتبينوا } حيث كان الرسم خاليا من النقط والشكل.

(٢) انظر: القرطبى ١ / ٤٧ ، كتاب المعجزة الكبرى ص ٤٨ – ٥٠ بتصرف.

(٣) انظر: مناهل العرفان ١ / ١٤٧ ، ١٤٨

الأمة المحمدية بسبب إسنادها كتاب ربها، واتصال هذا السند بالسند الإلهى، فكان ذلك تخصيصاً بالفضل لهذه الأمة [١].

٧- فى تعدد القراءات تعظيم لأجر الأمة فى حفظها والعناية بجمعها ونقلها بأمانة إلى غيرهم، ونقلها بضبطها مع كمال العناية بهذا الضبط إلى الحد الذى حاز الإعجاب[٢].

التعريف بالقراء الأربعة عشر ورواتهم

أولاً: القراء العشرة ورواتهم:

القراء جمع قارئ، اسم فاعل من قرأ، والمراد به فى اصطلاح أهل الفن: الإمام الذى تنسب إليه قراءة[٣]، والمراد بقولنا العشرة: القراء الذين تنسب إليهم القراءات العشر التى وصفها العلماء بأنها متواترة جميعها، وتشمل القراءات السبع وتواترها مجمع عليه ثم الثلاث تتمة العشر، وقد حقق العلماء كونها متواترة كما ذكر فى ثنايا هذا البحث فى غير ما موضع.

والقراء السبعة هم:

١- ابن عامر [٤]

واسمه عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر بن عبدالله اليحصبى. ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة وقيل سنة ثمان وعشرين منها وتوفى سنة ثمان عشرة ومائة من الهجرة النبوية المباركة، وهو تابعى جليل لقى واثلة بن الأسقع والنعمان بن بشير وقد أخذ عن المغيرة بن أبى شهاب المخزومى عن عثمان بن عفان عن رسول الله - ﷺ .

وقيل: إنه قرأ على عثمان - رضى الله عنه - مباشرة بلا واسطة، وقد أخذ عنه أهل الشام قراءته واشتهر برواية قراءته:

أ- هشام وهو أبو الوليد بن عمار بن نصير السليمى الدمشقى . ت [٢٤٥ هـ][٥]

ب- ابن ذكوان وهو أبو محمد عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشى الدمشقى ت [٢٤٢ هـ] [٦]، ورواية هذين لقراءة ابن عامر هى بالواسطة.

وقد قال صاحب الشاطبية فى ابن عامر وراوييه:

وأما دمشق الشام دار ابن عامر فتلك بعبدالله طابت محللا
هشام وعبدالله وهو انتسابه لذكوان بالإسناد عنه تنقلا

٢- ابن كثير [٧]

---

(١) انظر: جواهر البين فى علوم القرآن د ٠ محمد العسال ص ٩٤ ٠

(٢) انظر: دراسات فى علوم القرآن د ٠ محمد بكر إسماعيل

(٣) القارئ المبتدئ من أفرد إلى ثلاث روايات ، والمتوسط إلى أربع أو خمس ، والمنتهى من عرف من القراءات أكثرها واشهرها.

(٤) ترجمته فى غاية النهاية - ٤٠٤/١ لابن الجوزى ، معرفة القراء الكبار للذهبى - ٨٢/١ ، البحث والاستقراء فى تراجم القراء -ص٣٠ ، و أنظر أيضاً: مناهل العرفان -٤٥٦/١ ، وقد أخطأ صاحب إعراب القرآن الكريم وبيانه ٢٤٣/٣ فترجم له على أنه الصحابى الجليل عقبة بن عامر.

(٥) غاية النهاية - ٣٥٥/٢ ، معرفة القراء - ١٩٥/١.

(٦)غاية النهاية - ٤٠٤/١ ، معرفة القراء - ١٩٨/١.

(٧) ترجمته فى غاية النهاية ٣٣٠/٢ ، ومعرفة القراء ٨٦/١ ، البحث بالاستقراء - ص١٥ ، وأنظر: مناهل العرفان ٤٥٧/١.

هو أبو محمد أو أبو معبد عبدالله بن كثير الدارى، ولد بمكة سنة خمس وأربعين للهجرة، وتوفى سنة عشرين ومائة. تابعى جليل وإمام فى القراءة، لقى من الصحابة عبدالله بن الزبير وأبا أيوب الأنصارى، وأنس بن مالك. وقد كان رحمه الله إمام الناس بمكة لم ينازع فى ذلك، ولذلك روى عنه الخليل بن أحمد ونقل عنه.

روى ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله - ﷺ -، وقرأ على عبدالله بن السائب المخزومى، وقرأ عبدالله هذا على أبى ابن كعب، وعمر بن الخطاب، وقرأ كلاهما على رسول الله - ﷺ -، وقد اشتهر بالرواية عنه بواسطة أصحابه:

أ- البـزّى : وهو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم ابن أبى بزة [1]

ب- وقنبل: وهو محمد بن عبدالرحمن بن خالد المخزومى المكى ت [٢٩١ هـ] [2]، وقد لقب بقنبل لشدته، فالقنبل هو الغلام الحادُّ الرأس الخفيف الروح.

وقد قال صاحب الشاطبية فيه وفى راوييه:

ومكة عبدالله فيها مقامه	هو ابن كثير كاثر القوم مُعتلا
روى أحمد البزِّى له ومحمد	على سند وهو الملقب قنبلا

٣- عاصم [3]

هو عاصم بن أبى النجود الأسدى، توفى سنة سبع وعشرين ومائة، كان قارئاً متقناً، آية فى التحرير والإتقان والفصاحة.

قال عبدالله بن أحمد: سألت أبى عن عاصم فقال: رجل صالح خير ثقة، فسألته: أى القراء أحب إليك؟ قال: قراءة أهل المدينة، فإن لم تكن فقراءة عاصم.

وقد أخذ عاصم قراءته عن ثلاثة من الصحابة هم على بن أبى طالب، وعبدالله بن مسعود، وأبى ين كعب. فقرأ عاصم على أبى عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمىّ معلم الحسن والحسين وأبو عبدالرحمن قرأ على على بن أبى طالب عن النبى -ﷺ .

وقرأ كذلك على أبى عبدالرحمن السلمى وزر بن حبيش الأسدى على على أيضاً. وقرأ عليهما ومعهما أبو عمرو الشيبانى ثلاثتهم على عبدالله بن مسعود.

وقرأ قراءة أبى بن كعب بطريق واحد هو طريق أبى عبدالرحمن السلمىّ وراوياه هما:

أ- شعبة: وهو أبو بكر بن عياش الأسدى. ت سنة [١٩٣ هـ] [4]

ب- حفص : وهو أبو عمرو حفص بن سليمان بن المغيرة البزار، كان ربيب عاصم تربى فى حجره، وتعلم منه، لذا كان أدق إتقاناً من شعبة. ت [١٨٠هـ] [5]

وقد قال صاحب الشاطبية فى عاصم وراوييه:

وبالكوفة الغراء منهم ثلاثة	أذاعوا فقد ضاعت شذى وقرنفلا
فأما أبو بكر وعاصم اسمه	فشعبة راويه المبرز أفضلا

---

(١) ت سنة [٢٥٠] - أنظر غاية النهاية - ١٤٦/١.

(٢) غاية النهاية - ١٦٥/٢ ، معرفة القراء - ٢٣٠/١.

(٣)ترجمته فى غاية النهاية ٣٤٦/١ ، ومعرفة القراء ٨٨/١ ، البحث بالاستقراء - ص٤٠،٤١ ، وأنظر: مناهل العرفان ٤٥٨/١.

(٤) غاية النهاية - ٣٢٥/١ ، معرفة القراء - ١٣٤/١.

(٥)غاية النهاية - ٣٢٥/١ ، معرفة القراء - ١٣٤/١.

وذاك ابن عيّاش أبو بكر الرضا وحفص وبالإتقان كان مفضّلا

٤- أبو عمرو (١)

هو أبو عمرو زبان بن العلاء البصرى، كان مولده سنة ثمان وستين من الهجرة المباركة، وهو من أعلم الناس بالقراءة، وكان والده قد أخذه معه حينما هرب من الحجاج إلى كثير من البلدان، وقد قرأ القرآن بمكة والمدينة، وقرأ أيضاً بالكوفة والبصرة على جماعات كثيرة، وليس من علماء القراءات من هو أكثر شيوخاً منه، ومرجع ذلك إلى كثرة تنقله إلى أماكن عديدة، حيث لم يستقر فى مكان واحد.

جاء فى التهذيب عن أبى معاوية الأزهرى: كان أعلم الناس بوجوه القراءات وألفاظ العرب ونوادر كلامهم وفصيح أشعارهم (٢).

وقد أخذ أبو عمرو قراءته عن ثلاثة من الصحابة هم:

١- عمر بن الخطاب: من طريق أبى جعفر يزيد بن القعقاع والحسن البصرى عن حطّان وأبى العالية عن عمر بن الخطاب.

٢- وعلى بن أبى طالب: أخذها عنه من ست طرق.

٣- وأبى بن كعب: أخذها عنه من أحد عشر طريقاً.

وكانت وفاته رحمه الله سنة أربع وخمسين من الهجرة المباركة وراوياه هما:

١- الدورى : وهو أبو عمرو حفص بن عمر المقرى الضرير، ولقب بالدورى نسبة إلى الدور وهو موضع بالجانب الشرقى من بغداد. ت [٢٤٦] (٣)

٢- السوسى: وهو أبو شعيب صالح بن زياد وكان ثقة ضابطات [٢٦١] (٤)

وقد قال صاحب الشاطبية:

وأما الإمام المازنى صريحهم أبو عمرو البصرى فوالده العلا
أفاض على يحيى اليزيد سيبه فأصبح بالعذب الفرات معللا
أبو عمرو الدورى وصالحهم أبو شعيب هو السوسى عنه تقبلا

٥- حمزة (٥)

هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الكوفى التيمى، ولد سنة ثمانين من الهجرة، وتوفى سنة ست وخمسين ومائة، وقد أخذ القراءة عن أبى محمد سليمان بن مهران الأعمش عن يحيى بن وثاب عن زر بن حبيش عن عثمان وعلى وابن مسعود عن الرسول - صلى الله عليه وسلم . قال له الإمام أبو حنيفة: شيئان غلبتنا عليهما لسنا ننازعك فيها القرآن والفرائض.

وراوياه هما:

١-خلف: وهو أبو محمد الأسدى بن هشام بن ثعلب البزار البغدادى. ت [٢٢٩] (٦)

---

(١) ترجمته فى غاية النهاية -٢٨٨/١ ، معرفة القراء - ١٠٠/١ ، وأنظر: مناهل العرفان - ٤٥٩/١.

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى - ١٧٨/٢.

(٣)غاية النهاية - ٢٥٥/١ ، معرفة القراء - ١٩١/١.

(٤)غاية النهاية - ٣٣٢/١ ، معرفة القراء - ١٩٣/١.

(٥) ترجمته فى غاية النهاية - ٢٦١/١ ، ومعرفة القراء - ١١١/١ ، والبحث والاستقراء -ص٤٦.

(٦) غاية النهاية - ٢٧٢/١ ، ومعرفة القراء - ٢٠٨/١ وخلف هذا أحد الثلاثة تتمة العشرة.

٢- خلاد: وهو أبو عيسى خلاد بن خالد الأحول الصيرفى. ت [٢٢٠] (١)
قال صاحب الشاطبية:

وحمزة ما أزكاه من متورع إماماً صبوراً للقرآن مرتلا
روى خلف عنه وخلاد الذى رواه سليم متقناً ومحصلا

٦- نافـع (٢)

هو أبو رُوَيْم نافع بن عبدالرحمن بن أبى نعيم المدنى. ولد سنة سبعين من الهجرة، وتوفى سنة تسع وستين ومائة.
قيل: إنه كان إذا قرأ القرآن كانت تشم منه رائحة المسك، وقد أخذ القراءة عن أبى جعفر القارئ وعن سبعين من التابعين عن عبدالله بن عباس وأبى هريرة عن أبى بن كعب عن رسول الله - ﷺ - وقد انتهت إليه رياسة الإقراء بالمدينة المنورة.
قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس- رضى الله عنه - يقول: قراءة أهل المدينة سنة، قيل له: يعنى قراءة نافع ؟ قال: نعم. وأما راوياه فهما:
أ- قالون : وهو أبو موسى عيسى بن ميناء بن وردان النحوى. ت [٢٢٠]، وقالون هذا لقبه ومعناه بالرومية الجيد ولقب به لجودة قراءته (٣)
ب- ورش: وهو عثمان بن سعيد المصرى، وورش هذا لقبه ومعناه شديد البياض، رحل إلى المدينة فقرأ على نافع ثم عاد إلى مصر. ت [١٩٧] (٤)
قال صاحب الشاطبية:

فأما الكريم السر فى الطيب نافع فذاك الذى اختار المدينة منزلا
وقالون عيسى ثم عثمان ورشهم بصحبته المجد الرفيع تأثَّلا

٧- الكسـائى (٥)

هو على بن حمزة بن عبدالله بن بهمن بن فيروز الأسدى النحوى، توفى سنة تسع وثمانين ومائة، وقد لقب بالكسائى لأنه كان محرماً فى كساء، وقيل: لأنه كان يلبس كساء له طابع خاص مميز، وكان يجلس فى مجلس حمزة، وكان حمزة يقول : اعرضوا على صاحب الكساء أى اعرضوا عليه الرأى. قال الأهوازى: وهذا القول أشبه بالصواب (٦).
قال عنه أبو بكر الأنبارى: اجتمعت فى الكسائى أمور، كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب، وكان أوحد الناس بالقرآن، فكانوا يكثرون عليه، حتى يضطر أن يجلس على الكرسى ويتلو القرآن من أوله إلى آخره، وهم يسمعون منه ويضبطون عنه (٧).
أخذ عن أربعة من الصحابة قراءته وهم:

---

(١) غاية النهاية - ٢٧٤/١ ، ومعرفة القراء - ٢١٠/١.
(٢) ترجمته فى غاية النهاية - ٣٣٠/٢ ، معرفة القراء - ١٠٧/١ ، البحث والاستقراء - ص٧.
(٣) غاية النهاية - ٦١٥/١ ، معرفة القراء - ١٥٥/١.
(٤) غاية النهاية ٥٠٢/١ ، معرفة القراء - ١٥٢/١.
(٥) ترجمته فى غاية النهاية - ٥٣٥/١ ، معرفة القراء - ١٢٠/١ ، البحث والاستقراء - ص٥٣.
(٦) البحث والاستقراء ص٥٣.
(٧) مناهل العرفان - ٤٦٢/١.

عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وعبدالله بن مسعود، وأبى بن كعب عن النبى - ﷺ - وقد أخذ عن هؤلاء الصحابة بخمسة عشر طريقاً.
وراوياه هما:
أ- أبو الحارث : وهو الليث بن خالد المروزى، كان من أجل أصحاب الكسائى، ثقة وضبطاً. ت [٢٤٠] (١)
ب- الدورى : وهو أبو عمر حفص بن عمر الدورى، وقد مر الحديث عنه فهو أحد راويى أبى عمرو.
قال صاحب الشاطبية:

وأما على فالكسائى نعته ... لما كان فى الإحرام تسربلا
روى ليثهم عنه أبو الحارث الرضا ... حفص هو الدورى وفى الذكر قد خلا

وإلى هنا نكون قد انتهينا من الترجمة الموجزة للقراء السبعة المجمع على تواتر قراءتهم، وقد عرفنا بإيجاز كذلك براويى كل واحد منهم، ثم ننتقل بعد ذلك إلى التعريف بالثلاثة تتمة العشرة الذين حقق العلماء تواتر قراءتهم كذلك، ونعرف موجزين برواتهم أيضاً
٨- أبو جعفر (٢)
هو: يزيد بن القعقاع أبو جعفر المخزومى المدنى القارئ ت [١٣٠ هـ] تابعى جليل القدر، تام الضبط، رفيع المنزلة أخذ قراءته عن عبدالله ابن عباس وأبى هريرة عن أبى بن كعب عن رسول الله - ﷺ .
وراوياه همـا:
أ- ابن وردان: وهو أبو موسى عيسى بن وردان الخداء المدنى، من أصحاب نافع فى القراءة على أبى جعفر وكان مقرئاً ضابطاً ثقة ت [١٦٠هـ]
ب- ابن جماز: (٣) وهو أبو الربيع سليمان بن مسلم بن جماز ت [١٧٠ هـ]
٩- يعقـــوب (٤)
هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبدالله بن إسحاق أبو محمد الحضرمى، أحد القراء العشرة وإمام أهل البصرة، انتهت إليه رياسة القراءة بعد أبى عمر الدانى توفى سنة خمس ومائتين.
قرأ على أبى المنذر سلام بن سليمان الطويل وقرأ سلام هذا على عاصم وعلى أبى عمرو.
وراوياه هما:
أ- روح: (٥) وهو أبو الحسن روح بن عبدالمؤمن بن عبدة الهذلى النحوى ت [٢٣٤]
ب- رويس: (٦) وهو أبو عبدالله محمد بن المتوكل اللؤلؤى البصرى ت [٢٣٨]
١٠- خلف (١)

---

(١) غاية النهاية - ٣٤/٢ ، معرفة القراء - ٢١١/١.
(٢) ترجمته فى غاية النهاية - ٣٨٢/٢ ، وأنظر: مناهل العرفان - ٤٦٣/١.
(٣) غاية النهاية - ٣١٥/١.
(٤) غاية النهاية - ٣٨٦/٢ ، ومعرفة القراء - ١٥٧/١.
(٥) غاية النهاية - ٣١٥/١.
(٦) غاية النهاية - ٢٧٢/١ ، معرفة القراء - ٢١٨/١.

هو أبو محمد خلف بن هشام ابن ثعلب بن خلف بن ثعلب الأسدى أحد القراء العشرة، وأحد راويى حمزة كما مر ت [٢٢٩]، قرأ على سليم عن حمزة، وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى، وعلى أبى زيد سعيد بن اوس الأنصارى صاحب الفضل الضبى، وعلى أبن العطار وهم أخذوا عن عاصم.
وراوياه هما:
أ- أبو يعقوب [٢] إسحاق بن إبراهيم بن عثمان المروزى ت [٢٨٦] هـ.
ب- أبو الحسن [٣] إدريس عبدالكريم الحداد البغدادى ت [٢٩٢] هـ.
وبعد، فهؤلاء هم القراء العشرة ورواتهم الذين تلقت الأمة قراءتهم بالقبول، وقد قلت سابقاً: إن المحققين من العلماء قد حكموا بتواترها جميعاً بما فيها القراءات الثلاث المتممة للعشر، ومن ثم يلزم قبولها جميعاً، ولا يجوز رد شى منها. والله أعلم.

وقد اعترض بعضهم على تواتر هذه القراءات بحجة أن الأسانيد إلى هؤلاء الأئمة القراء وأسانيدهم هم إلى النبى - ﷺ - هى آحاد ولا تبلغ حد التواتر.

ويجاب عن ذلك بان انحصار الأسانيد المذكورة فى طائفة لا يمنع مجئ القراءات عن غيرهم، وإنما نسبت القراءات إلى الأئمة ومن ذكر فى أسانيدهم، والأسانيد إليهم، لتصديهم لضبط الحروف وحفظ شيوخهم فيها، ومع كل واحد منهم فى طبقته ما يبلغها عدد التواتر ، لأن القرآن قد تلقاه من أهل كل بلد بقراءة إمامهم الجم الغفير عن مثلهم، وكذلك دائماً مع تلقى الأمة لقراءة كل منهم بالقبول.

قال السخاوى: "ولا يقدح فى تواتر القراءات السبع [٤] إذا أسندت من طريق الآحاد، كما لو قلت: أخبرنى فلان عن فلان أنه رأى مدينة سمرقند - مثلاً - وقد عُلم وجودها بطريق التواتر لم يقدح ذلك فيما سبق من العلم بها " [٥].

وهذا التواتر المذكور شامل للأصول والفرش وهذا هو الذى عليه المحققون [٦].

والمراد بالأصول الأحكام الكلية المطردة الجارية فى كل ما تحقق فيه شرط ذلك الحكم كالمد والقصر والإظهار والإدغام والإقلاب وغيرها، والمراد بالفرش ما يذكر فى السورة من كيفية قراءة كل كلمة قرآنية مختلف فيها بين القراء مع عزو كل قراءة إلى صاحبها، ويسمى فرش الحروف وسماه بعضهم بالفروع مقابلة للأصول وذلك كاختلافهم فى قراءة " يخدعون، ننسخ، ننشزها، فتبينوا" وهذا هو الذى يؤثر فى المعنى دون الأول.

السبب الداعى للاقتصار على القراء المشهورين

قال الدمياطى: "ليعلم أن السبب الداعى إلى أخذ القراءة عن القراء المشهورين دون غيرهم، أنه لما كثر الاختلاف فيما يحتمله رسم المصاحف العثمانية التى وجه بها عثمان - رضى الله عنه - إلى الأمصار، وحبس بالمدينة واحداً وأمسك لنفسه واحداً الذى يقال له: الإمام، فصار أهل الأهواء والبدع يقرأون بما لا يحل تلاوته وفاقاً لبدعتهم، أجمع رأى المسلمين أن

---

(١) غاية النهاية - ٢٧٢/١ ، معرفة القراء - ٢٠٨/١.
(٢) غاية النهاية - ١٥٥/١.
(٣) غاية النهاية - ١٥٤/١.
(٤) قلت: بل العشر على التحقيق.
(٥) نقله القاسمى فى مقدمة محاسن التأويل - ٣٠٤/١.
(٦) إتحاف فضلاء البشر - ص٩.

يتفقوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم، فاختاروا من كل مصر وجه إليه مصحف - اختاروا - أئمة مشهورين بالثقة والأمانة فى النقل وحسن الدراية وكمال العلم أفنوا عمرهم فى القراءة والإقراء، واشتهر أمرهم، وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم ولم تخرج قراءتهم عن خط وصحفهم، ثم إن القراء الموصوفين بما ذكر بعد ذلك تفرقوا فى البلاد وخلفهم الأئمة لذلك ميزاناً يرجع إليه وهو السند والرسم والعربية " (١)

يقصد بذلك الضوابط الثلاثة الموضوعة لقبول القراءة والمذكورة فى هذا البحث فى مواضع متعددة. ومن خلال هذا النقل النفيس عن الدمياطى نتيقن من أن انحصار أخذ القراءة عن هؤلاء الأئمة المشهورين لا يعنى بحال من الأحوال ألا يكون أحد عليماً بالقراءات سواهم.

ثانياً : القراء الأربعة تتمة الأربعة عشر

١- أبو الحسن البصرى [٢]

هو الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسن يسار البصرى، تابعى جليل، ولد فى خلافة عمر سنة إحدى وعشرين، وتوفى سنة عشر ومائة من الهجرة المباركة.

لقى من الصحابة على بن أبى طالب وأم سلمة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وأخذ عن سمرة بن جندب، يُشهد له بالورع والزهد، وكان إماماً فى القراءات والتفسير والفقه وغير ذلك من العلوم الإسلامية.

٢- ابن محيصن [٣]

هو أبو عبدالله بن عبدالرحمن بن محيصن السهمى المكى توفى سنة ثلاث وعشرين ومائة. شهد له بالعلم فى الأثر والعربية والقراءات فهو مقرئ أهل مكة مع ابن كثير.

٣- يحيى اليزيدى [٤]

هو أبو محمد بن المبارك بن المغيرة اليزيدى المتوفى سنة اثنتين ومائتين كان فصيحاً مفوهاً، إماماً فى اللغة والأدب والقراءات، وهو أمثل أصحاب أبى عمرو، وقد قام بعده بالقراءة ففاق نظراءه.

٤- الأعمش [٥]

هو أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش الأسدى المتوفى سنة ثمان وأربعين ومائة، وكان إماماً فى القراءات، لا يلحن فى كلامه، لقى من الصحابة عبدالله بن أبى أوفى، وأنس بن مالك - رضى الله عنهما. لكن لم يثبت له سماع من أحدهما، وكان شعبة يقول عنه: المصحف المصحف لصدقه.

حكم ما وراء القراءات العشر

اختلف العلماء فيما زاد عن العشر من القراءات هل يحكم عليه جميعاً بحكم واحد أم لا؟

فاتجه فريق منهم إلى أن جميع القراءات الأربع عشرة صحيحة هكذا بإطلاق الحكم بالصحة.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر - ص ٧ ، ٨.

(٢) معرفة القراء ٦٥/١ ، سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤.

(٣) غاية النهاية - ١٦٧/٢.

(٤) غاية النهاية - ٣٧٥/٢.

(٥) غاية النهاية - ٣١٥/١ ، معرفة القراء - ٩٤/١.

واتجه فريق آخر إلى أن الأربع الزائدة على العشر شاذة، هكذا بإطلاق الحكم بالشذوذ كذلك [١].

وتوسط بين هذين الفريقين فريق ثالث، نظروا إلى القراءات لا من حيث أعدادها ولا أشخاصها، ولكن من حيث هى قواعد ومبادئ وضوابط، ويعنون ضوابط القراءة المقبولة الثلاثة وهى:

١- صحة السند.

٢- موافقة اللغة ولو بوجه.

٣- موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

فحيث تحققت هذه الضوابط فى قراءة فهى صحيحة مقبولة، وإلا كانت مردودة أو شاذة بقطع النظر عمن نسبت إليه هذه القراءة.

من صور اختلاف المعنى والتفسير بسبب القراءات وضوابط الخروج منه

أولا:- الخلاف بين قراءة متواترة وأخرى شاذة

قد ترد أحياناً آية بقراءتين، إحداهما متواترة، والأخرى شاذة، فيختلف تفسيرها عند المفسرين بسبب ذلك، حيث يفسرها بعضهم، معتمداً على القراءة المتواترة، بينما ينحاز بعضهم إلى القراءة الشاذة، فيقع التعارض، أو الخلاف.

والقاعدة الحاسمة للخروج من هذا الخلاف: القراءة المتواترة هى الأصل ، لأنها قرآن مقطوع به، فلا تقوى على معارضتها قراءة شاذة، ولايخفى بأن التواتر أقوى طرق الإثبات، ولذلك فإنه يفيد اليقين والقطع، والمتواتر: هو ما رواه جمع عن جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، وأما القراءة الشاذة فهى التى اختل فيها ركن من أركان القراءة الصحيحة التى سبق ذكرها وهى:

١- صحة السند.

٢- موافقة اللغة العربية، ولو بوجه.

٣-موافقة أحد المصاحف العثمانية، ولو احتمالاً.

فمتى اختل ركن من هذه الأركان، فهى القراءة الشاذة.

وقيل: الشاذ هو ما صح سنده، وخالف الرسم والعربية مخالفة تضر، أو لم تشتهر عند القراء. [٢] وقد يطلق الشاذ ويراد به كل ما لا يقرأ به من أنواع القراءات.

وقولنا فى القاعدة: "فلا تقوى على معارضتها قراءة شاذة" يخرج ما إذا كانت الشاذة، مؤيدة للمتواترة، فإنه يجوز ذكرها على سبيل الاستشهاد والبيان للقراءة المتواترة [٣]، وكون القراءة الشاذة، لا تقوى على معارضة المتواترة، مما لا يمارى فيه، بل إن كثيراً من الأصوليين، لم يعتبرها حجة حتى فى مقام عدم المعارضة.

---

(١) قال الدمياطى: أخذنا عن شيوخنا أن الأربعة - بعد العشرة - وهم ابن محيصن واليزيدى والحسن والأعمش قراءتهم شاذة اتفاقاً. أنظر: الإتحاف - ص٩.

(٢) التحبير للسيوطى : ص٦٩.

(٣) أنظر: أضواء البيان : ٧/١ ، معترك الأقران - ١٢٧/١ ، ١٢٨.

تاسعا:- الإسرائيليات

هي القصص والأخبار اليهودية والنصرانية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي عن طريق من أسلم من أهل الكتاب حقيقة أو تظاهر بالدخول في الإسلام وسميت بالإسرائيليات لتغليب اللون اليهودي فيها حيث إن أكثرها جاء عن اليهود ولتخالطهم بالمسلمين في المجتمع المدني أكثر من النصارى ولأن النصارى يُعتبروا تبعاً لليهود ، لذلك سميت بالإسرائيليات .

وقد بدأ اليهود بالدس منذ الأيام الأولى لدخول الإسلام في المدينة المنورة فأدخلوا ثقافتهم وثقافات أخرى وظهر أثر هذه الثقافات في العقلية المسلمة مع بقاء الروايات الإسرائيلية هي الظاهرة وخاصة فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم .

وكانت الثقافة اليهودية تتمثل في التوراة وبما تحويه من الأسفار الموسوية وتسمى بالعهد القديم وهذه حُرفت وتمّ فيها التغيير والتبديل والقرآن الكريم يشهد بذلك قال تعالى : { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ}[المائدة:١٣].

وكان لليهود بجانب التوراة سنن ونصائح وشروح لم تؤخذ عن موسى – عليه السلام – بطريق الكتابة وإنما أُخذت بطريق المشافهة إلا أنها حُرفت بالزيادة عليها والنقص منها ، مثلها مثل التوراة في ذلك ، قال تعالى : {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}[البقرة:٧٩]، ثم دونت مع الزمن وعرفت بالتلمود ، وكان يوجد بجانب ذلك الكثير من الأدب والقصص والتاريخ والتشريع والأساطير اليهودية .

أما النصارى فتتمثل ثقافتهم في الأناجيل المعتبرة عندهم ورسائل الرسل وتسمى جميعاً بالعهد الجديد ، أما الكتاب المقدس فهو يعني عندهم التوراة والإنجيل ويسمى بالعهد القديم والعهد الجديد .

أسباب دخول الإسرائيليات في المجتمع الإسلامي :

١- لقد تناول القرآن الكريم العديد من قصص الأنبياء والأمم السابقة والحوادث التي مرّت في الأزمنة الغابرة بصورة من الإيجاز مع التركيز على جانب الموعظة والعبرة من ذلك القصص دون أن يذكر التفاصيل ودقائق القصة ، والنفس البشرية تميل دائماً إلى معرفة التفاصيل ودقائق تتعلق بالقصص القرآني ، لذلك عندما سألوا أهل الكتاب فأجابوهم بما هو موجود في التوراة والإنجيل .

٢- إسلام العديد من أهل الكتاب ودخول في الدين الإسلامي ساهم مساهمة حقيقية في إدخال الكثير من الروايات الإسرائيلية إلى المجتمع الإسلامي وخاصة أنه أمر بالحديث عنهم فقال: "بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" أي حدثوا عنهم بما يتفق وحدود الشريعة الإسلامية وضمن الشروط الواجبة في الأخذ عن أهل الكتاب .

ومرت فترة على المجتمع الإسلامي دخل فيها كثير من المرويات الإسرائيلية دون التقيد بالقيود التي وضعها الإسلام فتسرب الضعيف والمكذوب والمخالف لشرعنا الإسلامي وغيره وخاصة في أواخر عهد التابعين .

حكم الإسرائيليات :

يأخذ ما ورد عن أهل الكتاب من إسرائيليات حكماً من الأحكام الثلاثة الآتية :-

١- إن كانت الرواية عن أهل الكتاب مصدقة لما عندنا فنصدقها ونأخذها للاستئناس لا للاستدلال ونعتبرها من الثقافة الإسلامية .
٢- وإن كانت الرواية الإسرائيلية تُكذب ما عندنا فنكذبها ونضرب بها عرض الحائط لأنها مخالفة لما جاء في شريعتنا الإسلامية .
٣- أما إذا كانت الرواية الإسرائيلية لا توافق ولا تعارض ما عندنا فنتوقف حينئذٍ فلا نصدقها ولا نكذبها خوفاً من أن نصدق بكذب وباطل ولا نكذبها خوفاً من أن نكذب بصدق وحق عملاً بقول الرسول-ﷺ-: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا" [(١)] .

عاشرا: **تفسير القرآن وشرفه**

التفسير كشف معاني القرآن وبيان المراد منه وهو أجل العلوم الشرعية وأشرف صناعة يتعاطاها الإنسان وأرفعها قدرا وهو أشرف العلوم موضوعا وغرضا وحاجة إليه لأن موضوعه كلام الله الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة، ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال ديني أو دنيوي لا بد وأن يكون موافقا للشرع وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله تعالى ويجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين للأمة معاني القرآن كما بين ألفاظه كما قال تعالى: **{لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}** [النحل: ٤٤] وكانوا إذا تعلموا عشر آيات من النبي ﷺ لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا.

والعادة تمنع من أن يقرأ قوم كتابا في فن من الفنون كالطب والحساب ولا يعرفون معناه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم، وعن سعيد بن جبيرن قال: "من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالأعمى أو الأعرابي"[(٢)]، وحاجة المسلم ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم.

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك[(٣)].

وقال القرطبي:" ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه وهو لا يفهم معنى ما يتلوه، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، ما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه وهو لا يدريه، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفارا " [(٤)] وقد ذم الله من هذه حاله بقوله: **{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ}** [البقرة: ٧٨].

وأقرب التفاسير تناولا: تفسير الجلالين، حيث يذكر معنى الكلمة وأسباب النزول والقراءات باختصار، إلا أنه قد يخطئ في تفسير صفات الله تعالى مثل المجيء والنزول وغيرهما حيث يفسرها على طريقة الأشاعرة، ومن أراد التوسع والتحقيق فعليه بتفسير الإمام

---

(١) فتح الباري – ج٨ ص ١٢٠ .
(٢) أخرجه الطبري(٨٧):ص٨١/١.
(٣)ينظر: مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ٦، ٧.
(٤) تفسير القرطبي (١/ ٢١)

ابن كثير فإنه تفسير سلفي ممتاز، وتفسير ابن سعدي[١] ثم تفسير الطبري، والقرطبي، فإنهما من أمهات التفاسير الصحيحة المعتبرة، وكذلك تفسير البغوي وابن الجوزي وفتح القدير للشوكاني، وحاشية الجمل على الجلالين فإنه مجموع من عدة تفاسير، وأيسر التفاسير للجزائري.

المنهج الأمثل في تفسير القرآن

إن منهج القرآن الكريم يُقرر أن الفهم السليم هو غاية كل مسلم ، وهو الثمرة العلمية المرجوة من تدبره ، كما أن الثمرة العلمية هي الالتزام بأحكامه وتوجيهاته إيماناً وعملاً ودعوة.

والذي يساعد على الفهم الصحيح للقرآن هو حسن تفسيره بما يبين مقاصده ، ويوضح معانيه ، ويكشف اللثام عما فيه من كنوز وأسرار ويفتح مغالقه للعقول والقلوب .

إن المنهج الأمثل في تفسير القرآن يقوم على أصول راسخة وخطوات معلومة ومعالم مرسومة يجب مراعاتها والالتزام بها حتى تتضح من خلال إتباع المفسر الخطوات التالية :-

١- تفسير القرآن بالقرآن :

أول هذه المعالم هو تفسير القرآن بالقرآن وذلك لأن القرآن الكريم يصدق بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، وذلك فما أُجمل في موضع فُصّل في موضع آخر وما جاء عاماً في سياق خُصِّص في سياق آخر .

٢- تفسير القرآن بالسنة :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير : "إن أصح طرق التفسير يُفسّر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد يفسر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن موضحة له"[٢].

وقد فسر الرسول -ﷺ- {كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} [إبراهيم : ٢٤] بأنها النخلة .

وكما فسر الزيادة {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}[يونس : ٢٦]، بأنها النظر إلى وجه الله الكريم.

وقال الزركشي: "لطالب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة: الأول: النقل عن رسول الله ﷺ وهذا هو الطراز الأول، ولكن يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع؛ فإنه كثير. وإن سواد الأوراق سواد في القلب"[٣].

٣- الانتفاع بتفسير الصحابة والتابعين :

الصحابة هم تلاميذ المدرسة النبوية ، تربوا في حجر الرسول وسمعوا منه وشاهدوا التنزيل ، هذا مع كونهم أصحاب اللغة والبيان ، فإذا صح عنهم التفسير أخذنا به خاصة إن أجمعوا عليه ، وإن اختلفوا فقد أتاحوا لنا أن نتخير من بين آرائهم ما نراه أقرب إلى السداد.

---

(١) فإنه تفسير سلفي عصري واضح جلي يعني بالمعاني والأحكام.
(٢)مقدمة في أصول التفسير: ٩٣.
(٣) البرهان: ١٥٦.

قال ابن تيمية : "إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ولِمَا هم عليه من الفهم التام والعلم الصحيح ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم وكالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، وعبد الله بن مسعود الذي قال : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، وفيم نزلت ، وكان الرجل منهم إذا تعلّم عشر آيات ، لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن ، وهذا حبر الأمة عبد الله بن عباس ، ترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله-ﷺ- اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل"(١) .

قال الزركشي:" الثاني: الأخذ بقول الصحابي؛ فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ، كما قاله الحاكم في تفسيره ... إلى أن قال: وفي الرجوع إلى أقوال التابعين روايتان عن أحمد، واختار ابن عقيل المنع، وحكوه عن شعبة، لكن عمل المفسرين على خلافه، وقد حكوا في كتبهم أقوالهم ... وغالب أقوالهم تلقوها من الصحابة، ولعل اختلاف الرواية عن أحمد إنما هو فيما كان من أقوالهم وآرائهم"(٢).

٤- الأخذ بمطلق اللغة :

إن القرآن نزل {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}[الشعراء: ١٩٥]، فيجب أن يُفسر اللفظ بحسب ما تدل عليه اللغة العربية واستعمالاتها وما يوافق قواعدها ويناسب بلاغة القرآن المعجز ، هذا مع أن الألفاظ منها ما جاء على سبيل المجاز ومنها ما هو مشترك يدل على أكثر من معنى ، وينبغي أن يعلم أن الأصل حمل الكلام على الحقيقة ، ولا يعدل عنها إلى المجاز إلا بقرينة (تدل دلالة معتبرة على المعنى) ، ومما يعين المفسر للقرآن على حسن الفهم أن يتتبع الكلمة القرآنية في مواردها المختلفة في القرآن حتى يتبين له حقيقة معناها مثل كلمة (عين) لها عدة معانٍ حسب موقعها في الجملة ، تأتي بمعنى عين الماء – والجاسوس – والعين المبصرة ، فكل مفردة في القرآن تؤدي معنى تام حسب السياق الذي وضعت فيه .

٥- مراعاة السياق :

ومن الضوابط الهامة في حسن فهم القرآن وصحة تفسيره مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة وسياق الجملة في موقعها من الآية ، فيجب أن تُربط الآيـة بالسياق الذي وردت فيـه ولا تُقطـع عمـا قبلها وما بعدها .

فالكلمة الواحدة قد ترد في القرآن لعدة معانٍ مختلفة وإنما يتحدد المعنى المراد منها في كل موقع بالسياق ، والمقصود بالسياق ما قبل الكلمة وما بعدها فمثلاً : كلمة الكتاب تأتي بمعنى القرآن ، وتأتي بمعنى النص القرآني ، وتأتي بمعنى اللوح المحفوظ .

وكذلك معنى كلمة (آية) تأتي بمعنى العلامة أو الآية المنزلة أو المعجزة والآية الدالة على صدق رسول الله -ﷺ- ، والسياق هو الذي يحدد المعنى المراد من كلمة آية .

٦- الاهتمام بعلوم القرآن إجمالاً وخاصة سبب النزول :

من المعالم المهمة في فهم القرآن وتفسيره ملاحظة أسباب النزول فمن المقرر لدى العلماء أن القرآن نزل على قسمين : قسم نزل ابتداء بدون سبب خاص ، وإنما لتوضيح معنى

---

(١)مقدمة في أصول التفسير: ٩٤.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ١/١٥٦-١٦٠.

الهداية في حياة الناس وقسم نزل لسبب خاص وهذا القسم الأخير هو الذي يبحث عن سبب نزوله ، لأن معرفة الأسباب والملابسات المحيطة بالنص تساعد على فهم المراد منه ، يقول ابن دقيق العيد : بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن .

٧- اعتبار القرآن أصلاً يرجع إليه :

إن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن الكريم ليكون متبوعاً لا تابعاً وينبغي على من يريد فهم القرآن وتفسيره أن يتحرر من اعتقاداته وأفكاره وأهوائه ، بل يجب أن يكون موقفه من القرآن موقف المتلقي الذي يهتدي بهداه ، وينظر إليه على أنه الأصل الذي يرجع إليه [١] .

حادي عشر:- إعجاز القرآن

الإعجاز لغة: أصله التأخر عن الشيء ، وهو ضد القدرة ، بمعنى الضعف ، يقال : أعجزه الأمر إذا حاوله فلم يستطعه ولم تتسع له قدرته وجهده [٢] يقول تعالى : {وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ[سبأ:٥].

الإعجاز اصطلاحاً : كون القرآن الكريم أمراً خارقاً للعادة لم يستطع أحداً معارضته برغم تصدي الناس له [٣] ، أو هو ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن [٤] .

أ- الإعجاز البياني :

يعدّ الإعجاز البياني من أعظم وجوه الإعجاز لأنه ينتظم في القرآن كله ، فلا تخلو منه سورة على قصرها أو على طولها ، بل هو في كل آية من آيات القرآن الكريم ، وقد تحدث العلماء والمفسرون عن الإعجاز القرآني قديماً وحديثاً حيث أجمع هؤلاء أن القرآن الكريم معجزة بيانية تحدى الله بها العرب وغيرهم فثبت عجز البشر جميعاً أمام إعجازه [٥] ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله : {[قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}][الإسراء ٨٨].

والاعجاز البياني هو بيان القرآن وفصاحته وبلاغته ، وفي أسلوبه المتميز عن باقي أساليب العرب حيث جاء القرآن الكريم بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، متضمناً أصح المعاني ، كذلك ترتيب ألفاظ القرآن الكريم في آياته وجمله ، ثم ترتيب هذه الجمل للآيات في السورة [٦] .

---

(١) انظر هذا الموضوع بالتفصيل في كتاب : كيف نتعامل مع القرآن الكريم – أ.د. يوسف القرضاوي من ص ٢٥٠-٣٠٠ .

(٢) لسان العرب لابن منظور – ح٢٣٦/٧ .

(٣) فكرة الإعجاز – نعيم الحمصي – ص ٩ .

(٤) إعجاز القرآن للرافعي – ص ١٣٩ .

(٥) مباحث في إعجاز القرآن الكريم– ص١٦٥ بتصرف،أ. د. مصطفى مسلم ص ١٥٤.

(٦) موجز في إعجاز القرآن – المرجع السابق ص ١٥٤ .

ويمثل الإعجاز البياني في حروف القرآن وأصواتها ، والكلمات ومخارجها [١] ، يقول ابن عطية : "وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة في أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد" [٢] .

وكذلك يمثل الإعجاز البياني في طريقة التعبير التي انفرد بها القرآن الكريم ، وأيضاً يتمثل في وجود الفاصلة القرآنية التي تعني مناسبة ختم الآية لما سبق [٣] .

ونزل القرآن الكريم على العرب وكانوا أصحاب وأرباب البلاغة والبيان وذلك لأنهم تميزوا بسلامة السليقة وسرعة البديهة ، فعندما تحداهم القرآن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ووقفوا عاجزين حائرين لا يستطيعون ذلك على الرغم من أن القرآن الكريم نزل باللغة التي يعرفونها ويتكلمون بها ، لذا نجد أن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن ، يقول تعالى {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}[الطور : ٣٤] .

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور فقال تعالى : {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[هود : ١٣-١٤] .

فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة قال تعالى : {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[يونس : ٣٨].

ثم أخيراً تحداهم أن يأتوا بسورة تشبه القرآن فقال سبحانه وتعالى : {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ}[البقرة : ٢٣-٢٤][٤] .

ب- الإعجاز التشريعي :

- التشريع لغة : مصدر شرّع : بمعنى سنَّ ، وقد سمي ما شرع الله لعباده شريعة كالصلاة والصوم والزكاة والحج وغير ذلك [٥] .

- التشريع اصطلاحاً : هو شرعة الله لعباده من أحكام اعتقادية أو عملية أو خُلقية [٦] .

- الإعجاز التشريعي : هو سمو التشريعات القرآنية وشمولها وكمالها إلى الحد الذي تعجز عنه كل القوانين البشرية مهما بلغت على أن تأتي بمثل تشريعات القرآن الكريم([٧]).

أو هو عجز البشر محاكاة التشريع القرآني ، وإدراكهم كل ما فيه من أسرار تشريعية[٨].

ومن نماذج من الإعجاز التشريعي :

١- في العبادات : الوضوء والتيمم والغسل : أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، وجعل الوضوء شرطاً للصلاة ، فإذا لم يتمكنوا من استعمال الماء فعليهم بالتيمم قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ....}[المائدة : ٦] .

---

(١) موجز في إعجاز القرآن – أ. د. مصطفى مسلم ص ١٥٤ .
(٢) فكرة الإعجاز – نعيم الحمص – ص ٩٥ .
(٣) إعجاز القرآن – د. فضل عباس – ص ٦٥ وما بعدها .
(٤) إعجاز القرآن – د. فضل عباس – ص ٣١-٣٢ .
(٥) لسان العرب – ح٣/٢٣٨ .
(٦) التشريع الإسلامي – مصادره وأدواته – د. سفيان إسماعيل – ص ٧ .
(٧) الإعجاز التشريعي في معالجة مشكلة الفقر – ص ٦ .
(٨) القرآن وإعجازه – ص ١٠٢ .

وتشير الآية إلى الحكمة من هذا التشريع يقول تعالى : { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ .....}[المائدة : ٦] .

إن اشتراط الاغتسال للجنب هو تطهيره وليتم نعمته عليه ، وحتى يشكره على نعمه الكثيرة ، والحكمة من الوضوء والتيمم والغسل ليس النظافة فحسب بل العبادة [١] ، يقول سيد قطب : "يبدو أن حكمة الوضوء أو الغسل ليست هي مجرد النظافة ، وإلا فإن البديل من أحدهما أو من كليهما لا يحقق هذه الحكمة فلا بد إذن من حكمة أخرى للوضوء أو الغسل تكون متحققة

كذلك في التيمم ، وأما حكمة الاغتسال من الجنابة {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ...}[المائدة : ٦] ، فهي حركة عملية عن معنى نفسي ، إن الإنسان عندما يقضي شهوته فإنه يحقق حاجة فطرية ونفسية أصيلة في كيانه ، ثم إن كل جزء من أعضاء جسمه متلذذ من قضاء الشهوة ويشارك في هذه العملية الجنسية ، لذا كان الاغتسال شكر لله الذي يسر له قضاء شهوته ، شكر لله، لأن كل جزء شارك في الاستمتاع والتلذذ عند قضاء الشهوة ، لذلك ختمت الآية بقوله : {ولعلكم تشكرون}" [٢] .

٢- في المعاملات : تحريم الربا : حرم الله الربا في آيات صريحة وأعلن الحرب على المرابين ، وتوعد بمحق الربا يقول تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا ...}[البقرة : ٢٧٨-٢٧٩] على الرغم أن الربا هو السمة البارزة للاقتصاد العالمي المعاصر ، وقاعدة التعامل الاقتصادي بين الدول ، إلا أن التشريع الإسلامي هو الحق والصواب في تحريم الربا ومحاربته وتحريمه .... ، فالربا بلاء وآفة ، يدمر الاقتصاد ويقطع الروابط ، ويوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، والربا يقضي على إنسانية الإنسان وقلبه ودينه وإيمانه ، والمرابون مصاصي الدماء والأموال [٣] .

يقول سيد قطب : "إن النظام الربوي نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة ..."[٤].

٣- في الحدود : شرع الله تبارك وتعالى الحدود حتى يعيش الإنسان المسلم وغير المسلم أميناً على نفسه وماله وعرضه وعقله ، لذلك حرم على المسلم قتل أخيه المسلم ، يقول تعالى : {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلا خَطَأً ....} [النساء:٩٢] . فإذا اعتقد القاتل بأنه سيُقتل فإنه لا يقدم على القتل ، وكذلك عندما حرّم السرقة ، فإنه حفظ للناس أموالهم ، فعندما يعتقد المؤمن أنه إذا سرق سوف تقطع يده ، فإنه لا يسرق وبذلك حفظ للناس أموالهم . وكذلك عندما شرع عقوبة الزنا مائة جلدة لغير المتزوج كما قال تعالى : {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي....} [النور: ٢]، والرجم حتى الموت للمتزوج رجلاً كان أو أنثى.

وكذلك عندما شرع عقوبة الخمر الجلد ثمانين جلدة ليحفظ العقل [٥] ، يقول الرسول □ : "إذا شرب إنسان الخمر فاجلدوه ثمانين جلدة ، إذا شرب سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى ، وحد المفتري ثمانون" [٦] .

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن – أ. د. مصطفى السباعي – ص ١٥٥ .
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب :٢٢٥٢١/٥.
(٣) مباحث في إعجاز القرآن – أ.د. مصطفى السباعي – ص ١٦٢.
(٤) الظلال ح٢٢٥٢/٥ .
(٥) الإعجاز القرآني في تشريع الحدود .
(٦)الموطأ للإمام مالك – ح٦٤٢/٢ كتاب الأشربة باب حد الخمر – ص ٢٥ .

يقول الأستاذ رشيد رضا : "يشتمل القرآن الكريم على العلوم الإلهية وأصول القواعد الدينية ، وأحكام العبادات ، وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان ، وبذلك يفضل على كل ما سبقه من الكتب السماوية والشرائع الأرضية والآداب الفلسفية" (١) .

ت- الإعجاز العلمي :

لقد حث الإسلام على العلم والتعلم ، فآيات القرآن الأولى في النزول تأمر باستخدام القلم وتشجع على القراءة وذلك لما للقلم والقراءة من أهمية في حياة الأمم والشعوب . قال تعالى : {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[العلق:١-٥].

الأمة الإسلامية منوط بها قيادة البشرية بأسرها في جميع مناحي الحياة ، لذلك ينبغي أن تتصدر الأمم والشعوب في مجال العلم والإيمان والأخلاق حتى تصل إلى ذلك المركز القيادي الذي أُعدّت له .

لذلك جاءت التوجيهات القرآنية في العديد من الآيات تشجع الأمة كل الأمة على العلم والبحث والتحري عن المجهول في هذا الكون الفسيح . قال تعالى : {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُون }[الزمر:٩].

وجعل الحق تبارك وتعالى شهادة العلماء مع شهادته وشهادة الملائكة الملائكة في الإقرار بالوحدانية لله في الألوهية والربوبية ، قال تعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران:١٨]، وأمر -ﷺ- بطلب العلم النافع للبشرية وشجع على تحصيله ، قال -ﷺ- : "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" ، وجاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله -ﷺ- يقول : "من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة" (٢) .

والاعجاز العلمي: هو ما يتعلق بإشارة القرآن في كثير من آياته إلى حقائق علمية ثابتة كشف عنها العلم الحديث ، ووافقت أحدث ما انتهى إليه الكشف العلمي في هذا العصر ،مع أنها كانت مجهولة في عصرة النبوة وما بعده لقرون عديدة (٣) .

وقد ذكر د. عبد السلام تعريفاً فقال : "تلك الموافقة بين المكتشفات الحديثة للسنن الإلهية ،وبين ما أشار إليه القرآن مع تمام المطابقة بينهما"(٤) .

ب- الضوابط العلمية المنهجية للإعجاز العلمي :

١- اعتقاد أن القرآن كتاب هداية وإرشاد أولاً وليس كتاب علوم وكونيات .

٢- عدم الإفراط والتفريط عند النظر في الآيات الكونية ، والاكتفاء بالحقائق العلمية في الاستدلال وعدم الاستدلال بالنظريات والفرضيات العلمية .

---

(١) تفسير المنار – ح٢٠٦/١ ، ٢٠٧ .
(٢) رواه الترمذي (جزء من حديث طويل) وقال عنه : حديث حسن .
(٣) انظر ثقافة الداعية للقرضاوي – ص ١٥ .
(٤) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم – ص ١٤ .

٣- الوقوف على مرونة الأسلوب القرآني في توضيح المضامين العلمية بحيث يحتمل ذلك الأسلوب وجوهاً من التأويل .
٤- عدم حصر دلالة الآية القرآنية على الحقيقة الواحدة ، بل إبقاء الآية مفتوحة الدلالة بحيث تحتمل كل ما يتفق مع معناها .
٥- اليقين باستحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية .
٦- اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة من خلال النظر في الآيات الربانية في الكون والنفس والآفاق والتعرف على سنن الله في هذا الوجود .
٧- الإعجاز العلمي يُثبت عالمية رسالة القرآن الكريم ، وذلك لأن القرآن يدعو الناس في كل عصر لدين الله (١) .

أمثلة على الإشارات العلمية في القرآن :

أ- قال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً}[النساء:٥٦]، هذه الآية فيها من التهديد والوعيد بعذاب أليم للكافرين يوم القيامة وجاء هذا العذاب في صورة تعذيب للجلود ، فلماذا اختار الله سبحانه التعبير بعذاب الجلود دون غيره من ألوان العذاب ، إن في ذلك لحكمة حيث استطاع العلم التوصل إلى وجود أوعية ناقلة للإحساس وهي تحت الجلد مباشرة وتصل على خمسة عشر نوعاً كل نوع له وظيفته وطبيعته ، لهذا فإن الألم الذي يحصل لجسم الإنسان يذوقه كل الجسم .

ب- قال تعالى : {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}[الأنعام:١٢٥]، بفضل الطيران والبالونات استطاع الإنسان التعرف على ظاهرة طبيعية وهي نقص أوكسجين الهواء في طبقات الجو العليا حيث إن الصاعد يشعر بصعوبة وضيق في التنفس والآية القرآنية صرحت بهذه الظاهرة منذ زمن بعيد ، وهذا يدعونا إلى الإيمان الراسخ بأن ما جاء به محمدٌ إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى (٢) .

ت- قال تعالى:{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ}[البقرة:٢٢٣]، فالرضاعة أوجبها الله سبحانه على الأم لأطفالها حفاظاً على الأطفال من الناحية الجسدية والنفسية والعقلية فقد تحدث الطب الحديث عن مقارنة بين الإرضاع الطبيعي والحليب الصناعي وذكر الآتي :-
١- أن مميزات اللبن الطبيعي أنه يتناسب من يوم لآخر عند الأم مع حاجة الطفل على مدار العامين الذي يرضع فيها الطفل .
٢- أما الإرضاع الصناعي فهو ثابت التركيز ولا يتناسب مع نمو الطفل ، لذلك أشار الأطباء إلى أهمية إرضاع الطفل من أمه وخاصة في الأيام الأولى من ولادته لأن اللبن في هذه

---

(١) انظر هذه الضوابط بالتفصيل – الإعجاز العلمي – د. عبد السلام اللوح – ص ١٦٢-١٦٥ .
(٢) انظر روح الدين الإسلامي – ص ٥٤ ، وانظر بالتفصيل أمثلة متنوعة – الإعجاز العلمي – د. عبد السلام اللوح – ص ١٦٦-٢٣٤ .

الفترة يحتوي على عناصر ومواد لها دخل كبير في تكوين المناعة من الأمراض عند الطفل .

٣- إن حليب الأم لا يحتاج إلى تعقيم ولا تعلق به الجراثيم بينما الحليب الصناعي فهو عرضة من خلال أي إساءة في استعمال الأدوات .

٤- لبن الأم أسهل في الهضم على الطفل من اللبن الصناعي حيث إن اللبن الصناعي يحتاج هضمه من ثلاث إلى أربع ساعات [١] .

هذا بالإضافة لهذه الأنواع من الإعجاز يوجد أنواع أخرى منها : الإعجاز التاريخي ، والإعجاز الأخلاقي ، والإعجاز النفسي والروحي ، والإعجاز التربوي ، والإعجاز بأخبار الغيب والمستقبل وغير ذلك [٢] .

فيمكن القول بأن أوجه إعجاز القرآن هي:

١- النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.

٢- الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.

٣- الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها.

٤- التشريع الدقيق الكامل الذي يفي بحاجات البشر.

٥- الإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلة، التي لا تعرف إلا بالوحي.

٦- الوفاء بكل ما أخبر عنه القرآن من وعد ووعيد.

٧- عجز المخلوقين عن أن يأتوا بمثله.

٨- كونه محفوظًا من الزيادة والنقصان ومن التبديل والتغيير {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩].

٩- تيسيره للحفظ {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ١٧].

١٠- تأثيره في قلوب الأتباع والأعداء حتى قال قائلهم[٣]، «والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وإنه ليعلو وما يعلى عليه وما تقوله بشر».

١١- كونه لا يمله قارئه ولا سامعه على كثرة الترديد بخلاف سائر الكلام[٤].

والقرآن أولاً وآخرًا هو الذي صير العرب رعاة الشاء والغنم ساسة شعوب وقادة أمم، وهذا وحده إعجاز، والقرآن الكريم هو أساس الدين ومصدر التشريع وحجة الله البالغة في كل عصر ومصر، بلغه رسول الله لأمته امتثالاً لأمر ربه واحتوى القرآن على الأمر الصريح بوجوب اتباعه والعمل بما تضمنه من الأحكام في غير موضع وبغير أسلوب {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأعراف: ٣] {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ} [العنكبوت: ٤٥].

كما وقد احتوى القرآن الكريم على كثير من نواحي الحياة المختلفة من ذلك ما يأتي:

---

(١) انظر لمحات في إعجاز القرآن – ص ٤٤-٤٥ .

(٢) إعجاز القرآن – أ.د. فضل عباس – ص ٢٥٠ .

(٣) هو: الوليد بن المغيرة المخزومي، انظر: "شعب الإيمان" للبيهقي (١٣٤)، و"تفسير البغوي" (٢/ ٦٣٢).

(٤) التبيان في علوم القرآن للصابوني (١٠٣) وانظر: البيان في إعجاز القرآن ومقدمة تفسير ابن جزي (١/ ٢٣).

١- العقائد التي يجب الإيمان بها في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر.

٢- الإرشاد إلى النظر والتفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء لتعرف أسرار الله في كونه وإبداعه في خلقه فتمتلئ القلوب إيمانا بعظمته عن نظر واستدلال لا عن تقليد ومجاورة.

٣- قصص الأولين أفرادا وأمما، فقد ورد في القرآن كثير من القصص الذي يثير الاعتبار والاتعاظ ويرشد إلى سنن الله في خلقه نجاة للصالحين وهلاكا للمفسدين.

٤- الأخلاق الفاضلة التي تهذب النفوس وتصلح من شأن الفرد والجماعة كالصبر والصدق والوفاء وأداء الأمانة مع التحذير من الأخلاق السيئة التي تودي بمعاني الحياة الإنسانية الفاضلة وتسبب لها الشقاء كالكذب والخيانة وإخلاف الوعد ونقض العهد.

٥- العبادات على اختلاف أنواعها من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وجاء في ذلك ما يقرب من مائة وأربعين آية.

٦- نظام الأسرة كأحكام الزواج والطلاق وما يتبعها من مهر ونفقة وحضانة ورضاع ونسب وعدة ووصية وإرث، وجاء في ذلك ما يقرب من سبعين آية.

٧- أحكام المعاملات المالية كالبيع والإجارة والرهن والمداينة والتجارة، جاء في ذلك ما يقرب من سبعين آية أيضا.

٨- أحكام الجنايات والحدود والسرقة والزنا والقذف ومحاربة الله في أرضه وجاء في ذلك ما يقرب من ثلاثين آية.

٩- أحكام الحرب والسلم وما يتبع ذلك من جهاد وغنيمة وأسر وعهود وجزية.

١٠- نظام الحكم فيما يجب على الحكام من الشورى والعدل والمساواة والحكم بما أنزل الله وما يجب على الناس لهم من طاعة.

١١- تنظيم الحياة الاجتماعية في علاقة الأغنياء بالفقراء فيما يحقق العدل الاجتماعي بين الناس، ولم يتفق العلماء على عدد آيات الأحكام وقيل إنها: خمس مائة آية أو قريب منها[١] والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد قال ﷺ «إنها ستكون فتنة» قيل: وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم»[٢]، وورد في الحديث ما معناه: أن القرآن اشتمل على ذكر الحلال والحرام والمحكم والمتشابه والأمثال، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه، وعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه واعتبروا بأمثاله، وقال بعضهم: اشتمل القرآن على تسعة أشياء[٣]:

فقال: لا إنما القرآن تسعة أحرف   سأنبئكما في بيت شعر بلا خلل

حلال حرام محكم متشابه   بشير نذير عظة قصة مثل

---

(١) تاريخ التشريع والفقه الإسلامي للشيخ مناع خليل القطان «(٦٧، ٦٨)».
(٢)أخرجه الترمذي(٢٩٠٦):ص٢٢/٥،.

(٣) نقلا عن :فضائل القرآن، عبد الله بن جار الله بن إبراهيم آل جار الله:٣٢.

وأصل علوم القرآن ثلاثة: توحيد وتذكير وأحكام، فالتوحيد يدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتذكير منه الوعد والوعيد والجنة والنار.

والأحكام منها التكاليف كلها وتبيين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب، ولهذا كانت الفاتحة أم القرآن لأن فيها الأقسام الثلاثة، وسورة الإخلاص ثلثه لأن فيها أحد الأقسام وهو التوحيد[١].

وقال ابن جزي في مقدمة تفسيره: "معاني القرآن سبعة:

١- علم الربوبية، ومنه إثبات وجود الباري ﷻ والاستدلال عليه بمخلوقاته.

٢- والنبوة وإثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام على العموم وإثبات نبوة نبينا ﷴ على الخصوص وإثبات الكتب التي أنزلها الله عليهم ووجود الملائكة الذين كانوا وسائط بين الله وبينهم.

٣- المعاد: وهو إثبات الحشر وذكر ما في الآخرة من الحساب والجزاء وصحائف الأعمال وكثرة الأهوال والجنة والنار.

٤- الأحكام: وهي الأوامر والنواهي وتنقسم خمسة أنواع، واجب ومندوب وحرام ومكروه ومباح، ومنها ما يتعلق بالأبدان كالصلاة والصيام، وما يتعلق بالأموال كالزكاة وما يتعلق بالقلوب كالإخلاص والخوف والرجاء وغير ذلك.

٥- الوعد: ومنه وعد بخير الدنيا كالنصر على الأعداء والحياة الطيبة والأمن والاستقرار ومنه وعد بخير الآخرة كأوصاف الجنة ونعيمها.

٦- الوعيد: ومنه تخويف بالعقاب في الدنيا كالخوف والمرض والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ومنه وعيد، بعقاب الآخرة كعذاب القبر، وأهوال يوم القيامة، وشدة الحساب، ودخول النار، وتأمل القرآن تجد الوعد مقرونا بالوعيد كقوله: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار: ١٣، ١٤] ليبعث على الخوف والرجاء.

٧- القصص: وذكر أخبار الأنبياء مع قومهم وماجرى لهم من نجاة المصدقين وهلاك المكذبين ليعتبر اللاحقون بالسابقين فلا يعملون مثل عملهم فيصيبهم ما أصابهم"[٢].

الثاني عشر: ترجمة القرآن الكريم بغير لغته

تطلق الترجمة في اللغة على : نقل الكلام من لغة إلى أخرى ، جاء في لسان العرب : الترجمان بالضم والفتح هو الذي يترجم الكلام أي ينقله إلى لغة أخرى [٣] .

والترجمة اصطلاحاً : تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، قال الجوهري : "وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر"[٤].

أقسام الترجمة [٥] :

تنقسم الترجمة إلى قسمين :-

---

(١) «مختصر الإتقان في علوم القرآن» (٩٦-٩٨).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٩).
(٣) لسان العرب لابن منظور – ج١٦ ص ١٤٠ .
(٤) القاموس المحيط – ج٨ ص ٢١١ .
(٥) التفسير والمفسرون للذهبي – ج١ ص ٢٤ .

أولاً : الترجمة الحرفية :

وهي نقل الكلام من لغة إلى أخرى مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب ، والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم .

ثانياً : الترجمة المعنوية والتفسيرية :

وتعني شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه ، وبدون المحافظة على جميع معاني الأصل المترجم .

موقف العلماء من ترجمة القرآن الكريم :

أولاً : الترجمة الحرفية لا تجوز وذلك :

لا يمكن ترجمة القرآن ترجمة تماثله في دقة تعبيره وعلو أسلوبه وجمال سبكه وإحكام نظمه وتقوم مقامه في إعجازه وتحقيق جميع مقاصده من إفادة الأحكام والآداب والإبانة عن العبر والمعاني الأصلية والثانوية ونحو ذلك مما هو من خواص مزاياه المستمدة من كمال بلاغته وفصاحته ومن حاول ذلك فمثله كمثل من يحاول أن يصعد إلى السماء بلا أجهزة ولا سلم أو يحاول أن يطير في الجو بلا أجنحة ولا آلات.

لأن القرآن الكريم أنزله الله علـى العرب وهم أرباب اللغة والبيان فلم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا دليل واضح على إعجازه ، فلو تُرجم القرآن ترجمة حرفية لضاعت خواص القرآن البلاغية ولنزل عن مرتبته المعجزة إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر والدليل على ذلك إذا أراد المترجم أن يترجم قوله تعالى ترجمة حرفية : {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} [الإسراء : ٢٩] ،أتى المترجم بكلام يدل على النهي عن ربط اليد في العنق وعن مدها غاية المد ، مع مراعاة الترتيب في الأصل ، ولكن هذه الترجمة لا توضح المقصد والمعنى الحقيقي لهذه الآية الكريمة ، وعلى هذا : فالترجمة الحرفية لا يمكن أن تقوم مقام الأصل في تحصيل كل ما يقصد منه لما يترتب عليها من ضياع هذا الغرض .

ثانياً : الترجمة التفسيرية أو المعنوية :

أجازها العلماء وذلك لأن المترجم إذا أراد أن يترجم هذه الآية ترجمة تفسيرية ، فإنه يأتي بالنهي عن التبذير والتقتير في أبشع صورة منفرة فتأتي منها بعبارة تدل على هذا النهي المراد في أسلوب يترك في نفس المترجم لهم أكثر الأثر في استبشاع التقتير والتبذير دون رعاية الأصل في نظم وترتيب الآية .

إذن يمكن أن يعبر العالم عما فهمه من معاني القرآن حسب وسعه وطاقته بلغة أخرى ليبين لأهلها ما ما أدركه فكره من هداية القرآن وما استنبطه من أحكامه أو وقف عليه من عبره ومواعظه لكن لا يعتبر شرحه لتلك غير اللغة العربية قرآناً ولا ينزل منزلته من جميع النواحي ، بل هو نظير تفسير القرآن باللغة العربية في تقريب المعاني والمساعدة على الاعتبار واستنباط الأحكام ، ولا يسمى ذلك التفسير قرآناً ، وعلى هذا يجوز للجنب والكفار مس ترجمة معاني القرآن بغير اللغة العربية ، كما يجوز مسهم تفسيره باللغة العربية.

شروط الترجمة :

أولاً : أن تكون الترجمة على شاكلة التفسير ، لا يعول عليها إلا إذا كانت معتمدة على علوم اللغة ، وعلوم القرآن .

ثانياً : معرفة المترجم لأوضاع اللغتين لغة الأصل ولغة الترجمة .

ثالثاً : معرفة أساليب وخصائص اللغتين .

رابعاً : وفاء الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده .

خامساً : أن يكتب القرآن أولاً ، ثم يؤتى بعده بتفسيره ، ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن

سادساً : أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن ، وهذا شرط في المفسر أيضاً .

ملاحظة : إن الكتابة للآيات بالحروف اللاتينية أو الإنجليزية التي تبقي الكلام القرآني كما هو لا يدخل في موضوع الترجمة وإنما هو كتابة خطية بحروف غير عربية .

الثالث عشر: فضائل القرآن

إن قراءة القرآن وتلاوته عبادة من العبادات مثلها مثل سائر العبادات، وهي من الذكر يؤجر القارئ على قرأته له، ولذلك حثنا رسول الله ﷺ على تلاوته ودلنا على عظيم أجره، وكثرة القراءة للقرآن تولد عند المسلم الذي يستمتع بقراءته لذة بتلاوته، وراحة نفسية واطمئنان في القلب، قال تعالى :{الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨]، وبتكرار القراءة بتلذذ فإن القارئ سوف يحاول أن يفهم ما يقرأ من القرآن بوعي وبصيرة.. فإذا فهم ما يقرؤه بوعي وبصيرة فإنه لاشك سوف يدخل إلى محراب التفكر والتدبر، ويبدأ بالتدبر لآيات الله في القرآن وعندها يكون عمل بمقتضاها عن علم ووعي وبصيرة.

وللقرآن صفات عظيمة يعجز البشر عن حصرها،ولكن منها الصفات الآتية(١):

١- كتاب عام للعالمين: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان : ١].

٢- المعجزة العظمى،الذي تحدَّى الله به الإنس والجن على أن يأتوا بمثله،أو بعشر سور من مثله، أو سورة واحدة، فعجزوا مجتمعين ومتفرقين عن الإتيان بشيء من ذلك،قال الله {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء : ٨٨]، وقوله تعالى {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)} [الطور : ٣٣ - ٣٤] ، وبعد هذا التحدّي عجزوا أن يأتوا بمثله،فمدَّ لهم في الحبل وتحدَّاهم بعشر سور مثله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [هود : ١٣] ، فعجزوا، فأرخى لهم في الحبل، وتحدّاهم بسورة مثله، قال الله تعالى: } {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [يونس : ٣٨].

وقد سمع هذا التحدّي من سمع القرآن وعرفه الخاص والعام،ولم يتقدم أحد على أن يأتي بسورة

---

(١) ينظر: عظمة القرآن وتعظيمه وأثره في النفوس في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني(كتاب منشور في الشبكة الالكترونية).(بتصرف بسيط).

مثله من حين بعث النبي ﷺ إلى هذا اليوم [1] وإلى قيام الساعة، والقرآن يشتمل على آلاف المعجزات؛ لأنه مائة وأربع عشرة سورة، وقد وقع التحدي بسورة واحدة، وأقصر سورة في القرآن سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات قصار، والقرآن يزيد بالاتفاق على ستة آلاف آية ومائتي آية، ومقدار سورة الكوثر من آيات أو آية طويلة على ترتيب كلماتها له حكم السورة الواحدة،ويقع بذلك التحدي والإعجاز؛ ولهذا كان القرآن يُغني عن جميع المعجزات الحسّية والمعنوية؛ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وإعجازه في وجوه كثيرة: الإعجاز البلاغي والبياني، والإخبار عن الغيوب بأنواعها، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي الحديث؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات على ما مثله آمن البشر، وإنما كان الذي أُتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"[2].

٣- هدى للمتقين: {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)} [البقرة : ١ - ٢].

٤- هدى للناس جميعاً {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة : ١٨٥].

٥- يهدي للتي هي أقوم: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠)} [الإسراء : ٩ - ١٠].

٦- روحٌ وحياةٌ: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى : ٥٢].

٧- نور: يهدي به الله من يشاء من عباده: {وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا}[الشورى:٥٢] ، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)} [النساء : ١٧٤ - ١٧٥].

٨- فرقان: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان : ١].

٩- شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِين }[يونس:٥٧]، { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا }[الإسراء:٨٢]، { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيد }[فصلت:٤٤].

١٠- القرآن تبيانٌ لكل شيء: { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين }[النحل:٨٩].

١١- لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:{وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيز * لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيد }[فصلت:١].

١٢- تكفَّل الله بحفظه: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون }[الحجر:٩].

---

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية، ٤/٧١- ٧٧، والبداية والنهاية لابن كثير، ٦/٩٥.

(٢) متفق عليه: البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، برقم ٤٩٨١، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، برقم ١٥٢.

١٣- كتابٌ واضحٌ مبين:{قَدْ جَاءكُم مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِين * يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم }[المائدة:١٦].

١٤- أُحْكِمَتْ آياته:{الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِير } [(١)].

١٥- فُصِّلت آياته: { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُون * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُون }[فصلت:٢-٤].

١٦- تذكرةٌ لمن يخشى: { مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى }[طه:٢-٤].

١٧- ما تَنَزَّلت به الشياطين:{وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِين * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُون * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُون }[الشعراء:٢٠٩-٢١٢].

١٨- آياتٌ بيِّناتٌ في صدور أهل العلم: { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [العنكبوت:٤٩].

١٩- ذِكْرٌ وقرآنٌ مبين: { إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِين * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِين }[يس:٦٩-٧٠].

٢٠- أحسن الحديث: { الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ الله ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَاد }[الزمر:٢٣].

٢١- عليٌّ حكيم:{وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيم }[الزخرف:٤].

٢٢- بصائرُ للناس:{هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُون}[الجاثية:٢٠].

٢٣- قرآنٌ مجيدٌ: { وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد }[ق:٢].

٢٤- قرآنٌ كريمٌ:{ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيم*فِي كِتَابٍ مَّكْنُون * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُون*تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِين }[الواقعة:٧٧-٨٠].

٢٥- لو أنزله الله على الجبال لخشعت، وتصدَّعت من خشيته تعالى: { لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ الله وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون }[الحشر:٢١].

٢٦- يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم، ومصدِّقٌ لما بين يديه: { قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيم } [الأحقاف:٣٠].

٢٧- يهدي إلى الرُّشد:{إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا*يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ}الجن:١-٢].

٢٨- في لوحٍ محفوظ:{ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيد * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظ}[البروج:٢١-٢٢].

٢٩- القرآن وصيَّة رسول الله ﷺ، فقد أوصى به في عدة أحاديث منها الأحاديث الآتية:

الحديث الأول : حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه،فقد سُئل: هل أوصى رسول لله ﷺ؛قال:"أوصى

---

(١) سورة هود، الآية: ١.

بكتاب الله ﷻ"[١].

والمراد بالوصية بكتاب الله:حفظه حِسَّاً ومعنىً، فيُكرم، ويُصان،ويُتّبع ما فيه، فَيُعمل بأوامره،ويجتنب نواهيه، ويداوم على تلاوته، وتعلُّمه، وتعليمه، ونحو ذلك[٢].

الحديث الثاني:حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في صفة حجة النبي ﷺ، وفيه أن النبي ﷺ قال في خطبته في عرفات:"...وقد تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به:كتاب الله،وأنتم تُسألون عني فماذا أنتم قائلون؟" قالوا: نشهد أنك قد بلغت،وأديت ونصحت،فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس:"اللهم اشهد،اللهم اشهد،اللهم اشهد..."[٣].

الحديث الثالث:حديث ابن عباس رضي الله عنهما:أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال: "إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، ولكن رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم فاحذروا، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه..."[٤].

الحديث الرابع: حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لهم في غدير خم [بين مكة والمدينة][٥]، وفيه: "... وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور [هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة] فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به"، فحث على كتاب الله، ورغَّب فيه..."[٦].

الحديث الخامس: حديث أبي ذر رضي الله عنه ، قال: قلت: يا رسول الله أوصني قال: "أوصيك بتقوى الله؛ فإنه رأس الأمر كلِّه"، "قلت: يا رسول الله زدني، قال: "عليك بتلاوة القرآن وذكر الله؛ فإنه نورٌ لك في الأرض وذخرٌ لك في السماء"[٧] .

فقد جاءت هذه الأحاديث تدل على أن رسول الله ﷺ أوصى بكتاب الله تعالى في عِدَّةِ مواقف: في خطبة عرفات، وفي خطبة أيام منى، وفي خطبته في غدير خم بين مكة والمدينة، وعند موته ﷺ، وهذا يدل على أهمية كتاب الله ﷻ.

٣٠- والقرآن العظيم: من ابتغى الهُدى من غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم،وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعَّب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملّه الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه، من عَلِم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجِر، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم [٨].

---

(١) متفق عليه: البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصايا، برقم ٢٧٤٠، ومسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، برقم ١٦٣٤.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ٦٧/٩.

(٣) مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، برقم ١٢١٨.

(٤) الحاكم، ٩٣/١، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، ١٢٤/١، وفي الأحاديث الصحيحة، برقم ٤٧٢.

(٥) اسم لغيضة على ثلاثة أميال من الجحفة،غدير يقال له: غدير خم.[شرح النووي على صحيح مسلم].

(٦) مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، برقم ٢٤٠٨.

(٧) ابن حبان في صحيحه مطولاً، برقم ٣٦١، ٧٨/٢، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب، ١٦٤/٢، برقم ١٤٢٢.

(٨) انظر: الترمذي، برقم ٢٩٠٦، وكل ما جاء في هذا الأثر فمعناه صحيح حتى ولو لم يأتِ في حديث، لكن المعنى تدل عليه عموم الأدلة من الكتاب والسنة.

٣١- وقد وردت أحاديث كثيرة تبين فضل القرآن على سائر كلام البشر، وهو كلام الله فمنها:

من فضائل القرآن أنه يشفع يوم القيامة لمن قرأه وعمل به في الدنيا، قال ﷺ "اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه"(١).

وقال ﷺ: "يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا"(٢).

وخير الناس هم الذين تعلموا القرآن وعلموه لوجه الله قال ﷺ: " خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"(٣).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "يجيء القرآن يوم القيامة يقول: يا رب حله، فيلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول: يا رب ارض عنه فيرضى عنه، فيقال: اقرأ وارق فيزاد بكل آية حسنة" (٤).

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه؛ أدخله الله به الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار»(٥).

عن سهل بن معاذ الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجا يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا فما ظنكم بالذي عمل بهذا» (٦).

وروى البخاري عَنْ عَائِشَةَ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ"(٧).

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران"(٨).

وروى النسائي وابن ماجة والحاكم بإسناد صحيح عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنْ النَّاسِ"، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ هُمْ؟ قَالَ:"هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ"(٩).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ : مَنْ أَحْسَنُ النَّاسِ صَوْتًا بِالْقُرْآنِ؟ قَالَ: "مَنْ إِذَا سَمِعْتَ قِرَاءَتَهُ رَأَيْتَ أَنَّهُ يَخْشَ

---

(١)صحيح مسلم (١/ ٥٥٣) برقم (٨٠٤)
(٢)رَوَاه مُسْلِم (١/ ٨٠٥)، والتِّرمِذِي (٥/ ٢٨٨٣)
(٣)رَوَاه البُخَارِي (٦/ ٥٠٢٧)، وأَبُو دَاوُد (٢/ ١٤٥٢).
(٤)صحيح الجامع(٨٠٣٠)(حديث حسن).
(٥)أخرجه الترمذي، ومعنى استظهره، حفظه عن ظهر قلب.
(٦)أخرجه أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
(٧)البخاري، ٤/ ١٨٨٢ رقم ٤٦٥٣.
(٨)مسلم ١/ ٥٤٩ رقم ٧٩٨.
(٩)ابن ماجة ١/ ٧٨ رقم ٢١٥. قال عنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح. المستدرك ١/ ٧٤٣ رقم ٢٠٤٦.

الفصل الثاني
أولا:- أنواع التفسير

التفسير لغة واصطلاحا

تدور معاني التفسير في اللغة حول الكشف، والإيضاح، والبيان للشيء.

قال ابن فارس[1]: "(فَسَرَ) الفاء، والسين، والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه"[2].

وقال ابن منظور[3]: "(فسر) الفَسْرُ: البيان، فَسَر الشيءَ يفسِرُه بالكَسر وتَفْسُرُه بالضم فَسْراً وفَسَّرَهُ: أَبانه...وقوله عز وجل: {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} [الفرقان : ٣٢]، الفَسْرُ: كشف المُغَطّى والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكِل، واستَفْسَرْتُه كذا، أَي سأَلته أَن يُفَسِّره لي"[1].

---

(١) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي، ولد في قرية كرسفة، منطقة رستاق الزهراء، كان أحد أئمة اللغة الأعلام نزيل همذان، كان من الرحالة في طلب العلم، توفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة للهجرة بالري ودفن بها، انظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي ١٠٣/١٧، تحقيق: مجموعة بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، (بدون).

(٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ٤٠٢/٤، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

(٣) هو محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الأفريقي ثم المصري أبو الفضل يعرف بابن منظور، ولد سنة ثلاثين وستمائة، بمصر وقيل في طرابلس، خدم في ديوان الآثار بالقاهرة ثم ولي القضاء في طرابلس ثم رجع إلى مصر ومات فيها سنة إحدى عشرة وسبعمائة وترك من مختصراته بخطه خمسمائة مجلد، انظر:

وعُرّف التفسير بأنه: "الاستبانة، والكشف، والعبارة عن الشيء بلفظ أسهل وأيسر من لفظ الأصل"(٢).

وخلاصة القول أن معنى التفسير في اللغة: هو البيان، والإيضاح، والكشف بلفظ أسهل وأيسر.

ويعرف الإمام الزركشي(٣)، التفسير اصطلاحا بقوله: "التفسير: هو علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد -ﷺ-، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحِكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ"(٤).

ويرى الباحث أن الزركشي أطلق الفهم ولم يبين ضوابطه، ولم يصرح بأن السنة مفسرة لا في القول، ولا في الفعل، ولا في التقرير، وكرر بعض المعاني فالنحو والتصريف وعلم البيان كلها داخلة في علم اللغة.

ويقول الإمام السيوطي(٥): التفسير: "علم نزول الآيات، وشؤونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها، ومدنيها، ومحكمها، ومتشابهها وناسخها، ومنسوخها، وخاصها، وعامها، ومطلقها، ومقيدها، ومجملها، ومفسرها، وحلالها، وحرامها، ووعدها، ووعيدها، وأمرها، ونهيها، وعِبرها، وأمثالها"(٦)، ويبدو أن الإمام السيوطي ركز على أسباب النزول، وترتيب فروع القرآن من مدني، ومكي، ومحكم، ومتشابه ...الخ، ولم يهتم بجانب التفسير المشتمل على الفهم والبيان.

وعُرِّف علم التفسير أيضاً بأنه: "علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها، الإفرادية، ومعانيها التركيبية، وتفسير الشيء لاحق به ومتمم له وجار

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر، أبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني الشافعي ١٠٧/٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد- الهند، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، ط/الثانية، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان.

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي ١٢٨/١١، دار صادر – بيروت، ط/الأولى.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١٢٨/١١.

(٣) هو بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي الإمام المصنف، ولد سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وأخذ عن الشيخين: جمال الدين الأسنوي، وسراج الدين البلقيني وكان رحالة في طلب العلم، وكثير التصانيف، توفي بمصر ودفن بالقرافة، سنة أربع وتسعين وسبعمائة، انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة٤٧٩/١، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد ابن العماد العكري الحنبلي ٣٣٤/٦، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير- دمشق، ط/١٤٠٦هـ.

(٤) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ١٣/١، دار إحياء الكتب العربية ط/ الأولى ١٣٧٦هـ.

(٥) هو عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان الخضيري الأسيوطي ولد في رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، ونشأ في القاهرة يتيما، اشتغل بالعلوم وكان علما، توفى ليلة الجمعة لتسعة عشر يوماً خلت من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة للهجرة، وكان عمره إحدى وستين سنة، انظر: حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة ص١١٠، (بدون)، وطبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنروي ص٣٦٥- تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، ط/الأولى١٩٩٧م.

(٦) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي ص٤٣٥، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر- لبنان ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

مجرى بعض أجزائه، قال أهل البيان: التفسير هو أن يكون في الكلام لبس، وخفاء فيؤتى بما يزيله ويفسره"[(١)].

وهذا التعريف ركز على القراءات بشكل جوهري لكنه أشار إلى إيضاح تلك المدلولات بشكل إفرادي، وتركيبي، فهو قد تناول نوعين من التفسير: تفسير مفردات، وتفسير تراكيب، وعليه فإن هذا التعريف أقرب إلى الصواب من حيث استيعاب معنى التفسير عند أهله.

وقال أبو حيان[(٢)]: "التفسير: علم يُبحثُ فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية، والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك"[(٣)].

والظاهر أن أبا حيان أورد نفس التعريف الذي سبقه، بدون زيادة، ثم قام بشرحه فقال: "فقولنا: علم هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن هذا هو علم القراءات، وقولنا: ومدلولاتها أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم، وقولنا: وأحكامها الإفرادية، والتركيبية هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: ومعانيها التي تحمل بها حالة التركيب: شمل بقوله التي تحمل عليها ما دلالته عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقضي بظاهره شيئاً، ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: وتتمات لذلك، هو معرفة النسخ، وسبب النزول وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن ونحو ذلك"[(٤)].

وخلاصة القول في تعريف التفسير اصطلاحاً: أنه علم يفهم به مراد الله في كتابه المنزل على محمد -ﷺ- من بيان لمعانيه، واستخراجٍ للحِكَم والأَحكَام عبر علوم وضوابط حددها العلماء سيأتي بيانها في أنواع التفسير.

وهذا التعريف تحاشى فيه الباحث من الفهم بدون ضوابط، وعن التكرار الذي انتقدناه في تعريف الزركشي، وذِكْرِ جانبِ الفهم والبيان للألفاظ والتراكيب الذي أغفله السيوطي، وذكر العلوم والضوابط التي حددها العلماء إيضاحاً للتعريفين الأخيرين، والله أعلم.

أنواع التفسير

---

(١) كتاب الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفومي ص٢٦٠، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت- ط/ ١٤١٩هـ .

(٢) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، الإمام أثير الدين الأندلسي الغرناطي، النّفزي، نحويّ عصره ولغويّه ومفسّره، ولد بمطخشارس، مدينة من حاضرة غرناطة سنة أربع وخمسين، وستمائة للهجرة، من تصانيفه: البحر المحيط في التفسير، وغيره، توفى سنة خمس وأربعين وسبعمائة، انظر: معجم الشيوخ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ص٤٧٢، تخريج: شمس الدين أبي عبد الله ابن سعد الصالحي الحنبلي، تحقيق: الدكتور بشار عواد- رائد يوسف العنبكي- مصطفى إسماعيل الأعظمي، دار الغرب الإسلامي، ط/ الأولى ٢٠٠٤م.

(٣) البحر المحيط، محمد بن يوسف أبوحيان الأندلسي ١٢١/١، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي معوض، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، ط/الأولى١٤٢٢ هـ-٢٠٠١م.

(٤) المصدر نفسه ١٢٢/١.

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: "التفسير أربعة: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تقره العرب بألسنتها، وتفسير تفسّره العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى"(١).

وقال آخرون: التفسير ثلاثة أقسام: تفسير بالرواية، ويسمى التفسير بالمأثور، وتفسير بالدراية، ويسمى التفسير بالرأي. وتفسير الإشارة، ويسمى التفسير الإشاري، ويضيف بعضهم قسما رابعا، وهو تفسير باطني، ويسمى التفسير الباطني.

١- التفسير بالمأثور (بالرواية)، وأقسامه:

وهو تفسير القرآن بالمنقول سواء كان قرآناً أو مأثوراً عن النبي -ﷺ-، أو عن الصحابة، ومعتمد هذا التفسير هو النقل كتفسير ابن جرير الطبري(٢)، وغيره، وهذه هي إحدى طرق التفسير، قال ابن تيمية: "فإن قال قائل: فما أحسن طرقُ التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن؛ فما أُجمِل في مكان فإنه قد فُسِرَ في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له.. وإذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن.. ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح والعمل الصالح...، وإذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة"(٣).

فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين"(٤)، وقال الإمام الزركشي: "للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربعة:

الأول: النقل عن النبي -ﷺ-، وهذا هو الطراز المعلم لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع فإنه كثير.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي -ﷺ- وفي الرجوع إلى قول التابعي روايتان.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة؛ فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وقد ذكره جماعة منهم: أنس بن مالك، وأحمد بن حنبل.

الرابع: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، والمقتضب من قوة الشرع، وهذا هو الذي دعا به النبي -ﷺ- لابن عباس رضي الله عنهما في قوله: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"(١) "(٢).

---

(١)تفسير الطبري:(١ : ٣٤)، وإيضاح الوقف والابتداء (١ : ١٠١)، وقد اعتمد الطبري (ت : ٣١٠) على هذا الأثر في ذكر الوجوه التي من قِبَلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن.

(٢) هو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري الإمام الجامع للعلوم المجتهد، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة في آمل طبرستان، ورحل إلى بغداد واستقربه المقام بها حتى توفى سنة عشر وثلاثمائة، انظر: طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي ٣ /١٢٠، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود.عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط/الثانية ١٤١٣هـ.

(٣) هو أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، شيخ الإسلام في زمانه وأبرز علمائه، ولد بحرَّان سنة إحدى وستين وستمائة للهجرة، ورحل إلى دمشق مع أسرته هربًا من غزو التتار، تلقى العلم حتى آلت إليه الإمامة، وتوفى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، انظر: معجم المحدثين للذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله ص١١، تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق– الطائف، ط/ الأولى ١٤٠٨هـ.

(٤)مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني ١٣/ ٣٦٣-٣٦٨، تحقيق: أنور الباز، وعامر الجزار، دار الوفاء، ط/ الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م بتصرف.

ومن خلال كلام ابن تيمية يتضح أن التفسير لكتاب الله تعالى يكون بتفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة ثم بأقوال الصحابة ثم يرجع إلى أقوال كبار التابعين
كمجاهد بن جبر[٣]، وهذا هو الذي يسمى بتفسير الرواية.

ومن كلام الزركشي يتبين أن التفسير عنده هو ما جاء تفسيره عن النبي -ﷺ-، أو نُقل تفسيره عن أحد الصحابة، أو عن تابعي إذا رفعه إلى الصحابي آخذاً بمطلق اللغة، وبمقتضى معنى الكلام، وهذا شامل للتفسير عموماً إلا أنه بَيَّنَ في الفقرتين الأولى والثانية سبيل التفسير بالرواية.

ويرى الباحث من كلام الزركشي أيضاً أن معتمد التفسير بالمأثور هو النقل، ويجب أن يكون هذا النقل صحيحاً؛ لأنه حذر من الضعيف، والموضوع إذ لا عبرة به عند جميع المفسرين.

وقد عَرَّف بعضُ المعاصرين التفسير بالرواية فقال: "هو ما جاء في القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة، بياناً لمراد الله تعالى"[٤].

وقيل: "هو ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل، وما نقل عن الرسول-ﷺ-، وأصحابه، والتابعين مسنداً إلى من قبلهم على الصحيح"[٥].

وهذان التعريفان الأخيران هما خلاصة كلام الإمام ابن تيمية، وهو الراجح وهو ما سيقوم الباحث بشرحه في أقسام التفسير بالرواية.

أقسام التفسير بالرواية:

مما سبق يمكننا أن نقسِّم التفسير بالرواية إلى الأقسام الآتية:

أ- تفسير القرآن بالقرآن:

ومثال هذا القِسْم قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ] {المائدة:١}، جاء مفسراً في قوله تعالى:[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالمُنْخَنِقَةُ وَالمَوْقُوذَةُ وَالمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ اليَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

---

(١) قوله ﷺ: (اللهم فقه في الدين) متفق عليه، في البخاري، باب: وضع الماء عند الخلاء١٤٩/١، وفي مسلم باب: فضائل الصحابة ١٥٨/٧، وأما قوله: (وعلمه التأويل) فقد أخرجه أحمد في مسند ابن عباس ٢٣٥/١، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة – القاهرة، (بدون)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم، ومصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي ٥٢٠/٢، تحقيق : محمد عوامة، دار القبلة (بدون).

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٥٦/٢- ١٦١، بتصرف يسير.

(٣) هو مجاهد بن جبر الإمام أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي المقري المفسر الحافظ سمع سعداً وعائشة، وأبا هريرة، وأم هانئ، وعبد الله بن عمر وابن عباس ولزمه مدة، وقرأ عليه القرآن وكان أحد أوعية العلم، روى عنه جمع غفير من التابعين وغيرهم، توفى سنة ثلاث ومائة وقد بلغ ثلاثاً وثمانين سنة، انظر: تذكرة الحفاظ، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي/١ ٩٣، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية- بيروت ط/ الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٤)التبيان في علوم القرآن، محمد بن علي الصابوني ص٧٥، دار الإرشاد– بيروت،ط/الأولى١٣٩٠هـ.

(٥) علوم القرآن الكريم ص٧٥، د/ نور الدين عترة، دمشق– الصباح، ط/ السادسة ١٤١٦هـ.

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ] {المائدة:٣}
وكذلك قوله تعالى:[إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ] {الدُخان:٣}، جاء مفسراً في قوله تعالى:[إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ] {القدر:١}

ب- تفسير القرآن بالسنة:

ومثال ذلك ما ورد عن ابن مسعود -(رضي الله تعالى عنه- قال: "لمَّا نزل قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَم يَلبِسُواْ إِيمَنَهُم بِظُلمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ ٱلأَمنُ وَهُم مُّهتَدُونَ{[الأنعام:٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله -ﷺ- وقالوا: يا رسول الله: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله -ﷺ-: "ليس ذاك إنما هو الشرك ألم تسمعوا قولَ لقمان لابنه:[وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ] {لقمان:١٣}"[(١)].

وفسر النبي -ﷺ- الصلاة الوسطى بصلاة العصر، فعن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: حَبَسَ الْمُشْرِكُونَ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- عَنْ صَلاَةِ الْعَصْرِ حَتَّى احْمَرَّتِ الشَّمْسُ أَوِ اصْفَرَّتْ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "شَغَلُونَا عَنِ الصَّلاَةِ الْوُسْطَى صَلاَةِ الْعَصْرِ مَلأَ اللهُ أَجْوَافَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا"[(٢)].

ت- تفسير القرآن بقول الصحابي:

إن الصحابة رضوان الله عليهم عايشوا التنزيل، وعرفوا بجملتهم في ماذا أنزلت الآيات، وأعانهم على ذلك أن القرآن نزل إليهم منجماً، ولم ينزل دفعة واحدة، ليكون أرسخ للفهم، وأسهل في الامتثال والتطبيق.

ومثال ذلك تفسير ابن عباس لسورة النصر، وأنها علامةُ أجلِ النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعن ابن عباس قال: "كان عمر يُدْخِلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تُدْخِل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممَّن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا لِيُرِيَهم مني، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: :[إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ] {النَّصر:١}، حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا جاء نصرنا وفُتِحَ علينا، وقال بعضهم: لا ندري، فقال لي: يا ابن عباس أكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله -ﷺ- أعلمه به:[إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ] {النَّصر:١}، فتح مكة، فذلك علامة أجلك[فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا] {النَّصر:٣}، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم"[(٣)].

ث- تفسير القرآن بقول التابعي:

قد اختلف العلماء في تفسير التابعي هل هو من المأثور أم من التفسير بالرأي؟ بمعنى هل نحمله على أنه منقول عن الصحابة رضوان الله عليهم اللذين- عايشوا التنزيل- أم باجتهادٍ منهم.

---

(١) البخاري مع الفتح، باب: لا تشرك بالله ٨/ ٦٥١، مكتبة دار السلام، ط/الأولى ١٤١٨هـ، ومسلم مع شرح النووي، باب: صدق الإيمان٨٠/١، برقم (٣٢٣)، دار المعرفة، ط/ الثانية ١٤١٥هـ.

(٢) البخاري مع الفتح، باب: الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة ٦/ ٨٩، برقم (٢٩٣١)، ومسلم مع شرح النووي باب: الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ٥/ ١٢٩، برقم (١٤٥٨).

(٣) البخاري مع الفتح، باب قوله: [فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا] {النَّصر:٣}: ٨ /٩١٩.

قال ابن تيمية: "وقال شعبة بن الحجاج[١]: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟! يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يُرتَاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك"[٢].

ولو رتب ابن تيمية الرجوع إلى لغة القرآن، والسنة، ثم إلى أقوال الصحابة، ثم إلى عموم لغة العرب لكان خيراً من التخيير في الرجوع عند اختلاف أقوال التابعين.

قال محمد الزرقاني[٣]: "أما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف بين العلماء: منهم من اعتبره من المأثور؛ لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً، ومنهم من قال: إنه من التفسير بالرأي، وفي تفسير ابن جرير الطبري كثيرٌ من النقول عن الصحابة والتابعين في بيان القرآن الكريم"[٤].

وقيل: "وإنما أدرجنا في التفسير بالمأثور ما رُوِىَ عن التابعين- وإن كان فيه خلاف: هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأي- لأننا وجدنا كتب التفسير بالمأثور، كتفسير ابن جرير الطبري وغيره، لم تقتصر على ما رُوِىَ عن النبي -ﷺ- وما رُوِىَ عن أصحابه، بل ضمت إلى ذلك ما نُقِل عن التابعين في التفسير"[٥].

ومن خلال صنيع ابن جرير الطبري وغيره من المفسرين، يتبين أن قول التابعين يعتبر من التفسير بالمأثور لقربهم من الذين شهدوا الوحي وتلقوا عنهم، خلافا لقول ابن تيمية، ومن أهم مؤلفات التفسير بالمأثور:

-جامع البيان في تأويل آي القرآن، للإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.

- تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ ابن كثير البصري[٦].

-الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي.

ومن أبرز جماعة التابعين ممن اشتهروا بمعرفة التفسير فبرعوا ونبغوا فيه:

١- سعيد بن جبير (ت٩٥هـ)

---

(١) هو شعبة بن الحجاج بن الورد الواسطي، أبو بسطام الأزدي العتكي، مولاهم، عالم أهل البصرة في زمانه، وأمير المؤمنين في الحديث، سكن البصرة، ورأى الحسن وسمع منه مسائل، وروى عن أنس وابن سيرين وغيرهم، ولد سنة اثنتين وثمانين، وتوفي سنة ستين ومائة للهجرة، وروى له الجماعة، انظر: الوافي بالوفيات، أبي الصفاء صلاح الدين خليل بن أيبك الألبكي الصفدي ٥/ ٢٠٦، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث- بيروت ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) مقدمة التفسير، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ص٤٢، دار مكتبة الحياة-لبنان، ط/١٤٩٠هـ.

(٣) هو محمد عبد العظيم الزرقاني، من علماء الأزهر بمصر، تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن والحديث، وتوفي بالقاهرة عام سبع وستين وثلاثمائة وألف للهجرة- الموافق ثمان وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية، انظر: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي ٢١٠/٦، دار العلم للملايين، ط/ الخامسة عشر ٢٠٠٢ م.

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد الزرقاني ١٢/٢، دار الفكر- بيروت، ط/الأولى ١٩٩٦م.

(٥) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي ١/ ١٣٩، مكتبة وهبة- مصر، ط/ الأولى ١٤٠٩هـ.

(٦) هو الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء البصري ثم الدمشقي، فقيه مفسر مؤرخ، ولد سنة سبعمائة للهجرة، وتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة، انظر: معجم المحدثين للذهبي ص٤١، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، جمال الدين يوسف بن عبدالله، الملقب ابن تغري بردي ١٧٧/١، (بدون).

٢- عكرمة (ت ١٠٧هـ)
٣- مجاهد (ت ١٠١ أو ١٠٢ أو ١٠٣ أو ١٠٤هـ)
٤- أبو العالية (ت ٩٠هـ)
٥- قتادة (ت١١٠هـ)
٦- عامر الشعبي (ت١٠٥هـ)
٧- مسروق (ت٦٣هـ)
٨- الحسن البصري (ت١١٠هـ)
٩- الضحاك بن مزاحم (ت١٠٥ أو ١٠٦هـ).

وقد استفادوا من تلك المنهجية العلمية الدقيقة التي بوأتهم مكانة مرموقة، فتصدروا مجالس العلم وبدأ بعضهم بتدوين التفسير فكانوا طليعة الفرسان في هذا الميدان، ففي عصرهم بدأ تدوين التفسير، وأول من قام بذلك سعيد ابن جبير الأسدي (ت٩٥هـ)عندما كتب الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يسأل سعيد ابن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن وقد استجاب له فصنف التفسير وقد وجد عطاء بن دينار هذا التفسير في الديوان، فرواه عن سعيد وجادة (١) .

وفي هذا العصر انتشرت كتابة التفسير، روى الدارمي عن عمرو بن عون، أنا فضيل، عن عبيد المكتب قال:" رأيتهم يكتبون التفسير عن مجاهد"(٢).

وأخرجه الخطيب البغدادي من طريق وكيع بن فضيل ابن عياض به(٣).

وأخرج الخطيب البغدادي بسنده عن أبي يحيى الكناسي قال: "كان مجاهد يصعد بي إلى غرفته فيخرج إليّ كتبه فأنسخ منها"(٤).

أشهر تفاسير أتباع التابعين وما بعدهم

وقد واكب هذا التدوينُ الفتحَ الإسلامي الذي امتدت أطرافه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مما أدى إلى اتساع انتشار هذا العلم إضافة إلى ذلك ازدياد الرحلات العلمية، وكان لتدوينه أيضاً أثر كبير في انتشاره وتداوله عند أهل العلم من صغار التابعين وأتباع التابعين مثل:

١- الضحاك بن مزاحم الهلالي(ت١٠٥ هـ أو ١٠٦ هـ)
٢- ومقاتل بن سليمان البلخي(ت١٠٥هـ وقد طبع تفسيره(٥).
٣- وطاوس بن كيسان اليماني(ت١٠٦هـ)
٤- وقتادة بن دعامة السدوسي(ت١١٠هـ)
٥- ومحمد بن كعب القرظي(ت١١٨هـ)
٦- والسدي الكبير(ت ١٢٧هـ)
٧- وعبد الله بن يسار المعروف بابن أبي نجيح(ت١٣١ هـ)
٨- وعطاء الخراساني(ت١٣٥ هـ وقد حققتُ قطعة من تفسيره(٦) .

---

(١)رواه ابن أبي حاتم عن أبيه في الجرح والتعديل ٣٣٢/٦.
(٢)السنن - باب من رخص في كتابة العلم ١٢٨/١.
(٣)تقييد العلم ص ١٠٥.
(٤)تقييد العلم ص ١٠٥.
(٥)حققه د. عبد الله محمود شحاتة وطبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة. .
(٦)نشرته مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

٩- وزيد بن أسلم العدوي(ت١٣٦هـ)
١٠- والربيع بن أنس البكري(ت١٤٠هـ)
١١- وعلي بن أبي طلحة(ت١٤٣هـ استخرج السيوطي أغلب صحيفة علي بن أبي طلحة من تفسيري الطبري وابن أبي حاتم [١] .
١٢- والأعمش سليمان بن مهران (ت ١٤٧هـ أو ١٤٨هـ)[٢].

وكل هذه التفاسير قد أفرد لكل تفسير مؤلف جمعت في مرويات كل مفسر، وأغلبها رسائل جامعية.

وغيرهم من المفسرين المتقدمين فقام هؤلاء بجمع نسخ وروايات وصحف كبار التابعين وتدوينها فسطع قبس التفسير في أرجاء العالم الإسلامي آنذاك ثم أزداد تألقاً في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري حيث استنار العلماء الذين تلقوا هذا العلم من شيوخهم واعتنوا به فحفظوه أو كتبوه ثم رووه لتلاميذهم فتوسعت حركة تدوين التفسير وظهرت تفاسير مشابهة للتفاسير المتقدمة وقد تكون أوسع منها مثل: تفسير سفيان الثوري (ت ١٦١هـ)[٣].

١٣- وتفسير معاوية بن صالح (ت ١٥٨ هـ أو ت ١٧٢هـ) وهو الراوي لصحيفة علي بن أبي طلحة.
١٤- وتفسير شيبان بن عبد الرحمن النحوي (ت ١٦٤ هـ)وهو راوي التفسير عن قتادة.
١٥- وتفسير نافع بن أبي نعيم القارئ (ت ١٦٧هـ أو ١٦٩هـ)[٤] .
١٦- وتفسير أسباط بن نصر الهمداني (ت ١٧٠ هـ) وهو الراوي لتفسير السدي.
١٧- وتفسير مالك بن أنس إمام دار الهجرة (ت ١٧٩ هـ).
١٨- وتفسير مسلم بن خالد الزنجي (ت ١٧٩ هـ) [٥] .
١٩- وتفسير عبد الله بن المبارك المروزي (ت ١٨١هـ).
٢٠- وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت ١٨٢ هـ).
٢١- وتفسير هشيم بن بشير السلمي (ت ١٨٣ هـ).
٢٢- وتفسير يحيى بن يمان العجلي (ت ١٨٩ هـ)، وقد حققتُ قطعة من تفسيره [٦] .
٢٣- وتفسير إسماعيل بن علية (ت ١٩٣ هـ).
٢٤- وتفسير يحيى بن سلام البصري (ت ٢٠٠ هـ) [٧] .

وفي هذا العصر ازدادت كتب التفسير وبقيت على هيئة أجزاء ونسخ كتفسير الإمام مالك بن أنس فقد وصفه ابن كثير [٨] والذهبي [١] وابن حجر [٢] والروداني [٣] بأنه جزء وكذلك

---

(١)انظر الإتقان ٢/ ٦- ٤٦، والصحيح المسبور في التفسير بالمنثور:١٧/١.
(٢)كل هؤلاء المفسرين لهم تفاسير ذكرت في كتب طبقات المفسرين للسيوطي والداوودي وعمر نزيه التركي - باللغة التركية- ومعجم المفسرين لعادل نوهيض، وكتب فهارس التراث مثل كشف الظنون وفهرست ابن النديم وتاريخ التراث لسزكين وكتب الإجازات مثل المعجم المفهرس لابن حجر.
(٣)مطبوع في جزء واحد.
(٤)نشرت مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
(٥)نشرت مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
(٦)نشرته مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
(٧)توجد منه أجزاء مخطوطة في المغرب وقد حققتْ في تونس.
(٨)انظر التفسير ١٩٢/٢.

التفاسير التي تقدمت في القائمة السابقة حيث ذكرت الموجودة منها وكلها على هيئة أجزاء ونسخ.

أشهر تفاسير القرن الثالث والرابع

وفي القرن الثالث والرابع الهجري دخل التفسير في مرحلة جديدة وهي مرحلة الموسوعات الجامعة في التفسير، فظهرت تفاسير ضخمة مروية ومستوعبة لكثير من الأجزاء والنسخ المبثوثة في رحاب العالم الإسلامي آنذاك ذلك العالم الذي استطاعت حضارته أن تجمع وتؤلف بين العرب والعجم والبربر تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولهذا جاءت بعض تفاسير العلماء حافلة بتفاسير السابقين وشاملة للقرآن كله وذلك بسبب انتشار العجمى ومن هذه التفاسير:

١- تفسير عبد بن حميد الكشي (ت ٢٤٠ هـ) [٤] .

٢- تفسير ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ).

٣- تفسير ابن المنذر النيسابوري (ت ٣١٨ هـ)[٥]

٤- تفسير ابن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ)[٦] .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه التفاسير عند كلامه عن الذين اعتنوا بجمع التفسير المسند من طبقة الأئمة الستة فساق أسماءهم -وذكر أولهم بأنه من طبقة شيوخهم- ثم قال: فهذه التفاسير الأربعة قل أن يشذ عنها شيء من التفسير المرفوع والموقوف على الصحابة والمقطوع عن التابعين، وقد أضاف الطبري إلى النقل المستوعب أشياء لم يشاركوه فيها ...[٧] .

وكذلك ابن أبي حاتم فقد حاول أن يفسر كل آية بل كل كلمة وحرف وقد يسوق أكثر من عشرة أوجه في الكلمة الواحدة [٨] .

ومن هذه التفاسير الموسوعية أيضاً:

١ - تفسير الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ).

وتفسيره ضخم حافل بمائة وعشرين ألف رواية، صرح بهذا الرقم أبو الحسين بن المنادي في تأريخه فيما رواه عنه القاضي أبو الحسين أبو يعلى حيث ذكر عبد الله وصالح ابني الإمام أحمد فقال: كان صالح قليل الكتاب عن أبيه، فأما عبد الله فلم يكن في الدنيا أحد أروى عن أبيه أكثر منه لأنه سمع المسند وهو ثلاثون ألفاً، والتفسير وهو مئة ألف وعشرون ألفاً

---

(١)انظر سير أعلام النبلاء ٨٠/٨.

(٢)المعجم المفهرس ل ٤٤ ب.

(٣)صلة الخلف بموصول السلف ص ٤٣، ٤٤.

(٤)توجد منه قطعة في حواشي تفسير ابن أبي حاتم في المجلد الثاني.

(٥)توجد منه قطعة في ألمانيا الشرقية - مكتبة جوتا.

(٦)يوجد نصفه تقريباً وقد حقق في جامعة أم القرى.

(٧)العجاب في بيان الأسباب د-٣.

(٨)انظر تفسير سورة آل عمران رقم ١٨١-١٩٨ عند قوله تعالى (وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ) .

سمع منها ثمانين ألفاً والباقي وجادة ... [١] ونقله أيضاً الخطيب البغدادي [٢] والذهبي [٣] ، وأبو موسى المديني في خصائص المسند [٤] ، وصرح بهذا الرقم ابن الجوزي [٥] .

وقد ذكر هذا التفسير ابن النديم [٦] ، وشيخ الإسلام ابن تيمية [٧] ، والداوودي [٨] ، ومحمد السعدي الحنبلي (ت٩٠٠ هـ)[٩] ، وحصل الروداني المغربي على إجازة روايته فذكره في ثبته ثم ساق إسناده إلى الإمام أحمد بن جعفر القطيعي عن عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه [١٠] .

ولكن الإمام الذهبي أنكر وجود هذا التفسير، فبعد أن ذكر قول ابن المنادي قال: لكن ما رأينا أحدا أخبرنا عن وجود هذا التفسير ولا بعضه ولا كراسة منه ولو كان له وجود أو لشيء منه لنسخوه ... [١١] .

ويبدو أن الإمام الذهبي لم يحظ بجزء أو كراسة من تفسير الإمام أحمد علما بأن جزءا من تفسير أحمد كان موجودا في زمنه حيث نقله بنصه وفصه الإمام ابن قيم الجوزية -وهو معاصر للذهبي وتوفي ابن القيم سنة(٧٥١ هـ) أي بعد وفاة الذهبي بثلاث سنوات- فقال ابن القيم بدائع الفوائد: "ومن خط القاضي من جزء فيه تفسير آيات من القرآن عن الإمام أحمد. ثم ساقه بأكمله في تسع صفحات" [١٢] إضافة إلى ذلك أن الحافظ ابن حجر أفاد من تفسير أحمد وصرح بنقله منه[١٣] .

والحق أن تفسير الإمام أحمد لم يشتهر كشهرة مسنده الذي ذاع صيته في الآفاق وكثر قصاده إلى العراق[١٤].

٢- التفسير الكبير لأمير المؤمنين محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح (ت ٢٥٦ هـ).

ذكر بروكلمان نسخة منه في باريس -المكتبة الوطنية- وقطعة منه في الجزائر في المكتبة الوطنية أيضاً [١٥] . ولعلها من صحيح البخاري.

وقد سألت عن هاتين النسختين فلم أجد أحدا رآهما!! ويبدو من عنوانه أنه تفسير كبير.

٣- تفسير أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازى (ت ٢٥٨ هـ).

---

(١)طبقات الحنابلة ١٨٣/١.
(٢)تاريخ بغداد ٣٧٥/٩.
(٣)سير أعلام النبلاء ٣٢٨/١٣، ٣٢٩.
(٤)ص ٢٣ من مقدمة أحمد شاكر لمسند أحمد.
(٥)مناقب الإمام أحمد ص ٢٤٨.
(٦)لفهرست ص ٢٨٥.
(٧)الفتاوي ٣٨٩/٦، ٣٥٥/١٣ ودرء تعارض العقل والنقل ٢٢٨/٤.
(٨)طبقات المفسرين ٢٢/٢.
(٩)الجوهر المحصل في مناقب الإمام أحمد في بداية عرضه لمؤلفات الإمام أحمد.
(١٠)صلة الخلف ص ٣٩ .
(١١)سير أعلام النبلاء ٥٢٢/١٣ وانظر ٣٢٨/١١، ٣٢٩.
(١٢)بدائع الفوائد:١٠٨/٣-١١٦.
(١٣)انظر مثلا تغليق التعليق ٢٢٨/٤.
(١٤) انظر: الصحيح المسبور في التفسير بالمأثور:٢٠/١-٢١.
(١٥)تاريخ الأدب العربي ١٧٩/٣.

قال إبراهيم بن محمد الطيان: سمعت أبا مسعود يقول: كتبت عن ألف وسبعمائة وخمسين رجلا أدخلت في تصنيفي ثلاث مئة وعشرة وعطلت سائر ذلك وكتبت ألف ألف حديث وخمس مئة ألف حديث فأخذت من ذلك ثلاث مئة ألف في التفسير والأحكام والفوائد وغيره [1] .

٤- تفسير القرآن الكريم لابن ماجة القزويني (ت ٢٧٣ هـ).

وصفه ابن كثير بالحافل فقال: ولابن ماجة تفسير حافل [2] .والحافل الكثير الممتلئ[3].

وذكره ابن خلكان والمزي والذهبي والداوودي[4].

٥- التفسير الكبير لإسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزي المشهور بابن راهويه(ت ٢٣٨هـ).

ويبدو أنه كبير من عنوانه. ذكره ابن النديم والخطيب البغدادي والسمعاني والداوودي [5] .

٦- التفسير لإبراهيم بن إسحاق الحربي (ت ٢٨٥ هـ)، قال الذهبي في ترجمته: "مصنف التفسير الكبير" [6]. وهو كسابقه وذكره ابن حجر والداوودي [7] .

٧- التفسير لابن أبي داود عبد الله بن سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٣١٦ هـ. روى المفسر أبو بكر النقاش أنه سمع أبا بكر بن أبي داود يقول: "إن في تفسيره مائة ألف وعشرين ألف حديث"[8] .

وذكر هذا التفسير الخطيب البغدادي والعليمي والداوودي [9].

٨- التفسير لسليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠ هـ).

قال الداوودي في طبقات المفسرين: وله تفسير كبير. ا. هـ.

وقد جمعت روايات تفسيرية من معاجمه الثلاثة وكتاب الدعاء، ومكارم الأخلاق، وجزء من سمع من عطاء. كلها للطبراني المذكور.

٩- تفسير القاضي أبي محمد إسحاق بن إبراهيم بن إسحاق البستي (ت ٣٠٧ هـ).

ولهذا التفسير مزايا كبرى[10]:

أولها: أن أغلب أسانيده على شرط الصحيحين.

ثانيها: أن مؤلفه طويل النفس في إيراد الأحاديث والآثار وعمله كصنيع ابن أبي حاتم في التفسير بالمأثور المجرد من أي قول آخر.

---

(١)انظر تهذيب الكمال ٤٢٥/١.

(٢)البداية والنهاية ٥٢/١١.

(٣)الصحاح ١٦٧٠/٤ والنهاية ٤٠٩/١.

(٤)انظر وفيات الأعيان ٢٧٩/٤ وتهذيب الكمال ٩٠/٤، ٤١٣/٧ وسير أعلام النبلاء ٢٧٧/١٣ وطبقات المفسرين ٢٧٤/٢ .

(٥)انظر الفهرست ص ٢٦٨، وتاريخ بغداد ٣٦٩/٨، والتحبير في المعجم الكبير ١٩٠/٢، وطبقات المفسرين ١٠٣/١.

(٦)تذكرة الحفاظ ٧٠١/٢.

(٧)تهذيب التهذيب ٢٨١/١٠ وطبقات المفسرين ٧/١.

(٨)انظر سير أعلام النبلاء ٢٨١/١٣ ولسان الميزان ٢٩٥/٣.

(٩)انظر تاريخ بغداد ٤٦٤/٩ والمنهج الأحمد ١٥/٢ وطبقات المفسرين ٣٣٦/١، ٣٣٧.

(١٠) انظر: الصحيح المسبور في التفسير بالمنثور:٢٤/١.

١٠- تفسير عمر بن أحمد بن عثمان المشهور بابن شاهين ت ٣٨٥ هـ.

قال الخطيب البغدادي في ترجمته: له التفسير الكبير. ا. هـ.

وتفسيره كبير كما وصف حيث احتوى على تفاسير منها تفسير أبي الجارود [١] .

وقال الكتاني: وهو في ألف جزء ووجد بواسط في نحو من ثلاثين مجلدا" [٢] .

فهذه نماذج من كتب التفسير في ذلك العصر الذي برز فيه صرح التفسير بالمأثور شامخا مسندا كاملا للقرآن الكريم، فقد تكاملت أسسه التي أرسيت بثمار تلك الجهود المباركة السابقة، فاجتمعت مع جهود المتقدمين عنايةُ اللاحقين حيث جمعوا وأضافوا ونقدوا، وكان جميعهم عاكفين على هذا العلم، وعضوا عليه بالنواجذ لأنه جمع بين القرآن والسنة، وقد زاد اهتمامهم عندما تلوث هذا العلم بالدخيل بسبب تساهل بعض العلماء في إيرادهم الإسرائيليات بأنواعها، وبسبب صنيع الزنادقة والقصاص والكذابين وأهل الأهواء فوقع التحريف والتأويل والوضع.

أخرج ابن عساكر عن ابن علية قال: "أخذ هارون الرشيد زنديقا فأمر بضرب عنقه فقال له الزنديق: لم تضرب عنقي؟ قال له: أريح العباد منك قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله ﷺ كلها ما فيها حرف نطق به؟ قال: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا ؟"[٣].

ولهذا انبرى جهابذة السلف إلى نقد الروايات والتفتيش عن الأسانيد، وقد بدأ هذا التحري بعد اندلاع الفتنة في خلافة عثمان - رضي الله عنه - أو في زمن ابن الزبير وقد رجح الرأي الأخير مؤرخ السيرة أ. د. أكرم ضياء العمري [٤] .

أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن محمد بن سيرين: قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد. فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم. فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم" [٥] .

فكان أهل السنة بالمرصاد لكل من تسول له نفسه أن يأتي بدخيل ولهذا وضعوا ضوابط محكمة وقواعد دقيقة للرواية.

قال محمد بن حاتم بن المظفر: ... وهذه الأمة إنما تنص الحديث عن الثقة المعروف في زمانه المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتى تناهى أخبارهم ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ والأضبط فالأضبط والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة ثم يكتبون الحديث من عشرين وجها أو أكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل ويضبطون حروفه ويعدوه عدا ..."[٦].

---

(١)انظر تاريخ بغداد ٢٦٧/١١.

(٢)الرسالة المستطرفة ص ٧٦، ٧٧.

(٣)انظر تاريخ الخلفاء ص ٢٩٣.

(٤)انظر بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص ٤٨-٥٠ .

(٥)المقدمة - باب بيان أن الإسناد من الدين ١٥/١.

(٦)رواه السخاوي من طريق أبي العباس الدغولي عنه (فتح المغيث ٣/٣) .

هكذا كان منهجهم في الرواية والتصنيف واستمر الحال على ذلك إلى القرن الثالث والرابع الهجري وكان أكثر المفسرين المصنفين يروون بالإسناد، فبرأوا ذمتهم لأنهم سموا شيوخهم ورواتهم وكانوا يميزون بين الصحيح والسقيم، وبعضهم يرى وجوب هذا التمييز بل وجوب نقد الرواة لمعرفة الثقة من الضعيف مثل ابن أبي حاتم وهو الذي صنف موسوعته في الجرح والتعديل من أجل بيان الثابت من التفسير ومن سنن البشير النذير صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي تبين القرآن الكريم، فها هو يقول في تقدمة الجرح والتعديل:" فلما لم نجد سبيلا إلى معرفة شيء من معاني كتاب الله ولا من سنن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا من جهة النقل والرواية وجب أن نميز بين عدول الناقلة والرواة وثقاتهم وأهل الحفظ والثبت والإتقان منهم وبين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب واختراع الأحاديث الكاذبة" [١] .

إن هذا المنهج الدقيق وتلك الحلقات التفسيرية كانت متصلة من القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع الهجري، وبدخول القرن الخامس الهجري بدأ تدريجيا إهمال الأسانيد بحذفها أو باختصارها مما ساعد على شيوع الإسرائيليات ورواج الأحاديث الواهية والموضوعة ونسب الأقوال الباطلة إلى الصحابة والتابعين، وهم برآء منها، وكانت فرصة سانحة للكذابين والوضاعين والزنادقة وأهل الأهواء، فاختلط الصحيح بالسقيم والحق بالباطل وانتشر ذلك في كتب لتفسير بالمأثور، ولم يسلم منها إلا القليل كتفسير البغوي[٢] وابن كثير وعبد الرزاق بن رزق الرسعني (ت ٦٦١هـ)[٣] الذي روى أغلب تفسيره بإسناده واستمر الحال على ذلك إلى يومنا هذا[٤].

٢- التفسير بالدراية:

إن هذا النوع من التفسير يقوم على الاجتهاد، وإعمال النظر اعتماداً على علوم اللغة، وأصول الدين، والفقه ما لم يعارض المأثور وإلا اعتبر فاسداً، قال أبو محمد البغوي(٥): "هو صرف الآية إلى معنى محتملٍ موافق لما قبلها، وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط"[٦].

وقال الزركشي بعد أن ساق كلام البغوي: "قالوا وهذا غير محظور على العلماء بالتفسير وقد رخص فيه أهل العلم؛ وذلك مثل قوله تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}[البقرة :١٩٥]، قيل: هو الرجل يحمل في الحرب على مائة رجل، وقيل: هو الذي يقنط من رحمة الله،

---

(١)مقدمة الجرح والتعديل ص ٥..

(٢)ساق أغلب أسانيده في مقدمة كتابه.

(٣)انظر الذيل على طبقات الحنابلة ٢٧٤/٢-٢٧٦ والأعلام ٢٩٢/٣.

(٤) انظر: الصحيح المسبور في التفسير بالمأثور:٢٨/١.

(٥) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، البغوي الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وأربعمائة للهجرة صاحب التصانيف، محيي السنة، محدِّث فقيه مفسر، كان سيدًا إمامًا، زاهدًا، من مصنفاته: شرح السنّة، ومعالم التنزيل، والمصابيح، وغيرها، توفى سنة عشر وخمسمائة للهجرة، انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقق: إحسان عباس ، دار صادر – بيروت، ط/ الأولى ١٩٩٤م.

(٦) معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ٤٦/١، تحقيق: محمد النمر، وعثمان جمعة، وسليمان الحرش، دار طيبة، ط/ الرابعة ،١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

وقيل: الذي يمسك عن النفقة، وقيل: هو الذي ينفق الخبيث من ماله، وقيل: الذى يتصدق بماله كله ثم يتكفف الناس، ولكلٍ منه مخرج"(١).

وأما المراد بالدراية في التفسير، فهو: "المراد بالرأي هنا الاجتهاد، فإن كان الاجتهاد مُوَفَّقاً- أي مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه- بعيداً عن الجهالة والضلالة فالتفسير به محمود، وإلا فمذموم"(٢)، وقيل: "هو القول في القرآن بالاجتهاد المبني على أصول صحيحة، وقواعد سليمة متبعة يجب أن يأخذ بها من أراد الخوض في تفسير الكتاب، أو التصدي لبيان معانيه"(٣).

وقيل: "هو تفسير القرآن بالاجتهاد اعتماداً على الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وهي علم اللغة العربية، وعلم النحو، والصرف، والاشتقاق، وعلوم البلاغة وعلم القراءات، وعلم أصول الدين، وعلم أصول الفقه، وعلم القصص، وعلم الموهبة(٤)، والأحاديث المبينة للتفسير، مثل أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ"(٥).

نستنتج مما سبق بأن تفسير الدراية: هو تفسير القرآن وفقاً لقواعد صحيحة من اللغة، بحيث لا يخالف نصاً من الرواية الصحيحة، ولا أصلاً من الأصول الشرعية، وعليه فإن تفسير الدراية يشمل عدة اتجاهات، سأذكر بعضها في المطلب التالي مع التركيز على التفسير البلاغي، وأهميته؛ لأن موضوعنا في هذه الدراسة متعلق به، كونها ستتناول الجملة القرآنية من ناحية التأسيس والتأكيد، وأثر ذلك على معنى الآية القرآنية.

وقد اختلف العلماء في جواز التفسير بالدراية إلى قولين:

الأول: عدم جواز تعاطي تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار، والآثار، وليس له أن ينتهي إلا إلى ما روي عن النبي -ﷺ-، أو إلى صحابته الآخذين عنه، ومن أخذ عنهم من التابعين.

الثاني: جواز تفسير القرآن بالدراية، ولكن بشروط كما سيأتي.

فمن ذهب إلى عدم جواز التفسير بالرأي استدل بالآتي:

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي -ﷺ- أنه قال: "من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ"(٦).

وفي رواية أخرى: "ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار"(٧).

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٥٠/٢.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/ ٤٩.

(٣) التبيان في علوم القرآن للصابوني : ٧٨.

(٤) الموهبة: غديرُ ماءٍ صغيرٌ وقيل نُقْرة في الجبل يستَنقِع فيها الماءُ، وتطلق على العطيَّةُ والهبة، انظر: لسان العرب٨٠٣/١. والمراد بالموهبة هنا ما أعطاه الله ملكة يتذوق بها الألفاظ والمعاني فيفسرها.

(٥) علوم القرآن الكريم لنور الدين عترة ص٧٥.

(٦) سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي السلمي٢٠٠/٥، باب: الذي يفسر القرآن برأيه، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي- بيروت، وسنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٥٨/٣، باب: الكلام في كتاب الله بغير علم، دار الكتاب العربي- بيروت،(بدون).

(٧) رواه الترمذي ١٩٩/٥، وقال: حديث حسن، قال الألباني: وفيه نظر، ففي سنده عبد الأعلى أبو عامر الثعلبي فقد أورده الذهبي في "الضعفاء"، وقال: "ضعفه أحمد وأبو زرعة"، وقال الحافظ في التقريب: "صدوق، يهم"، وفي سند الترمذي سفيان بن وكيع، لكنه قد توبع من جماعة، ولذلك قال المناوي: "رمز المصنف لحسنه، اغتراراً بالترمذي، قال ابن القطان: ينبغي أن يضعف، إذ فيه سفيان بن وكيع، وقال أبو زرعة: متهم بالكذب، انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني٢٦٥/٤، دار المعارف-

ما روي عن بعض الصحابة، وبعض التابعين من التحرج في تفسير القرآن، فمن ذلك ما ورد عن أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- أنه سُئِلَ عن تفسير حرف من القرآن فقال: "أي سماء تظلني؟ وأي أرض تقلني؟ وأين أذهب؟ وكيف أصنع إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله؟! وفي رواية:"إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم"[١].

ما ورد عن عدد من التابعين التمنع من التفسير بالرأي[٢].

وقد ناقش المجيزون للتفسير بالرأي هذه الأدلة فقالوا:

أما الحديث: ففي صحته وثبوته نظر؛ فقد قال الترمذي[٣] بعد أن رواه: هكذا رُوِي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي -ﷺ-، وغيرهم أنهم شددوا في أن يُفَسرَ القرآنُ بغير علم، وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة[٤] وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسروه بغير علم، أو من قبل أنفسهم، وقد رُوِي عنهم ما يدل على ما قلنا

الرياض، ط/الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، وأخرجه أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني في المسند ١/ ٢٦٩ و٢٩٣، وأخرجه أبو يعلى في مسنده، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي٢/ ١٢٦، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، ط/ الأولى١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(١)المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، باب: من كره أن يفسر القرآن ١٢٦/٦، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد– الرياض، ط/ الأولى ١٤٠٩هـ.

(٢) منهم:

أ- سعيد بن المسيب وقد كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : "أنا لا أقول في القرآن شيئا"، وكان سعيد إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت، وكأن لم يسمع شيئا. انظر: فضائل القرآن للقاسم بن سلام، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم البغدادي٢٥٧/٢، تحقيق: مروان العطية - محسن خرابة - وفاء تقي الدين، دار ابن كثير- دمشق، ط/ ١٤٢٠هـ.

ب- الإمام الشعبي قال: (ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت): القرآن والروح والرؤى، انظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري٨٧/١، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/ الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

ج- محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة: يعني السلماني عن آية من القرآن فقال: "ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل القرآن، فاتق الله وعليك بالسداد"، انظر: مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ١٧٩.

د- ما روي عن مسروق: أنه قال: "اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله"، انظر: مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ٣٢٠/٢، تحقيق: أنور الباز- عامر الجزار، دار الوفاء، ط/ الثالثة ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م.

(٣) هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي الحافظ أبو عيسى الترمذي الضرير مصنف الكتاب الجامع، ولد سنة بضع ومائتين، أخذ علم الحديث عن أبي عبد الله البخاري، وروى عنه حماد بن شاكر وآخرون، وكان ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر، توفي ثالث عشر رجب بترمذ سنة تسع وسبعين ومائتين وقيل: خمس وسبعين، انظر: الوافي بالوفيات ٢/ ٥٤، وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٨.

(٤) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز البصري، حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه، مات بواسط في الطاعون، سنة ثماني عشرة ومائة للهجرة، انظر: سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٥.

- أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم - وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم[١] "[٢].

وقد ذكر الإمام السيوطي التفسير بالرأي المحرم بقوله: "وجملة ما تحصل في معنى حديث التفسير بالرأي خمسة أقوال:

أحدها: التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير.

الثاني: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

الثالث: التفسير المقَرِر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعاً.

الرابع: التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل.

الخامس: التفسير بالاستحسان والهوى"[٣].

وعليه فإن التفسير المذموم المردود هو التفسير بالرأي المحرم الذي ذكره الإمام السيوطي، وهذا النوع من التفسير كثيراً ما يشتمل على المرويات الواهية، والباطلة، و"أما التفسير المقبول فهو التفسير المبني على المعرفة بالعلوم اللغوية، والقواعد الشرعية، والأصولية، وعلم السنن، والأحاديث، ولا يعارض نقلا صحيحاً، ولا عقلا سليماً، ولا علماً يقيناً ثابتاً مستقراً، مع بذل غاية الوسع في البحث، والاجتهاد والمبالغة في تحري الحق والصواب، وتجريد النفس من الهوى"[٤]، وهو الحق وعليه أكثر السلف[٥]؛ لأن ما كان مخالفاً لنص من الكتاب أو السنة فهو فاسد الاعتبار، كما أن ما كان متكلفاً غير مبنى على الاجتهاد المستكمل للشروط يُعد عبثاً.

واختلف العلماء في تسمية التفسير بالرأي، هل يسمى تفسيراً أم يسمى تأويلاً[٦]؟

---

(١) هو سهيل بن أبي حزم القطيعي ضعيف، و"قد ضعفه الجمهور، قال ابن حبان: يتفرد عن الثقات بما لا يشبه حديث الأثبات"، انظر: المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان ابن أحمد بن أبي حاتم التميمي البستي١/٣٩٠، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي– حلب، ط/الأولى ١٣٩٦هـ.

(٢) سنن الترمذي ٥/٢٠، تحقيق: أحمد شاكر، ومذيل بحكم الألباني على الأحاديث، دار الكتاب العربي- بيروت، (بدون).

(٣) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ص٢٢٠، بتصرف.

(٤) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، د/ محمد بن محمد أبو شهبة ص٩٨، مكتبة السنة ، ط/ الرابعة ١٤٠٨هـ، بتصرف يسير.

(٥)منهم كثير من الصحابة رضي الله عنهم كالإمام علي، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأنس، وأبي هريرة، وغيرهم، فلولا أن تفسير القرآن جائز لمن تأهل له لما فعلوه، لأنهم كانوا أشد الناس ورعا، وتقوى، ووقوفا عند حدود الله، كما ورد تفسير القرآن عن كثير من خيار التابعين، كسعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة، وقتادة والحسن البصري، ومسروق، والشعبي، وغيرهم، مما يدل على أن من امتنع منهم من تفسير القرآن إنما كان زيادة احتياط، ومبالغة في التورع، انظر: أبجد العلوم الوشي المرقوم لصديق بن حسن القنوجي ٢/ ١٤١، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٧٨م.

(٦) قال صديق حسن خان: واختلف في التفسير والتأويل فقال أبو عبيد وطائفة: هما بمعنى وقد أنكر ذلك قوم، وقال الراغب: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل، وقيل: التفسير: بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا، والتأويل: توجيهُ لفظ متوجهٍ إلى معانٍ مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة، وقال الماتريدي: التفسير: القطعُ على أن المرادَ من اللفظ هذا، والشهادةُ على الله سبحانه وتعالى أنه عنَى باللَّفظِ هذا، والتأويل: ترجيح أحد المحتملات بدون القطع ، وقال أبو طالب الثعلبي: التأويلُ: إخبارٌ عن حقيقةِ المرادِ، والتفسيرُ إخبارٌ عن دليلِ المرادِ، وقال البغوي: التفسير بالرأي:

والذي رجحه الزركشي أن هناك فرقاً بين التأويل والتفسير وأنهما ليسا بمعنى واحد، فقال: "ثم قيل التفسير والتأويل واحد بحسب عرف الاستعمال والصحيح تغايرهما"[١].

وقال في موضع آخر: "وكأن السبب في اصطلاح بعضهم على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ليحمل على الاعتماد في المنقول وعلى النظر في المستنبط تجويزاً له وازدياداً"[٢].

وقال محمد حسين الذهبي: " والذي تميل إليه النفس أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية؛ وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان عن مراد الله تعالى لا يجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله -ﷺ- أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع وخالطوا رسول الله -ﷺ- ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب واستنباط المعاني من كل ذلك"[٣].

والذي يراه الباحث هو ما رجحه الأكثر[٤] أن التفسير مغاير للتأويل، وأن تفسير الدراية "الرأي" هو التأويل؛ وذلك ليحصل التمييز في التفسير بالمأثور، والاجتهاد في التفسير بالرأي، ويكون الاعتماد على التفسير بالمأثور، والنظر في المستنبط، ثم إن التفسير بالمأثور مقدم على التفسير بالرأي عند التعارض، بل يعد التفسير بالرأي في مقابل النص فاسد الاعتبار، ولا مشاحة في الاصطلاح إذا عرف المعنى، ومن أهم كتب التفسير بالرأي:

أ- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي[٥].

ب- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي[٦].

ج- لباب التأويل في معاني التنزيل للعلامة علاء الدين البغدادي الملقب بالخازن[٧].

هو صرف الآيةِ إلى معنى موافقٍ لما قبلها وبعدها، تحتملُه الآية، غيرِ مخالف للكتابِ والسنةِ، من طريقِ الاستنباطِ. انظر:أبجد العلوم١٤١/٢، ١٤٢.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي١٤٩/٢.

(٢)المصدر نفسه ١٧٢/٢.

(٣) التفسير والمفسرون ١٦/١.

(٤) منهم: الحسين بن مسعود البغوي في معالم التنزيل ٤٦/١، والزركشي ١٤٩/٢، والأصفهاني في مفردات القرآن ١٩٢/٢، ومحمد الذهبي في التفسير والمفسرون١٦/١.

٥- هو قاضي القضاة أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي، من بلاد فارس صاحب المصنفات وعالم أذربجان، ولي قضاء شيراز، وكان إماماً بارعاً مصنفاً، فريد عصره، ووحيد دهر، أثنى على علمه وفضله غير واحد، من مصنفاته: أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير، توفى سنة إحدى وتسعين وستمائة، وقيل: خمس وثمانين، انظر: طبقات المفسرين للسبكي ١٥٥/٨، والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي٨٣/٢.

٦- هو أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي أحد الزهاد والأئمة المعتبرين، وصاحب التصانيف المعتبرة في الفقه، والأصول، وغيرهما، منها: مدارك التنزيل في تفسير القرآن، وكنز الدقائق، توفى سنة إحدى وسبعمائة، انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١٦٨/١.

٧- هو العلامة علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي البغدادي الشافعي عرف بالخازن، ولد في بغداد سنة ثمان وسبعين وستمائة، سمع من علمائها ثم انتقل إلى دمشق واستقر بها متعلماً ثم معلماً ومات بها سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. انظر: الوافي بالوفيات١/ ٣٤.

د- البحر المحيط لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي.

٣-التفسير الإشاري

هو تفسير القرآن بغير ظاهره لإشارة تظهر لأرباب الصفاء، مع عدم إبطال الظاهر، قال الزرقاني: "التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن بغيرظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهرالمراد أيضا"(١).

وقال الصابوني: "التفسيرالإشاري: هو تأويل القرآن على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أوتظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدة للنفس، ممن نور الله بصائرهمفأدركوا أسرار القرآن العظيم، أو انقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة، بواسطةالإلهام الإلهي أو الفتح الرباني، مع إمكان الجمع بينهما وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة"(٢).

وقد عرف التفسير الصوفي بالتفسير الإشاري، ويتمثل على زعمهم في أن يرى المفسر معنى آخر غير المعنى الظاهر، ربما تحتمله الآية الكريمة ولكنه لا يظهر للعامة من الناس، وإنما يظهر لخاصتهم ومن فتح الله قلبه وأنار بصيرته وسلكه ضمن عباده الصالحين، الذين منحهم الله الفهم والإدراك، وهذا النوع من العلم ليس من العلم الكسبى الذي ينال بالبحث والمذاكرة وإنما هو من العلم الوهبى الذي هو أثر التقى والاستقامة والصلاح، كما قال تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [البقرة:٢٨٢].

والتفسير الصوفي يعتمد أساسا على أن للقرآن ظاهرا وباطنا، ويقصد بالظاهر الشريعة وبالباطن الحقيقة، وعلم الشريعة علم المجاهدة، وعلم الحقيقة علم الهداية، وعلم الشريعة علم الآداب وعلم الحقيقة علم الأحوال، وعلم الشريعة يعلمه علماء الشريعة وعلم الحقيقة يعلمه العلماء بالله، يقول السلمى في مقدمة تفسيره عن الباعث لإقدامه على كتابة تفسير القرآن: "لما رأيت المتوسمين بعلوم الظاهر قد سبقوا في أنواع فرائد القرآن، من قراءات وتفاسير ومشكلات وأحكام وإعراب ولغة ومجمل ومفصل وناسخ ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بفهم الخطاب على لسان أهل الحقيقة إلا آيات متفرقة، أحببت أن أجمع حروفا أستحسنها من ذلك وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتى(٣).

ويقول سهل بن عبد الله التسترى في تفسيره، وهو أول ما ظهر للصوفية من تفسير للقرآن: "ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان، ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم والحد حلالها وحرامها والمطلع إشراف القلب على المراد بها فقها من الله عز وجل، فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص"(٤).

وقد ظهر أيضا تفسير ثالث لعبد الكريم القشيرى سلك فيه مسلك الصوفية في إدراك الإشارات التي يراها الصوفي خلف آيات القرآن، وسماه لطائف الإشارات، قال عن الباعث لتأليفه: "وكتابنا هذا يأتى على طرف من إشارات القرآن على لسان أهل المعرفة إما من معاني

---

(١)مناهل العرفان للزرقاني ٥٦/٢

(٢)التبيان في علوم القرآن للصابوني ص١٩١

(٣) تفسير القران الكريم على الطريقة الصوفية، دراسة وتحقيق حقائق التفسير لأبي عبدالرحمن بن محمد بن الحسين الأزدي السلمي، رسالة ماجستير، سلمان نصيف جاسم التكريتي، مكتبة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٥: ٢٢.

(٤) تفسير القران العظيم، سهل بن عبدالله، مطبعة السعادة، ١٩٠٨: ٦١.

قولهم أو قضايا أصولهم، سلكنا فيه طريق الإقلال خشية الملال مستمدين من الله تعالى عوائد المنة، متبرئين من الحول والمنة مستعصمين من الخطأ والخلل، مستوثقين لأصوب القول والعمل[١].

ولم يظهر في تاريخ التفسير الإشاري حتى القرن الخامس، أهم من حقائق التفسير للسلمى، ولطائف الإشارات للقشيري وإن كان القشيري قد استفاد من السلمى فائدة كبرى واقتبس منه كثيرا من آرائه [٢].

وقد ظهر تفسير القرآن المنسوب لابن عربي، ولكنه في الحقيقة للكاشاني السمرقندي، ويعد هذا التفسير أهم تفسير إشارى بعد اللطائف، قال مؤلفه في مقدمته: "ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد ومطلع، فالظهر هو التفسير، والبطن هو التأويل، والحد هو ما تتناهي إليه الفهوم من معنى الكلام، والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام"[٣].

ويمكن القول باستقراء التفسيرات الصوفية السابقة أن السمة الغالبة في التفسير الإشاري لدى الصوفية تتمثل فيما يأتي:

١- أن للقرآن ظاهرا وباطنا، وأن الظاهر للعوام والباطن لا يدركه إلا الخواص وإدراك الخواص مستمد من فيض إلهي ينير بصائرهم، ويكشف لهم على زعمهم عن معارف لدنية مباشرة.

٢- أن العلم بالقرآن على هذا النحو يفترق عن العلوم القرآنية الأخرى في بدايته وفى طرائقه وفي غاياته، فضلا عن أنه يفترق عن سائر العلوم بضرورة العمل، فالعالم لابد أن يكون عاملا وعمله هو جهاده ورياضاته التي تؤدى إلى صقل إرادته وشحذ همته وتنقية مرآته الباطنية من كل شائبة، فالتفسير عموما ليس تفسيرا مباشرا، بل يسلك تزكية النفوس وتطهير القلوب والحث على التحلى بالأخلاق الفاضلة.

٣ - أن التفسير الإشاري وإن كان يعتمد على ما وراء العبارة الظاهرية إلا أنه لم تخل من بعض ما نقل من الآثار على النحو المذكور في التفسير بالمأثور أو التفسير بالرأي بالطريقة الاستنباطية، أو تفسيرات تعتمد على معاني الألفاظ والتفسيرات البلاغية.

٤- تتعرض هذه التفسيرات لكثير من المعاني والمصطلحات الصوفية التي تكشف عن طريقتهم وتجربتهم، لا سيما أنهم يوجهون الآيات كشواهد لهذه الرموز والمصطلحات.

٥- ومع ما فيها من معاني تقبل بصعوبة، أو يلتمس لها وجها تحمل عليه بمشقة.

٦- لم تسلم هذه التفسيرات من الإسرائيليات، والاستشهاد بغير القرآن والسنة، ولم تتبع الدقة في تحري ثبوت الحديث، أو مراعاة التعليق على الأسانيد، وكذلك لم تخل من فكر باطني[٤].

وقد استدل الصوفية بكثير من الآيات القرآنية العامة، التي تدعو إلى التدبر وفهم كتاب الله بالتأمل وحسن الاستماع، كقوله تعالى:{ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ

---

(١) لطائف الإشارات، القشيري، تحقيق: د. ابراهيم بسيوني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، القاهرة، ١٩٨١: ٤١/١.

(٢) تاريخ أدبيات در ايران، ذبيح الله صفا، ط٣، ١٣٣٩هـ: ٢٥٧/٢.

(٣) تفسير ابن عربي: ١/٤، وانظر تحقيق نسبته في: تفسير المنار:١٨/١، ومحي الدين بن عربي مفسرا، حامد محمود الزفري، رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين جامعة الأزهر، القاهرة، سنة ١٩٧٢: ص١٧٤.

(٤) انظر: الموافقات: ٤٠٣/٣.

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [البقرة:١-٣]، وكقوله: {فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}[النساء:٧٨]، والمعنى لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، ولم يرد أنهم لا يفهمون نفس الكلام وكقوله تعالى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[محمد:٢٤]، حيث دل على أن ظاهر المعنى شيء وهم عارفون به لأنهم عرب، والمراد هو شيء آخر وهو الذي لا شك فيه أنه من عند الله، والتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن، فلم يحصل منهم تدبر، وكقوله تعالى: [إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[ق:٣٧]، وقال أبو سعيد الخراز: "أول الفهم لكتاب الله عز وجل العمل به، لأن فيه العلم والفهم والاستنباط، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقوله عز وجل: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}[ق:٣٧]"[١].

ويواصل السراج الطوسي استدلاله على التفسير الإشاري فيقول: "وقال تعالى: { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}[الزمر:١٨]، فالقرآن كله حسن ومعنى اتباع الأحسن، ما يكشف للقلوب من العجائب عند الاستماع وإلقاء السمع من طريق الفهم والاستنباط"([٢]).

ومن السنة يستدلون بقوله: " لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ومطلع" [٣] ، فلفظ الظاهر والباطن على زعمهم قرآنيان، ولا يمكن الاعتراض على الفكرة القائلة بأن في القرآن ناحية واضحة تدرك في ضوء الاشتقاق، وأن به ناحية أخرى ربما كانت أخفق وأعمق بالنسبة للأولى، لأن هذه الفكرة يمكن أن تطبق في الواقع على أي نص فكل نص له ناحية قريبة مباشرة تدرك بلا عناء، وناحية أخرى تحتاج إلى عمل وجهد في استيعابها وفهمها، كما لا يمكننا أن ننكر أن الحقيقة الإنسانية الثابتة تشير إلى عدم تساوي الناس في الفهم والإدراك، وقد ظهرت تلك الحقيقة في حياة الرسول وصحابته رضي الله عنهم الذين تفاوتت أقدارهم في سرعة ومدى فهمهم للقرآن، وهذا يفسر ما أثر عنهم من تفسيرات مختلفة[٤].

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: " كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال: إنه ممن قد علمتم قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما أريته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}[النصر:٢-١]، حتى ختم السورة ؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري أو لم يقل بعضهم شيئا، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول ؟ قلت: لا، قال: فما تقول ؟ قلت: هو أجل رسول الله أعلمه الله له: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}[النصر:١]، فتح مكة، فذاك علامة أجلك: { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}[النصر:٤-٣]، قال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تعلم " [٥].

والشاهد هنا أن ابن عباس رضي الله عنه فهم من خطاب الله معنى خفيا وراء ظاهر الألفاظ لم يدركه عامة الصحابة في مجلسهم، وهذا يشبه عمل الصوفية في التفسير الإشاري.

---

(١) اللمع في التصوغ، سراج الطوسي: ١١٣.
(٢) اللمع في التصوف، سراج الطوسي: ١١٣.
(٣) لا أصل له ولم أجده في كتب السنة مرفوعا إلى النبي، ولكنه أثر موقوف على عبدالله بن مسعود، ولفظه: "إن القرآن ليس منه حرف إلا له حد، ولكل حد مطلع". انظر: معجم الطبراني الكبير: رقم(٨٦٦٧)(١٣٦/٩).
(٤) انظر: التصوف طريقا وتجربة ومذهبا، محمد كمال جعفر: ١٥٧.
(٥) رواه البخاري(٤٢٩٤).

ومثله أيضا ما روى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله جلس على المنبر فقال: " إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا فكان رسول الله هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به.

وقال رسول الله ﷺ: "إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر"[١].

فأبو بكر الصديق فهم بطريق الإشارة ما لم يفهمه عامة الصحابة وأسعد بذلك رسول الله وكان الأمر كما قال.

وعن عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَرِهَ لِزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ نَسْخَ الْمَصَاحِفِ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُعْزَلُ عَنْ نَسْخ كِتَابَةِ الْمُصْحَفِ وَيَتَوَلاهَا رَجُلٌ وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّهُ لَفِي صُلْبِ رَجُلٍ كَافِرٍ، يُرِيدُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: يَا أَهل الْعِرَاقِ اكْتُمُوا الْمَصَاحِفَ الَّتِي عِنْدَكُمْ وَغُلُّوهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[آل عمران:١٦١]، فَالْقُوا اللهَ بِالْمَصَاحِفِ[٢].

فالغلول، وهو إخفاء الغنائم طمعا قبل تقسيمها فعل المجرمين، وظاهر الآية ورد في عقابهم وفضحهم يوم القيامة، وقد استخدمها ابن مسعود رضي الله عنه بطريق الإشارة فيمن غل القرآن وأخفاه، ويرد عليهم بأن الصحابة انكروا عليه ذلك، فقَالَ الزُّهْرِيُّ: "فَبَلَغَنِي أَنَّ ذَلِكَ كَرِهَهُ مِنْ مَقَالَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رِجَالٌ مِنْ أَفَاضِلِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ"[٣].

وقداختلف العلماء في التفسير الإشاري، وتباينت فيه أراؤهم فمنهم من أجازه ومنهم من منعه، ومنهم من عده من كمال الإيمان ومحض العرفان، ومنهم من اعتبره زيغا وضلالا وانحرافا عن دين الله تبارك وتعالى، والواقع أن الموضوع دقيق يحتاج إلى بصيرة وروية ونظرة إلى أعماق الحقيقة ليظهر ما إذا كان الغرض من هذا النوع من التفسير هو اتباع الهوى والتلاعب في آيات الله كما فعل الباطنية والشيعة، فيكون ذلك من قبيل الزندقة والإلحاد، أو الغرض منه الإشارة إلى أن كلام الله تعالى يعز أن يحيط به بشر إحاطة تامة، وأن كلامه تعالى وضعت فيه مفاهيم وأسرار ودقائق وعجائب لا تنقضى على مدار الأزمان، ويتوالى إعجازه مرة بعد أخرى، فيكون ذلك من محض العرفان وكمال الإيمان، كما نسب السيوطي إلى ابن عباس رضى الله عنهما: " إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون، لا تنقضى عجائبه ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء"[٤].

---

(١) رواه البخاري(٣٩٠٤)، ومسلم(٢٣٨٢).

(٢) انظر: الفكر السياسي عند الباطنية وموقق الغزالي منه، احمد عرفات، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٨: ٢١٧.

(٣) المعجم الصوفي، محمود عبدالرزاق: ١٢٠/١-١٢٣.

(٤) الاتقان في علوم القرآن: ١٨٥/٢.

ويمكن أن نعرض أهم آراء العلماء التي نسترشد بها في تحديد شروط قبول التفسير الإشاري فمن ذلك:

١- رأى ابن الصلاح:

ينقل ابن الصلاح عن الإمام أبي الحسن الواحدى المفسر أنه قال: "صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير، فإن كان قد اعتقد أن هذا تفسير فقد كفر) ثم يعقب على ذلك بقوله: (وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيء من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيرا ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن فإن النظير يذكر بالنظير ومن ذلك، قتال النفس في الآية المذكورة في قوله تعالى :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ]التوبة:١٢٣[فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لما فيه من الإلهام والإلباس"[١].

٢- رأى الشاطبى:

يقسم الشاطبى الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب الطاهرة وأصحاب البصائر إذا صحت على كمال شروطها على ضربين :

أ- ما يكون أصل انفجاره من القرآن ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هو الذي يخرق من البصيرة في حجب الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح حسبما بينه أهل التحقيق بالسلوك.

ب- ما يكون انفجاره من الموجودات كليا أو جزئيا ويتبعه الاعتبار في القرآن. فإن كان الأول فهذا الاعتبار صحيح وهو معتمد على فهم باطن القرآن من غير إشكال، وإن كان الثاني فالتوقف على اعتباره في فهم باطن القرآن لازم وأخذه على إطلاقه ممتنع لأنه بخلاف الأول [٢].

٣-رأى تاج الدين بن عطاء الله:

ويعدّ ابن عطاء الله تفسير الصوفية لكلام الله ورسوله بالمعاني الغريبة، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان، وثمة أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء في الحديث لكل آية ظهر وبطن، فلا يصدنك عن تلقى هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة هذا إحالة لكلام الله ورسوله، فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا وهم لم يقولوا ذلك بل يقرون بالظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها ويفهمون عن الله ما أفهمهم[٣].

٤- رأى حاجى خليفة:

يرى حاجى خليفة أن التصوف علم كيفية رقي أهل الكمال من النوع الانساني في مدارج سعادتهم، والأمور العارضة لهم في درجاتهم، بقدر الطاقة البشرية، وأما التعبير عن هذه الدرجات والمقامات كما هو حقه، فغير ممكن لأن العبارات إنما وضعت للمعاني التي وصل

---

(١)الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، المطبعة التجارية، بمصر: ٢٧٢/٣.

(٢)الموافقات : : ٣/ ٢٧٢.

(٣) الموافقات: ٢٧٢/٣.

إليها فهم أهل اللغات، وأما المعاني التي لا يصل إليها إلا غائب عن ذاته فضلا عن قوى بدنه، فليس يمكن أن يوضع لها ألفاظ، فضلا عن أن يعبر عنه بألفاظ، فكما أن المعقولات لا تدرك بالأوهام والموهومات، لا تدرك بالخياليات، والتخيلات لا تدرك بالحواس، كذلك ما من شأنه أن يعاين بعين اليقين لا يمكن أن يدرك بعلم اليقين، فالواجب على من يرد ذلك أن يجتهد في الوصول إليه، بالعين دون أن يطلبه بالبيان والعقل[1].

٥- رأى سعد الدين التفتازانى:

في شرحه للعقائد النسفية وتحت قول النسفى: "النصوص على ظاهرها والعدول عنها إلى معان يدعها أهل الباطن إلحاد" علق سعد الدين التفتازانى بقوله: "سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظاهرها، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم وقصدهم في ذلك نفى الشريعة بالكلية، وأما ما يذهب إليه بعض المحققين بأن النصوص على ظاهرها، ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تكشف عن أرباب السلوك، يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهي من كمال الإيمان ومحض العرفان"[2].

٦- رأى محى الدين ابن عربي :

يقول: "وكما كان أصل تنزيل الكتاب من الله على أنبيائه، كان تنزيلا للفهم على قلوب بعض المؤمنين، والأنبياء ما قالت على الله مالم يقل لها، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا أفكارها، ولا تعملت فيها، بل جاءت من عند الله، قال تعالى :تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ]فصلت:٤٢[وقال فيه :لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ]فصلت:٤٢[، وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله لا من فكر الإنسان ورؤيته، وعلماء الرسوم يعلمون ذلك، فينبغى أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه، وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم فيكون شرحه أيضا تنزيلا من عند الله على قلوب أهل العلم كما كان الأصل"[3].

٧- رأي أبي حامد الغزالي :

يقول الغزالي: "لا تظنن في ضرب الأمثال، فرصة منى في رفع الظواهر واعتقادا في إبطالها حتى أقول مثلا لم يكن مع موسى نعلان ولم يسمع الخطاب بقوله :فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ]طه:١٢[حاشا لله فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بعين عوراء إلى أحد العالمين، وجهلوا جهلا بالموازنة بينهما، فلم يفقهوا وجهه، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية، فالذى يجرد الظاهر حشوى، والذى يجرد الباطن باطنى، والذى يجمع بينهما كامل، بل أقول: موسى فهم من خلع النعلين اطرح الكونين، فامتثل الأمر ظاهرا بخلع النعلين وباطنا بخلع الكونين"[4].

٨- رأي الأستاذ محمد عبد العظيم الرزقانى :

يرى الزرقانى "أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر، فدخل في روعهم أن الكتاب والسنة بل والإسلام كله ما هو إلا سوانح ووارادات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات، وزعموا أن الأمر ما هو إلا تخييلات، وأن المطلوب منهم هو الشطح

---

(١) كشف الظنون عن أسامي كتب الفنون، مصطفى بن عبدالله المشهور بحاجي خليفة، نشره المستشرق جوستاف فلويجل، طبعة مكتبة المثنى، بغداد: ٤١٣/١.

(٢) العقائد النسفية وشرحها، سعدالدين التفتازاني: ١٤٣.

(٣) الفتوحات المكية: ٢٨٠/١.

(٤) مشكاة الأنوار، ابو حامد الغزالي، تحقيق: ابي العلاء عفيفي، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٤:٣٣.

مع الخيال أينما شطح فلم يتقيدوا بتكاليف الشريعة، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية في فهم أبلغ النصوص العربية، كتاب الله وسنة رسوله والأدهي من ذلك أنهم يتخيلون ويخيلون للناس أنهم هم أهل الحقيقة، الذين أدركوا الغاية واتصلوا بالله اتصالا أسقط عنهم التكليف، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب ما دموا في زعمهم مع رب الأرباب، وهذا لعمر الله هو المصاب العظيم الذي عمل له الباطنية، كيما يهدموا التشريع من أصوله ويأتوا بنيانه من قواعده، فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذرهم الوقوع في هذه الشباك، ونشير عليهم أن ينفضوا من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية، لإنها كلها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط والتقييد، وكثيرا ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة والحق بالباطل فالأحرى بالفطن العاقل أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق وأن يفر بدينه من هذه الشبهات، وأمامه في الكتاب والسنة وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياض وجنات"[(١)].

٩- رأي الأستاذ محمد حسين الذهبي :

يقرر الذهبي أن الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وبطن، ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربي، وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر، غير أن المعاني الباطنية للقرآن، لا تقف عند الحد الذي تصل إليه مداركنا القاصرة بل هي أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور[(٢)].

يقول: "أما المعنى الباطن فلا يقف على جريانه على اللسان وحده بل لا بد فيه مع ذلك إلى نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان، يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمرا خارجا عن مدلول اللفظ القرآني"[(٣)]، ويقول أيضا: (أما الصوفية أهل الحقيقة وأصحاب الإشارة فقد اعترفوا بظاهر القرآن ولم يجحدوه كما اعترفوا بباطنه ولكنهم حين فسروا المعاني الباطنية خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، فبينما تجد لهم أفهاما مقبولة تجد لهم بجوارها أفهاما لا يمكن أن يقبلها العقل أو يرضى بها الشرع"[(٤)].

والخلاصة في رأي الذهبي أن مثل هذه التفاسير الغريبة للقرآن مزلة قدم لمن يعرف مقاصد القوم، وليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم ولم يذيعوها على الناس فيوقعهم في حيرة واختلاف، منهم من يأخذها على ظاهرها ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، وإذا عارضه ما ينقل في كتب التفسير على خلافها ربما كذب بها أو أشكل عليه ومنهم من يكذبها على الإطلاق ويرى أنها تقول على الله وبهتان، إذن ليتهم ما فعلوا ذلك، إذن لأراحونا من هذه الحيرة وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم وقذف البعض لهم بالكفر والإلحاد في آيات الله ([٥]).

١٠- رأي الدكتور محمد كمال جعفر :

ويرى الدكتور جعفر أنه يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أنه من الطبيعي أن لا يقف الصوفي عند المعاني التقليدية في أي من القرآن أو السنة قولا وعملا، لأنه ليس كالفقيه أو العالم الذي يعتمد على النظر العقلى فحسب، لأن ذلك لا يشبع رغبته ولا يمد روحه بالزاد الضرورى، بل إنه يتعمق إلى معان وراء المعنى الظاهر المباشر، وإن لم يكن من الضرورى أن تكون هذه

---

(١) مناهل العرفان في علوم القران، الزرقاني، طبعة عيسى البابي، ١٩٥٣: ٥٥٨/١.
(٢) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دارالكتب الحديثة:٢٢/٣.
(٣) التفسير والمفسرون: ٢٢/٣.
(٤) التفسير والمفسرون: ٢٢/٣.
(٥) التفسير والمفسرون: ٤٢/٣.

المعاني العميقة متناقضة مع تلك المعاني الظاهرية، ويشير الدكتور جعفر إلى نقطة هامة، وهي أن القرآن بالنسبة للصوفى يحمل حقيقتين متساويتين في الأهمية، فهو من جهة وحى تاريخى اتخذ وضعه في الزمان والمكان المحددين، وهو من جهة أخرى النبع الفياض الذي لا تنفد حقائقه الإلهية الصادرة عن الله ﷻ، وهو لا متناه لأنه كلام الموجود الذي لا يتناهي، والمعاني الباطنية لكلماته غير متناهية كذلك أيضا(١).

كما أن الصوفي المتأمل قد يصل إلى مرحلة يدرك فيها أعمق المعاني الروحية في القرآن، وهذه الفكرة في حد ذاتها بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى قد تثير صعوبات، بحيث أنها تؤدى إلى أن يكون تفسير القرآن مختلفا باختلاف الذوات المشتركة فيها أي أن يكون الموقف موقفا ذاتيا مما ينتج بدوره تفسيرات متعارضة ويؤدى إلى اضطرار كبير، ولكن الحقيقة أن الصوفية فعلا يرون أن تعدد التفسيرات أمر حتمى، لأن معاني القرآن لا نهائية وتتكشف لكل صوفى حسب طاقته الروحية وحسب فضل الله يؤتيه من يشاء، وليس في ذلك أي ضير ما دام هذا متصلا بالمعاني الكمالية التي لا تتجاوز حدود المعاني المباشرة المتفق عليها (٢).

وقبل النظر والتعقيب على الآراء السابقة في التفسير الإشار لنستخلص منها ما يمكن أن نصل إليه في تقرير شروط التفسير الإشاري، تجدر الإشارة إلى رأي بعض المستشرقين الغربيين من قبيل المقارنة المؤثرة في توجيه الآراء إلى الأفضل، فنرى المستشرق نكلسون أستاذ مدرسة كمبردج الاستشراقية يصرح بأن التفسير الصوفي يشابه التفسير الشيعي وكلاهما عنده من التأويلات المغرضة التي تتلاعب بالنصوص، فيقول :"استطاع الصوفية متبعين في ذلك الشيعة، أن يبرهنوا بطريقة تأويل نصوص الكتاب والسنة تأويلا يلائم أغراضهم على أن كل آية بل كل كلمة من القرآن تخفى وراءها معنى باطنيا لا يكشفه الله إلا لخاصة العباد، الذين تشرق هذه المعاني في قلوبهم وفى أوقات وجدهم، واعتبروا أنفسهم خاصة أهل الله الذين منحهم الله أسرار علم الباطن المودعة في القرآن والحديث، وأنهم استعملوا في التعبير عن هذا العلم لغة الرمز والإشارة، التي لا يقوى على فهمها غيرهم من المسلمين"(٣)، وربما كان هذا الموقف للمستشرق نيكلسون بسبب ما أشارت إليه الباحثة ﷺ أن المستشرقين في القرن التاسع عشر قد عرفوا المصادر الصوفية المتأخرة والتي لا تصور التصوف في مراحله الأولى.

فحكم نيكلسون على جميع الصوفية في تفسيرهم للقرآن بما رآه من الغلو في التفسير الإشاري عند المتأخرين، ولذا أدرك نيكلسون بعد ذلك استحالة وضع حكم منصف للتصوف قبل أن تعد مصادره الأولى إعدادا علميا دقيقا، وقد تولى هو زمام المبادرة في نشر المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها وترجمتها وتحليل مادتها(٤).

ويرى المستشرق جولد تسهير أن العمل بما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتثور القرآن" لا يحصل بمجرد تفسيره الظاهر، فالأمور كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها، وفيه رموز ودلالات لكل ما أشكل من ذلك على النظار، ومهمة التفسير

---

(١) التصوف طريقا وتجربة ومذهبا: ١٥٧.

(٢) من التراث الصوفي، سهل بن عبدالله التستري: ١٠٩.

(٣) التصوف الاسلامي وتاريخه: ٧٦.

(٤) الإتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الاسلامي، محمد عبدالله الشرقاوي: ١٩ وما بعدها.

هي استخراج كل ذلك العلم من الكتاب والتعمق في تفصيله، ووراء هذه المعاني الظاهرة يحتجب المعنى الباطن وتسكن أسرار القرآن التي ينبغى البحث عنها بتغلغل ونفاذ أعمق من ذلك، ولن يترتب على ذلك القضاء على ظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه، وإذا كان التفسير الصوفي فيه تجاوز للتفسير المنقول المحدود في حرية لا توقفها قيود، ومع استخدام أمثلة بعيدة المدرك والمورد في الغالب في الكشف عن أفكار الورى إلا أن أثرت في التغلغل إلى ما وراء المسموع والمنقول من المعاني المقصودة في كلام الله والمكنونة في حجبها والتي لا يعقلها إلا العالمون(١).

ويرى المستشرق هنرى كوربان أن المستمع للكلام الإلهي يحق له أن يفهم منه كل شيء، وفى أي حقل من المعرفة وفى أي درجة من العمق والخفاء شرط ألا يتجاوز فهم السامع، ولا يتعدى التفسير من محتوى الكلام ودلالاته الوصفية حقيقة ومجازا وكناية حيث أن علم الله عين ذاته ولا حد له وسع كل شيء علما (٢).

ويرى الدكتور محمد كمال جعفر أنه لا بد قبل تقرير شروط قبول التفسير الصوفي التنبه إلى أن التفسير الصوفي يرتبط بنوعية اعتقاد المفسر، ويمكن إجمال تفسيراتهم في نوعين(٣):

أ- التفسير النظرى: وهو التفسير المبنى على نزعة فلسفية حيث تتوجه الآيات القرانية لديهم وفق نظرياتهم وتتفق مع تعاليمهم .

ب- التفسير الإشاري: هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ولا يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة.

والفرق بين التفسير النظرى و التفسير الإشاري في أثرهما على تفسير القرآن أن التفسير النظرى يبنى على مقدمة علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولا ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك، أما التفسير الإشاري فلا يرتكز على مقدمات علمية بل يرتكز على مجاهدات رياضية، يأخذ الصوفي نفسه بها حتى يصل إلى درجة إيمانية تنكشف له فيها من سبل العبارات هذه الإشارات، وتتوالى على قلبه تحليل الآيات من المعاني الربانية.

كما أن التفسير الصوفي النظرى يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من معاني وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل عليه إلا هذا، على حسب طاقته أما التفسير الإشاري فلا يرى الصوفي أن كل ما يراد من الآية بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولا وقبل كل شيء ذلك المعنى الظاهر الذي ينساق إليه الذهن قبل غيره.

ويرى الدكتور جعفر في شرطه لقبول التفسير الصوفي أن تأويل الصوفية للقرآن أو الفهم الخاص له إذا خلا من أي هدف سياسي أو اجتماعى، سواء كان لرد اعتبار أو كوثيقة أمن أو بسط سلطان أو كسب ثروة أو احتفاظ بمراكز نفوذ تتعلق بأشخاص أو بجماعات، إذا لم يكن له مثل هذا الهدف وإذا كان لا يعارض نصا قرآنيا آخر، ولا يعارض الاستعمال العربي، ولا يؤدى إلى تحريف أو انحراف، وإذا كان وجوده يضيف ثروة روحية أو عقلية، وإذا كان لا يدعى من السلطة ما يجعله أمرا ملزما، بفرض واحديته في الأحقية، إذ كان كذلك فهو تأويل

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامي، إجناز جولد تسهير، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون، طبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥٩: ٢٠٧.

(٢) تاريخ الفلسفة الاسلامية، هنري كوربان، ترجمة: قيسي وزميله، بيروت، ط١، ١٩٦٦: ١٠.

(٣) انظر: التصوف، د. محمد كمال جعفر: ٢٦.

مقبول، ليست له غاية إلا تعميق الفهم عن الله الذي ما زال كتابه منبعا لا يغيض ومعينا لا ينضب للحقائق والأسرار [١].

ومن ثم وبناء على ما سبق من الآراء يمكن تقرير الشروط التي يقبل بها التفسير الصوفي في العناصر الآتية:

١- ألا يكون التفسير الصوفي منافيا للظاهر من النظم القرآنى الكريم..
٢- -أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.
٣- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.
٤- ألا يدعي أن التفسير الصوفي هو المراد وحده من الظاهر.
٥- ألا يكون التأويل بعيدا لا يحتمله اللفظ فيه تلبيس على أفهام الناس.

فإذا توفرت هذه الشروط، وليس للتفسير ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية، جاز الأخذ به أو تركه، لأنه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم على دليل نظري، وإنما هو أمر يبعث على تنمية المشاعر وتحصيل مكارم الأخلاق، فيجده الصوفي من نفسه ويسره بينه وبين ربه، فله أن يأخذ به أو يعمل بمقتضاه دون أن يلزم به أحدا من الناس، والأحرى ألا يسمى هذا اللون من الفهم تفسيرا وإنما يسمى ذكر النظير بالنظير الذي يعتبر صحيح [٢].

أمثلة على التفسير الإشاري:

ما ذكره سهل بن عبد الله التسترى في قوله تعالى : {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ }[الشعراء٨٠-٨١]، قال: "يعنى إذ تحركت بغيره لغيره عصمنى، وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منعها عنى، وقوله والذى يميتنى ثم يحين أي الذي يميتنى بالغفلة ثم يحينى بالذكر"، وفي قوله:{ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[النمل:٥٢]، قال: "الإشارة في البيوت إلى القلب فمنها ما هو عامر بالذكر، ومنها ما هو خرب بالغفلة ومن ألهمه الله عز وجل بالذكر فقد خلصه من الظلم"[٣].

وقال في قوله تعالى: { وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الحجرات:٩]، ظاهرهما ما عليه من أهل التفسير، وباطنها هو الروح والعقل والقلب والطبع والهوى والشهوة، فإن بغى الطبع والهوى والشهوة على القلب والعقل والروح، فليتقاتل العبد بسيوف المراقبة وسهام المطالعة وأنوار الموافقة ليكون الروح والعقل غالبا والهوى والشهوة مغلوبا[٤].

وأورد أبو نصر السراج الطوسي بعض الأمثلة التي ذكرها الصوفية من طريق الإشارة والاستنباط والفهم الصحيح، وبين أنهم لم يقدموا فيها ما أخر الله تعالى ولا أخروا ما قدم الله، ولا نازعوا الربوبية ولا خرجوا عن العبودية ولا يكون فيه تحريف الكلم، منها قوله تعالى :{يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}(الشعراء:٨٨ -٨٩)، سئل عنه أبو بكر الكتانى فقال: القلب السليم على ثلاثة أوجه من طريق الفهم :

أحدها: هو الذي يلقى الله تعالى عز وجل وليس في قلبه مع الله شريك.

---

(١) التصوف، د. محمد كمال جعفر: ٢٦.
(٢) التصوف، محمد كمال جعفر: ١٦٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، سهل التستري: ٧٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ٩١.

والثاني: هو الذي يلقى الله تعالى وليس في قلبه شغل مع الله عز وجل ولا يريد غير الله تعالى.
والثالث: الذي يلقى الله عز وجل ولا يقوم به غير الله عز وجل، فنى عن الأشياء بالله، ثم فنى عن الله بالله [(١)].

ويعقب السراج الطوسي بقوله: "معنى قوله: فنى عن الله بالله، يعنى يذهب عن رؤية طاعة الله عز وجل ورؤية ذكر الله ورؤية محبة الله، بذكر الله له ومحبته قبل الخلق، لأن الخلق بذكره لهم ذكروه، وبمحبته لهم احبوه، وبقديم عنايته بهم أطاعوه[(٢)].

ومثل ما أشار الجنيد بن محمد سيد الصوفية في عصره بقوله تعالى :{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}[النمل: ٨٨]، إلى سكونه وقلة اضطراب جوارحه عند السماع، وكذلك ما كان يشير به أبو علي الروذبارى إذا رأي أصحابه مجتمعين فيقرأ :{ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ}[الشورى: ٢٩][(٣)].

وقال أبو القاسم القشيرى في قول الله تعالى:{ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}[الإسراء:٣٣]، لا يجوز قتل نفس الغير بغير الحق، ولا للمرء أن يقتل نفسه أيضا بغير الحق، وكما أن قتل النفس بالحديد وما يقوم مقامه من الآلات محرم، فكذلك القصد إلى هلاك المرأ محرم، ومن انهمك في مخالفة ربه فقد سعى في هلاك نفسه، وقوله :{ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا}[الإسراء:٣٣]، أى تسلطا على القاتل في الاقتصاص منه، وعلى معنى الإشارة إن النصرة من قبل الله ومنصور الحق لا تنكسر سنانه ولا تطيش سهامه[(٤)].

اتجاهات التفسير

للتفسير اتجاهات وهي:

١-الاتجاه اللغوي:

وهو "التفسير الذي يبُنى على قواعد نحوية أو بلاغية، فإن ساعده السياق قُبِل، وإلا أعرضنا عنه، وأخذنا بما يصححه النظر، ويقويه الدليل"[(٥)].

ويمكن أن نعرّفه بأنه: الرجوع في تفسير القرآن إلى المعنى العربي الذي استعملته العرب، ويكون ذلك عند عدم النص الشرعي الذي ينقل المعنى اللغوي إلى معنىً آخر.

والتفسير اللغوي على قسمين:

"الأول: أن لا يحتمل اللفظ إلا معنى واحداً، وهذا ما لا يقع فيه خلاف، وهو أشبه بأن يجعل من القسم الذي طريقه السماع لا الاجتهاد، لعدم الحاجة لإعمال الرأي فيه مطلقاً.

الثاني: ما يحتمل أكثر من معنى، والسياق محتمل لها جميعها، ففي مثل هذا يكون التّميّزُ وإعمال الرأي اعتماداً على المعنى اللغوي، ومثال ذلك: تفسير قوله تعالى: {خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطَّففين:٢٦]، قال الطبري: "فقال بعضهم: ممزوج مخلوط، مزاجه

---

(١) تفسير القرآن العظي: ٩١.
(٢) اللمع في التصوف: ١٢٦.
(٣) اللمع في التصوف: ١٢٦.
(٤) لطائف الإشارات، القشيري: ٣٤٦/٢.
(٥) التفسير والمفسرون للذهبي ٢/ ٣٩٨.

وخِلطه مسك، وعن عبد الله {مَخْتُوم} قال: ممزوج، { خِتَامُهُ مِسْكٌ } قال: طعمه وريحه، وقيل: أن آخر شرابهم يختم بمسك يجعل فيه"[1] "[2].

ولعله يقصد بالتميز أي: بالاجتهاد، وإعمال الرأي اعتماداً على المعنى اللغوي.

ووجه الاستشهاد هنا إعمال الرأي، وفقاً للمعنى اللغوي لقوله تعالى: { خِتَامُهُ مِسْكٌ }فكان في اللغة ثلاثة معانٍ هي:

١- خِلطه مسك[3]. ٢- طعمه وريحه مسك[4]. ٣- آخره يختم بمسك يجعل فيه[5].

وفي هذا المثال، وكل ما هو على شاكلته يمكن إعمال الرأي في اختيار أحد المعاني، ويمكن حمل اللفظ أو الجملة على جميع المعاني إن كانت اللغة والسياق يحتمله، والله الموفق.

٢-الاتجاه العلمي:

وهو "التفسير الذي يُحَكِّم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها"[6]، ولعل الإمام الغزالي[7] أكثر من تحدث عن هذا النوع من التفسير بمعلومات عصره، وما حصل عليه من كتب الفلسفة، وأحياناً بلفتاتٍ تأمليه وفقاً للآيات، وعندما عقد أول مؤتمر للإعجاز العلمي في إسلام أباد عام ١٩٨٧م، عرف التفسير العلمي بأنه: "الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية"[8].

"والتفسير العلمي يختلف عن الإعجاز العلمي؛ لأن الإعجاز لا يكون إلا فيما تحقق ثبوته، ولذلك يعَرَّف الإعجاز بأنه: إخبار القرآن الكريم، أو السنة النبوية، بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول -ﷺ-، وهكذا يظهر اشتمال القرآن، أو الحديث على الحقيقة الكونية، التي يؤول إليها معنى الآية أو الحديث، ويشاهد الناس مصداقها في الكون، فيستقر عندها التفسير، ويعلم بها التأويل، كما قال تعالى: {لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأنعام:٦٧]، وقد تتجلى مشاهد أخرى كونية عبر القرون، تزيد المعنى المستقر وضوحاً، وعمقاً، وشمولاً؛ لأن الرسول -ﷺ- قد أوتي جوامع الكلم"[9].

وتكمن أهمية التفسير العلمي المتثبت من الحقائق التي أثبتها العلم التجريبي بالآتي:

---

(١) جامع البيان للطبري ٢٩٦/٢٤.

(٢) مصادر التفسير، مساعد الطيار ص٢.

(٣) لسان العرب لابن منظور ١٦٣/١٢.

(٤) المصدر نفسه ١٦٣/١٢.

(٥) المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة المرسي ١٥٦/٥، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط/٢٠٠٠م.

(٦) التفسير والمفسرون للذهبي ٢٨/٣، ٢٩.

(٧) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي حجة الإسلام الفقيه الشافعي، لم يكن في آخر عصره مثله، اختلف إلى دروس العلم وجدَّ في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة وصار من الأعيان واشتهر اسمه وسار بذكره الركبان، وكانت ولادته في سنة خمسين وأربع مائة بالطابران وتوفي رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة انظر: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٣، والوافي بالوفيات ١١٩/١، ١٢٠.

(٨) تأصيل الإعجاز العلمي، عبد المجيد بن عزيز الزنداني ص١٤، مطبوعات هيئة الإعجاز العلمي- مكة المكرمة (بدون).

(٩) تأصيل الإعجاز العلمي للزنداني ص١٥.

أ- تفسير القرآن للمسلمين تفسيراً يشبع حاجتهم من الثقافة الكونية، ويغرس اليقين في قلوبهم بصدق ما أخبرهم به القرآن الكريم.
ب- إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن من ناحية ما يحويه أو يرمز إليه من علوم الكون والاجتماع.
ج- دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين.
د- استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمي الذي يخضعون له دون سواه في هذه الأيام"(١)؛ ولكن شريطة أن يكون بدون تعسف للآيات والمعاني.

٣-الاتجاه الموضوعي:

إن هذا النوع من التفسير "يتناول موضوعاً واحداً في القرآن، يعمد المفسر فيه إلى ذكر الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، ويشرحها ويفصل القول فيها"(٢).
ومثال ذلك أن يعمد المفسر إلى جمع آيات التقوى من جميع سور القرآن ثم يقوم بتفسيرها في منظومة واحدة.

٤-الاتجاه الفقهي:

وهو "التفسير الذي يولي موضوع الأحكام الفقهية عناية خاصة"(٣)، ومن الأمثلة على ذلك:
من الحنفية: ألَّف أبو بكر أحمد بن عليّ الرازي المعروف بالجصَّاص والمتوفى سنة سبعين وثلاثمائة من الهجرة كتاباً سماه أحكام القرآن تناول فيه الأحكام الفقهية مرجحاً مذهب الحنفية.
ومن المالكية: ألَّف أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله الملقب بابن العربي المتوفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة كتابه أحكام القرآن، معتمداً على المذهب المالكي، وكان متحرراً قد بلغ رتبة الاجتهاد كما في ترجمته.
ومن الشافعية: ألَّف أبو الحسن عماد الدين، عليّ بن محمد بن عليّ الطبرى المعروف بالكيا الهراسي المتوفى سنة أربع وخمسمائة كتابه أحكام القرآن، وهو كسابقه يخرج عن المذهب إذا لاح له الدليل.
وهكذا بقية المذاهب حتى مذاهب الفرق المنحرفة التي تتعسف أحكام القرآن للتدليل على مذاهبها الباطلة، كالشيعة الاثناعشرية، والباطنية، وغيرها، فكل طائفة جعلت لها تفسيراً يتماشى مع مذهبها، وفكرها.

٥-الاتجاه البلاغي:

وهو "علم يعرف به أحوال الألفاظ، والجمل القرآنية التي بها يطابق مقتضى الحال، وفقاً للغرض الذي سيق له، مع إبراز سهولة المعنى، ومحاسن الألفاظ؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في فهم كلام الله، وهو: " القول في القرآن بالاجتهاد المبني على أصول صحيحة، وقواعد سليمة متبعة تعنى بأسرار التراكيب لنظم القرآن بما يبين المعنى بحسب مقتضى الحال، وتظهر من خلاله فصاحة القرآن التي تحدى الله بها العرب"(٤).

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ٢/ ١٠٠.
(٢) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، محمد بن لطف الصباغ ١٥/٢، رسالة دكتوراه .
(٣) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، محمد بن لطف الصباغ ١٥/٢.
(٤) هذان التعريفان استنبطهما الباحث من خلال تعريف علم البلاغة، ومعنى الفصاحة، ومن خلال علوم البلاغة الثلاثة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، لأني لم أجد من عرفه على رغم طول فترة البحث،

ومن أعلام هذا الفن الإمام عبد القاهر الجرجاني[1]، فقد ألف كتاباً سماه إعجاز القرآن الصغير، وكتاباً آخر سماه إعجاز القرآن الكبير، وغيرها من المؤلفات، والعلامة محمود الزمخشري في تفسيره المسمى بالكشاف، ولولا اعتزاله وانتصاره في كتابه للمعتزلة لكان كتاباً حافلاً، ومن المعاصرين الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير فقد جمع ما لم يجمعه غيره مستفيداً مِنْ مَنْ سبقه كثيراً، وهذا الاتجاه في التفسير تابع للتفسير بالدراية وسيسلط الباحث الأضواء عليه؛ كون هذه الدراسة التي نحن بصددها هي في التفسير البلاغي.

أهمية التفسير البلاغي:

وللتفسير البلاغي أهمية كبيرة نذكر منها:

١- الوقوف على معجزة القرآن الكريم البلاغية التي تحدى بها الله تعالى العرب.

قال ابن عاشور: "فإعجاز القرآن متوجه إلى العرب إذ هو معجز لفصحائهم، وخطبائهم، وشعرائهم، مباشرة، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه، فهذا برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم، ثم هو بذلك دليل على صدق المُنَزَّلِ عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغا لا يستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار، ولمن جاء بعدهم بشواهد التأريخ، كما أنه معجزة مستمرة على تعاقب السنين؛ لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية، والحكمية والعلمية، والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني، وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك"[2].

٢- توجيه التفسير للألفاظ والجمل القرآنية بما يرفع الإشكال ويوضح المعنى.

ومثال ذلك: "لما جلس أبو عبيدة معمر بن المثنى[3] لدروس العلم في المسجد جاءه رجل يقول له: إن العرب حين تستعمل أسلوب التشبيه فإنها تشبه مجهولاً بمعلوم حتى يتضح المجهول فما بال القرآن يشبه مجهولاً بمجهول في قوله تعالى عن شجرة الزقوم:{طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [الصَّفات:٦٥]، فنحن لم نر طلع الشجرة فهي مجهولة لدينا، ورؤوس الشياطين أيضًا مجهولة لنا حيث لم نر شيطانًا، فكيف وقع هذا في القرآن؟

انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، أبو عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني ص٤٩، تحقيق الخفاجي، دار إحياء العلوم – بيروت، ط/ الرابعة ، ١٩٩٨م.

(١) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، كان من أئمة اللغة، من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان) له شعر رقيق، من كتبه: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والجمل في النحو، وغيرها، ولد عام أربعمائة للهجرة وتوفى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٤٩/٥، وشذرات الذهب ٢٤٠/٣.

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي١/ ٥٩، مؤسسة التأريخ العربي، بيروت- لبنان، ط/ الأولى١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٣) معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، أبو عبيدة النحوي، من أئمة العلم باللغة والأدب، ولد بالبصرة سنة عشر ومائة، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد، وقرأ عليه أشياء من كتبه، وكان إباضيًّا، شعوبيًّا، من =حفاظ الحديث، توفي سنة تسع ومأتين للهجرة، انظر: العبر في خبر من غبر، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي٢٥٩/١، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، محمد بن يعقوب الفيروزأبادي١/ ٧٦، تحقيق: محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي- الكويت، ط/ الأولى ١٤٠٧هـ.

فرد عليه معمر بأن العرب تكتفي بالصورة الذهنية عن الصورة المشاهدة، ورأس الشيطان صورته في الذهن العربي صورة كريهة مخيفة مرعبة، فشبه به شجرة الزقوم، ومن هنا نشأ علم البلاغة لخدمة أساليب القرآن الكريم"[1].

٣- فهم المعاني القرآنية من خلال معرفة القرائن وسياق النص ولهجات العرب.

فالكلمة الواحدة والجملة الواحدة قد تحمل مدلولين متناقضين تماماً، دون أن تختلف الكلمة في بنائها الداخلي، وإنما الذي تغير هو (السياق) والقرائن المحيطة، فقد يقول الأب لابنه: (افعل كذا) وهو يقصد المعنى الظاهري لهذه الكلمة، وقد يستخدم نفس الكلمة ويقصد بها التهديد، الذي يستطيع اكتشافه من خلال القرائن، وهنا ينقلب معنى (افعل) إلى معنى مناقض تماماً هو (لا تفعل)!، وهذا هو بالضبط ما ينطبق على القرآن الكريم، فقد يستخدم القرآن صيغة الأمر ويقصد بها مدلولها الظاهري، عندما يقول:{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآَنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآَنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} [الإسراء:٧٨]، وقد يقصد بها الإباحة عندما يقول: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} {المائدة:٢}، عقيب الحظر في قوله:[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ] {المائدة:٩٥}، وقد يقصد التهديد عندما يقول:{فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ} [الزُّمر:١٥]، وقد يقصد التعجيز والتحدي عندما يقول:{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة:٢٣]، أو عندما يقول على لسان نبي الله هود -ﷺ- مخاطباً قومه الكافرين:{مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ} [هود:٥٥] ، وقد يقصد الاستهزاء عندما يقول الله تعالى في خطابة لبعض أهل جهنم:{ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ} [الدُخان:٤٩]، وهكذا وهلم جراً[2].

٤- إثراء المعاني للألفاظ والجمل التي ظاهرها التماثل والتشابه.

وتعنى بهذا كتب البلاغة التي تعنى بمقتضيات الأحوال وأسرار التراكيب ومثال ذلك ورود اليأس في القرآن الكريم بمعنى: الإحباط، والقنوط، وعدم الرجاء، مثل قوله تعالى: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ} [{يوسف:٨٧]، أي: لا يقنط من رحمة الله...وقوله:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [العنكبوت:٢٣]، وقوله: [لَا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ} [فصّلت:٤٩]، لكنه قد وردت آية فيها اليأس بمعنى العلم على لهجةٍ من لهجات العرب، دل عليها سياق النص، وذلك في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآَنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا} [الرعد:٣١]، ومعناها: أفلم يعلم[3]، فدل ذلك على أهمية معرفة سياق النص، ولهجات العرب، لتفسير كتاب الله تعالى.

---

(١) أثر الدرس اللغوي في فهم النص الشرعي، محمد المختار محمد المهدي ص٧.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني ص٤٩، دار إحياء العلوم – بيروت، ط/ الرابعة ١٩٩٨م.

(٣) أثر الدرس اللغوي : ١٣، بتصرف.

خاتمة التمهيد

إن النص القرآني ينأى عن النص البشري بكل أجناسه، فهو فمعجزة، ثابتة الألفاظ متحركة المعاني تصلح لكل متلقٍ في كل زمان ومكان، تحمل دلالات بعضها فوق طاقة العقل الإنساني واستيعابه، أقبل العلماء على هذا الكتاب المجيد مشغوفين بكل ما يتعلق به: حتى أحصوا عدد آياته وحروفه، وعدد ألفاظه المعجمة والمهملة، وأطول كلمة فيه وأقصرها، وأكثر ما اجتمع فيه من الحروف المتحركة، واشتغلوا منه بأبحاث دون تلك وزنا معتقدين أن لهم في هذا كله ثوابا عند الله وأجرا، إذ حققوا إرادته الأزلية في حفظ كلامه المبين من عبث السنين.

ويمكن تحديد أهم النتائج التي توصلنا إليها من هذا التمهيد كما يأتي:

١- القرآن الكريم: هو كتاب الله تعالى الذي أنزله على خاتم المرسلين مُحمد -ﷺ- لهداية البشر، وهو دستور الحق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، أودعه ربنا تعالى كل تشريع، وضمنه كل موعظة من شأنها تحقيق السعادة للبشرية جمعاء، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)} [يونس : ٥٧ - ٥٨]

٢- لم تكن كتب علوم القرآن -في القرن الأول- قد انفردت واستقلّت بالتأليف؛ بل نرى بعض الموضوعات كُتِبَتْ على وجه الاستقلال في القرون الأولى؛ كعلمِ القراءاتِ، وعلمِ الرسمِ، والناسخِ والمنسوخِ، وإعجاز القرآن، وبعض الكتب جمعت أكثر من نوع من هذه الأنواع.

٣- كان القرآن الكريم موضع اهتمام المسلمين من أول يوم تنـزل فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوعاه الصحابة وحفظوه، وكتبوه، وطبقوا ما فيه، وكان ما قام به أبوبكر الصديق بمشورة عمر رضي الله عنهما من جمع القرآن مما هو مكتوب أو محفوظ في عهده صلى الله عليه وسلم عملا عظيماً حُفظ به القرآن، وسار على نهجه عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما جمع الناس على مصحف واحد ومنع الاختلاف بين المسلمين، وقد نال زيد بن ثابت رضي الله عنه شرف تحمل مسؤولية جمع القرآن في عهد أبي بكر، وكتابته في عهد عثمان.

٤- الوحي عملية مرتبطة بحوار ثنائي : بين ذات أمرة ، وذات متلقية ، ورأينا ظاهرة الوحي مرئية ومسموعة ، ولكنها خاصة بالنبي صلىاللهعليه وآله وسلم وحده، ولم يكن الوحي ظاهرة ذاتية عند النبي صلىاللهعليهوآلهوسلم إطلاقاً ، بل كانت منفصلة عنه انفصالاً تاماً، ربما صاحبه من خلالها إمارات خارجية في شحوب الوجه أو تصبب الجبين عرقا ، ولكنها إمارات لم تكن لتمتلك عليه وعيه نهائياً ، وكان الداعي لبحث ذلك هو الرد على هجمات طائفة من المستشرقين الذين يرون الوحي نوعا من الإغماء ، أو مثلاً من التشنج ، والأمر ليس كذلك ، بل هو استقبال لظاهرة ، أعقبه هذا الوقع ، استعداد للنشر والتبليغ. بعد هذا أرسينا مصطلح الوحي على قاعدة من الفهم القرآني.

٥- تناول البحث تحديد بداية نزول القرآن زمنياً ، وتعيين ما نزل منه أول مرة، ثم أشرنا للنزول التدريجي ، وضرورة تنجيم القرآن ، وعالجنا هذه الظاهرة بما نمتلك من تقليل لأسرارها ، وتقييم لأبعادها ، وأوضحنا إيمان القرآن بمرحلية النزول ، وتعقبنا ذلك بتأريخية ما انقسم منه إلى مكي ومدني، وسلطنا الضوء على ضوابط السور المكية والمدنية ، وحمنا حول أسباب النزول وقيمتها الفنية ، وما يستأنس منه بجذورها في تعيين النزول زمانياً ومكانياً ، وتتبعنا ما نزل من القرآن بمكة أولاً بأول ، وما نزل بالمدينة أولاً بأول ، معتمدين على أصح الروايات

وأشهرها ، أو بما يساعد عليه نظم القرآن وسياقه ، وختمنا الفصل بجدول إحصائي إستقرائي لسور القرآن كافة بترتيبها العددي والمصحفي والزماني والمكاني.
٦- إن للآيات القرآنية قصة تعين على الفهم السديد وتلهم أرجح التأويل وأصح التفسير وهو ما يسمى بأسباب النزول، وحين وصفنا مقاييس المفسرين المحققين في ترجيح الروايات المنبئة عن تلك الأسباب بمصطلحها الدقيق وتخريجها الذكي ونقدها الحصيف، وجمعها بين السبب التاريخي والسياق الأدبي في الآيات التي وضعت في السطور على حسب الحكمة ترتيبا وحفظت في الصدور على حسب الوقائع تنزيلا، وحين تحدثنا عن ألوان من التناسق الفني يعوض بها القرآن أسباب النزول إذا لم تعرف، أو يؤكد مدلولاتها "بالنماذج" الحية إذا عرفت ولم تحفظ، أو حفظت ولم تشتهر.
٧- إن في اعتبار الشكل المصحفي، وطريق الرواية إلى النبي صلىاللهعليه وآله وسلم ، وتعدد لهجات القبائل ، مضافاً إلى المناخ الإقليمي القائم بين مدرستي الكوفة والبصرة، أسسا قابلة للاجتهاد والأثر في تعدد القراءات القرآنية، وانتهينا إلى أن الاختلاف كان في الأقل ، والاتفاق في الأكثر ، وحددنا وجهة النظر العلمية تجاه القراء السبعة والقراءات السبع ، وأعطينا الفروق المميزة بين القراءة والاختيار ، وأوردنا مقاييس القراءة المعتبرة
٨- وقد تقصينا الخطوات التي مر بها التفسير حتى اتخذ الصورة التي نجده عليها في بطون المؤلفات، وأن نفرق بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، وأن نتبين كيف يفسر القرآن بالقرآن لما في دلالته من الإحاطة والشمول، في منطوقه ومفهومه، وعامه وخاصه، ومطلقه ومقيده، ومجمله ومفصله، ونصه وظاهره.
٩- إن القرآن كله محكم بمعنى أنه متقن غاية الإتقان، وهو أيضًا متشابه، بمعنى أنه يصدق بعضه بعضًا؛ أما من جهة الاصطلاح، فالمحكم ما عُرف المقصود منه، والمتشابه ما غَمُض المقصود منه. وظهر لنا أيضًا الموقف السليم من النصوص الواردة في باب الصفات، وأن القول الصواب فيها ما ذهب إليه السلف من إجراء تلك النصوص على ظاهرها، دون أن يقتضي ظاهر تلك النصوص تمثيل الخالق بالمخلوق.
١٠- وتبين لنا بعد التجوال في ميدان علوم القرآن الكريم أن (الناسخ والمنسوخ) علم من آكد العلوم وأوجبها تعلما وحفظا وبحثا وفهما وخاصة لمن أراد أن يخوض غمار تفسير كتاب الله تعالى وأن يغوص في لجته لاستخراج الدرر الثمينة والجواهر النفيسة . بل إنه علم لا يسع كل من تعلق بأدنى علم من علوم الديانة جهله كما قال ذلك مكي بن أبي طالب القيسي رحمه الله تعالى، وإن مما يدل على عظم شأن هذا العلم وجليل خطره أن الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه عداه شرطا لكون الإنسان عالما . وأن أبا يوسف صاحب أبي حنيفة اعتبره شرطا للإفتاء بل قال : إنه لا يحل لأحد أن يفتي حتى يعرفه.
١١- إن الترجمة عامل آخر يسير موازيًا لتعلم لغة القرآن الكريم في نشر دعوته، وتبليغ هدايته للعالمين، وليس بالضرورة أن يتحول المسلمون جميعًا إلى عرب، فأكثر المسلمين في أرض الله اليوم من العجم، وها نحن نراهم أشد نصرة لدين الله، وأكثر حرصًا على طلب العلم، وأكثر الأئمة الأعلام كانوا من غير العرب، وقد سجل القرآن الكريم، أن من آيات الله العظمية، وآيات القدرة: اختلاف الألسنة واللهجات.
فلا مانع أن يُترجم القرآن الكريم لغير العرب، وأن يدخل غير العرب في دين الإسلام، ويتعلمون اللغة العربية.

١٢- وننتهي إلى إعجاز القرآن، فإذا نحن نرد سحره إلى نسقه الذي يجمع بين مزايا النثر والشعر جميعا، بموسيقاه الداخلية، وفواصله المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، وتقفيته التي تغني عن القوافي، ورأينا كيف تم للقرآن من الإعجاز بالألفاظ الجامدة ما لا يتم للفنان من الإبداع بالريشة والألوان، وحاولنا في تصور التشبيه والاستعارة والكناية وأنواع المجاز أن نبث الحياة في اصطلاحات القدامى، فكان القرآن -في هذا كله- نسيجا واحدا في بلاغته وسحر بيانه، إلا أنه متنوع تنوع موسيقى الوجود في أنغامه وألحانه
فذلك هو القرآن: إن نطق لم ينطق إلا بالحق، وإن علم لم يعلم إلا الهدى والرشاد، وإن صور لم يصور إلا أجمل لوحات الحياة، وإن رتل ترتيلا لم يسمع بعده لحن في الوجود ذلك كتاب الله المجيد (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ).

وأخيرا فالقرآن الكريم، هو مرجع الإسلام الأول، ودليله الأعظم، إليه المستند في العقائد، والعبادات، والحكم، والأحكام، والآداب، والأخلاق، وفيه القصص، والمواعظ، والعلوم، والمعارف، لذلك كله، كان القرآن الكريم، موضع العناية الكبرى من الرسول ومن صحابته، والتابعين، ومن سلف الأمة، وخلفها جميعًا، منذ القرن الأول إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وسيبقى كتاب الله هذا محفوظًا بحفظ الله؛ مصداقًا لقوله سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)} [الحجر : ٩].

وقد تبيّن لنا من خلال البحث أن العناية بالقرآن اتخذت أشكالًا مختلفة؛ فتارةً تتوجّه إلى لفظه وأسلوبه، وأخرى إلى كتابته ورسمه، وثالثة إلى إعجازه وتفسيره.

ويمكننا أن نقول: إن كتاب الله تعالى -الذي حظي من عناية العلماء بالجهد الموفور، لشرحه وتفسيره، وبيان علومه، وهداياته- قد شمل عدة أنواع من المؤلفات، ككُتب التفسير، وكتب علوم القرآن، وكتب المناهج، وكتب الدخيل، فضلًا عن الموضوعات الخاصة في مؤلفاتها الموجزة في العقيدة، والأخلاق، والمعاملات... ونحو ذلك، ولقد رأينا علماءنا سلفًا، وخلفًا قد أَلَّفُوا الكُتُبَ، وتباروْا في هذا الميدان؛ حتى زخرت المكتبة الإسلامية، بثروةٍ لا نظيرَ لَهَا، وتراث عظيم، من المصنفات المتنوعة، والموسوعات القيمة.

وبعد كان هذا إيذانا بجملة من نتائج البحث، الذي وقفنا عنده، فتلك مباحث في علوم القرآن لا ننمي إليها السعة والشمول، ولا ندعي لها التفصيل والاستيعاب، إنما هي طائفة من المسائل المهمة التي نرجو ألا يجهلها أو يتجاهلها عربي ينطق بالضاد أو مسلم يهتف بهذا الدين الحنيف، وها نحن أولاء نتركها بين أيدي القراء سائلين الله أن يشوقهم بها إلى تلاوة كتابه، فتدبر أحكامه، فالعمل بتعاليمه، لعل التاريخ يعيد نفسه، ولعلنا نرجع بهذا الكتاب كما كنا خير أمة أخرجت للناس، و نسأل الله تعالى أن يتقبله منا بأحسن قبوله، وأن ينفع به الباحثين والدارسين، وأن يجعله ذخيرة لنا يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

المؤلف

د. عبدالله خضر حمد

انتهى المقدمة والتمهيد ، ويليه تفسير سورة «الفاتحة».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة «الفاتحة»

وهي السورة الأولى من حيث الترتيب في المصحف الشريف، التي جمع الله فيها كل مقاصد القرآن، وأجمل معانيه في تلك الآيات السبع المثاني، بالأسلوب المعجز؛ واللفظ الموجز، والقول السلس الذي لا يحتاج إلى كثير معاناة بحث، ولا يستدعي عميق فهم وعويص تفكير؛ فهي نموذج القرآن الذي يرسم أسسه وحقائقه في كل نفس، ويصور معانيه في كل قلب: العلماء والدهماء على اختلاف منازلهم، وتباين درجاتهم، إذا ما لفتوا أفهامهم بعض اللفت، ووجهوا قلوبهم نوع توجيه، آتتهم هذه الفاتحة المباركة ذلك النموذج القرآني، وتلك الصورة الحقة لمقاصد الكتاب الحكيم.

ولهذه السورة أسماءٌ متعددةٌ، نذكر منها:

أولا:- فاتحةُ الكتابِ[١]:

---

(١) لقد اشتملت السورة على كل معاني القرآن وهذا هو سر الفاتحة. فمعاني القرآن ثلاثة: (١- العقيدة: " الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم" ٢- العبادة: " إياك نعبد وإياك نستعين" ٣- مناهج الحياة: " اهدنا الصراط المستقيم، صراط اللذين أنعمت عليهم"، و كل ما بعد الفاتحة من قرآن يشرح هذه المحاور الثلاثة، و الفانحة تذكرنا بكل أساسيات الدين:

١- نعم الله: " الحمد لله رب العالمين" ٢- الإخلاص: " إياك نعبد وإياك نستعين"٣- الصحبة الصالحة" صراط اللذين أنعمت عليهم"٤- التحذير من صحبه السوء: " غير المغضوب عليهم" ٥- أسماء الله الحسنى: " الرحمن

ورد في "الصَّحيحين" عن عُبادة بنِ الصَّامِت أنَّ النبيَّ ﷺ قال: " لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ "(١)، وإنَّما سُمِّيت "فاتحة الكتاب" لافتتاح سُور القرآن بها كتابةً، وقراءةً في

الرحيم" ٦- أصل صلة الله بك: " الرحمن الرحيم" ٧- الاستقامة: " اهدنا الصراط المستقيم" ٨- الآخرة: " الصراط" ٩- أهمية الدعاء.١٠-وحدة الأمة: " نعبد.....نستعين" فجاءت الصيغة هنا جماعة و ليست مفردا للتأكيد على وحدة الأمة.

و الفاتحة تعلمنا كيف نتعامل مع الله : فجاءت نصفها ثناء والنصف الآخر دعاء، فحتى لو قسمت حروفها لوجدت أن نصف الحروف ثناء والنصف الثاني دعاء. فعند دعائنا لله تعالى يجب أن نبدأه بالثناء على الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته ثم نتوجه بما نريد من الدعاء.

ومن جماليات الأسلوب القرآني:علاقة أول الفاتحة بنهاية المصحف، إذ ترى في سورة الفاتحة " الحمد الله رب العالمين" و في سورة الناس " قل أعوذ برب الناس" فقد بدأ المصحف برب العالمين و اختتم المصحف برب الناس .

(١) صحيح البخاري: (٧٥٦)، و صحيح مسلم: (٣٩٤). وقد احتج العلماء بهذا الحديث على أن الفاتحة ركن في الصلاة لابد منها في حق الإمام والمنفرد، وحاصل المسألة أن المنفرد والإمام يجب عليهما قراءة الفاتحة مطلقا في الصلاة السرية والجهرية ، أما المأموم فيجب عليه أن يقرأ حال الركعات السرية كالظهر والعصر والأخيرتين من العشاء وثالثة المغرب ، أما في الركعات التي يجهر فيها الإمام فلا يجب عليه القراءة ولا يجب عليه السكوت، ولكن المستحب المتأكد في حقه الإنصات والاستماع إلى قراءة الإمام ، فإن لم يسمع قراءة الإمام لبُعْد المكان أو لتَعَطُّل مُكَبِّر الصوت أو لصَمَمٍ فيجب عليه قراءة الفاتحة عملا بالأصل.

وتجدر الإشارة بأن قراءة الفاتحة خلف الإمام حال الجهر للعلماء فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: ليس للمأموم أن يقرأ في الصلاة الجهرية إذا كان يسمع الإمام لا بالفاتحة ولا بغيرها وهذا قول جمهور العلماء من السلف والخلف وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد وأحد قولي الشافعي، وممن قال بهذا القول من المعاصرين العلامة الألباني والشيخ أبو بكر الجزائري والشيخ سيد سابق والشيخ محمود المصري.

القول الثاني: يجب على المأموم أن يقرأ الفاتحة في الصلاة الجهرية كالسرية وهو المذهب عند الشافعية وقول البخاري وابن حزم من الظاهرية ،وقال بصحته القرطبي، وممن قال بهذا القول من المعاصرين : العلامة ابن باز وابن عثيمين ، والشيخ عبد الله بن قعود ،والشيخ عبد الله بن غديان والشيخ عبد الرزاق عفيفي و الشيخ محمد بن عبد المقصود.

القول الثالث: يستحب للمأموم قراءتها وهو قول جماعة من أهل العلم منهم الأوزاعي.

والذي يبدو لي أن أعدل الأقوال وأقربها للصواب هو القول الأول قول الجمهور وأن المأموم لا يقرأ في حال الجهر لا بالفاتحة ولا بغيرها إذا كان يسمع قراءة الإمام هذا ما يدل عليه عمل أكثر الصحابة رضي الله عنهم وتتفق عليه أكثر الأحاديث ولأن الله تعالى أمر بالإنصات لقراءة الإمام في الصلاة فقال تعالى:{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف:٢٠٤] ويؤيد دلالة الآية على وجوب الإنصات لقراءة الإمام ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فبين لنا سنتنا وعلمنا صلاتنا فقال: أقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم فإذا كبر فكبروا.. وذكر الحديث الطويل" وزاد بعض رواته: "وإذا قرأ فأنصتوا" وقد ذكرها في صحيحه. وقد رواها أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: "إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا" وقد سئل مسلم بن الحجاج عن حديث أبي هريرة هذا فقال: هو عندي صحيح. ومما يدل على منع المأموم من القراءة حال جهر الإمام ما رواه أصحاب السنن وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه "أن النبي ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: هل قرأ معي أحد منكم آنفاً؟ فقال رجل: نعم يارسول الله. فقال: إني أقول: مالي أنازع القرآن قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ من الصلوات بالقراءة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ"، وقد تكلم في هذا الحديث بعض أهل العلم من جهة ابن أكيمة الراوي عن أبي هريرة وليس ذلك بشيء فقد قال عنه يحيى بن سعيد عمرو بن أكيمة ثقة ووثقه غير واحد من أهل العلم. كما أنه طعن في الحديث من جهة أن قوله في الحديث: "فانتهى الناس... "مدرج من كلام الزهري كما قاله البخاري والذهلي وأبو داود وغيرهم والجواب عن هذا أن ذلك لا يسقط الاحتجاج بالحديث

سواء كان ذلك من قول أبي هريرة أو من قول الزهري، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٢٣ / ٢٧٤): "وهذا إذا كان من كلام الزهري فهو من أدل الدلائل على أن الصحابة لم يكونوا يقرؤون في الجهر مع النبي ﷺ فإن الزهري من أعلم أهل زمانه أو أعلم أهل زمانه بالسنة وقراءة الصحابة خلف النبي ﷺ إذا كانت مشروعة واجبة أو مستحبة تكون من الأحكام العامة التي يعرفها عامة الصحابة والتابعين لهم بإحسان فيكون الزهري من أعلم الناس بها فلو لم يبينها لاستدل بذلك على انتفائها فكيف إذا قطع الزهري بأن الصحابة لم يكونوا يقرؤون خلف النبي في الجهر" انتهى كلامه رحمه الله.

ومما يستأنس به في عدم وجوب القراءة على المأموم في الجهرية الحديث المشهور "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" وهذا الحديث أخرجه جمع من الأئمة بطرق متعددة مسنداً ومرسلاً عن جماعة من الصحابة أمثلها حديث جابر على ضعف فيه وكثرة كلام النقاد فيه ومع ذلك فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله في مجموع الفتاوى (٢٧١/١٨-٢٧٢): "وهذا الحديث روي مرسلاً ومسنداً لكن أكثر الأئمة الثقات رووه مرسلاً عن عبد الله بن شداد عن النبي ﷺ وأسنده بعضهم ورواه ابن ماجه سندا وهذا المرسل قد عضده ظاهر القرآن والسنة وقال به جماهير أهل العلم من الصحابة والتابعين ومثل هذا المرسل يحتج به باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم". وممن استوعب الكلام في الحديث وطرقه الدار قطني رحمه الله في علله ومما تقدم يتبين أن ما رواه البخاري ومسلم وغيرها من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" ليس على عمومه بل هو مخصوص بما تقدم من النصوص ومثله ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القران فهي خداج ثلاثاً غير تمام" فكل هذا وأمثاله محمول على غير المأموم جمعاً بين الأحاديث ومما يؤيد عدم العموم فيها ما حكاه الإمام أحمد رحمه الله من إجماع. قال رحمه الله: "ما سمعنا أحداً من أهل الإسلام يقول: إن الإمام إذا جهر بالقراءة لا تجزئ صلاة من خلفه إذا لم يقرأ".

أما حديث عبادة بن الصامت "أن النبي ﷺ صلى الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال: إني أراكم تقرؤون وراء إمامكم قلنا: يا رسول الله إي والله. قال: لا تفعلوا إلا بأم القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها" وقد أخرجه أحمد وأصحاب السنن إلا ابن ماجه وفيه محمد بن إسحاق وقال عنه أحمد: لم يرفعه إلا ابن إسحاق. وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٢٨٦): "هذا الحديث معلل عند أئمة الحديث بأمور كثيرة ضعفه أحمد وغيره من الأئمة". وقال بعد ذكر من صحّح الحديث وحسنه (٢٣/ ٣١٥): " ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ لم يكن يعلم هل يقرؤون وراءه بشيء أم لا؟ ومعلوم أنه لو كانت القراءة واجبة على المأموم لكان قد أمرهم بذلك وأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ولو بيّن ذلك لهم لفعله عامتهم ولم يكن يفعله الواحد أو الاثنان منهم. ولم يكن يحتاج إلى استفهامه فهذا دليل على أنه لم يوجب عليهم القراءة خلفه حال الجهر ثم إنه لما علم أنهم يقرؤون نهاهم عن القراءة بغير أم الكتاب وما ذكر من التباس القراءة عليه تكون بالقراءة معه حال الجهر سواء كان بالفاتحة أو غيرها فالعلة متناولة للأمرين فإن ما يوجب ثقل القراءة والتباسها على الإمام منهي عنه".

ولذلك فالذي يظهر لي أن المأموم لا يجوز له القراءة حال جهر الإمام بالقراءة لما تقدم من الأدلة ولما في حديث عبادة من معنى النهي لكن إن تمكن المأموم من القراءة في سكتات الإمام فهذا المطلوب وإلا فلا شيء عليه لتركه القراءة أخذ بما نهى عنه رسول الله ﷺ وقد قال النبي ﷺ: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم" وهذا الحديث أخرجه أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والله تعالى أعلم .

.(انظر في هذه المسألة: مجموع الفتاوى لابن تيمية مجلد ٢ ص ١٤١- ١٥٠ مسألة القراءة خلف الإمام دار الفكر ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، ومجموع فتاوى ورسائل العثيمين : ١٣/ ١٣١، انظر مبحث ألفاظ العموم ودلالة العام في علم أصول الفقه للشيخ عبد الوهاب خلاف ٢١٠- ٢١٢ دار الحديث ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م ، وفي الوجيز في أصول الفقه د.عبد الكريم زيدان ٣٠٥- ٣١٠ مؤسسة الرسالة الطبعة السابعة ١٤٢١هـ ٢٠٠٠ ،وفي علم أصول الفقه د. محمد الزحيلي ٢٥٦- ٢٦١ دارالقلم الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م وفي شرح الأصول من علم الأصول لابن عثيمين ١٩٠- ٢٠٥ المكتبة التوفيقية وفي مذكرة في أصول الفقه للشنقيطي ١٩٥ -١٩٨ مكتبة العلوم والحكم الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م).

الصلاة، وهذا ممَّا استدلَّ به من قال: إن ترتيب سُور القرآن منصوصٌ عليه كترتيب الآيات إجماعًا.

وفي سبب تسميتها بـ(فاتحة الكتاب) أقوال[١]:

أحدها: أنها سمّيت بذلك، لأنه يفتتح بها في المصاحف والتعليم والقراءة في الصلاة، وهي مفتتحة بالآية التي تفتتح بها الأمور تيمّنا وتبرّكا وهي التسمية.

قال الطبري:" ، فهي فَواتح لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة"[٢].

والثاني: أنها سمّيت بذلك، لأن الحمد فاتحة كل كتاب كما هي فاتحة القرآن.

والثالث:أنها سميت بذلك،لأنها أول سورة نزلت من السماء. قاله الحسين بن الفضل[٣].

وتجدر الإشارة بأن الأمة الإسلامية أجمعت على أن ترتيب الآيات في سورها على ما هو عليه المصحف اليوم توقيفي بأمر من النبي-ﷺ-، فقد كانت الآيات تنزل عليه، وجبريل يدله على مواضعها، ويبلغها رسول الله صحابته، ويأمر كتاب الوحي بنسخها في مواضعها، وكان جبريل يعارضه بالقرآن في رمضان كل عام مرة، حتى عارضه في السنة التي توفي فيها رسول الله مرتين مرتبا الآيات كما هي عليه الآن، وقد حفظه الصحابة بعده وأجمعوا على هذا الترتيب[٤].

ولقد نقل غير واحد من العلماء الإجماع في ذلك، فلقد جاء في البرهان للزركشي قوله: "فأما الآيات في كل سورة، ووضع البسملة في أوائلها، فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها"[٥]، وممن نقل الإجماع أيضا حول هذه المسألة أبو جعفر ابن الزبير الغرناطي، حيث قال: "ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ، وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين"[٦].

فالإجماع والنصوص المترادفة كلها على أن ترتيب الآيات توقيفي، لا شبهة في ذلك، قال مكي[٧] وغيره: ترتيب الآيات في السور بأمر النبي-ﷺ-، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة

وينبغي أن يتنبه أن هذه المسألة هي من مسائل الاجتهاد ، فمن كان عنده القدرة على النظر في الأدلة والترجيح بينها : فإنه يعمل بما ترجح لديه ، ومن لم يكن عنده القدرة على ذلك فإنه يقلد عالما يثق في دينه وعلمه ، ولا يجوز أن تُتخذ هذه المسألة الاجتهادية مثارا للطعن في العلماء ، أو الجدال المؤدي إلى التعصب والتفرق واختلاف القلوب. والله تعالى أعلم.

(١) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي/ دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م:١٢٦/١، وتفسير الطبري: ١٠٧/١.

(٢) تفسير الطبري: ١٠٧/١.

(٣) انظر: تفسير الثعلبي:١٢٦/١.

(٤)الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره، محمد أحمد القاسمي، ط١، ١٩٧٩م، مصر، ص: ٢٤٤.

(٥)البرهان في علوم القرآن ، الزركشي، دار النشر بيروت، (د،ط)، ج١، ص: ٢٥٦.

(٦)البرهان في ترتيب سور القرآن، ابن الزبير الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، سنة: (١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص: ١٨٢.

(٧)هو مكي بن أبي طالب حمش بن محمد بن مختار، أبو سمر القيسي، كان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، حسن الفهم، كثير التأليف في علوم القرآن، محسنا لذلك، توفي سنة: ٤٧٣هـ، أنظر ابن بشكوال، الصلة: ق٢، ص: ٦٣١.

تركت بدون بسملة، وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: "ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان الرسول بأمر من جبريل-عليه السلام- يقول ضعوا آية كذا في موضع كذا"[1].

ويقول السيوطي: "والذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه، ولم ينسخه، ولا رفع تلاوته بعد نزوله، هو الذي بين الدفتين، الذي حواه مصحف عثمان، وأنه لم ينقص منه شيئا، ولا زيد فيه، وأن ترتيبه، ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى، ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدم من ذلك مؤخر ولم يؤخر مقدم، وأن الأمة ضبطت على النبي rترتيب آي كل سورة وموضعها وعرفت موقعها، كما ضبطت عنه نفس القراءات، وذات التلاوة، وأنه يمكن أن يكون الرسول-ﷺ- قد رتب سوره، وأن يكون قد وكل ذلك إلى الأمة بعده، ولم يتول ذلك بنفسه"[2].

كما أن ترتيب السور في القرآن فيه خلاف بين أهل العلم على خلاف ترتيب الآيات، فيقول: "...وإنما اختلف في ترتيب السور على ما هي عليه، وكما ثبت في مصحف عثمان بن عفان الذي بعث بنسخه[3] إلى الآفاق، وأطبقت الصحابة على موافقة عثمان في ترتيب سوره وعمله فيه"[4]، ثم قال: "فكيفما دار الأمر فمنه ﷺ عُرفَ ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر"[5]، وإنما الخلاف وقع في فعلهم في ترتيب السور هل كان بتوقيف قولي، أو بمجرد استناد فعلي حيث بقي لهم فيه مجال نظر؟ وحتى لو كان هذا الأمر اجتهادا من الصحابة، فإن الأمر مسلم فيه أيضا، لأنه لا يوجد من هو أفصح، وأعلم بكتاب الله، وبآياته، وسوره، ونزوله من الصحابة رضي الله عنهم، كما أنهم أعملوا في ذلك اجتهادهم الأقصى، وهم الأعلياء بعلمه، والمسلم لهم في وعيه، وفهمه، وهم العارفون بأسباب النزول، ومواقع الكلمات، وإنما ألفوه على ما كانوا يسمعون منه، وهو رسول الله-ﷺ-، وقد كان نظرهم هذا في ما استقر عليه النبي-صلى الله عليه وسلم- من كان فعله الأكثر، والسند في ذلك بان الترتيب في السور قد روعي فيه التناسب، وإن كان لم يُراعى فيه أسباب النزول، وزمانه ومكانه، بأدلة، وأحاديث رويت منها في صحيح مسلم[6]، وما روى في مصنف ابن أبي شيبة[1]، وما نُقل عن الخطابي[2] والقاضي ابن

---

(١)الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد أحمد زمولي، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤م، بيروت، ص: ١٦٣.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ١٦٣

(٣)والراجح أنها أربع نسخ، وقال أبو عمر الداني في: "المقنع في رسم القرآن، ص: ١٠: «قيل أربع وقيل خمس، والأول أصح، وعليه الأمة».أنظر: السيوطي الإتقان، ص: ١٥٩، و-الزركشي: البرهان، ج١، ص: ٢٤٠ .والداني هو: الحافظ الإمام شيخ الإسلام، أبو عمر عثمان بن سعيد الأموي، مولاهم القرطبي المقرئ، صاحب التصانيف، عُرف بالداني لمسكنه بدانية، قال: «ولدت سنة: ٣٧١هـ، وبدأت طلب العلم سنة: ٣٨٦هـ، ورحلت إلى المشرق سنة: ٣٩٧هـ، وسكنت القيروان أربعة أشهر، ودخلت مصر في شوال فمكثت بها سنة، ثم حججت، ورجعت إلى الأندلس في ذي القعدة سنة: ٣٩٩هـ»، قرأ على عبد العزيز بن جعفر الفارسي، وابن غلبون، وسمع من أبي مسلم، والبزار، وابن النحاس، كان أحد الأئمة في القرآءات، ورواية الحديث والتفسير، كان مالكي المذهب، له ١٢٠مصنف، كانت وفاته بدانية في النصف من شوال، سنة٤٤٤هـ. مقدمة كتاب التيسير.

(٤)البرهان في ترتيب سور القرآن، ابن الزبير الغرناطي: ١٨٢.

(٥) المصدر نفسه: ١٨٣.

(٦) إشارة إلى حديث حذيفة في صلاة القيام: عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قال:(صَلَّيْتُ مع النبي ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فقلت يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ ثُمَّ مَضَى فقلت يُصَلِّي بها في رَكْعَةٍ فَمَضَى فقلت يَرْكَعُ بها ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ

العربي[٣]، والتأمل بالعقل في ذلك التناسب الموجود بين عدة سور كالأنفال، وبراءة، والتناسب الموجود بين الطلاق، والتحريم، والضحى، والشرح...مما لا يتوقف في وضوحه من له أدنى نظر، كما نقل عن أبي محمد بن عطية[٤] قوله بتفصيل في المسألة، وساق له ابن الزبير في كتابه البرهان بعض ما يؤيد هذا الرأي، منه قول رسول الله-ﷺ-: "إقرأوا الزهروان البقرة، وآل عمران"[٥]، وحديث يؤتى بالقرآن يوم القيامة تقدمه سورة البقرة[٦]، وحديث: صلى رسول الله-

---

فَقَرَأَهَا ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا إذا مَرَّ بِآيَةٍ فيها تَسْبِيحٌ سَبَّحَ وإذا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ وإذا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يقول سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا من قِيَامِهِ ثُمَّ قال سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ ثُمَّ قام طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ثُمَّ سَجَدَ فقال سُبْحَانَ رَبِّيَ الأعلى فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا من قِيَامِهِ ...)رواه مسلم(٧٧٢).

(١) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أَنّ النبيَّ ﷺ : "كَانَ يَقْرَأُ فِى صَلاَةِ الْجُمُعَةِ سُورَةَ الْجُمُعَةِ وَالْمُنَافِقِينَ" (أخرجه مسلم: ٨٩٧).

وقد روى محمد بن أحمد بن حبان البستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط ٢، ٥ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤ هـ)، ح ١٨٤١، كتاب الصلاة باب صفة الصلاة، ذكر ما يستحب أن يقرأ به من السور ليلة الجمعة في صلاة المغرب والعشاء، ١٤٩، من حديث جابر بن سمرة قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة بقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، ويقرأ في العشاء الآخرة ليلة الجمعة ، الجمعة، والمنافقين). والحديث ضعفه الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة ، ح ٥٥٩ ، والأرنؤوط في تعليقه على ابن حبان.

(٢)هو الإمام أحمد بن إبراهيم ابن الخطاب السبتي، أبو سليمان الفقيه، المحدث اللغوي، وله عدة مصنفات، من آثاره: "معالم السنن"، و"إصلاح غلط المحدثين"، و"غريب الحديث" وله شرح على البخاري، توفي سنة: ٣٨٨هـ. أنظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٣، ص: ١٠١٨، حيث نُقل عنه قوله: «أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن وضعوا سورة القدر عقب العلق، واستدلوا بذلك على أن المراد بها الكتابة في قوله:{إنا أنزلناه في ليلة القدر} القدر آية١، إشارة إلى قوله: إقرأ".

(٣)ابن العربي هو محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي الإشبيلي، المالكي، ولد بالأندلس، ورحل إلى المشرق، وعاد إلى وطنه سنة٤٩١هـ، وتولى القضاء، وذكر ابن بشكوال في الصلة أن له مصنفات عديدة منها: "عارضة الأحوذي" و"أحكام القرآن" و" العواصم، وشرح موطأ مالك، و"قانون التأويل"، توفي سنة: ٥٤٣هـ بفاس، ونُقل عنه قوله: «..وهذا بديع جدا، قلت ومن ظن ممن اعتمد القول بأن ترتيب السور إجتهاد من الصحابة، أنهم لم يراعوا في ذلك التناسب، والإشتباه، فقد سقطت مخاطبته، وإلا فما المراعى في ترتيب النزول؟ وهو غير واضح في ذلك بالقطع، بل هذا معلوم في ترتيب آي القرآن الواقع ترتيبه بأمره عليه الصلاة والسلام، وتوقيفه بغير خلاف...».(أنظر ابن الزبير، البرهان، ص: ١٨٤.و تاريخ قضاة الأندلس، ص: ١٠٥. ونفح الطيب، ج٢، ص: ١٩٩. و الأعلام، ج٦، ص: ٢٣٠).

(٤)هو عبد الحق بن غالب ابن عبد الرحمن ابن عطية الأندلسي المحاربي الغرناطي، كان فقيها نبيها مفسرا أديبا شاعرا ذكره صاحب الصلة، وقال: كان مولده سنة: ٤٨١هـ، وتوفي في ٢٥ رمضان، سنة٥٤١هـ، بمدينة يورقة، من أشهر مصنفاته: "المحرر الوجيز" أنظر: تاريخ قضاة الأندلس، ص: ١٠٩. و- الأعلام، ج٣، ص: ٢٨٢.

(٥)رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، وقصرها، باب: فضل قرآءة القرآن، وسورة البقرة، برقم: (٨٠٤) من حديث معاوية بن سلام عن أخيه زيد، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب: فضائل القرآن، أخبار في فضل سورة البقرة، برقم: (٢٠٧١)، ورواه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة البهلي، برقم: (٢١٧١٠/ ٢١٦٤٢/٢١٦٥٣)، و- في شعب الإيمان فصل في إدمان تلاوة القرآن برقم: (١٩٨٠).

(٦) رواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين باب فضل قرآءة القرآن الكريم، برقم: (٨٠٥)، ورواه أحمد في المسند من حديث النواس بن سمعان، برقم: (١٧١٨٥)، ورواه في الشعب، الكتاب : التاسع عشر ، باب: تعظيم القرآن برقم: (٢٣٧٣).

ﷺ- بالسبع الطوال في ركعة[١]، وحديث كان يجمع المفصل في ركعة[٢]، وحديث رواه البخاري من طريق عائشة: "أن النبي كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة قرأ المعوذتين.."[٣] ، وكأنه يؤيد الرأي القائل بأن ترتيب السور، إن لم يكن رسول الله-ﷺ-، قد أمر به بلسان المقال، فإنه قد أشار إليه بلسان الحال، وهو ما كان عليه أكثر عمله، وأن العبرة بما ورد على الأكثر والإجمال، لا على القلة والتفصيل، وقليل بقي فيه الخلاف.

ثانيا:- أم الكتاب:

جاء في "المسند" و"سنن ابن ماجه" عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: "مَنْ صَلَّى صلاةً لم يَقْرَأ فيها بأمِّ الكتابِ فهي خِدَاجٌ"[٤].

وفي "سنن أبي داود" من حديث أبي هريرة: "{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسَّبعُ المثاني"[٥].

وفي هذا الغسم خلاف، جوّزه الجمهور[٦]، وقد سمَّاها ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: أمَّ الكتاب.

وكرهه أنس والحسن، وابن سيرين[٧]، قل الحسن:"أمُّ الكتاب الحلال والحرام"[٨].

قال القرطبي:"يشيرُ إلى قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران:٧]، وربما وجه بأنَّ أمَّ الكتاب هو اللوحُ المحفوظ، كما في قوله تعالى: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد:٣٩]، وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزخرف:٤]"[٩].

وقال أنس وابن سيرين: "أم الكتاب: اسم اللوح المحفوظ. قال الله تعالى: {وإنه في أم الكتاب} [الزخرف: ٤]"[١٠].

وهذا لا يدلُّ على مَنْعِ تسمية الفاتحة بذلك. والله أعلم.

وقد اختلف في معنى تسميتها بأمِّ الكتاب، على ثلاثة أقوال[١١]:

أحدهما: أنها سميت بذلك، لأنَّها تتقدم على بقيَّة سُورِ الكتاب في الخطِّ، فهي تؤمُّ السور بتقدمها عليها، فالكتاب كله راجع إلى معانيها، فهي كالأصل له، كما سُمِّيت مكَّة أمّ القرى، لأن البلدان دُحِيت من تحتها.

---

(١)المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، تحقيق: عامر العمري الأعظمي، الدار السلفية بندي بازار بومباي، الهند، في كتاب: الصلوات في الرجل يقرن السورة في الركعة:٣٦٧/١.

(٢)المصدر نفسه: ٣٦٨/١.

(٣) أخرجه البخاري، ج٩، ص: ٦٢، وأبو داود في سننه برقم: (٥٠٥٦)، والترمذي في الجامع ج٤، ص: ٢٣١، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم: (٧٨٨)، وابن ماجة برقم: (٣٨٧٥)، وأخرجه الإمام أحمد ج٦، ص: ١١٦-١٥٤، وابن حبان برقم: (٥٥٤٣-٥٥٤٤).

(٤) المسند: (١٤٣/٦)، و سنن ابن ماجه: (٨٤٠).

(٥) سنن أبي داود: (١٤٥٢).

(٦) انظر: تفسير القرطبي: ١١١/١.

(٧) انظر: النكت والعيون: ٤٦/١، وتفسير القرطبي: ١١١/١.

(٨) انظر: النكت والعيون: ٤٦/١، وتفسير القرطبي: ١١١/١.

(٩)تفسير القرطبي: ١١١/١.

(١٠)تفسير القرطبي: ١١١/١.

(١١) انظر: النكت والعيون: ٤٥/١-٤٦، وتفسير الطبري:١٠٧/١.

والقرآن سمّيت بذلك لأنها أوّل القرآن والكتب المنزلة، فجميع ما أودعها من العلوم مجموع في هذه السورة فهي أصل لها كالأم للطفل.
والثاني: أنها سمّيت بذلك، لأنها أفضل سور القرآن كما أن مكة سميت أم القرى لأنها أشرف البلدان.
والثالث: أنها سمّيت بذلك، لأنها مجمع العلوم والخيرات، كما أن الدماغ يسمى أمّ الرأس لأنها مجمع الحواس والمنافع.
يقول أبو بكر البريدي: "الأم في كلام العرب: الراية ينصبها العسكر، قال قيس بن الخطيم:
نصبنا أمّنا حتى ابذعرّوا وصاروا بعد إلفتهم شلالا
فسمّيت أم القرآن لأن مفزع أهل الإيمان إليها كمفزع العسكر إلى الراية.
ومنه قول ذي الرمة[١]:
وَأَسَمْرَ ، قَوَّامٍ إذَا نَام صُحْبَتِي ، خَفِيفِ الثِّيابِ لا تُوارِي لَهُ أَزْرَا
عَلَى رَأْسِه أَمٌّ لنا نَقْتَدِي بِهَا ، جِماعُ أمورٍ لا نُعاصِي لَهَا أمْرَا
إذَا نزلتْ قِيلَ : انزلُوا ، وإذا غدَتْ غَدَتْ ذَاتَ بِرْزِيقٍ نَنَال بِهَا فَخْرَا
يعني بقوله : على رأسه أمٌّ لنا ، أي على رأس الرمح رايةٌ يجتمعون لها في النزول والرحيل وعند لقاء العدوّ[٢].
والعرب تسمي الأرض: أمّا، لأنّ معاد الخلق إليها في حياتهم وبعد مماتهم، قال أمية بن أبي الصلت[٣]:
والأرض نوّخها الإله طروقة للماء حتّى كلّ زند مسفد
والأرض معقلنا وكانت أمّنا فيها مقابرنا وفيها نولد
وأنشد أحمد بن عبيدة[٤]:
نأوي إلى أمّ لنا تعتصب كما ولها أنف عزيز وذنب
وحاجب ما إن نواريها الغصب من السحاب ترتدي وتنتقب
يعني: نصبه كما وصف لها. وسميت الفاتحة أمّا لهذه المعاني.
وقال الحسين بن الفضل: "سميت بذلك لأنها إمام لجميع القرآن تقرأ في كل صلاة و تقدم على كل سورة، كما أن أمّ القرى إمام لأهل الإسلام، وقال ابن كيسان: سميت بذلك لأنها تامة في الفضل"[٥].
وقيل: أصالتها من حيث أنَّها محكمةٌ لم يتطرَّق إليها نسخٌ، من قوله تعالى: {مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آل عمران:٧][٦].

---

(١)ديوانه : ١٨٣.
(٢)انظر: تفسير الطبري:١/١٠٧-١٠٨.
(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٥٦، والأول في اللسان والتاج (سفد) ، والثاني في المخصص ١٣/١٨٠، وبلا نسبة في المذكر والمؤنث للأنباري ١٨٧، في ديوانه: (نوّخها: أبركها. والطروقة: أنثى الفحل، شبه الماء والأرض بالأنثى والفحل) والبيت الثاني ذكره القرطبي في تفسيره، انظر: تفسير القرطبي: ١/ ١١٢.
(٤)لسان العرب: ١٥/ ١٦٨
(٥) تفسير الثعلبي:١/١٢٧.
(٦) انظر: تفسير الفاتحة، الحافظ أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي: ١٦.

ثالثا:- أمُّ القرآن:

واختلف فيه أيضا، فجوزه الجمهور ومنهم الحسن الذي كره تسميتها بأمِّ الكتاب، وكرهه أنس وابن سيرين، والأحاديث الثابتة ترد هذين القولين(١).

وقد ورد تسميتُها بذلك في أحاديث كثيرة:

منها حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: "كلُّ صلاةٍ لا يُقرأ فيها بأمِّ القرآن فهي خِدَاجٌ" خرَّجه مُسْلِمٌ(٢).

وخرَّج من حديث عُبادة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: "لا صلاة لمن لم يقرأ بأمِّ القرآن"(٣).

الرابع:- السبع المثاني:

وقد فسَّرها النبيُّ ﷺ بالفاتحة كما سيأتي ذكره، وذكر وكيع في "كتابه" عن سفيان عن عمرو بن ميمون عن أبي مسعود الأنصاريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: "{وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ}[الحجر:٨٧] قال: فاتحة الكتاب".

وممن قال (الفاتحة هي السبع المثاني): ابنُ عبَّاسٍ وابنُ عمر والحسن ومجاهدٌ وعكرمةُ وخلقٌ كثيرٌ.

واختلف في سبب تسميتها بالمثاني على أقوال:

أحدها: إذ هي سبع آياتٍ اتِّفاقاً(٤)، وليس في القرآن ما هو كذلك سواها(٥)، إنْ غَيَّر بعضُهم عَدّ التَّسمية آية دون {صراط الذين أنعمتَ عليهم}، وبعضُهم عَكَس(٦)، وهذا القول هو المشهور(٧).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١١٢/١.

(٢) صحيح مسلم: (٣٩٥).

(٣) صحيح مسلم: (٣٩٤).

(٤) اتفق القراء والمفسرون بأنها سبع آيات، ولم يشذ عن ذلك إلا الحسن البصري فقال هي ثمان آيات، وإلا الحسين الجعفي فقال هي ست آيات، وقال البعض أنها تسع آيات، ويتعين حينئذ كون البسملة ليست من الفاتحة لتكون سبع آيات ومن عدّ البسملة أدمج الآيتين.(انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٣٥/١).

(٥) ليس في القرآن سورة هي سبع آيات سوى " الفاتحة "، و " أرأيت " ولا ثالث لهما. قال جعفر بن أحمد بن الحسين السرّاج البغدادي في أرجوزته التي نظم فيها النظائر:

فَسُوْرَةُ الحَمْدِ لَهَا نَظِيْرَهْ   أَرَأَيْتَ إِنْ أَنْتَ قَرَأْتَ السُّوْرَه

كلاهما إذا عددتَّ سبعُ.   وليس للحق اليقين دفعُ

(انظر: أرجوزة في نظائر القرآن العظيم ل٢٠ نسخة مكتبة بلدية الإسكندرية، ومنها نسخة مصورة بمعهد البحوث العلمية برقم ١١٤٣) وهو جعفر بن أحمد بن الحسين أبو محمد السراج البغدادي القارئ، كان عالما بالقراءات والنحو واللغة، كثير التصنيف، توفي سنة خمسمائة. سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٨٨ وبغية الوعاة ١/ ٤٨٥.

(٦)انظر في: البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو الداني ١٣٩.

(٧)وأما تأويل اسمها أنها " السَّبْعُ " ، فإنها سبعُ آيات ، لا خلاف بين الجميع من القرَّاء والعلماء في ذلك ،وإنما اختلفوا في الآي التي صارت بها سبع آيات :

القول الأول : فقال معظم أهل الكوفة ومكة : صارت سبع آيات بـ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ورُوي ذلك عن جماعة من أصحاب رسول الله -ﷺ- والتابعين والشافعي يعد البسملة آية منها.

القول الثاني : قالوا هي سبع آيات ، وليس منهن (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ولكن السابعة (أنعمت عليهم)، وذلك قول معظم قَرَأةِ أهل المدينة والبصرة والشام ومُتْقنيهم ومنهم الإمام مالك.

قال الطيبي: وعدّ التسمية أولى؛ لأن (أنعمت عليهم) لا يناسب وزانه وزان فواصل السور، ولما روى البغوي(هو الحسن بن مسعود بن محمد محيي السنة أبو محمد البغوي الشافعي المفسر، كان سيدا إماما، عالما

وتجدر الإشارة بأن الإمام أبو عمر ابن عبد البر قد ألف رسالة في البسملة سماها "الإنصاف فيما بين علماء المسلمين في قراءة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ في فاتحة الكتاب من الاختلاف" سرد فيها مذاهب العلماء في البسملة، في قرآنيتها وعدم قرآنيتها، في الجهر بها والإسرار بها، وساق فيها ما استدل به كل على مذهبه، ولم يمل فيها إلى مذهب الشافعي كما قاله المؤلف، وسبقه إليه عبد الرحمن بن إسماعيل شهاب الدين أبو محمد المشهور بأبي شامة في كتاب البسملة، بل مال إلى مذهب إمامه مالك بن أنس، فإنه قال فيها[١]: أجمع علماء المسلمين على أنها سبع آيات، فدل هذا الحديث على أن أنعمت عليهم آية، وبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ليست آية من أول السورة، وهذا عد أهل المدينة والشام والبصرة، وأما أهل مكة وأهل الكوفة من العلماء والقراء فيعدون بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أول آية من أم القرآن، وليست أنعمت عليهم بآية عندهم، فهذا حديث قد رفع الإشكال في سقوط: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ورجاله ثقات: أبو حامد الغزالي[٢]، والفقيه سلطان بن إبراهيم المقدسي[٣]، وأبو الفتح سليم بن أيوب الرازي، وأبو المعالي مُجَلِّي صاحب[٤] " الذخائر "، والحافظ أبو شامة[٥].

وعليه قراء مكة: كابن كثير[٦]والكوفة: كعاصم[١] حمزة[٢] والكسائي[٣]. وممن خالفهم من قراء المدينة: كنافع[٤]، والبصرة: كأبي عمرو[٥]،والشام كابن عامر[٦].

علامة، زاهدا قانعا بالسير، توفي سنة ست عشرة وخمسمائة. سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٩ وطبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٧٥.) في " شرح السنة " عن ابن عباس أنه قال: " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الآية السابعة "(رواه الشافعي في المسند ٧٩ ومن طريقه البغوي في شرح السنة ٣/ ٥٠ من طريق عبد المجيد، والطبري في تفسير الطبري ١٤/ ٥٥ من طريق يحيى الأموي، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥٧ من طريق حفص بن غياث، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٤ من طريق حجاج بن محمد الأعور، وحفص بن غياث، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٠٠ من طريق أبي عاصم كلهم (عبد المجيد، ويحيى وحفص، وحجاج، وأبو عاصم) عن ابن جريح عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وصحح السيوطي سنده في الإتقان ١/ ٢٤٦ وفي التصحيح نظر، فإن في سنده عبد العزيز بن جريج، قال الحافظ بن حجر عنه: لين، التقريب ٦١١).

(١) في صفحة: ١٩٢.

(٢)سرد العلامة محمد بن محمد الحسيني الزبيدي في مقدمة شرح إحياء علوم الدين "إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين" مؤلفات الغزالي، ثم ألف عبد الرحمن بدوي كتابا حافلا في مؤلفات الغزالي، ولم يرد في واحد من الكتابين كتاب مفرد للغزالي في البسملة، بيد أن الغزالي تعرض لمسألة البسملة في كتابه "المستصفى" ٢/ ١٣ - ٢٣ وذكر أنه أورد أدلة كون البسملة من القرآن في كتاب حقيقة القولين، فلعله التصنيف الذي عناه السيوطي.

(٣)هو سلطان بن إبراهيم بن المسلم أبو الفتح المقدسي، كان من أفقه الفقهاء بمصر، تفقه عليه صاحب الذخائر، توفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٩٤ وحسن الخاضرة في أخبار مصر والقاهرة ١/ ٤٠٥.

(٤)هو مُجَلِّي بن جميع بضم الجيم بن نجا أبو المعالي المخزومي، صاحب الذخائر وغيره من المصنفات، له إثبات الجهر بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، توفي سنة خمسين وخمسمائة. سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٢٥ وطبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٢٧٧.

(٥)هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم شهاب الدين أبو شامة الدمشقي، كان أحد الأئمة، برع في فنون العلم، توفي سنة خمس وستين وستمائة. طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ١٦٥ وبغية الوعاة ٢/ ٧٧.

(٦)هو عبد الله بن كثير بن عمرو أبو معبد الكناني المكي المقرئ، انتهت إليه الإمامة بمكة في تجويد الأداء، توفي سنة اثنتين وعشرين ومائة. معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ١/ ١٩٧ وغاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٤٤٣.

أما سبب الإختلاف في البسملة فمرده" أنه قد وقع الإجماع على استحباب ذكر الله تعالى عند ابتداء كل أمر له بال حين الشروع فيه، وقد ورد فيه خبر عن النبي صلى الله عليه وسلّم.
وقد كانت العرب في الجاهلية تفعل ذلك فيقولون: باسمك اللهم، ويدلّ عليه ما في قصة هدنة الحديبية(٧)، ثم إنه شرع للنبي صلى الله عليه وسلّم في ذلك لفظ البسملة. وذكر الله تعالى في كتابه حكاية عن كتاب سليمان عليه السلام أنها كانت في أوله. ثم أثبتها الصحابة في المصحف خطًّا في أوّل كل سورة سوى براءة، فاختلف العلماء هل كان ذلك لأنها أنزلت حيث كتبت، أو فعل ذلك للتبرك كما في غيره، ولم يكتف بها في أول الفاتحة، بل أعطيت كل سورة حكم الاستقلال إرشادا لمن أراد افتتاح أيّ سورة منها إلى البسملة في أولها، ولما فقد هذا المعنى حين التلاوة بوصل السورة اختلف القراء فيه: فمنهم من اتبع المصحف فبسمل مستمرا على ذلك، إذ القراءة في اتباع الرسم شأن يُخَالَفُ لأجله قياس اللغة، على ما قد عرف في علم القراءة، فما الظن بهذا؟ وقد كان تقرر عندهم أن المصحف لم تكتبه الصحابة إلاّ ليرجع إليه فيما كانوا اختلفوا فيه، ومنهم من فهم المعنى فلم يبسمل إلاّ في أوّل سورة يبتدئ بها(٨)،وقد صحّ أن النبي صلى الله عليه وسلّم لما أنزلت الكوثر وتلاها على الناس بسمل في أوّلها(٩)،وكذا لما قرأ سورة حم السجدة على عتبة بن ربيعة(١٠)، ولما تلا سورة المجادلة على امرأة (١) أوس بن

---

(١)هو عاصم بن أبي النجود بهدلة أبو بكر الأسدي الكوفي المقرئ، واسم أبيه بهدلة على الصحيح، وقيل هي أمه، وليس ذا بشيء، انتهت إليه الإمامة في القراءة بالكوفة، توفي سنة سبع وعشرين ومائة. معرفة القراء الكبار ١/ ٢٠٤ وغاية النهاية ١/ ٣٤٦.

(٢)هو حمزة بن حبيب بن عمارة أبو عمارة القارئ، كان إماما حجة، قيما بحفظ كتاب الله، توفي سنة ست وخمسين ومائة. معرفة القراء ١/ ٢٥٠ وغاية النهاية ١/ ٢٦١.

(٣)هو علي بن حمزة بن عبد الله أبو الحسن الكسائي الكوفي المقرئ النحوي، انتهت إليه الإمامة في القراءة والعربية، توفي سنة تسع وثمانين ومائة. معرفة القراء ١/ ٢٦٩ وغاية النهاية ١/ ٥٣٥.

(٤)هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المقرئ المدني، قرأ على سبعين من التابعين، توفي سنة تسع وستين ومائة. معرفة القراء /٢٤١ وغاية النهاية ٢/ ٣٣٠.

(٥)هو زبان بن العلاء بن عمار أبو عمرو البصري المقرئ النحوي، شيخ القراء بالبصرة، توفي سنة أربع وخمسين ومائة. معرفة القراء ١/ ٢٢٣ وغاية النهاية ١/ ٢٨٨.

(٦)هو عبد الله بن عامر بن يزيد أبو عمران اليحصبي الدمشقي، إمام الشاميين في القراءة، توفي سنة ثماني عشرة ومائة. معرفة القراء ١/ ١٨٦ وغاية النهاية ١/ ٤٢٣.

(٧)بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وباء موحدة مكسورة وياء اختلفو فيها، فمنهم من شددها، ومنهم من خففها، قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله - ﷺ - تحتها، وبين الحديبية ومكة مرحلة، ويقال لها اليوم: الشميسي. معجم البلدان ٢/ ٢٢٩ وصحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار ٢/ ١٣٩ وانظر هدنة الحديبية في صحيح البخاري ٤/ ١٥٢٤ وصحيح مسلم ٣/ ١٤١٠.

(٨)قال أبو شامة في إبراز المعاني من حرز الأماني ١/ ٢٢٧ في شرح بيت:
وبسمل بين السورتين بسنة رجال نموها درية وتحملا
لمبسملون من القراء هم الذين رمز لهم في هذا البيت من قوله: بسنة، رجال، نموها، درية [وهم قالون والكسائي، وعاصم، وابن كثير] وعلم من ذلك أن الباقين لا يبسملون، لأن هذا من قبيل الإثبات والحذف.

(٩)رواه مسلم ١/ ٣٠٠ ح ٥٤ وأبو داود ١/ ٥٠٧ ح ٧٨٠ والنسائي ٢/ ١٣٤ ح٩٠٤ من حديث أنس.

(١٠)رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/ ٢٩٥ وعنه عبد بن حميد في مسنده (المنتخب ٣/ ٦٢) وأبو يعلى في مسنده ٣٤٩/٣ من طريق علي بن مسهر، عن الأجلح، عن الذيال بن حرملة، عن جابر بن عبد الله قال. فذكره. ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة ١/ ٢٩٩ من طريق منجاب بن الحارث، عن علي بن مسهر، ورواه البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٢٠٢ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٤٢ من طريق يحيى بن معين، عن محمد بن فضيل،

الصامت [٢]، ولما قرأ سورة الروم على المشركين[٣]، ولإيلاف قريش -أخرج البيهقي حديثهما في " الخلافيات "[٤] - ولما قرأ سورة الحجر أخرجه ابن أبي هاشم[١] بسنده[٢].

عن الأجلح، ورواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥٣ من طريق جعفر بن العون، عن الأجلح. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/ ١٧ فيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات. وقال الحافظ ابن حجر: صدوق شيعي. التقريب ١٢٠ قلت: الحديث حسن إذن.

(١)هي: خولة بنت ثعلبة، ويقال: خويلة، وخولة أكثر، وقيل: خولة بنت حكيم، وقيل: خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقيل: جميلة، وقيل: بل هي خولة بنت دليج، ولا يثبت شيء من ذلك، والله أعلم، والذي قدمنا أثبت وأصح إن شاء الله. الاستيعاب ٤/ ١٨٣٠ والإصابة ٧/ ٦١٨.

(٢)هو أوس بن الصامت بن قيس الأنصاري، أخو عبادة بن الصامت، شهد بدرا وأحدا وسائر المشاهد مع رسول الله - ﷺ -، وهو الذي ظاهر من امرأته فوطئها قبل أن يكفر، مات في أيام عثمان، وله خمس وثمانون سنة. الاستيعاب ١/ ١١٨ والإصابة ١/ ١٥٦. وقصة ظهاره من امرأته رواها أحمد ٤٥/ ٣٠٠ وأبو داود ٣/ ٨٣ ح ٢٢٠٩ وابن حبان (الإحسان ١٠/ ١٠٧) والطبري في تفسير الطبري ٢٨/ ٥ من طريق يوسف بن عبد الله بن سلام، عن خولة. وليس فيها البسملة، ورواها ابن أبي حاتم -وفيها البسملة- في تفسير القرآن العظيم (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/ ٣٨) والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٣٨٥ عن داود بن أبي هند، عن أبي العالية مرسلاً. وزاد السيوطي في الدر المنثور ٧/ ٧٧ نسبته إلى عبد بن حميد -ولم أرها في المسند المنتخب- وابن مردويه.

(٣)رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد ١/ ٤٠٤ ومن طريقه البيهقي في الخلافيات ل٤٤ وأبو القاسم الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة ١/ ٢٩١ من طريق محمد بن يحيى، عن سريج بن النعمان، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة بن الزبير، عن نيار بن مكرم مرفوعاً. وفيه البسملة.

ورواه البخاري في كتاب التاريخ الكبير ٨/ ١٣٩ من طريق إسماعيل بن أبي أويس، وأبو الحسن بن قانع في معجم الصحابة ٣/ ١٧٢ والطحاوي في شرح مشكل الآثار ٧/ ٤٤٢ من طريق محمد بن سليمان لوين، والطبراني في المعجم الأوسط ٧/ ٢٠٠ من طريق ابن جريج، وعبد الله بن أحمد في كتاب السنة ١/ ١٤٣ ومن طريقه البيهقي في كتاب الأسماء والصفات ١/ ٥٨٥ وفي الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ١٠/ ١٠٨ من طريق أبي معمر الهذلي، عن سريج بن النعمان، وأبو نعيم في معرفة الصحابة ٥/ ٢٧٠٤ من طريق محمد بن العباس المؤدب، عن سريج بن النعمان كلهم عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه به، وليس في هذه الطرق البسملة، وهي المحفوظة.

(٤)رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٦ وعنه البيهقي في الخلافيات ل٤٤ من طريق يعقوب بن محمد الزهري والبسملة في روايته والبخاري في التاريخ الكبير ١/ ٣٢١ والطبراني في المعجم الكبير ٢٤/ ٤٠٩ وابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال ١/ ٢٦٠ من طريق أبي مصعب الزهري، كلاهما (يعقوب بن محمد، وأبو مصعب الزهري) عن إبراهيم بن محمد، عن عثمان بن عبد الله بن أبي عتيق، عن سعيد بن عمرو بن جعدة، عن أبيه، عن جدته أم هانئ قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الذهبي: يعقوب ضعيف، وإبراهيم صاحب مناكير، هذا أنكرها. تلخيص المستدرك.

وخالفه سليمان بن بلال فروى البخاري في التاريخ الكبير من طريق سليمان بن بلال، عن عثمان بن عبد الله بن أبي عتيق، عن ابن جعدة المخزومي، عن ابن شهاب عن النبي - ﷺ - نحوه. قال أبو عبد الله: هذا بإرساله أشبه. قال الحافظ العراقي في محجة القرب إلى محبة العرب ٢٣٣: هذا حديث حسن، ورجاله كلهم ثقات معروفون إلا عمرو بن جعدة بن هبيرة فلم أجد فيه تعديلاً ولا جرحاً، وهو ابن ابن أخت علي بن أبي طالب، وهو أخو يحيى بن جعدة بن هبيرة أحد الثقات.

وهنا وقفات:

الأولى: إن رواية البسملة في الحديث ضعيفة، تفرد بها يعقوب بن محمد الزهري، قال الحافظ ابن حجر عنه: صدوق كثير الوهم والرواية عن الضعفاء. التقريب ١٠٩٠.

الثاني: أن تلك الآيات تثنى في كل ركعة أي تضم إليها السورة في كل ركعة. اختاره ابن عاشور قائلا : "ووجه الوصف به أن تلك الآيات تثنى في كل ركعة كذا في الكشاف[٣] قيل وهو مأثور عن عمر بن الخطاب[٤]، وهو مستقيم لأن معناه أنها تضم إليها السورة في كل ركعة" [٥][٦].

الثانية: إن إبراهيم بن محمد اختلف فيه، فقال عنه ابن عدي في الكامل: مدني، روى عنه عمرو بن أبي سلمة وغيره مناكير، وقال أيضاً: وأحاديثه صالحة محتملة، ولعله أتي ممن قد روى عنه. وقال عنه الذهبي: ذو مناكير. الميزان ١/ ٥٦ وسبق قوله فيه في تلخيص المستدرك. ثم إنه خالف سليمان بن بلال الثقة، فروايته حينئذٍ منكرة، ورواية سليمان معروفة، ولهذا رجح البخاري رواية سليمان فقال: هذا بإرساله أشبه.

الثالثة: قول الحافظ العراقي: هذا حديث حسن ورجاله كلهم ثقات معروفون. فيه نظر يعرف مما سبق، لكن يشهد لمرسل ابن شهاب هذا حديث الزبير الذي رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٩/ ٧٦ من طريق عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن الزبير نحوه. قال الحافظ العراقي فيه: هذا حديث يصلح أن يخرج للاعتبار والاستشهاد، فإن عبد الله بن مصعب بن ثابت ذكره ابن حبان في الثقات، وضعفه ابن معين.

قلت: وخلاصة القول أن رواية البسملة في حديث أم هانئ ضعيفة، وباقي الحديث حسن لغيره.(نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: ٥٦/١).

(١)هو عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبي هاشم أبو طاهر البغدادي المقرئ، انتهى إليه الحذق بأداء القرآن، قرأ بالروايات على ابن مجاهد، له كتاب البيان، وكتاب الفصل بين أبي عمرو والكسائي، ورسالة في الجهر بالبسملة، توفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة. معرفة القراء الكبار ٢/ ٦٠٣ وغاية النهاية ١/ ٤٧٥ وإيضاح المكنون ٥/ ٥٦٢.

(٢)رواه الطبري في تفسير الطبري ١٤/ ٢ من طريق علي بن سعيد بن مسروق الكندي، وأبو بكر ابن أبي عاصم في السنة ١/ ٥٨٢ والطبراني في المعجم الكبير (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٢٥) والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٤٢ وعنه البيهقي في كتاب البعث والنشور القسم الثاني ١/ ٢٠٧ من طريق أبي الشعثاء علي بن الحسن كلاهما عن خالد بن نافع الأشعري، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى مرفوعاً، وليس فيه البسملة قال الحافظ ابن كثير: ورواه ابن أبي حاتم من حديث خالد بن نافع به، وزاد فيه: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّ الله الرحمن الرحيم.

قال الهيثمي: وفيه خالد بن نافع الأشعري، قال أبو داود: متروك. مجمع الزوائد ٧/ ١٣١. قال الذهبي: وهذا تجاوز في الحد، فإن الرجل قد حدث عنه أحمد بن حنبل، ومسدد، فلا يستحق الترك، ميزان الاعتدال ١/ ٦٤٤.

(٣) يقول الامام الزمخشري: " وسورة الحمد والمثاني لأنها تثنى في كل ركعة"(عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ)، : دار الكتاب العربي ـ بيروت، ١٤٠٧م:ص(١/١).

(٤) قال السيوطي في حاشيته على تفسير البيضاوي:" أخرجه ابن جرير في تفسيره بسند حسن عنه قال: " السبع المثاني فاتحة الكتاب تثنى في كل ركعة"، ولم أر هذا اللفظ في تفسير الطبري عن عمر، ولكن رأيت فيه: ما لهم رغبة عن فاتحة الكتاب، وما يبتغي بعد المثاني: ١٤/ ٥٤.(انظر: نواهد الأبكار وشوارد الأفكار = حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين،المملكة العربية السعودية (٣ رسائل دكتوراة)، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٥ م:ص٤٩/١.

(٥)تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد بن الطاهر ابن عاشو، دار التنوسية للنشر، التونس، ١٩٨٤:ص١٣٥/١.

(٦) وقيل أن في كلام صاحب (الكشّاف): "لأنّها تُثَنّى في كلِّ ركعة"، وهو بظاهره غير صحيح، ووجوه التَّكلُّف لتوجيهه مشهورة، أجودُها حمل الرَّكعة على الصّلاة تسمية لِلكلّ باسم الجزء، ولا يردُ عليه الوِتْر إذ ليست في مذهبه، ولا صلاة الجنازة، وإنْ جُعِلت صلاة حقيقة لعدم إطلاقه الرَّكعة عليها .

الثالث: وإمَّا لأنَّها تَثنَّى نزولها، فَمَرَّة بِمكَّة حين فُرِضَت الصَّلاة وأخرى بالمدينة حين حُوّلَت القِبلة[١]، قال ابن عاشور: " وَهَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ جِدًّا وَتَكَرُّرُ النُّزُولِ لَا يُعْتَبَرُ قَائِلُهُ، وَقَدِ اتُّفِقَ عَلَى أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ فَأَيُّ مَعْنًى لِإِعَادَةِ نُزُولِهَا بِالْمَدِينَةِ"[٢].
الرابع: وإمَّا لاشتمال كلٍّ مِن آياتها السَّبع على الثَّناء عليه جلَّ شأنُه؛ إمّا تصريحاً أو تلويحاً، وهو مبنيٌّ على ما هو الصَّحيح مِن عَدِّ التَّسمية آية منها، وعَدِّ {صراط الذين أنعمت عليهم} بعضاً من السَّابعة، وإلَّا فتَضمُّنها الثّناء غير ظاهر .
الخامس: وإمّا لتكرُّر ما تضمَّنته من المقاصد: فالثَّناء عليه سبحانه قد تَكَرَّر في جُملتَي البسملة والحمدِ لَه. وتخصيصُه عزَّ وعلا بالإقبال عليه وحده والإعراض عمَّا سواه قد تكرَّر في جملَتَي العبادة والإستعانة. وطلبُ الهداية إلى الصِّراط المُستقيم مُكرَّر بـ{صراط الذين أنعمت عليهم}، كما أنَّ سؤال البُعد عن الطَّريق غير القويم مُكرَّر بِذِكر {المغضوب عليهم ولا الضالين}[٣].

فهذه وجوه خمسة في تسميتها بالسَّبع المثاني.
والمثاني تحتمل واحدا من ستة معان:
أحدها: المثاني من الثناء، والثناء لا يكون إلا على الله.
والثاني: المثاني من الثنيّ والإنثناء، وهذه لا تكون إلا في أطراف الأشياء، وأيضا تعني المعاني الخفية أو المتخفية في الإنثناءات، أو المعاني الباطنة، أوالمعاني غير الظاهرة للعيان آنيا، أو هي تلك التي لم يأن آوان ظهورها بعد، والتي سوف تظهر تباعا في القادم من الأزمنة.
والثالث: المثاني من الإزدواجية، أي ثنائية التكوين.
والرابع: المثاني من التثنية، أي العد مثنى مثنى، أو إثنتين إثنتين.
والخامس: وهو امتداد أو هو تفصيل للمعنى الثاني (من الإنثناء)، وحيث تكون المثاني من ظهور معنى ثان لها، وهذا المعنى بدوره يظهر له معنى جديد وهكذا ، إلى سبعة أعماق، أو سبعة أبعاد، أو سبعة معاني وكلها صحيح، مما يشير إلى معني المتشابه من الآيات.
والسادس: وهو معنى لا يخص المثاني بذاتها، لكنه يخص العددية الدالة عليها (سبعة)، مما يعني أن مجرد ظهور خاصية معينة متميزة في آيات وسور كتاب الله، في سبعة أشكال أو سبعة تكرارات، أو سبعة سور، أو سبعة آيات، أو سبعة خصال، يصون لها إحتمال كونها من السبع المثاني.
وقيل "أنَّ المثاني تُطلَقُ باعتبار معنيين:
أحدهما: باعتبار ما ثُنِّي لفظُه وكرِّرَ.

(١)قال السيوطي في الإتقان: الأكثرون على أنها مكية ... واستدل لذلك بقوله تعالى "ولقد آتيناك سبعا من المثاني" وفسرها - ﷺ - بالفاتحة كما في الصحيح، وسورة الحجر مكية بالإتقان، وقد امتن على رسوله فيها بها، فتدل على تقدم نزول الفاتحة عليها، إذ يبعد أن يمتن عليه بما لم ينزل بعد.
وانظر في: صحيح البخاري ٤/ ١٥٢٥ ح٣٩١٩ وتفسير الطبري ٢٦/ ٦٩ والمحرر الوجيز ١٣/ ٤٢٧ وزاد المسير ٧/ ٤١٨ والتفسير الكبير ١/ ١٧٧ وتفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٢٥ والإتقان في علوم القرآن ١/ ٣٤.
(٢) تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد بن الطاهر ابن عاشو، دار التنوسية للنشر، التونس، ١٩٨٤:ص١٣٥/١.
(٣) انظر: الاتقان في علوم القرآن: ١٥٠/١.

والثاني: باعتبار ما ثُنِّيَتْ أنواعُه وأقسامُه، وكرِّرَتْ، فإنَّ التثنية يُرَادُ بها مطلقُ العدد مِنْ غير تخصيصٍ بعدد الاثنين، كما في قوله تعالى: {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ} [الملك:٤]، أي: مرَّةً بعد مرَّةٍ"[١].

والقرآن نوعان:

أحدُهما: ما كُرِّر لفظُه لفائدةٍ مجدَّدةٍ، فهذا هو المتشابه.

والثاني: ما نُوِّع وقُسِم ولم يُكرّر لفظُه، فهذا المثاني، وقد جَمَعَ اللهُ بين هذين الوصفين في قوله تعالى: {نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ} [الزمر:٢٣]، فوصف الكتاب كلَّه بأنَّه متشابهٌ ومثاني، فإمَّا أن يكون تنويعًا إلى هذين النوعين، وهما: النظائر المتماثلة، والمثاني في الأنواع، وإمَّا أن يكون المراد أنَّ آياته المتماثلة ثُنِّيَتْ فيه في مواضع لحِكَمٍ وفوائد متجدّدةٍ، وسورةُ الفاتحة على المثاني بهذين التفسيرين، لأنَّها تضمنت الأنواع والأقسام المعدّدة وذكر العبادة والاستعانة، وذكر المغضوب عليهم والضالين، وتضمنت ذكر النظائر المتماثلة، وثُنِّيت فيها كتكرير {إِيَّاكَ}، و{الصِّرَاطَ}، و{عَلَيْهِمْ}، وتكرير: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} على قول من يقول إنَّ البسملة منها، فإن قيل: قوله تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي} [الحجر:٨٧] يدلُّ على أنَّها من جملة المثاني لا كلّها، وفي الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ قال في الفاتحة: "هي السبع المثاني"[٢].

فالجواب: أنَّ القرآنَ كلَّه أربعةُ أقسامٍ: السبع الطُوَل، والمئون، والمثاني، والمفصّل، كما في "المسند" وغيره عن واثلة بن الأسقع أنَّ النبيَّ ﷺ قال: "أُعطيتُ مكان التوراةِ السَّبعَ الطُوَلَ، وأُعطيتُ مكان الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكان الإنجيلِ المثانيَ، وفُضّلتُ بالمفصّلِ"[٣]، وقد رُوي نحو ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ وغيره[٤].

والسَّبع الطُوَلُ هي: البقرة، وآل عمران، والنِّساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، كذا قال ابنُ عبَّاسٍ وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقيل: إنَّ السابعة: الأنفال وبراءة.

والمئون: ما كان بعد ذلك من السُّور يبلغُ عددُه مائةً، مائةً، أو يزيدُ عليها قليلاً أو ينقصُ قليلاً.

والمثاني: ما سوى ذلك، وسوى المفصل، وسُمِّي مثاني قيل: لأنَّه يتلوُ المئين، فكأنَّ المئين أوائل وهذه ثواني، وقيل: لأنَّه تُثنَّى فيه القَصَصُ والأمثالُ والفرائضُ والحدودُ، ونُقل عن ابنِ عبَّاسٍ وسعيدِ بنِ جبيرٍ.

فالفاتحة من قِسْمِ المثاني، لأنَّها ليست من السَّبْعِ الطِّوالِ، وليست من المئين، ولا من المفصَّل، فتعيَّن أنَّها من المثاني، وإنَّما سمَّاها النبيُّ ﷺ السبع المثاني لاختصاصها من بين بقيَّة سُور المثاني بمعاني أخر تقتضي أنَّها أحَقّ بهذا الاسم من غيرِها من السُّور كتثنيتِها في الصلاة وغير ذلك، فصارت نوعًا مستقلاً بنفسِه فلذلك سُمِّيت: "السبع المثاني"، مع أنَّ في لفظ التِّرمذيِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: "إنَّها سبعٌ من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيتُه"[٥].

---

(١) تفسير الفاتحة، ابن رجب: ١٨.

(٢) عن أبي سعيد بن المعلى ... "الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته" رواه البخاري ٤/ ١٦٢٣ ح٤٢٠٤ وأبو داود ٢/ ٢٧٠ ح١٤٥٢ والنسائي ٢/ ١٣٩ ح٩١٣ وابن ماجة ٣/ ٥٨٧ ح٣٨٥٣.

(٣) المسند: (١٠٧/٤).

(٤) تفسير سورة الفاتحة، ابن رجب: ١٩.

(٥) الجامع: (٢٨٧٥).

الخامس: القرآنُ العظيم:

وذلك لقولُ النبيِّ ﷺ في الفاتحة: "هي السَّبعُ المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيتُه"[1]، ففسَّر السَّبعَ المثاني والقرآن العظيم بالفاتحة، فيكونُ هذا العطفُ حينئذٍ من بابِ: عطفِ الصِّفاتِ على الصِّفاتِ، لا من: عطفِ الموصوفاتِ على الموصوفاتِ، ونظيرُه قولُه سبحانه وتعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} [الأعلى:١-٤]، وكذلك قراءةُ عائشةَ وغيرِها من الصحابةِ: (حافظوا على الصَّلوات والصَّلاةِ الوُسطى وصلاةِ العصرِ)، ومن المفسِّرين من قال: إنَّ القرآن العظيم المرادُ به بقيةُ القرآن، فجعله من باب ذكر الخاص قبل العام وهو قليلٌ، والمعروف عكسُه، وهو ذكر الخاصِّ بعد العامِّ.

السادس: الصَّلاة:

فقد ثبت في حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: "قال الله تعالى: قُسمت الصَّلاةُ بيني وبين عبدي نصفين، فنصفُها لي، ونصفُها لعبدي، ولعبدي ما سأل" خرَّجه مسلمٌ[2].

وإنَّما سُمِّيت "صلاةً" لأنَّ الصلاةَ لا تخلوُ عنها، ولا تصحُّ إلاَّ بها، فسُمِّيت "صلاةً"، كما تسمَّى الصلاةُ "قرآناً"، كما في قوله تعالى: {وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا} [الإسراء:٧٨].

وقد سمَّاها بهذا الاسم جماعةٌ من الأئمةِ.

قال أبو شَامَة في أثناء كلامٍ له: "هذا إذا سلَّمنا توجَّه التنصيف إلى آيات الفاتحة، وذلك ممنوعٌ من أصلِه، وإنَّما التنصيف متوجِّهٌ إلى الصلاة بنصِّ الحديث، فإن قيل: المرادُ قراءة الصلاةِ، قلنا: بل المراد قسمةُ ذِكْرَ الصلاةِ، أي: الذِّكْرُ المشروع فيها وهو ثناءٌ ودعاءٌ، فالثناءُ: منصرفٌ إلى الله تعالى، سواء ما وقع منه في القراءةِ، وما وقع منه في الركوعِ والسجودِ، وغيرِهما، والدعاءُ منصرفٌ إلى العبدِ، سواء ما وقع منه في القراءة والسجود وغيرِهما.

وأقرّه عليه النوويُّ مع تسميته الفاتحة بـ (الصلاة)"[3].

السابع:- رقية الحقّ:

وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال للذي رَقَى بالفاتحة: "وما يدريك أنَّها رقيةٌ"، وثبت أنَّه قال: "لقد أكلتَ برقيةِ حقٍّ"[4].

---

(١) صحيح البخاري: (٤٤٧٤).

(٢) صحيح مسلم: (٣٩٥).

(٣) "المجموع"، وقد نقل كلام أبي شامة (٣٣٩/٣)، وانظر تسميته الفاتحة بـ "الصلاة" فيه (٣٣١/٣)، وفي "شرح مسلم" (١٠٣/٤).

(٤)أخرجه أبو داود (٣٤٢٠،٣٨٩٦،٣٨٩٧)، والنسائي في"عمل اليوم والليلة (١٠٣٢)، وعنه ابن السني(رقم:٦٢٤)، والطحاوي في" شرح المعاني"(٢٦٩/٢)، والحاكم (٥٥٩/١-٥٦٠)، والطيالسي(١٣٦٢)، وأحمد(٢١٠/٥-٢١١)، من طريق الشعبي نْ خَارِجَةَ بْنِ الصَّلْتِ عَنْ عَمِّهِ أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: إِنَّكَ جِئْتَ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ بِخَيْرٍ فَارْقِ لَنَا هَذَا الرَّجُلَ فَأَتَوْهُ بِرَجُلٍ مَعْتُوهٍ فِي الْقُيُودِ فَرَقَاهُ بِأُمِّ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً وَكُلَّمَا خَتَمَهَا جَمَعَ بُزَاقَهُ ثُمَّ تَفَلَ فَكَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ فَأَعْطَوْهُ شَيْئًا فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَهُ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلْ فَلَعَمْرِي لَمَنْ أَكَلَ بِرُقْيَةٍ بَاطِلٍ لَقَدْ أَكَلْتَ بِرُقْيَةٍ حَقٍّ" وقال الحاكم : " صحيح الإسناد ،و وافقه الذهبي. قال الألباني : و هو كما قالا إن شاء الله ، فإن رجاله ثقات رجال الشيخين غير خارجة بن الصلت ، فروى عنه مع الشعبي عبد الأعلى بن الحكم الكلبي ، و ذكره ابن حبان في" الثقات " ، لكن قال ابن أبي خيثمة : " إذا روى

الثامن:- سورة الحمد:

وقد اشتهر تسميتُها بذلك، وحَمَلَ كثيرٌ من النَّاس حديثَ: (كان يفتتحُ الصَّلاة بـ {الحمد لله رب العالمين} على أنَّه أُريد ذكر اسم السُّورة.

فإن قيل: ففي القرآن سُورٌ كثيرةٌ أوَّلُها: {الحمد لله}، فما وجهُ تسمية الفاتحة بـ "سورة الحمد" دون غيرها ؟

فالجواب: أنَّ الثناء على الله سبحانه في هذه السُّورة هو المقصودُ الأعظم من سائرِ معانيها، وقد استوعب نحو شطرها، فهو الغالب عليها، فسمِّيت بما غَلَبَ عليها، بخلافِ غيرها.

التاسع:- الشفاء:

ذكره غيرُ واحدٍ، وذكروا من حديث ابنِ سيرين عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "فاتحةُ الكتابِ شفاءٌ من كلِّ داءٍ"[1]، وفي رواية: "من كل شيء إلا السَّامَ"[2]، وهو الموت، وقيل: إن الدارمي خرَّجه[3]، وروي مرسلا عن عبد الملك بن عمير أن النبي ﷺ قال: "في فاتحة الكتاب: شفاء من كل داء"[4]، وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري: "فاتحة الكتاب شفاء من السم"[5].

وتُسمَّى "الشافية" أيضًا.

قال الرَّازيُّ: "وأقول: الأمراضُ منها ما هو روحانيَّة، ومنها ما هو جسمانيَّة، بدليل تسميتِه تعالى الكفرَ مرضًا، في قولِه تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [البقرة:١٠]، وهذه السورة مشتملةٌ على معرفةِ الأصول والفروع والمكاشفات، فهي في الحقيقة شفاءٌ، بل الشفاءُ[6] في هذه المقامات الثلاثة"[7].

وقال ابن القيم: "فقد أثر هنا الدواء في هذا الداء وأزاله، حتى كأنه لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسَره، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفا، ومكثت بمكة مدة تعتريني أدواء، ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً، فكان كثير منهم يبرأ سريعاً" [8].

ولكن هاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يُستشفى بها، ويُرقى بها هي نفسها نافعة شافعة ، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل، وتأثيرَه، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجح فيه الدواء، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم

الشعبي عن رجل و سماه فهو ثقة ، يحتج بحديثه " . ذكره الحافظ في " التهذيب " و أقره ، و كأنه لذلك قال الذهبي في " الكاشف " : " ثقة. " (قاله الألباني في: " السلسلة الصحيحة " ٥ / ٤٤).

(١) حديث ضعيف: ضعيف الجامع الصغير: ٣٩٤٩.

(٢) أخرجه الخلعي في فوائده، من حديث جابر بن عبدالله:(تهذيب وترتيب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، محمد بن عمر بن سالم بازمول، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ٤٠).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي (٨٠/١).

(٤) سنن الدارمي من كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب، رقم الحديث(٣٢٤٧): (٤٤٥/٢).أخرجه البيهقي في "الشعب"(٢٣٧٠)، وحكم الألباني بضعفه في ضعيف الجامع الصغير: ٨٨/٤.

(٥) حديث موضوع(ضعيف الجامع الصغير:٨٨/٤).

(٦) في التفسير الكبير:: (فهي في الحقيقة سبب لحصول الشفاء)

(٧) التفسير الكبير: (١٤٧/١).

(٨)الجواب الكافي: ٣

قبول الطبيعة (أي طبيعة البدن) لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة (أي الأجسام) إذا أخذت الدواء لقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقي نفسٌ فعالة، وهمة مؤثرة في إزالة الداء .

العاشر:- الوافية:

حُكِي عن سفيان بنِ عُيينَةَ، لأنَّها لا تقبلُ الحذف، فلا بدَّ من الإتيان بها وافيةً تامَّةً، وقال الزَّمخشريُّ: إنَّما سُمِّيت وافيةً لاشتمالِها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله عزَّ وجلَّ بما هو أهلُه، ومن التعبُّد بالأمرِ والنَّهي، ومن الوعد والوعيد[١].

الحادي عشر:- الأساس:

رُوِي عن الشَّعبيِّ أنَّه سمَّاها: الأساس، وأنَّه قال: "سمعتُ ابنَ عبَّاسٍ يقول: أساسُ الكُتُبِ القرآن، وأساسُ القرآن الفاتحة، وأساسُ الفاتحة بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ"[٢].

قال الرَّازيُّ: وسُمِّيت أساسًا لوجهين: أحدُهما: أنَّها أوّلُ سورةٍ من القرآن، فهي كالأساس، والثاني:[أن أشرف العبادات بعد الإيمان هو الصلاة[٣]، وهذه السورة مشتملة على[٤] ما لا بد منه في الإيمان، والصلاة لا تتم إلا بها[٥].

الثاني عشر:- الكنز

واستدل بذلك بما رواه أنس بن مالك-رضي الله عنه- عن النبي-ﷺ قال: "إن الله أعطاني فيما منّ به عليّ، أني أعطيتك فاتحة الكتاب، وهي من كنوز عرشي، ثم قسمتها بيني وبين عبدي نصفين"[٦].

وأخرج الواحدي في أسباب النزول عن علي قال: "نزلت فاتحة الكتاب بمكة عن كنز تحت العرش"[٧]، وعنه -رضي الله عنه- أنه سئل عن فاتحة الكتاب، فقال: "حدثنا نبي الله-ﷺ- أنها أنزلت من كنز تحت العرش"[٨].

وقد ذكرت هذا التسمية في بعض كتب التفاسير وعلوم القرآن[٩].

---

(١) الكشاف: (٤٥/١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١١٣/١، والدر المنثور: ٣/١، ونسبه للثعلبي، قال ابن كير: إن في كتب الثعلبي من الغرائب الشيء الكثير". [البداية والنهاية:٤٠/١٢].

(٣) ما بين المعكوفتين بياض بالأصل، واستدرك من التفسير الكبير:، وقد ذكر الرازي وجها ثالثا أيضا، ولكنه ذكره بعد الوجه الأول، فقال: (الثاني: أنها مشتملة على أشرف المطالب) ثم ذكر هذا الوجه، والله أعلم.

وجاء في هامش الأصل: (الثالث عشر: الكافية، سمّاها به لأنها تكفي عن غيرها، فإن أم القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها منها عوضا) ا.هـ ولا أدري هل هذا الهامش من إلحاقات المصنف، أم أنه من الناسخ ؟

(٤) في التفسير الكبير:: (على كل).

(٥) التفسير الكبير: (١٤٧/١).

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب، باب تعظيم القرآن، فصل(في فضائل السور والآيات) حديث رقم(٢٣٦٣):٦٤٨/٢)، وابن الضريس في فضائله، باب(في فضائل فاتحة الكتاب)، حديث رقم(١٤٣): ص٧٩، وانظر: كنز العمال حديث رقم(٢٥٢١): ص٥٦٠/١.

(٧) أخرجه الثعلبي في تفسيره، مخطوطة-الكشف والبيان-:٣٥/١، والواحدي في أسباب النزول: ١٩.

(٨) أورده السيوطي في الدر: ١٦/١، وعزاه إلى إسحاق بن راهويه في مسنده.

(٩) انظر في هذه التسميات في كتب التفاسير وعلوم القرآن كتفسير: الزمخشري: ٤/١ ، والنسفي:٣/١، وابن كثير:١٥/١، والبيضاوي:٥/١، والشوكاني:٢٣/١، والآلوسي:٣٨/١، وذكرها السيوطي في الإتقان:١٧٠/١، والبقاعي في نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:١٩/١، والزركشي في البرهان:٢٧٠/١.

وقيل سميت بذلك لاشتمالها على المعاني التي في القرآن، وهي بمثابة الجواهر المكنوزة فيه[١].

وهذه الأحاديث التي وردت في التسمية لم يصرح فيها رسول الله -ﷺ- بتسميتها بالكنز، إنما ذكر أنها نزلت من كنوز العرش، فهي وصف للسورة وليست اسما لها[٢].

الثالثة عشر:- الشكر

ذكر هذه التسمية بعض المفسرين كالرازي[٣]، وأبي مسعود[٤]، والألوسي[٥]، كما السيوطي[٦]، والبقاعي[٧].

ووجه التسمية بذلك لاشتمالها على الشكر، قال الرازي: وذلك لأنها ثناء على الله بالفضل والكرم والإحسان"[٨].

وتجدر الإشارة بأن هذه التسمية مجرد أجتهاد من السادة المفسرين لما تضمنته االسورة من معاني الشكر والثناء لله، دون الإستناد في تسميتها إلى حديث أو أثر صحيح.

الرابعة عشر:- الثناء:

قال بهذه التسمية الفيروزآبادي[٩]، ولك لاشتمال السورة على الثناء على الله تعالى في قوله تعالى:{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)} [الفاتحة : ٢ - ٤]، دون أن يذكر مستنده في ذلك.

الخامسة عشر:-المناجاة:

ذكر هذا الاسم كل من السيوطي[١٠]، والآلوسي[١١]، وعللا بأن العبد يناجي فيها ربه بقوله:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)} [الفاتحة : ٥]، وهذه التسمية من باب الإجتهاد ولم يثبت ذلك عن الرسول-ﷺ- ولا صحابته الكرام-رضي الله تعالى عنهم-.

السادسة عشر- التفويض:

ذكره كل من السيوطي[١٢] والألوسي[١٣]، فقالوا أنها سميت بذلك، لأنه يحصل بها التفويض[١٤] فهي مشتملة عليه في قوله تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)} [الفاتحة : ٥]، وها أيضا اجتهاد منها -رحمهما الله- دون استناد على دليل.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن: ١٧٠/١، وتفسير الألوسي: ٣٨/١.
(٢) انظر: أسماء سور القرآن وفضائلها، د.منيرة محمد ناصر الدوسري، دار ابن الجوزي، رسائل جامعية(٤٧)، ط١، ١٤٢٦هـ:ص ١٤١.
(٣) انظر تفسيره: ٤٧/١.
(٤) انظر نفسيره: ٨١/١.
(٥) انظر تفسيره: ٣٨/١.
(٦) انظر الإتقان: ١٧٠/١.
(٧) انظر تفسيره: ١٩/١.
(٨) مفاتيح الغيب: ١٤٧/١.
(٩) انظر: بصائر ذوي التمييز، فيروزآبادي: ١٢٩/١.
(١٠) انظر: الإتقان في علوم القرآن: ١٧١/١.
(١١) تفسير الألوسي:٣٨/١.
(١٢)انظر: الإتقان في علوم القرآن: ١٧١/١
(١٣)تفسير الألوسي:٣٨/١.
(١٤) جاء في الصحاح: "فوض إليه الأمر، أي ردّه إليه".(مادة: "ف و ض": ١٠٩٩/٣).

السابعة عشر:- الدعاء:

وردت هذه التسمية في بعض كتب التفسير: كتفسير الرازي[١]، والبيضاوي[٢]، وأبي مسعود[٣]، والألوسي[٤]، كما ذكرها البقاعي في نظمه[٥]، والسيوطي في الإتقان[٦]، وعللوا في وجه تسميتها : " لاشتمالها عليه في قوله تعالى:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)} [الفاتحة : ٦]، وأخرج أبو عبيد عن مكحول: "أم القرآن قراءة ومسألة ودعاء"[٧].

قلت: لا شك بأن الدعاء من المعاني التي اشتملت عليها سورة الفاتحة، أما كون الدعاء اسما لها، فلم يثبت ذلك عن الرسول -ﷺ-، بل مجرد اجتهاد واستنباط من السادة العلماء-رحمهم الله تعالى-.

الثامنة عشر:- النور

ذكرها كل من السيوطي[٨]، والألوسي[٩]، وعلل هذا الأخير سبب تسميتها بذلك، لظهورها بكثرة استعمالها أو لتنويرها القلوب لجلالة قدرها، أو لأنها لما اشتملت عليه من المعاني عبارة عن النور بمعنى القرآن.

وهذا اجتهاد، إلم لم أحد سندا صحيحا في تسميتها بالنور، إنما هو وصف للسورة كما في حديث ابن عباس: "قال فيه جبريل: أبشر بنورين أوتيتها لم يؤتها نبي قبلك: فتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة.." [١٠].

التاسعة عشر:- تعليم المسألة:

أوردت هذه التسمية، كل من: البيضاوي[١١]، وأبي مسعود[١٢]، والألوسي[١٣]، كما السيوطي في الإتقان[١٤]، ونسب إلى المرسي قوله في وجه التسمية: "لأن فيها آداب السؤال، لأنها بدئت بالثناء قبله"[١٥].

وقد أخرج أبو عبيد عن مكحول قوله: "أم القرآن قراءة ومسألة ودعاء"[١٦].

---

(١) انظر تفسيره: ١٤٧/١.
(٢)انظر تفسيره: ٥/١.
(٣)انظر تفسيره: ٨/١.
(٤)انظر تفسيره: ٣٨/١.
(٥) انظر: الإتقان: ١٩/١.
(٦) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:١٧١/١.
(٧) باب(فضل فاتحة الكتاب): ١١٨.
(٨)انظر تفسيره: ١٧٠/١.
(٩)انظر تفسيره: ٣٨/١.
(١٠)أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث قراءة الآيتين من آخر البقرة (٨٠٦) (ج ١ / ص ٥٥٤).
(١١)انظر تفسيره: ٥/١
(١٢)انظر تفسيره: ٨/١.
(١٣)انظر تفسيره: ٣٨/١.
(١٤)انظر الإتقان: ٧٠/١.
(١٥) اسماء سور القرآن وفضائلها: ١٤٥.
(١٦) باب(فضل فاتحة الكتاب): ١١٨.

قلت: وهذه التسمية أيضا من باب الإجتهاد، لأن تعليم المسألة هو من المعاني التي تضمنتها السورة، ولم يرد حديث عن الرسول -ﷺ- في ذلك.

العشرون:- السؤال:

سماها بذلك كل من: الرازي[١]، والسيوطي[٢]، والألوسي[٣]، ووجه التسمية بلك لكونها اشتملت على الدعاء الذي هو السؤال لله تعالى.

قال الرازي: " روي أن رسول الله -ﷺ- حكي عن رب العزة-سبحانه وتعالى- أنه قال: "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين"[٤]، وقد فعل الخليل-عليه السلام- ذلك حيث قال:{الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} [الشعراء : ٧٨]، إلى أن قال:{رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء : ٨٣]، ففي هذه السورة أيضا وقعت البداءة بالثناء عليه سبحانه وتعالى، وهو قوله: {الحمد لله} إلى قوله:{مالك يوم الدين}، ثم ذكر العبودية وهو قوله:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)} [الفاتحة : ٥]، ثم وقع الختم على طلب الهداية وهو قوله تعالى:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)} [الفاتحة : ٦]، وهذا يدل على أن أكمل المطالب هو الهداية في الدين.."[٥].

قلت وهذه التسمية أيضا من اجتهاد العلماء-رحمهم الله- وهو مشابه للاسم الذي قبله.

هذه كانت أسماء سورة الفاتحة التي ذكرها المفسرون التوفيقية والاجتهادية وأشهرها وأكثرها تداولا هي:(فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم الكتاب، وأم القرآن، وأشهر هذه الأسماء هي "الفاتحة")، أما باقي التسميات فهي من باب الإجتهاد لطون السورة تضمنت لمعانيها. والله تعالى أعلم.

وقد اختلف العلماء في مواضع نزولها، وفيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنَّها نزلت بمكَّة.

نُقل عن عليّ وابن عبَّاسٍ وأبي هريرة والأكثرين، حتى قال أبو ميسرة: "هي أوَّل سورة نزلت من القرآن بمكَّة، وأنَّها ابتدئت بـ {بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ}". أخرجه البيهقي[٦]، وهذا قول جمهور العلماء، ودليلهم[٧]:

أولا: ما أخرجه أبو بكر بن الأنباري في المصاحف عن عبادة قال: "فاتحة الكتاب نزلت بمكة"[٨].

---

(١) انظر: تفسيره: ١٤٧/١.

(٢) انظر: الإتقان: ١٧١/١.

(٣) انظر: نفسيره: ٣٨/١.

(٤) حديث ضعيف، أخرجه البخاري في "التاريخ" (١/ ٢/ ١١٥) ، والبيهقي في "الشعب" (١/ ٣٣٧) من طريقين عن صفوان بن أبي الصهباء ، عن بكير بن عتيق عن سالم ابن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده .(الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، الألباني: (٤٩٨٩).

(٥) انظر: تفسيرخ: ١٤٧/١.

(٦) انظر: دلائل النبوة: (١٥٨/٢).

(٧) انظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني: ١٥/١.

(٨)فتح القدير: ١٥/١.

ثانيا: أخرج الواحدي في أسباب النزول عن عليّ، قال: "نزلت فاتحة الكتاب بمكة عن كنز تحت العرش"[١]، وعنه -رضي الله عنه- أنه سئل عن فاتحة الكتاب، فقال: "حدثنا نبي الله-ﷺ- أنها أنزلت من كنز تحت العرش"[٢].

الثالث: أخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال: "لما أسلمت فتيان بني سلمة... فسأله فقرأ عليه: الحمد لله رب العالمين، وكان ذلك قبل الهجرة[٣]".

الرابع: وقالوا: لم تكن صلاة في الإسلام بدون فاتحة الكتاب، ومن المعلوم أن الصلاة شرعت في الأيام الأولى من البعثة، وفرضت الصلوات الخمس في ليلة الإسراء والمعراج، وكانت قبل الهجرة بثلاث سنوات.

قال جلال الدين: "ولم يحفظ صلاة بغير فاتحة الكتاب"[٤].

قال ابن كثير: "وهي مكية قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وقتادة، وأبو العالية، لقوله تعالى:{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي} [الحجر:٨٧][٥].

ووجه الاستدلال بهذه الآية على أن سورة الفاتحة مكية، هو أن هذه الآية من سورة الحجر، وسورة الحجر سورة مكية، فهي تتحدث عن الفاتحة، فهذا دليلٌ من القرآن على أن سورة الفاتحة نازلة بمكة، وهذا هو المعروف عند أهل العلم، ولا يلتفت إلى غيره.

واختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال:

أحدها: أن أول ما نزل: {بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ} منفردة.

قال الفخر الخطيب[٦]: "وهو قول الأكثرين من الذين قالوا: لم تنزل (المدثر) و(اقرأ) أولا"[٧]. ونقله في موضع آخر عن ابن عبَّاسٍ[٨].

الثاني: ان أول ما نزل: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} [المدثر: ١]، كما جاء في حديث جابر الصحيح[٩].

والثالث: وقيل: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}، وهذا هو الصحيح، فإنه لما أنزل عليه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} رجع فتدثر، فنزل: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}[١٠].

واتفق العلماء أن أول ما نزل القرآن على وجه الإطلاق قطعاً الآيات الخمس الأولي من سورة العلق، وهي قوله تعالي : {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)} [العلق : ١ - ٥]، ثم فتر الوحي مدة ، ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر ، وهي قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥)} [المدثر:١-٥]، ففي الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت : "أول ما بُدئ به رسول الله -

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره، مخطوطة-الكشف والبيان-:٣٥/١، والواحدي في أسباب النزول: ١٩، وانظر: الإتقان: ١٢/١.

(٢) أورده السيوطي في الدر: ١٦/١، وعزاه إلى إسحاق بن راهويه في مسنده.

(٣)فتح القدير:١٥/١.

(٤) الإتقان:١٢/١.

(٥) انظر: المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

(٦) هو الرازي، والمعروف أنه يلقب: (بابن الخطيب) أو (ابن خطيب الري).

(٧) مفاتيح الغيب: ١٤٧/١.

(٨) انظر: مفاتيح الغيب: ١٤٧/١.

(٩) صحيح البخاري: (٦٧٦/٨-٦٧٧- رقم:٤٩٢٢).

(١٠) انظر: تفسير الخطيب الشربيني: ٤٢٥/٤.

ﷺ ـ من الوحي هو الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِب إليه الخلوة، وكان يخلو في غار حراء، يتحنث [يتعبد] فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملَك فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال:{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }[العلق ١-٣]، فرجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرجف فؤاده، فدخل على زوجته خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ، فقال: زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة : لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَل، وتكَسب المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عمها، وكان امرًأ تنصر بالجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله له أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة : يا ابن أخي ما ذا ترى؟ فأخبره رسول الله ـ ﷺ ـ ما رأى، فقال له ورقة : هذا الناموس (جبريل عليه السلام) الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا (شابا)، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال: أَوَ مُخرجي هم؟، قال نعم، لم يأت رجل قَط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب (يلبث) ورقة أن توفي، وفتر الوحي [(١)].
وفيهما عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي صلي الله عليه وسلم قال وهو يحدث عن فترة الوحي : "بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: ٢] إِلَى -[٨]- قَوْلِهِ {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: ٥]. فَحَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ تَابَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَتَابَعَهُ هِلاَلُ بْنُ رَدَّادٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، وَقَالَ يُونُسُ، وَمَعْمَرٌ بَوَادِرُهُ"[(١)] ، وفيه ، فأنزل الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّر (١) قُمْ فَأَنْذِرْ(٢) إلى (وَالرُّجْزَ فَاهْجُر(٥) (المدثر:١-٥).
وثمت آيات يقال فيها : أول ما نزل، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين ، فتكون أولية مقيدة مثل : حديث جابر رضي الله عنه في الصحيحين، إن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أنزل أول؟ قال جابر:(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (المدثر:١) قال أبو سلمة : أنبئت أنه (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق:١) فقال جابر : لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ : قال رسول الله ﷺ :" جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت ..." فذكر الحديث وفيه : "فأتيت خديجة

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب ١ : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم ... ، أصول في التفسير ، حديث رقم ٣ ؛ ومسلم كتاب الإيمان باب ٧٣: بدء الوحي إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم ، حديث رقم ٤٠٣ (٢٥٢) ١٦٠ .

(١)أخرجه البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب ١ : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم ، حديث رقم ٤ ؛ ومسلم كتاب الإيمان باب ٧٣: بدء الوحي إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم ، حديث رقم ٤٠٦ {٢٥٥} ١٦١ .

فقلت : دثروني ، وصبوا علي ماء بارداً ، وأنزل علي : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (المدثر:١) إلى قوله :(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (المدثر:١-٥)" [٢].

فهذه الأولية التي ذكرها جابر رضي الله عنه باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي ، أو أول ما نزل في شأن الرسالة ؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت نبوة النبي ﷺ ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله { قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر:٢].

ولهذا قال أهل العلم : إن النبي ﷺ نبئ بـ(اقْرَأْ) [العلق:١]، وأرسل بـ(الْمُدَّثِّرُ) [المدثر:١].

القول الثاني: أنها أُنزلت بالمدينة.

قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري[١]، روى منصور عن مجاهد قال: "إن إبليس رنَّ أربعَ رنَّاتٍ: حين لُعِنَ، وحين أُهبط من الجنَّة، وحين بُعث النبيُّ ﷺ، وحين أُنزلت فاتحة الكتابِ، وأُنزلت بالمدينة"[٢].

قال الحسين بن الفضل: "هذه هفوة من مجاهد، لأنّ العلماء على خلاف قوله"[٣].

وروى الطَّبرانيُّ في "الأوسط": "حدثنا عُبيد بن غنَّام ثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ ثنا أبو الأَحْوَصِ عن منصورٍ عن مجاهدٍ عن أبي هريرة: أنَّ إبليسَ رنَّ حين أُنزلت فاتحةُ الكتابِ، وأُنزلت بالمدينة، وقال: لم يروه عن منصور إلا أبو الأحوص، تفرّد به أبو بكر بن أبي شيبة"[٤]، ورواه سفيان وغيره عن منصور ووقفُوه على مجاهدٍ.

واستدلوا على هذا بحديث مشهور في صحيح مسلم: "بينما جبريل قاعد عند النبي -ﷺ- سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة"[٥].

فإن قيل: هذا كان في المدينة، فكيف جاء بفاتحة الكتاب وهي نزلت بمكة؟

يقال: هو لم يأتِ بها أصلاً، وإنما بشر النبي -ﷺ- بذلك، والبشارة يمكن أن تكون أيضاً على أمرٍ قد مضى، فبين له المزية لسورة الفاتحة وآخر آيتين أوتيهما -ﷺ- من سورة البقرة، فالبشارة يمكن أن تكون عن شيء كان في الماضي، وهو كذلك، فلا يفهم منه أنه هو الذي نزل بها كما قال بعض المعاصرين: إن بعض القرآن قد ينزل به غير جبريل، فالأمر واضح أن جبريل هو الذي نزل به كما قال تعالى:{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} [الشعراء:١٩٣]، فالقول بأن هذا في الجملة ولا يؤثر على ذلك أن ينزل غيره بآيةٍ أو نحو هذا، فهذا قول غير صحيح.

ومعروف قطعاً أن النبي -ﷺ- كان يصلي بمكة، وكان يقرأ الفاتحة، وآية الحجر تدل على نزولها بمكة.

---

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب ٣ قوله : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) حديث رقم٤٩٢٤ ؛ ومسلم كتاب الإيمان باب ٧٣: بدء الوحي إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم ، حديث رقم ٤٠٩ { ٢٥٧} ١٦١

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ١٠١/١، ومجمع البيان: ١٧/١.

(٢) انظر: الدر المنثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ار الفكر - بيروت:١١/١.

(٣) الإتقان: ١٢/١.

(٤) المعجم الأوسط: (١٠٠/٥- رقم:٤٧٨٨).

(٥)أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها - باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة (٨٠٦) (ج ١ / ص ٥٥٤).

القول الثالث: أنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة:

أراد بعض أهل العلم أن يوفق وأن يجمع فقال: نزلت مرتين، مرة بمكة ومرة بالمدينة.

قال الشوكاني:"وقيل: إنّها نزلت مرّتين مرّةً بمكّة ومرّةً بالمدينة جمعًا بين هذه الرّوايات"[١].

قال الزركشي(ت: ٧٩٤هـ):" وقد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه، وتذكيرا به عند حدوث سببه خوف نسيانه، وهذا كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين، مرة بمكة، وأخرى بالمدينة"[٢].

قال أحمدُ بنُ عبد الكريمِ بنِ محمَّدٍ الأَشْمُونِيُّ (ت: ق١١هـ):"مكية مدنية؛ لأنها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلاة ومرة بالمدينة حين حولت القبلة."[٣].

القول الرابع: أن نصفها الأول نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة:

وحكى أبو اللّيث السّمرقنديّ:" أنّ نصفها نزل بمكّة ونصفها الآخر نزل بالمدينة"[٤].

قال ابن كثير:"وهو غريبٌ جدًّا، نقله القرطبيّ عنه[٥]"[٦].

والصحيح أنَّها أُنزلت بمكَّة، وذلك لأمرين[٧]:

أحدهما: فإنَّ سورة (الحِجْر) مكِّيَّةٌ بالإجماع، وقد أنزل الله فيها: {وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ} [الحجر:٨٧]، وقد فسَّرها النبيُّ ﷺ بالفاتحة، فعُلم أنَّ نزولَها متقدمٌ على نزول (الحِجْر).

والثاني: وأيضًا فإنَّ الصَّلاةَ فُرضت بمكَّة، ولم يُنقل أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه صلَّوا صلاةً بغير فاتحة الكتاب أصلاً، فدلَّ على أنَّ نزولَهَا كان بمكَّةَ.

قال ابن رجب:"وأمَّا الرِّواية بأنَّها أوَّل سورة أُنزلت من القرآن فالأحاديث الصَّحيحة تردُّه"[٨].

وأما عدد آياتها، "فهي سبعُ آياتٍ كما دلَّ عليه قولُه تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي}الحجر:٨٧]، وفسَّرها النبيُّ ﷺ بالفاتحة، ونقل غيرُ واحدٍ الاتفاق على أنَّها سبعٌ، منهم ابنُ جرير[٩] وغيرُه"[١٠].

واختلف أهل العلم في الآي التي صارت بها سبع آيات، وفيه قولان[١١]:

أحدهما: أنها صارت سبع آيات بـ{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ }، وها قول عظم أهل الكوفة.

قال الطبري:"وقد رُوي ذلك عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين"[١٢].

---

(١) فتح القدير: ٧٣/١-٧٤.
(٢)البرهان في علوم القرآن:٢٧/١.
(٣) منار الهدى: ٢٧.
(٤) بحر العلوم: ٣٩/١، وتفسير ابن كثير: ١٠١/١، وتفسير القرطبي: ١١٥/١.
(٥) انظر: تفسير القرطبي: ١١٥/١.
(٦) تفسير ابن كثير: ١٠١/١.
(٧) انظر: أسباب النول للواحدي: ٢١.
(٨) تفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ١٨.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ١٠٩/١-١١٠.تفسير الطبري: ٤٨/١.
(١٠) تفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ١٩.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ١٠٩/١.
(١٢) تفسير الطبري: ١٠٩/١.

والثاني:أنها سبع آيات ، وليس منهن { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } ولكن السابعة { أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}. وذلك قول عُظْم قَرَأةِ أهل المدينة ومُتْقنيهم.

وفي عددها قولان شاذّان[1]:

أحدُهما: أنَّها ستُّ آياتٍ، حُكي عن حسين الجُعْفِيِّ[2].

والثاني: أنَّها ثمانُ آياتٍ، وأنَّ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} آيةٌ. قاله عمرو بن عبيد[3].

قال ابن رجب:" نُقل عن عمرو بن عبيد أنَّها ثمانُ آياتٍ، ولا يعبأُ به"[4].

قال أبو حيان:" وشذ عمرو بن عبيد ، فجعل آية {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} ، فهي على عده ثمان آيات"[5].

قال ابن عطية:" وقول الله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي} [الحجر: ٨٧] هو الفصل في ذلك"[6].

وأمَّا كلماتُها: فهي خمسٌ وعشرون كلمةً[7].

وأمَّا حروفُها: فمائةٌ وثلاثة عشر حرفًا[8].

وإن هذه السُّورة العظيمة لها فضائلٌ وخصائصٌ عديدةٌ، قال ابن رجب:"ولم يثبت في فضائلِ شيءٍ من السُّور أكثر مما ثبت في فضلِها، وفضلِ سورة (الإخلاص)"[9].

ثم سرد مجموعة من فضائلِها[10].

(أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

شرع الله تعالى لكل قارئ للقرآن العظيم، أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، قال سبحانه: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل : ٩٨]؛ ذلك لأن القرآن الكريم هداية للناس وشفاء لما في الصدور، والشيطان سبب الشرور والضلالات، فأمر الله سبحانه كل قارئ للقرآن أن يتحصن به سبحانه من الشيطان الرجيم، ووساوسه، وحزبه.

وأجمع العلماء على أن الاستعاذة ليست من القرآن الكريم، ولهذا لم تكتب في المصاحف[11].

قوله:(أَعُوذُ بِاللهِ) ، أي:" أستجيرُ بالله - دون غيره من سائر خلقه"[12].

قال ابن كثير:" أي: أستجير بجناب الله"[13].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ٦١/١-٦٢، والبحر المحيط: ١٧/١، وتفسير سورة الفاتحة لابن رجب:١٩-٢٠.

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ٦١/١-٦٢، والبحر المحيط: ١٧/١، وتفسير سورة الفاتحة لابن رجب:١٩-٢٠.

(٣) انظر: المحرر الوجيز: ٦١/١-٦٢، والبحر المحيط: ١٧/١، وتفسير سورة الفاتحة لابن رجب:١٩-٢٠.

(٤) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب:١٩-٢٠.

(٥) البحر المحيط: ١٧/١.

(٦) المحرر الوجيز: ٦١/١-٦٢.

(٧) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب:١٩-٢٠.

(٨) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب:١٩-٢٠.

(٩) تفسير سورة الفاتحة:٣٥.

(١٠) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب: ٣٥ وما بعدها.

(١١)انظر: التفسير الميسر:١٥ .

(١٢) تفسير الطبري:١١١/١.

(١٣) تفسير ابن كثير: ١١٤/١.

قوله:(مِنَ الشَّيْطَانِ)، أي:"من الشيطان أن يضرَّني في ديني، أو يصدَّني عن حق يلزَمُني لرَبي"[١].

قال ابن كثير:أي:"من الشيطان أن يضرني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه ؛ فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله ؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ، ليرده طبعه عمَّا هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل ؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه ، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة ، قوله في الأعراف:{ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِين } [الأعراف : ١٩٩] ، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر ، ثم قال : { وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأعراف : ٢٠٠] ، وقال تعالى في سورة " قد أفلح المؤمنون " : {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨)} [المؤمنون : ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى في سورة " حم السجدة " : {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)} [فصلت : ٣٤ - ٣٦] [فصلت : ٣٤ - ٣٦]"[٢].

وفي المراد بـ(الشيطان) قولان:

أحدهما: أن المراد به: الشيطان المخصوص وهو إبليس الذي كانت قصته مع أبينا آدم-عليه السلام-.

والثاني: أن المراد به كل شيطان، أي: كل ما يصدق عليه هذا الاسم أو الوصف.

والقول الثاني أصح ، لأنه يدخل فيه الأول ويدخل فيه سائر الشياطين ، ومن المعلوم أن سائر الشياطين يصدون الإنسان عن طاعة الله .

وقد اختُلف في معنى(الشيطان) من ناحية اللغة، بناء على الاختلاف في اشتقاقه وأصالة النون في بنائه، وفيه وجهان:

أحدهما: أن (الشيطان) نونه أصلية على وزن "فيعال" مشتق من (شطن)، بمعنى: بَعُد عن الحقِّ، ، فسمي الشيطان شيطانا، لتباعده من الخير، فهو من: شطنه يشطنه شطنًا: إذا خالفه عن وجهته ونيَّته، وشَطَّت الدار: بَعُدَت، والشاطن: الخبيث، وتشيطن الرجل: إذا صار كالشيطان وفعل فعله، ومنه الشيطنة: التي هي مرتبة كلية عامَّة لمظاهر الاسم المضل[٣]، قال أمية بن أبي الصلت يصف سليمان بن داود -عليهما السلام-[٤]:

أيما شاطن عصاه عكاه ... ثم يلقى في السجن والأغلال

---

(١) تفسير الطبري:١١١/١.

(٢) تفسير ابن كثير: ١١٤/١.

(٣)انظر: قاموس العين - الفراهيدي ج (٦)، ص (٢٣٦)، وأساس البلاغة، ص (٣٢٩)، القاموس المحيط ج (١)، ص (٨٧٠)، والمصباح المنير ج (١)، ص (٣١٣)، والمعجم الوسيط ج (١)، ص (٤٨٣)، وتهذيب اللغة ج (١١)، ص (٢١٣)، وجمهرة اللغة ج (٢)، ص (٨٦٧)، ومختار الصحاح، ص (١٤٢).

(٤)ديوانه ص٤٤٥ وانظر: «لسان العرب» مادة «شطن». ومعنى عكاه: شده، وأوثقه، والأكبال: القيود.

فقال: أيما شاطن، ولم يقل: أيما شائط .

وقال نابغة بني شيبان [١]:

فأضحت بعدما وصلت بدار شطون لا تعاد ولا تعود

والثاني:أن (الشيطان) مأخوذ من الفعل (شاط)، وعلى هذا الاشتقاق يكون على وزن فعلان، والنون فيه زائدة، بمعنى: احترق من الغضب، فهو من: شاط يشيط، وتشيط: إذا لفحَته النار فاحترق أو هلك، مثل هيمان وغيمان، مِن هام وغام[٢]، فسمي الشيطان سمي شيطانا، لغيه وهلاكه[٣]، قال الأعشى[٤]:

وَنَطْعَنُ الْعَيْرَ فِي مَكْنُونِ فَائِلِهِ وَقَدْ يَشِيطُ عَلَى أَرْمَاحِنَا الْبَطَلُ

أراد: وقد يهلك على أرماحنا[٥].

وذكر ابن الأثير أن نون (الشيطان) إذا جعلت أصلية كان من الشطن وهو: البعد عن الخير، أو الحبل الطويل، كأنه طال في الشر، وإن جعلت زائدة كان من شاط يشيط: إذا هلك، أو من استشاط غضباً، إذا احتد في غضبه والتهب، قال: والأول أصح [٦] ، وذكر ابن كثير أن من العلماء من صحح المعنيين مع قولهم بأن الأول أصح [٧].

والشطن: البعد، ومنه شطنت داره، أي بعدت، ويقال: نوى شطون أي بعيدة، وبئر شطون: أي بعيدة القعر، ويقال للحبل شطن سمي بذلك لطوله، وجمعه أشطان، و في الحديث: « كُلُّ هَوىً شَاطِنٌ فِي النَّارِ »[٨][٩].

قال ابن قتيبة: "الشاطن البعيد عن الحق" [١٠].

قال محمد بن إسحاق: " إِنَّمَا سمي شَيْطَانا لِأَنَّهُ شطن عَن أَمر ربه. والشطون: الْبعيد النازح "[١١].

وقال أبو عبيد:"الشيطان كل عات متمرد من إنس، أو جن"[١٢]، أو دابة،

أيامَ يدعُونني الشَيْطانَ من غَزَلٍ وهُنَّ يَهْوَيْنَني إذْ كنتُ شَيْطانا

ويدل على ذلك قوله تعالى :{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيا عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام:

---

(١)ديوانه ٣٤ .

(٢)انظر: مقاييس اللغة ١٨٤/٣ - ١٨٥)، ولسان العرب١٠٥/١٧)، والمفردات - الراغب الأصفهاني:٢٦١.

(٣) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر الأنباري:٥٦/١.

(٤) ديوانه:٤٧، وانظر: المنجد في اللغة:٢٣١، والفائل: عرق في الفخذين يكون في خربة الورك ينحدر في الرجلين.

(٥) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر الأنباري:٥٦/١.

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر: ١١٦٠/٢.

(٧) تفسير ابن كثير: ١٥/١.

(٨) غريب الحديث لابن قتيبة:٧٥٩/٣، والفائق في غريب الحديث:٢٤٦/٢، والنهاية في غريب الحديث:٤٧٥/٢

(٩) لسان العرب: ٢٣٧/١٣.

(١٠) غريب الحديث: ٧٥٩/٣.

(١١) غريب الحديث لابن قتيبة:٧٥٩/٣.

(١٢) انظر: بحر العلوم، السرمقندي: ٢٧٧/١.

(١٣) ديوانه:١٦٥.

١١٢]، وكذا قوله :{ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ}[البقرة: ١٤]، أي أصحابهم من الجن والإنس، و قوله تعالى : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ}[الأنعام: ١٢١]، وقوله : {وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ }[البقرة: ١٠٢]، قيل مردة الجن وقيل مردة الإنس [١][٢].

واشتقاقه من (شطن) هو القول الراجح، وذلك لأنَّها أقرب إلى وصف أعمال الشيطان التي تَهدف إلى إبعاد الناس عن عمَل الخير واتِّباع الحق، "لأنَّ اشتقاق الشيطان من شطن، بمعنى: بَعُد عن الخير ومال عن الحقِّ - أقرب إلى الحقيقة من اشتقاقه من شاط، بمعنى: احترق، ذلك أنَّ عمل الشيطان هو إبعاد الناس عن الحقِّ، والذي يبعد الناس عن الحقِّ والخير يكون هو بعيدًا عنه"[٣].

والجن لغة: اسم جنس جمعي، واحده جني، وهو مأخوذ من الاجتنان، وهو التستر والاستخفاء. وقد سموا بذلك لاجتنانهم من الناس فلا يرون[٤]، والجمع جنان، وهم الجنة[٥].

وكل شيء وقيت به نفسك، واستترت به فهو جنة، ومنه قول النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري في كتاب الصوم: "والصيام جنة" أي وقاية، حيث يقي صاحبه من المعاصي.

وسمي الجنين جنينًا لاستتاره في بطن أمه، ومنه قوله تعالى:{وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ}[النجم: ٣٢] [٦].

وسميت الجنة – بفتح الجيم – بذلك لكثرة شجرها، بحيث يستر بعضها بعضًا[٧].

وأما الجن اصطلاحًا فهم: نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان، مجردون عن المادة، مستترون عن الحواس، لا يرون على طبيعتهم وصورتهم الحقيقية، يأكلون ويشربون ويتناكحون، ولهم ذرية، محاسبون على أعمالهم في الآخرة[٨].

فإن قال قائل: وما الفرق بين الجن والشياطين؟

فالجواب: أن الشياطين هم مردة الجن، ومنه قوله تعالى:{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ...}[البقرة: ١٠٢]الآية.

---

(١) مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني: ٢٦١.

(٢) عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة، عبدالكريم عبيدات: ٤٦٢.

(٣)التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن - د. عودة خليل أبو عودة - مكتبة المنار - الأردن، ص (٤٧٨).

(٤) أي لا يرون على طبيعتهم وصورتهم الحقيقة كما سيأتي في تعريفهم، وبذلك يعلم عدم التعارض بين هذا القول، وما ورد أنهم يتشكلون في صور البشر، والحيات والكلاب وغير ذلك وبذلك يفهم قول الشافعي: من زعم أنه يرى الجن أبطلنا شهادته: أخرجه أبو نعيم في الحلية: (١٤١/٩) فإنه يريد على طبيعتهم وصورتهم الحقيقية.

(٥) انظر القاموس المحيط: ص١٥٣٢، مادة (جنن)، و لسان العرب: (٩٥/١٣).

(٦) انظر المفردات: ص٩٨.

(٧) انظر تهذيب اللغة: للأزهري (٤٩٩/١٠).

(٨) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل: لابن حزم (١٢/٥)، و فتح الباري: (٣٤٤/٦)، و فيض القدير: (١١٣/١)

وواحد الشياطين: شيطان، مأخوذ من شطن بمعنى بعد ولا يقتصر هذا اللفظ على مردة الجن فقط، بل يطلق كذلك على كل عارم ومؤذ من الجن والإنس، قال الله تعالى:{شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ}[١]، وقال سبحانه عن المنافقين:{وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ}[٢] أي إلى أصحابهم من الجن والإنس[٣].

وإذا كان الجن ممن يساكن الناس، قالوا: عامر، جمع عمار، وإذا كان مما يعرض للصبيان، قالوا: أرواح، والخبيث من الجن هو الشيطان، والأشد خبثاً مارد. ومن اشتد أمره من المردة: عفريت، وجمعه عفاريت[٤]

والجن ثلاثة أصناف كما قال رسول الله -ﷺ- : "صنف يطير في الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون"[٥]

وردت آيات قرآنية كثيرة في الجن، وسميت السورة الثانية والسبعون من كتاب الله تعالى باسمهم: (سورة الجن).

وقد دل الكتاب العزيز والسنة المطهرة على وجود الجن ودل عليه كذلك الإجماع، وعليه فإنه لا يجوز لأي أحد من الناس إنكارهم، ولذا قال جمع من أهل العلم: إنه يكفر من أنكرهم، ففي كتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل"[٦] لابن حزم قوله: "وأجمع المسلمون كلهم على ذلك – أي على وجود الجن وأنهم خلق من خلق الله – نعم والنصارى والمجوس والصابئون وأكثر اليهود حاشا السامرة فقط، فمن أنكر الجن أو تأول فيهم تأويلاً يخرجهم به عن هذا الظاهر، فهو كافر مشرك حلال الدم والمال".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمدًا ﷺ إليهم، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك كما يوجد في طوائف المسلمين كالجمهية والمعتزلة من ينكر ذلك، وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك، وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترًا معلومًا بالاضطرار، ومعلوم بالاضطرار أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضًا قائمة بالإنسان أو غيره كما يزعم بعض الملاحدة، فلما كان أمر الجن متواترًا عن الأنبياء تواترًا ظاهرًا، تعرفه العامة والخاصة لم يمكن طائفة كبيرة من الطوائف المؤمنين بالرسل أن تنكرهم، كما لم يمكن لطائفة كبيرة من الطوائف المؤمنين بالرسل إنكار الملائكة، ولا إنكار معاد الأبدان، ولا إنكار عبادة الله وحده لا شريك له، ولا إنكار أن يرسل الله رسولاً من الإنس إلى خلقه، ونحو ذلك مما تواترت به الأخبار عن الأنبياء تواترًا تعرفه العامة والخاصة، كما تواتر عند العامة والخاصة مجيء موسى إلى فرعون، وغرق فرعون، ومجيء المسيح إلى اليهود وعداوتهم له، وظهور محمد ﷺ بمكة وهجرته إلى المدينة، ومجيئه بالقرآن والشرائع الظاهرة،

---

(١) سورة الأنعام: ١١٢.
(٢) سورة البقرة: ١٤.
(٣) المفردات للراغب الأصفهاني، وانظر فتح الباري: (٣٤٤/٦).
(٤) آكام المرجان ص ٨.
(٥)أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي ، وإسناده صحيح . صحيح الجامع ٣/ ٨٥.
(٦) (١٢/٥).

وجنس الآيات الخارقة التي ظهرت على يديه، كتكثير الطعام والشراب، والإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة التي لا يعلمها بشر إلا بإعلام الله وغير ذلك [١].

كما أجمعوا على الاستعاذة بالله العظيم من شرورهم، ومن يعرف عجائب خلق الله عز وجل وعظمته وقدرته لن يستغرب وجود عالم الجن غير المرئي، ووجود عالم الإنس المرئي، فكلاهما من مخلوقات الله تعالى العقلاء.

وكان لبعض القدامى اعتقادات عجيبة في الجن، حتى إن بعضهم جعل الجن شركاء لله عز وجل، فأبطل القرآن هذا كله، فقال عز من قائل: { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} [الصافات١٥٨].

تعريف إبليس لغة:

اختلف أهل العلم في تعريف كلمة (إبليس)، على أقوال:

أحدها: أن إبليس اسم عربي، على وزن إفعيل، مشتق من الإبلاس، وهو الإبعاد من الخير، أو اليأس من رحمة الله[٢]، يقال أَبلَس الرجل: إذا انقطع ولم تكن له حجَّة، وأَبلَس الرجل: قُطِع به، وأبلس أيضًا: سكَتَ، وأبلس مِن رحمة الله: يئس، والإبلاس: الحزن المعترض من شدَّة البأس، وقد استخدم العربُ هذه المعاني فقالوا: ناقة مِبلاس: إذا كانت لا تَرغو من الخوف، وفلان أبلس: إذا سكَت من شدَّة الخوف[٣]، والقرآن الكريم استخدم هذه المعاني اللغويَّة لكلمة أبلس، فقال تعالى:{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ } [الروم: ١٢]، وقال تعالى:{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } [الأنعام: ٤٤].

والثاني: وقال الأكثرون: إن إبليس اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمية[٤]، وقد ذكر ابن الأنباري أن إبليس لو كان اسماً عربياً لم يصرف كإكليل وإحليل[٥] ، قال أبو إسحاق: أن إبليس أعجمي معرفة، وذكر الزبيدي أن إبليس لا يصح أن يشتق وإن وافق معنى إبليس لفظاً ومعنى، وقد غلط العلماء الذين قالوا باشتقاقه.

وذكر الطبري بأنه: "لم يصرف استثقالاً، إذ كان اسماً لا نظير له من أسماء العرب، فشبهته العرب إذ كان كذلك بأسماء العجم التي لا تجري كما في إسحاق حيث لم يجروه، وهو مشتق من أسحقه الله إسحاقاً، إذ وقع ابتداء اسماً لغير العرب التي تسمت به العرب، فجري مجراه، وهو من أسماء العجم في الإعراب فلم يصرف، وكذلك أيوب إنما هو من آب يئوب"[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/١٩، ١١).

(٢) انظر: لسان العرب: ٢٩/٦، وتفسير الطبري: ٥٠٩/١، وتفسير روح المعاني: ٢٢٩/١.

(٣)انظر: مقاييس اللغة ج (١)، ص (٢٩٩، ٣٠٠)، والمفردات - الراغب الأصفهاني، ص (٦٠)، وانظر: التبيان في تفسير غريب القرآن - شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري - دار الصحابة للطباعة ط١ ١٩٩٢ م، ج (١)، ص (٧٦).

(٤)انظر: القاموس المحيط ج (١)، ص (٦٨٧)، والمعجم الوسيط ج (١)، ص (٣)، والمفردات - الأصفهاني، ص (٦٠).

(٥) انظر: تفسير روح المعاني: ٢٢٩/١، وفتح الباري: ٣٣٩/٦.

(٦) تفسير الطبري: ٢٢٧/١.

وقال ابن حجر: "وقد تعقب بأنه لو كان اسماً عربياً مشتقاً من الإبلاس لكان قد سمي به بعد يأسه من رحمة الله بطرده ولعنه"[١].

وظاهر القرآن أنه كان يسمى بذلك قبل ذلك، وكذا قيل، ولا دلالة فيه، لجواز أن يسمى بذلك باعتبار ما سيقع له، نعم روى الطبري عن ابن عباس قال: "كان اسم إبليس حيث كان مع الملائكة عزازيل ثم إبليس بعد" [٢] ، وهذا يؤيد القول[٣].

والثالث: وذهب بعض الدَّارسين إلى أنَّها كلمة يونانية الأصل هي (ديا بولس)، جرى عليها بعضُ التغيير والتحريف حتى صارت كذلك[٤].

والراجح عندي أنها مشتقة من أبلس الرجل: إذا انقطع، والله تعالى أعلم.

الشيطان وإبليس اصطلاحًا:

تردد لفظ (إبليس) و(الشيطان) في مواضع متعددة من القرآن الكريم، فقد ورد لفظ إبليس في أحد عشر موضعاً، ولم يرد هذا اللفظ إلا مفرداً في هذه المواضع جميعاً .

أما لفظ الشيطان فقد جاء مفرداً ومجموعاً، فقد ورد مفرداً في سبعين موضعاً، وأما بلفظ الجمع فقد ورد في ثمانية عشر موضعاً، عدا من المواضيع التي ورد فيها لفظ الجن والجِنَّة، التي يراد في كثير منها الشيطان مفرداً ومجموعاً .

الشيطان: في الإصطلاح هو: كلّ متمرّد من الجنّ والإنس والدواب[٥]، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}[الأنعام: ١١٢].

وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ : " يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس، قال: يا نبي الله، وهل للإنس شياطين؟ قال: نعم: { شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}[الأنعام: ١١٢]"[٦].

وقد يطلق لفظ الشيطان كذلك على المتميز بالخبث والأذى من الحيوان، فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: "ركب عمر برذوناً، فجعل يتبختر به، فضربه فلم يزدد إلا تبختراً، فنزل عنه وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، لقد أنكرت نفسي[٧]، وعلى هذا فإن الشيطان إذا أريد به الجنس فله معنيان: معنى خاص، ومعنى عام .

أولا:- المعنى الخاص:

ويراد به إبليس وذريته المخلوقون من النار، والذين لهم القدرة على التشكل، وهم يتناكحون، ويتناسلون، ويأكلون، ويشربون، وهم محاسبون على أعمالهم في الآخرة، مطبوعون بفطرتهم على الوسوسة والإغواء، وهم بهذا عاملون على التفريق والخراب، جاهدون لفصل ما

---

(١) فتح الباري: ٣٣٩/١.
(٢) تفسير الطبري: ٢٢٤/١.
(٣) فتح الباري: ٣٣٩/٦.
(٤)انظر: إبليس - عباس محمود العقاد - نشر المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - ص (٤٧).
(٥)انظر: المفردات، الأصفهاني، ص (٢٦١)، وانظر: روح المعاني - الآلوسي ج (١)، ص (١٥٧)، وقد نسب الآلوسي هذا التعريف لابن عباس رضي الله عنهما.
(٦) مسند أحمد حديث (١٢٥٧)، ومجمع الزوائد ١/ ٩٤.
(٧)تفسير الطبري:١١١/١، وتفسير ابن كثير:٣١/١ وقال اسناده صحيح.

أمر الله به أن يوصل، ووصل ما أمر الله به أن يفصل، وإبرام ما يجب فصمه، وفصم ما يجب إبرامه، فهم والملائكة على طرفي نقيض[١].

ثانيا:- المعنى العام:

وأما المعنى العام فيراد به كل مخلوق عات متمرد من الإنس، والجن، والدواب، فأما من جانب الجن والإنس فهو التمرد والعصيان لأمر الله، ومحاولة بذر الفساد في الأرض بشتى صوره وأشكاله قال تعالى: { شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}[الأنعام: ١١٢]. وأما من جانب الدواب فهو الخبث والأذى الذي تميزت به عن جنسها..

وأمَّا (إبليس): فهو ذلك المخلوق من النار، والذي كان يجالس الملائكة ويتعبد معهم، وليس من جنسهم كما سيأتي، وقام بعمله ما شاء الله أن يقوم، ثمَّ نازع ربَّه الكبرياء والعظمة، فاستكبر عن طاعته، وعصى ربَّه، فطرده من رحمته ومن وظيفته، فهبط إلى الأرض، وأصبحت الشيطنة صفة له[٢].

أخرج الطبري بسنده الصحيح عن الإمام الفاروق عمر-رضي الله عنه- :" قال عمر بن الخطاب -رحمة الله عليه-، وركب بِرذَوْنًا فجعل يتبختر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترًا، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني إلا على شيطانٍ! ما نزلت عنهُ حتى أنكرت نَفسي"[٣].

وإبليس له ذريَّة بصريح القرآن الكريم، قال تعالى:{ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي } [الكهف: ٥٠]، فإبليس من الجنّ المخلوقين من نار السَّموم، وإنَّه ليرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، وقد فسَق عن أمر ربّه، وهو رأس الشياطين والمتمرّدين، وجمعه: أباليس وأبالسة[٤].

إذًا، إبليس هو الاسم العَلَم لهذا المخلوق المتمرّد، والشيطان صِفة له ولغيره.

وكان إبليس يجالس الملائكة ويتعبد معهم، وليس من جنسهم كما سيأتي، فلما أمر الله ملائكته بالسجود لآدم خالف أمر ربه بتكبره على آدم لادعائه أن النار التي خلق منها خير من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام،فكان جزاء هذه المخالفة أن طرده الله عن باب رحمته، ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه إبليس إعلاماً له بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى [٥] ، وقال: { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[ص: ٨٢-٨٣]، وكما قال عز وجل عنه : {لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً }[الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون في قوله تعالى :{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً }[الإسراء: ٦٥].

وإبليس واحد من الجن، وهو أبو الشياطين والمحرك لهم لفتنة الناس وإغوائهم، وقد ذكره الله في قصة امتناعه من السجود لآدم وذلك كقوله تعالى : {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }[البقرة: ٣٤]، وقد أطلق عليه القرآن اسم

---

(١)انظر: دائرة معارف القرن العشرين: ٣٣٢/٢.

(٢)انظر: تفسير الطبري - الطبري ج (١)، ص (٢٢٦)، ومختصر تفسير ابن كثير: ٢٠٩/٣، والمفردات - الأصفهاني، ص (٦٠)، وانظر: شواهد في الإعجاز القرآني - د. عودة أبو عودة، ص (٢٢٧).

(٣) تفسير الطبري(١٣٦):ص١١١/١.

(٤)انظر: المعجم الوسيط ج (١)، ص (٣).

(٥) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٠٩/٣.

الشيطان في مواضع، منها قوله تعالى : {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ }[الأعراف: ٢٠]، وقوله :{يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ }[الأعراف: ٢٧]، فالشيطان في هذه الآيات مراد به إبليس، لأن القرآن يتحدث عن قصة إغوائه لآدم وحواء عليهما السلام .

والذي يتأمل القرآن يرى أن إطلاق لفظ إبليس لم يرد إلا في معرض الحديث عن إباء إبليس من السجود لآدم، ولم يرد هذا الإطلاق خارج الحديث عن إبائه من السجود إلا في موضعين :

الأول:في سورة الشعراء وهو قوله تعالى: { فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ}[الشعراء: ٩٤-٩٥]، وفي هذا الموضع يكون مراداً به جمع إبليس وجنوده من الجن والإنس في نار جهنم، باعتبار الرئيس والأتباع .

الثاني: في سورة سبأ في قوله تعالى{ :وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ }[سبأ: ٢٠]، وهذا هو الموضع الوحيد الذي ورد فيه لفظ إبليس في معرض الحديث عن ممارسة غوايته وإفساده للناس .

قوله:(الرَّجِيمِ)، أي:" الملعون المشتوم"[١].

قال الطبري:" وكل مشتوم بقولٍ رديء أو سبٍّ فهو مَرْجُوم. وأصل الرجم الرَّميُ، بقول كان أو بفعل. ومن الرجم بالقول قول أبي إبراهيم لإبراهيم -صلوات الله عليه-: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرْجُمَنَّكَ} [سورة مريم: ٤٦] .

وقد يجوز أن يكون قِيل للشيطان «رجيم»، لأن الله جل ثناؤه طَرَده من سَمواته، ورجمه بالشُّهب الثَّواقِب"[٢].

و(الرجيم): صفة للشيطان، وهو مفعول في معناه على وزن فعيل، وفي سبب تسميته بذلك أقوال[٣]:

أحدها:أنه سُمِّي بالرجيم، لأنه أتى إبراهيم عليه السلام وهاجر وإسماعيل في منى، فاستعطف إبراهيمَ حتى لا يذبح ولده، فقال: أعوذ بالله منك فرجمه، ثم استعطف هاجر على ولدها فقالت: أعوذ بالله منك فرجمته، ثم استعطف إسماعيل عليه السلام على نفسه، فقال: أعوذ بالله منك فرجمه"، فصار الرجم من مناسك الحج إلى يوم القيامة.

وعلى هذا القول فإن "الرجيم" بمعنى: المرجوم الملعون والملعون المطرود"[٤]، وهو مذهب أهل التفسير، والملعون عند العرب: المطرود، إذا قالت العرب: لعن الله فلانا، فمعناه: طرده الله. وكذلك: على الكافر لعنة الله، فمعناه: عليه طرد الله، قال الشماخ[٥]:

وماء قد وردت لوصل أروى   عليه الطير كالورق اللجين
ذعرت به القطا ونفيت عنه   مقام الذئب كالرجل اللعين

(١) تفسير الطبري:١١٢/١.
(٢) تفسير الطبري:١١٢/١.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ١١٦/١.
(٤)النكت والعيون، الماوردي:٤٣/١ .
(٥) ديوانه:٣٢٠.

معناه: كالرجل المطرود[١].
والثاني: وقيل: سُمِّي بالرجيم، لأنه يسترق السمع في السماء فترجُمُه الملائكة، قال سبحانه:{ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ } [الحجر: ١٨].
وعلى هذا القول فإن معنى الرجيم: أي: المرجوم بالنجوم؛ فصرف عن المرجوم إلى الرجيم، كما تقول العرب: طبيخ وقدير، والأصل: مطبوخ ومقدور؛ وكذلك: جريح وقتيل، أصلهما: مقتول ومجروح، فصرفا من مفعول إلى فعيل. قال امرؤ القيس[٢] :

فظل طهاة اللحم من بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل

أراد: مقدور معجل، فصرف عن مفعول إلى فعيل"[٣].
والثالث: وقيل : رجيم بمعنى راجم، لأنه يرجم الناس بالوساوس[٤].
والرابع: وقيل: أن الرجيم: المرجوم، أي المشئوم المسبوب[٥]،فيكون من قول الله عز وجل {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ} [مريم : ٤٦]، معناه: لأشتمنك ولأسبنك[٦].
ومنه الحديث الذي يروى عن عبد الله بن مغفل أنه أوصى بنيه عند موته، فقال: "لا ترجموا قبري"[٧]، فمعناه: لا تنوحوا عند قبري. أي: لا تقولوا عنده كلاما سيئا سمجا[٨].
وقيل: وُصف الشيطان بذلك لأن أتباعه يرجمونه في النار، والرجم أصله الرمي بالحجارة، والشيطان مرجوم بالقول وبالفعل :
بالقول : بالسب والشتم والذم ويلحق به كل قول قبيح .
وبالفعل : أن رجمه الله أي طرده وأبعده من رحمته ، ويرجم بالشهب كما قال تعالى {إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ} [٦ ـ ١٠ الصافات].
قال ابن كثير: "والأول أشهر وأصح"[٩].
وفي حكم (الإستعاذة) قولان:
أحدهما:أنها مستحبة: يرى أهل العلم بأن حكم الإستعاذة مستحبة قبل قراءة القرآن، قال الله تعالى:{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [النحل: ٩٨].
والثاني: أنها واجبة: وذلك، أخذًا بظاهر الأمر في الآية. عطاء بن أبي رباح، وابن حزم[١٠].
والصحيح أنها مستحبة، فلا يضر تركها في الصلاة عمداً أو نسيانياً، وهو قول جمهور العلماء[١].

---

(١) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس:٥٨/١.
(٢) ديوانه:٢٢.
(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس:٥٧/١.
(٤) انظر: النكت والعيون:٤٣/١.
(٥) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس: ٥٧/١، والنكت والعيون:٤٣/١.
(٦)انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس: ٥٧/١ .
(٧)غريب الحديث ٤ / ٢٩٠ وفيه: (والمحدثون يقولون: لا ترجموا قبري، قال أبو عبيد: إنما هو: لا ترجموا) . وكذا في الصحاح (رجم) . وينظر: النهاية ٢ / ٢٠٥.
(٨)انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس: ٥٧/١ .
(٩) تفسير ابن كثير: ١١٦/١.
(١٠)انظر: تفسير ابن كثير: ١١٦/١.

قال الشافعي:" وكان بعضهم يتعوذ حين يفتتح قبل أم القرآن، وبذلك أقول، وأحبّ أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وإذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وأي كلام استعاذ به، أجزأه، ويقوله في أول ركعة.

وقد قيل: إن قاله حين يفتتح كل ركعة قبل القراءة فحَسَن، ولا آمر به في شيء من الصلاة، أمرتُ به في أول ركعة.

وإن تركه – [قول: الاستعاذة] - ناسياً أو جاهلاً أو عامداً، لم يكن عليه إعادة، ولا سجود سهو. وأكره له تركه عامداً، وأحب إذا تركه في أول ركعة أن يقوله في غيرها [من الركعات] ، وإنَّما منعني أن آمره أن يعيد؛ أن النبي - ﷺ - علم رجلاً ما يكفيه في الصلاة فقال:"كبر ثم اقرأ بأم القرآن" الحديث[٢].

قال الشَّافِعِي رحمه الله: ولم يُروَ عنه أنه - ﷺ - أمره بتعوذ ولا افتتاح. فدل على أن افتتاح رسول الله - ﷺ - اختيار، وأن التعوذ مما لا يفسد الصلاة إن تركه"[٣].

قال ابن كثير : "وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة ، يأثم تاركها، وقال النووي : ثم إن التعوذ مستحب وليس بواجب، وهو مستحب لكل قارئ ، سواء كان في الصلاة أو في غيرها"[٤] .

ويدل على عدم الوجوب :

أولا: حديث أنس قال النبي ﷺ "أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ "[٥]، ولم يذكر الاستعاذة .

ثانيا: ولأن النبي ﷺ لم يعلمها الأعرابي حين علمه الصلاة[٦].

قال الإمام الجصاص[٧] : "والاستعاذة ليست بفرض، لأنَّ النبي -ﷺ- لم يعلمها الأعرابي حين علمه الصلاة، ولو كانت فرضًا لم يخله من تعليمها"[١]، وقال الإمام ابن الجزري - رحمه الله[٢]:-

---

(١) انظر: المغني:٢/١٤٥.

(٢) الحديث تمامه:عن رفاعة بن رافع الزرقي، قال: "وكان من أصحاب النبي ﷺ ، قال:جاء رجل ورسول الله ﷺ، في المسجد، فصلى قريبا منه، ثم انصرف إليه، فسلم عليه، فقال له رسول الله ﷺ: أعد صلاتك، فإنك لم تصل، قال: فرجع فصلى نحوا مما صلى، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أعد صلاتك، فإنك لم تصل، فقال: يا رسول الله، كيف أصنع؟ فقال: إذا استقبلت القبلة، فكبر، ثم اقرأ بأم القرآن، ثم اقرأ بما شئت، فإذا ركعت، فاجعل راحتيك على ركبتيك، وامدد ظهرك، ومكن لركوعك، فإذا رفعت رأسك، فأقم صلبك، حتى ترجع العظام إلى مفاصلها، فإذا سجدت، فمكن لسجودك، فإذا رفعت رأسك، فاجلس على فخذك اليسرى، ثم اصنع ذلك في كل ركعة وسجدة".[أخرجه أحمد:(١٩٢٠٦):ص٤/٣٤٠، وأبو داود(٨٥٧)، و(٨٥٩)].

(٣) تفسير الإمام الشافعي:١/١٨٦.

(٤) تفسير ابن كثير: ١/١١٣.

(٥) أخرجه المسلم في الصلاة:١/٣٠٠.

(٦) أحكام القرآن للجصاص: ٣/١٩١. والحديث أخرجه البخاري(١٠):ص١/٢٠٧، ٢١٦، والمسلم(٤):ص١/٢٩٨.

(٧) انظر: أحكام القرآن: ٥/١٣.

وَاسْتُحِبَّ تَعَوُّذٌ   وَقَالَ بَعْضُهُمْ يَجِبْ

أخرج الطبري بسنده عن عبد الله بن عباس ، قال : أول ما نزل جبريلُ على محمد قال : " يا محمد استعذ ، قل : أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم " ، ثم قال : قل : " بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ " ، ثم قال : { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } [العلق : ١]. قال عبد الله : وهي أول سورة أنزلها الله على محمد بلسان جبريل"[٣].

وللإستعاذة مجموعة صيغ، منها:

الصيغة الأولى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وعلى هذا اللفظ دل الكتاب والسنة. وسوف نسرد الأدلة في الترجيح.

الصيغة الثانية: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

يدل على هذا اللفظ، ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - في دعاء الرسول - ﷺ - إذا قام إلى الصلاة في الليل، وفيه: ثم يقول: "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم "[٤].

كما استدل له بقوله - تعالى -: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[الأعراف:٢٠٠]، وبقوله- تعالى-: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[فصلت:٤٦].

وهي اختيار طائفة من القراء [٥] منهم حمزة [٦]، وسهل بن أبي حاتم [٧]، وهي مروية عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - [٨] - وبها يقول الحسن البصري [١].

---

(١)يعني حديث المسيء صلاته، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلاً دخل المسجد ورسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - جالس في ناحية المسجد، فصلى ثم جاء فسلم عليه، فقال له رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: (وعليك السلام، ارجع فصلِّ، فإنك لم تصلِّ)، فرجع فصلى ثم جاء فسلم، فقال: (وعليك السلام، فارجع فصل، فإنك لم تصل)، فقال في الثانية أو في التي بعدها: علمني يا رسول الله فقال: (إذا قمت إلى الصلاة، فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة، فكبر ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تستوي قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها)؛ صحيح رواه البخاري (٥٨٩٧) (٢٣٠٧/٥)، (٧٦٠) (٢٧٤/١)، (٧٢٤) (٢٦٣/١)، (٦٢٩٠) (٢٤٥٥/٦)، ومسلم (٣٩٧) (٢٩٨/١).

(٢)النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ٢٥٣/١.

(٣) تفسير الطبري(١٣٧):ص١١٣/١ .

(٤)أخرجه أحمد (٣): (٥٠)، وأبو داود - في الصلاة - باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك - حديث ٧٧٥، والترمذي- في أبواب الصلاة- باب ما يقول عند افتتاح الصلاة - حديث (٢٤٢) - قال الترمذي «وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب» والنسائي في الصلاة - باب نوع آخر من الذكر بعد افتتاح الصلاة ٢: ١٣٢، وابن ماجه في الإقامة الحديث (٨٠٤). وصححه أحمد شاكر في تحقيق سنن الترمذي ٢:١١، والألباني في «صحيح سنن أبي داود» حديث (٧٠١)، وحسنه الأرناؤوط في تحقيقه لزاد المعاد (١): (٢٠٥). وقد أخرج هذا الحديث من حديث عائشة أبو داود - الحديث (٧٧٦)، والترمذي - الحديث ٢٤٣، وابن ماجه في الإقامة الحديث (٨٠٦)، والدارقطني (١): (١١٢)، والحاكم ١: (٢٣٥) ورجاله ثقات فالحديث صحيح.

(٥)انظر: التبيان: ٦٤.

(٦)انظر «الإقناع في القراءات» (١): (١٥٠) - (١٥١)، «إغاثة اللهفان» ١: ١٥٣.

(٧)انظر «غرائب القرآن» (١): (١٥)، «النشر» (١): (٢٤٩).

(٨)أخرجها عن عمر ابن أبي شيبة - في الصلاة - التعوذ كيف هو (١): (٢٣٧).

ومحمد بن سيرين [٢]، والحسن بن صالح [٣]، والشافعي [٤]، وأحمد بن حنبل، في رواية النيسابوري [٥].

الصيغة الثالثة: أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه.

يدل على هذا اللفظ، ما رواه أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قام إلى الصلاة بالليل كبر، ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، ثم يقول: "أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه"[٦].

الصيغة الرابعة: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه.

يدل على ما راوه عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال:"اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه"[٧].

وهي مروية عن بعض أهل العلم، منهم الحسن البصري [٨]، وإسحاق بن راهويه[٩].

الصيغة الخامس: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم[١٠].

جمعًا بين أدلة الصيغة الأولى، وأدلة الصيغة الثانية والثالثة.

وبها قرأ نافع وابن عامر والكسائي[١١]، وهي مروية عن حمزة وعن أبي عمرو[١٢] وقد رُويت عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ومحمد بن سيرين[١٣].

---

(١)أخرجها عن الحسن عبد الرزاق - في الصلاة - متى يستعيذ، الأثر (٢٥٩١)،´ وابن حزم في «المحلى» (٣): (٢٤٩).

(٢)انظر: إغاثة اللهفان: ١٥٣/١.

(٣) المجموع: ٣٢٥/٣.

(٤)انظر «أحكام القرآن» للشافعي (١): (٦٢)، «المجموع» ٣: ٣٢٣.

(٥)انظر «مسائل الإمام أحمد» للنيسابوري ص٥٠ فقرة (٢٣٨)، «المغني» (٢): (١٤٦)، «إغاثة اللهفان» ١: ١٥٣.

(٦)أخرجه أحمد (٣): (٥٠)، وأبو داود - في الصلاة - باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك - حديث ٧٧٥، والترمذي- في أبواب الصلاة- باب ما يقول عند افتتاح الصلاة - حديث (٢٤٢) - قال الترمذي «وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب» والنسائي في الصلاة - باب نوع آخر من الذكر بعد افتتاح الصلاة ٢: ١٣٢، وابن ماجه في الإقامة الحديث (٨٠٤). وصححه أحمد شاكر في تحقيق سنن الترمذي ٢:١١، والألباني في «صحيح سنن أبي داود» حديث (٧٠١)، وحسنه الأرناؤوط في تحقيقه لزاد المعاد (١): (٢٠٥). وقد أخرج هذا الحديث من حديث عائشة أبو داود - الحديث (٧٧٦)، والترمذي - الحديث ٢٤٣، وابن ماجه في الإقامة الحديث (٨٠٦)، والدارقطني (١): (١١٢)، والحاكم ١: (٢٣٥) ورجاله ثقات فالحديث صحيح.

(٧)أخرجه ابن ماجه - في إقامة الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة - حديث (٨٠٨)، وأبن خزيمة- في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة قبل القراءة حديث (٤٧٢). وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» حديث (٦٥٨). وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف - في الصلاة - التعوذ كيف هو (١): (٢٣٨).

(٨)أخرجها عن الحسن عبد الرزاق في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة، الأثر ٢٥٨٠.

(٩) انظر: إغاثة اللهفان: ١٥٤/١. وقد أخرج عبد الرزاق في الموضع السابق، الأثر ٢٥٧٧، وابن حزم في «المحلي» ٢٤٩:٣ عن ابن عمر أنه كان يقول: «للهم أعوذ بك من الشيطان الرجيم».

(١٠)انظر «غرائب القرآن» (١): (١٥)، «إغاثة اللهفان» (١): (١٥٤).

(١١)انظر «الإقناع في القراءات السبع» (١): (١٥٠)، «المبسوط» (١): (١٣).

(١٢) انظر: النشر: ٢٥١/١.

(١٣) انظر: النشر: ١٠/١.

وهي اختيار سفيان الثوري[1]، والأوزاعي[2]، ومسلم بن يسار[3]، وأحمد في رواية، اختارها القاضي أبو يعلى، وابن عقيل[4].
الصيغة السادسة: أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم.
لما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - أنه كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم"[5].
وهناك ألفاظ أخرى[6]، واللفظ الأول مقدم واختار هذه الصيغة أكثر العلماء، لثلاثة أسباب:
أحدها: لأنها الصيغة التي جاءت بالقرآن[7].

---

(١)انظر «التفسير الكبير» ١: (٦١)، «المجموع» ٣: ٣٣٥، «إغاثة اللهفان» (١): (١٥٤)، «تفسير ابن كثير» ١: ٣٢، «النشر» ١: (٢٥٠).
(٢)انظر «التفسير الكبير» ٦١:١، «لباب التأويل» ١: (١٠)، «تفسير ابن كثير» ١: (٣٢).
(٣)أخرجها عنه ابن أبي شيبة في المصنف في الصلاة- في التعوذ كيف هو (١): ٢٣٧، وانظر «إغاثة اللهفان» (١): (١٥٤)، «النشر» (٢) ٥٠.
(٤)انظر «المغني» (٢): (١٤٦)، «إغاثة اللهفان» ١٥٢:١، ١٥٤.
(٥)أخرجه أبو داود في الصلاة - الحديث ٤٤١ وصححه الألباني. وانظر «النشر» ٢٥١:١.
(٦)وهناك صيغ أخرى رويت عن بعض القراء، وبعض أهل العلم.
- منها: أعوذ بالله العظيم، من الشيطان الرجيم [ذكرها ابن الباذش في «لإقناع في القراءات السبع» ١٤٩:١، وقال: «هي رواية أهل مصر عن ورش فيما ذكر الأهوازي». وانظر «النشر» ٢٤٩:]..
- ومنها: أعوذ بالله العظيم، السميع العليم، من الشيطان الرجيم[رواها هبيرة عن حفص فيما ذكر ابن الباذش في «الإقناع» ١٥٠:١، وانظر «المبسوط» ١٣:١].
- ومنها: أعوذ بالله العظيم، من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم.[انظر «النشر» ٢٥٠:١].
-ومنها: أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم [انظر «المجموع» ٣٢٥:٣].
-ومنها: أستعيذ بالله، أو نستعيذ بالله، من الشيطان الرجيم [نسبت لحمزة الزيات ومحمد بن سيرين. انظر «المبسوط» ١٣:١، «مجمع البيان» ١٨:١، «غرائب القرآن» للنيسابوري ١٥:١، وقد نفى ابن الجزري صحتها عن حمزة. انظر «النشر» ٢٤٦:١].
-ومنها: أعوذ بالله القوي، من الشيطان الغوي.[قال ابن الباذش في «الإقناع» ١٥١:١ «اختارها بعضهم لجميع القراء»].
-ومنها: أعوذ بالله المجيد، من الشيطان المريد.[انظر «تفسير ابن عطية» ٤٩:١].
-ومنها أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأستفتح الله وهو خير الفاتحين.[انظر «النشر» ٢٥١:١].
-ومنها أعوذ بالله السميع، الرحمن الرحيم، من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك رب أن يحضرون، أو يدخلوا بيتي الذي يؤويني .[أخرجها عبد الرازق عن عطاء- في الصلاة- باب الاستعاذة في الصلاة- حديث ٢٥٧٤].
-ومنها: رب أعوذ بك من همزات الشيطان، وأعوذ بك رب أن يحضرون، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم[أخرجها عبد الرزاق - في الصلاة - باب الاستعاذة في الصلاة - حديث ٢٥٧٨ من طاووس].
-ومنها: أعوذ بالله السميع العليم من همزات الشياطين، وأعوذ بالله أن يحضرون.[أخرجها ابن أبي شيبة في الصلاة - في التعوذ كيف هو، ٢٣٨:١عن محمد بن سيرين].
وهذه الصيغ وإن رويت عن بعض السلف، فإن أقل أحوالها الجواز، وما صح عن المصطفى - صلى الله عليه وسلم - هو الأولى بالأتباع.[انظر: اللباب في تفسير الإستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب:٢١].
(٧)الجامع لأحكام القرآن : ١ / ٦٢

والثاني: وهو الذي ورد في السنة كما في حديث سليمان بن صُرد قال "اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ ، مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً ، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ ، لَوْ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " (١).

والثالث: أن هذه الصيغة هي المختارة عند أكثر القراء(٢)،منهم: أبو عمرو البصري، وعاصم بن أبي النجود الكوفي، وعبد الله ابن كثير المكي(٣) وبها كان يتعوذ جمهور السلف من الصحابة والتابعين منهم: عمر بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر (٤) -رضي الله عنهما-، وهي اختيار: أبي حنيفة (٥)، والشافعي(٦)، وأحمد بن حنبل(٧) - رحمهم الله.

قال ابن عطية : "وأما لفظ الاستعاذة ، فالذي عليه جمهور الناس ، هو لفظ كتاب الله تعالى(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)"(٨).

قال مكي:" الذي عليه العمل وهو الاختيار أن يقول القراء: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. للآية"(٩).

ويُسَرُّ بالاستعاذة في الحالات الآتية:

١-عند القراءة سرًّا، سواء كان القارىء منفردا أم في مجلس.

وعند القراءة خاليًا، سواء أَقَرَأَ القارئ سرًّا أم جهرًا.

٢ -وفي الصلاة سريةً كانت أم جهرية.

٣- وإن كان القارئ وسط قوم يتدارسون القرآن ولم يكن القارئُ المبتدئَ بالقراءة.

ويستحب الجهر بالاستعاذة إذا كان القارئ يقرأ جهرًا، وكان هناك من يستمع إليه، وفي حالة التعليم والمدارسة عندما يكون القارئ المبتدئَ بالقراءة(١٠).

وتشرع الاستعاذة في مواضع، منها :

١- عند قراءة القرآن:

قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل : ٩٨].

٢- عند حصول نزغ من الشيطان ووسوسة .

---

(١)رواه البخاري (٦١١٥) ، ومسلم (٢٦١٠).

(٢) انظر: النشر: ٢٤٣/١، واللباب في تفسير الإستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب: ١٤.

(٣)انظر «المبسوط» ١: ١٣، «غرائب القرآن» للنيسابوري ١: ١٥، «مجمع البيان» ١: ١٨

(٤)أخرجها عن عمر- ابن أبي شيبة - في الصلاة - في التعوذ كيف هو قبل القراءة أو بعدها (١): (٢٣٧)، والبيهقي في الصلاة، باب التعوذ بعد الافتتاح (٢): ٣٦. وأخرجها عن عبد الله ابن عمر ابن أبي شيبة في الموضع نفسه.

(٥)انظر «فتح القدير» لابن الهمام ١: ٢٩١، «النشر» ١: (٢٤٣).

(٦)انظر «الأم» ١: ١٠٧، «أحكام القرآن» للشافعي (١): (٦٢)، «المهذب» للشيرازي ا: (٧٩)، «التبيان» للنووي ص٦٤، «تفسير ابن كثير» ١: ٢٤٣.

(٧)انظر «المغني» (٢): (١٤٦)، «إغاثة اللهفان» (١): (١٥٣)، «النشر» (١): (٢٤٣).

(٨) تفسير ابن عطية: ٥٥/١.

(٩)الكشف عن وجوه القراءات السبع : ١/ ٨، وانظر أيضًا «التبصرة» لمكي ص٢٤٦، «الإقناع في القراءات السبع» ١:١٥١.

(١٠)انظر: البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبدالفتاح القاضي، دار الكتاب العالمي: ١٢.

قال تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف : ٢٠٠].

٣- عند ما يوسوس الشيطان للمسلم في معتقده بربه .

لحديث أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : "لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق اللهُ الخلقَ ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله"[(١)].

وقال رسول الله ﷺ : " يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول من خلق السماء ؟ من خلق الأرض ؟ فيقول : الله ، - ثم ذكر بمثله - وزاد : " ورسله. "

وقال رسول الله ﷺ : " يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له من خلق ربَّك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته. "

وقال رسول الله ﷺ : " يأتي العبد الشيطان فيقول من خلق كذا وكذا ؟ "[(٢)].

٤- ومنها : عند ما يُلبس الشيطان على الإنسان في صلاته .

لحديث عثمان بن أبي العاص أنه أتى النبي ﷺ فقال : " يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا" قَالَ : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي "[(٣)].

٥- ومنها: عند الغضب .

لحديث سليمان بن صُرد قال "اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ ، مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً ، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ ، لَوْ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " [(٤)].

٦- ومنها : عندما يرى الإنسان رؤيا يكرهها .

لحديث أبي قتادة . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول "الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حُلْمًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ "[(٥)].

٧- ومنها : عند نزول منزل .

لحديث خولة بنت حكيم قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول:" مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ "[(٦)].

٨-ومنها : عند دخول الخلاء .

لحديث أنس "أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا دخل الخلاء، قال :اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من الخُبُثِ"[(٧)].

وأما الحكمة من الاستعاذة قبل القراءة، فنقول[(٨)]:

---

(١) صحيح مسلم(١٣٤):ص١٢٠/١.

(٢) الأحاديث رواها جميعا الامام مسلم: ١٣٤.

(٣) رواه مسلم: ٢٢٠٣.

(٤)رواه البخاري (٦١١٥) ، ومسلم (٢٦١٠).

(٥)رواه مسلم (٢٢٦١).

(٦) رواه مسلم: (٢٧٠٨).

(٧) رواه البخاري(٦٣٢٢)، اللفظ له ومسلم: ٣٧٥.

(٨) انظر: إغاثة اللهفان : ١ / ١٠٧ .

أولاً : أن القرآن شفاء لما في الصدور يُذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات .
ثانياً : أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته ، والشيطان ضد الملك وعدوه ، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه .
ثالثاً : أن الشيطان يُجلب بخيله ورجله على القارئ حتى يشغله عن المقصود بالقرآن .
رابعاً : أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه.
الفوائد:
١-مشروعية الاستعاذة دائماً من الشيطان.
٢- فيه دليل على أن الإنسان ينبغي أن يطلب العون من الله على الطاعة وعلى مجاهدة عدوه
٣- وفيه دليل على اعتراف العبد بالعجز وقدرة الرب.
٤-وفيه أنه لا وسيلة إلى القرب من الله إلا بالعجز والانكسار.
٥- وفيه الإقرار بالفقر التام للعبد ، والغنى التام لله سبحانه وتعالى.

القرآن

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)} [الفاتحة : ١]

التفسير:
أبتدئ قراءة القرآن باسم الله مستعينا به، اللهِ علم على الرب -تبارك وتعالى- المعبود بحق دون سواه، وهو أخص أسماء الله تعالى، ولا يسمى به غيره سبحانه. الرَّحْمَنِ ذي الرحمة العامة الذي وسعت رحمته جميع الخلق، الرَّحِيمِ بالمؤمنين، وهما اسمان من أسمائه تعالى، يتضمنان إثبات صفة الرحمة لله تعالى كما يليق بجلاله.

قال الماوردي:" أجمعوا أنها من القرآن في سورة النمل، وإنما اختلفوا في إثباتها في فاتحة الكتاب، وفي أول كل سورة، فأثبتها الشافعي في طائفة[١]، ونفاها أبو حنيفة في آخرين"[٢].

قوله تعالى:{ بِسْمِ اللَّهِ}[الفاتحة:١]، أي: " أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء"[٣].

قال الثعلبي:" وفي الكلام إضمار واختصار تقديره: قل، أو ابدأ بسم الله"[٤].

قال ابن عباس:" أوّل ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال : يا محمد ، قل : أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال : قل : {بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ}". قال ابن عباس : "{بسم الله }، يقول له جبريلُ : يا محمد ، اقرأ بذكر الله ربِّك ، وقم واقعد بذكر الله "[٥].

واختُلِفَ في قوله تعالى:{ بِسْمِ}[الفاتحة:١]، على قولين[٦]:

---

(١) قال الشافعي:" قال الشَّافِعِي: ثم بعد قول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) يقرأ مرتلا بأم القرآن ويبتدئها ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، أن النبي - ﷺ - قرأ بأم القرآن وعدَّها - أي: البسملة - آية."[تفسير الإمام الشافعي:١٩٢/١] .
(٢) النكت والعيون: ٤٧.
(٣) تفسير الطبري:١١٥/١.
(٤) تفسير الثعلبي:٩٢/١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٩):ص١١٧/١.
(٦) انظر: النكت والعيون: ٤٧.

القول الأول: أنها صلة زائدة، وأن الاسم هو المسمى، وإنما هو: اللهُ الرحمنُ الرحيمُ ، قاله أبو عبيدة[1] وآخرون[2]، واستشهدوا بقول لبيد[3] :

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُما وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

فذكر اسم السلام زيادة ، وإنما أراد : ثم السلام عليكما .

قال الثعلبي:" والدليل على أن الاسم عين المسمّى قوله تعالى: {إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى}[مريم:٧]، فأخبر أنّ اسمه يحيى، ثمّ نادى الاسم وخاطبه فقال: {يا يَحْيى}[مريم١٣]، فيحيى هو الاسم، والإسم هو يحيى، وقوله تعالى: {ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها}[يوسف:٤٨]، وأراد الأشخاص المعبودة لأنهم كانوا يعبدون المسمّيات، وقوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}[الأعلى:١]، و{تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ}[الرحمن:٧٨]، وقوله صلّى الله عليه وسلّم: "لتضربنّ مضر عباد الله حتّى لا يعبد له اسم"[4]. أي حتى لا يعبد هو"[5].

واختلف من قال بهذا في معنى زيادته على قولين [6]:

أحدهما : لإجلال ذكره وتعظيمه ، ليقع الفرق به بين ذكره وذكر غيره من المخلوقين ، وهذا قول قطرب .

والثاني : ليخرج به من حكم القسم إلى قصد التبرُّك ، وهذا قول الأخفش .

والقول الثاني: وذهب الجمهور إلى أن (بسم) أصل مقصود ، واختلفوا في معنى دخول الباء عليه ، فهل دخلت على معنى الأمر أو على معنى الخبر على قولين:

أحدهما : دخلت على معنى الأمر وتقديره : ابدؤوا بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. وهذا قول الفراء[7].

والثاني : على معنى الإخبار وتقديره : بدأت بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. وهذا قولُ الزجَّاج[8] .

والصحيح من القولين: أنه لا يقال: الاسم هو المسمى ولا غيره، بل قد يكون هو المسمى في موضع وغيره في موضع آخر.

---

(١) انظر: مجاز القرآن: ١٦/١.

(٢) منهم الثعلبي في تفسيره "الكشف والبيان" ١/ ٩٢ ، وقرره أبو عبيدة في "مجاز القرآن" ١/ ١٦، والزجاج في "معاني القرآن" ١/ ٢. وقد رد الطبري هذا القول كما سبق، كما رد عليه ابن جني في كتابه "الخصائص" حيث أبان في (باب في إضافة الاسم إلى المسمى، والمسمى إلى الاسم) قال: "فيه دليل نحوي غير مدفوع يدل على فساد قول من ذهب إلى أن الاسم هو المسمى".[الخصائص: ٣/ ٢٤].

(٣)ديوانه، القصيدة رقم: ٢١، والخزانة ٢: ٢١٧، والشعر يقوله لابنتيه، إذ قال: تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر!

ثم أمرهما بأمره فقال قبل بيت الشاهد: فقوما فقولا بالذي قد علمتما ... ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

وقولا: هو المرء الذي لا خليله ... أضاع، ولا خان الصديق، ولا غدر

فقوله " إلى الحول. . " أي افعلا ذلك إلى أن يحول الحول. والحول: السنة كاملة بأسرها. وقوله " اعتذر " هنا بمعنى أعذر: أي بلغ أقصى الغاية في العذر.

(٤)مجمع الزوائد: ٧/ ٣١٣.

(٥) تفسير الثعلبي:٩٣/١.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٤٧.

(٧) نسبه إليه الماوردي في: النكت والعيون: ٤٧، ولم أجد رأيه في معاني القرآن.

(٨) انظر: معاني القرآن:٣٩/١.

وقد أوضح العلامة ابن أبي العزّ في شرح "العقيدة الطحاوية" المنهج الصحيح في هذا حيث، فقال: "قولهم: الاسم عين المسمى أو غيره؟ وطالما غلط كثير من الناس في ذلك، وجهلوا الصواب فيه، فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده، ونحو ذلك. فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك، فالاسم ها هنا هو المراد لا المسمى، ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال .."[١].

وقد ذكر ابن عطية في "تفسيره" أن مالكا رحمه الله سئل عن الاسم أهو المسمى؟ فقال: "ليس به ولا غيره، قال ابن عطية: يريد دائما في كل موضع"[٢].

و(الاسم) : "كلمة تدل على المسمى دلالة إشارةٍ ، والصفة كلمة تدل على الموصُوف دلالة إفادة ، فإن جعلت الصفة اسماً ، دلَّت على الأمرين : على الإشارة والإفادة"[٣].

قال الماوردي:" وزعم قوم أن الاسم ذاتُ المسمى ، واللفظ هو التسمية دون الاسم ، وهذا فاسد ، لأنه لو كان أسماءُ الذواتِ هي الذواتُ ، لكان أسماءُ الأفعال هي الأفعال ، وهذا ممتنع في الأفعال فامتنع في الذوات"[٤] .

واختلفوا في اشتقاق (الاسم) على وجهين[٥] :

أحدهما : أنه مشتق من السمة ، وهي العلامة ، لما في الاسم من تمييز المسمى ، وهذا قول الفرَّاء[٦] .

والثاني : أنه مشتق من (السمو)، وهي الرفعة لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه من غيره ، وهذا قول الخليل والزجَّاج[٧].

وأنشد قول عمرو بن معدي كرب[٨]:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَمْراً فَدَعْهُ   وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

وَصِلْهُ بِالدُّعَاءِ فَكُلُّ أَمْرٍ   سَمَا لَكَ أَوْ سَمَوْتَ لَهُ وُلُوعُ

ثم ذكروا في سبب اشتقاق (الاسم) من (السمو)، قولين[٩]:

أحدهما: أنه مشتق من السمو، لأنه يعلو المسمى، فالاسم: ما علا وظهر، فصار علما للدلالة على ما تحته من المعنى. قاله الزجاج[١٠].

---

(١)شرح الطحاوية" ص ٨٢.

(٢) المحرر الوجيز: ١/ ٦٣.

(٣) النكت والعيون:٤٨/١.

(٤) النكت والعيون:٤٨/١.

(٥)انظر: النكت والعيون: ٤٨-٤٩، ومعاني القرآن" للزجاج ١/ ٢٤٠، "تفسير ابن عطية" ١/ ٨٤، "الإنصاف في مسائل الخلاف" ص ٤، "البيان في غريب إعراب القرآن" ١/ ٣٢، "مشكل إعراب القرآن" ١/ ٦.

(٦) حكاه عنه الماوردي: ٤٩/١، ولم اجده في معاني القرآن.

(٧) انظر: معاني القرآن: ٤٠/١.

(٨)انظر: النكت والعيون:٤٩/١، وتاج العروس:١٥٩/٢١، والعين:٣٦٨/١، البيت الأول فقط، ولم ينسبه.

(٩) انظر: ومعاني القرآن" للزجاج ١/ ٢٤٠، والمحرر الوجيز: ١/ ٨٤،، والتفسير البسيط: ٤٤٠/١، والإنصاف في مسائل الخلاف" ص ٤، "البيان في غريب إعراب القرآن" ١/ ٣٢، "مشكل إعراب القرآن" ١/ ٦.

(١٠) انظر: معاني القرآن: ٤٠/١ن والإنصاف: ٥.

والثاني: وقال بعضهم: العلة في اشتقاقه من السمو أن الكلام ثلاثة: اسم وفعل وحرف، فالاسم يصح أن يكون خبرا ويخبر عنه، والفعل يكون خبرا ولا يخبر عنه، والحرف لا يكون خبرا ولا يخبر عنه، فلما كان للاسم مزية على النوعين الآخرين وجب أن يشتق مما ينبئ عن هذِه المزية، فاشتق من السمو ليدل على علوه وارتفاعه[١].

قال الواحدي: "وعند المتكلمين أنه اشتق من (السمو)؛ لأنه سما عن حد العدم إلى الوجود[٢]،وقالوا: أصله (سِمْو)، [أو ((سُمو) بالضم] وجمعه (أسماء) مثل قنو وأقناء، وحنو وأحناء فحذفت الواو استثقالًا، ولم تحذف من نظائره؛ لأنها لم تكثر كثرته، ثم سكنوا السين استخفافًا لكثرة ما تجري على لسانهم، واجتلبت ألف الوصل ليمكن الابتداء به، وكان هذا أخف عليهم من ترك الحرف متحركا، لأن الألف تسقط في الإدراج، وكان إثبات الحرف الذي يسقط كثيرا أخف من حركة السين التي تلزم أبدا"[٣].

قال الماوردي:" وحُذِفت ألف الوصل ، بالإلصاق في اللفظ والخط ، لكثرة الاستعمال كما حُذفت من الرحمن ، ولم تحذف من الخط في قوله : { إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذَّي خَلَقَ } [العلق : آية ١] لقلَّة استعماله "[٤].

وتكلف من رَاعَى معاني الحروف ببسم الله تأويلاً، أجرى عليه أحكام الحروف المعنوية ، حتى صار مقصوداً عند ذكر الله في كل تسمية ، ولهم فيه ثلاثة أقاويل[٥] :

أحدها : أن الباء بهاؤه وبركته ، وبره وبصيرته، والسين سناؤه وسموُّه وسيادته ، والميم مجده ومملكته ومَنُّه ، وهذا قول الكلبي[٦]، والضحاك[٧].

قال ابن كثير:" هذا غريب جدا"[٨].

والثاني : أن الباء بريء من الأولاد ، والسين سميع الأصوات والميم مجيب الدعوات ، وهذا قول سليمان بن يسار .

والثالث : أن الباء بارئ الخلق ، والسين ساتر العيوب ، والميم المنان ، وهذا قول أبي روق.

قال الماوردي:" ولو أن هذا الاستنباط يحكي عمَّن يُقْتدى به في علم التفسير لرغب عن ذكره ، لخروجه عما اختص الله تعالى به من أسمائه ، لكن قاله متبوع فذكرتُهُ مَعَ بُعْدِهِ حاكياً ، لا محققاً ليكون الكتاب جامعاً لما قيل"[٩].

ويقال لمن قال:بسم الله: بَسْمَلَ، على لُغَةٍ مُوَلَّدَةٍ[١٠]، وقد جاءت في الشعر، قال عمر بن أبي ربيعة[١] :

---

(١)انظر: "الإيضاح في علل النحو" ص ٤٩، "الإنصاف" ص ٦.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي: ٩٢/١، والتفسير البسيط: ٤٤٠/١.

(٣) التفسير البسيط: ٤٤٠/١، وانظر: انظر: "المقتضب" ١/ ٢٢٩، "مشكل إعراب القرآن" ١/ ٦، اشتقاق أسماء الله" ص ٢٥٦، ٢٥٧، "إعراب القرآن" للنحاس ١/ ١١٧، "الكشاف" ١/ ٣٤، قال الزمخشري: (ومنهم من لم يزدها، أي: الألف، واستغنى عنها بتحريك الساكن فقال: (سم) و (سم).

(٤) النكت والعيون: ٤٨/١.

(٥) انظر: النكت والعيون: ٤٩-٥٠، وتفسير الثعلبي: ٩٤/١-٩٥.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٤٩-٥٠، وتفسير الثعلبي: ٩٤/١-٩٥.

(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢):ص٢٥/١.

(٨) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٣.

(٩) انظر: النكت والعيون:٥٠/١.

(١٠) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس:١٠/١.

لَقَدْ بَسْمَلَتْ لَيْلَى غَدَاةَ لَقِيتُهَا فَيَا حَبَّذا ذَاكَ الْحَبِيبُ المُبَسْمِلُ

وأما قوله:{الله}، فهو أخص أسمائه به، لأنه لم يتسَمَّ باسمه الذي هو (الله) غيره .

وحُكي عن أبي حنيفة أنه الاسم الأعظم من أسمائه تعالى ، لأن غيره لا يشاركه فيه[٢].

واختلفوا في هذا الاسم{الله}، هل هو اسم عَلَمٍ للذات أو اسم مُشْتَقٌّ من صفةٍ ، على قولين[٣]:

أحدهما : أنه اسم علم لذاته ، غير مشتق من صفاته ، لأن أسماء الصفات تكون تابعة لأسماء الذات ، فلم يكن بُدٌّ من أن يختص باسم ذاتٍ ، يكون علماً لتكون أسماء الصفات والنعوت تبعاً، تفرد به الباري سبحانه وتعالى، يجري في وصفه مجرى الأسماء الأعلام، لا يشركه فيه أحد، قال الله عز وجل: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥]. وهذا مذهب الخليل[٤]، وابن كيسان[٥]،وأبي بكر القفال[٦]، والحسين بن الفضل[٧][٨].

والقول الثاني : أنه مشتق من (أَلَهَ)، صار باشتقاقه عند حذف همزِهِ ، وتفخيم لفظه الله .

أخرج ابن ابي حاتم بسنده عن أبي الشعثاء جابر بن زيد في قوله: {بسم الله}، قال: اسم الله الأعظم هو «الله». ألا ترى أنه في جميع القرآن يبدأ به قبل كل اسم"[٩].

واختلفوا فيما اشْتُقَ منه إله على قولين[١٠]:

أحدهما : أنه مشتق من الَوِلَه، وفي سبب اشتقاقه من ذلك، أقوال:

أحدها: لأن العباد يألهون إليه، أي يفزعون إليه في أمورهم ، فقيل للمألوه إليه: (إله)، كما قيل للمؤتَمّ به: (إمام) .

---

(١) ديوانه:٤٩٨.

(٢)انظر: النكت والعيون:٥٠/١.

(٣)انظر: النكت والعيون:٥٠/١-٥١، و اشتقاق أسماء الله" للزجاجي ص ٢٥، "الخزانة" ٢/ ٢٦٦، ٢٦٧، و الكتاب" ٣/ ٤٩٨، والإغفال" ص ٢٦، والمخصص" ١٧/ ١٤٣، والمسائل الحلبيات" للفارسي ص١٠١، والمسائل البصريات" للفارسي ٢/ ٩٠٩.

(٤)هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، البصري، صاحب العربية والعروض (١٠٠ - ١٧٥ هـ). انظر ترجمته في: "معجم الأدباء" ٣/ ٣٠٠، "طبقات النحويين واللغويين" للزبيدي ص ٤٧، "إنباه الرواة" ١/ ٣٧٦، "وفيات الأعيان" ٢/ ٢٤٤، ومقدمة "تهذيب اللغة" ١/ ٣٢، "إشارة التعيين" ص ١١٤.

(٥)هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن كيسان، النحوي، كان يجمع بين المذهبين البصري والكوفي، وإلى مذهب البصريين أميل، توفي سنة تسع وتسعين ومائتين.

انظر ترجمته في "طبقات النحويين" للزبيدي ص ١٣٩، "تاريخ بغداد" ١/ ٣٣٥، "إنباه الرواة" ٣/ ٥٧.

(٦)هو محمد بن علي بن إسماعيل، أبو بكر الشاشي القفال، أحد أعلام المذهب الشافعي، يتكرر ذكره في التفسير والحديث والأصول والكلام، توفي سنة خمس وستين وثلاثمائة على الصحيح.

انظر ترجمته في "الأنساب" ٧/ ٢٤٤، "وفيات الأعيان" ٤/ ٢٠٠، "طبقات الشافعية" لابن قاضي شهبة ١/ ١٤٨.

(٧)الحسين بن الفضل، هو أبو علي الحسين بن الفضل بن عمير البجَلِي الكوفي ثم النيسابوري، المفسر، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين.

انظر ترجمته في: "العبر" ١/ ٤٠٦، "طبقات المفسرين" للداودي ١/ ١٥٩.

(٨)انظر: "تفسير أسماء الله" للزجاجي، اشتقاق اسماء الله" للزجاجي: ص ٢٨ ، وتفسير الثعلبي" ١/ ٩٢، والزينة" ٢/ ١٢.

(٩) تفسير ابن أبي حاتم(٣):ص٢٥/١.

(١٠) انظر: النكت والعيون: ٥١/١.

قال أبو الهيثم:" وأصل (إلاه) (ولاه) فقلبت الواو همزة، كما قالوا: للوشاح: إشاح، ولِلْوِجَاح: إِجَاح، ومعنى وِلاه: أن الخلق يَوْلَهون إليه في حوائجهم، ويضرعون إليه فيما ينوبهم، ويفزعون إليه في كل ما يصيبهم كما يَوْلَه كل طفل إلى أمه"[١].

والثاني: وحكي عن أبي عمرو بن العلاء أنه مشتق من: أَلِهْت في الشيء آلَهُ إلها إذا تحيرت فيه[٢]، وتسمى المفازة ميلها، وقال الأعشى[٣][٤]:

وَبَهْمَاءَ تِيهٍ تَأْلَهَ العَيْنُ وَسْطَهَا   وَتَلْقَى بِهَا بَيْضَ النَّعَام تَرَائِكَا

ومعناه: أن العقول تتحير في كنه صفته وعظمته[٥].

والثالث: وقال المبرّد: "هو من قول العرب: (ألهت إلى فلان) أي سكنت إليه، قال الشاعر[٦]:

أَلَهْتُ إِلَيْهَا وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ

وقال الشَّاعِرُ[٧]:

أَلَهْتُ إِلَيْهَا وَالرَّكَائِبُ وُقَّفٌ

فكأن الخلق يسكنون إليه ويطمئنون بذكره، قال الله تعالى: {أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[الرعد:٢٨]"[٨].

والرابع: وعند الأشاعرة: "أن(الإله) من (الإلَهية)، و(الإلَهية): القدرة على اختراع الأعيان[٩].

والخامس: وقال الحسن علي بن عبد الرحيم القناد: " من (الوله) ، وهو ذهاب العقل لفقدان من يعزّ عليك،وأصله (أله) - بالهمزة- فأبدل من الألف واو فقيل الوله، مثل (إشاح، ووشاح) و (وكاف، وإكاف) و (أرّخت الكتاب، وورّخته) و (ووقّتت، وأقّتت) . قال الكميت[١٠]:

ولهت نفسي الطروب إليهم   ولها حال دون طعم الطعام

فكأنه سمّي بذلك لأن القلوب تولّه لمحبّته وتضطرب وتشتاق عند ذكره"[١١].

---

(١)"التهذيب" (الله والإله) ١/ ١٨٩، وانظر: "اللسان" (أله) ١/ ١١٤.

(٢)انظر: تفسير الثعلبي: ٩٧/١.

(٣)هو أبو بَصير، ميمون بن قيس، من فحول شعراء الجاهلية، ويدعى (الأعشى الكبير) تمييزًا له عن غيره ممن سمي (الأعشى)، أدرك الإسلام آخر عمره، وعزم على الدخول فيه، فصدته قريش في قصة مشهورة. انظر ترجمته في "الشعر والشعراء" ص ١٥٤، "معاهد التنصيص" ١/ ١٩٦، "خزانة الأدب" ١/ ١٧٥.

(٤)البيت في وصف صحراء مطموسة المعالم، (ترائكا) متروكة، ورواية الشطر الأول في الديوان: وَيَهْمَاءَ قَفْرٍ تَخْرُجُ العَيْنَ وَسْطَهَا. وعليه فلا شاهد في البيت هنا. (الديوان) ص ١٣٠، والثعلبي بعد أن ذكر قول أبي عمرو ابن العلاء استشهد بقول زهير:

وَبَيْدَاء تِيهٍ تَأْلَهُ العَيْنُ وَسْطَهَا ... مُخَفَّقَةٍ غَبْرَاءَ صَرْمَاءَ سَمْلَقِ

انظر: تفسير الثعلبي ١/ ٩٧، وكذا في "الزينة" ٢/ ١٩.

(٥) انظر: تفسير الثعلبي: ٩٧/١، والتفسير البسيط: ٤٥٣/١.

(٦)ذكره ابن منظور في اللسان(أله):ص٤٦٩/١٣، والثعلبي في تفسير:٩٧/١، والبغوي: ٧١/١. ولم ينسبه احدهم.

(٧) اللسان(أله):ص٤٦٩/١٣، وتفسير البغوي: ٧١/١.

(٨) تفسير الثعلبي:٩٧/١.

(٩)هذا التفسير لمعنى الإلَهية هو منهج المتكلمين، وعند أهل السنة هو المستحق للعبادة. قال ابن تيمية: (وليس المراد بـ) بالإله (هو القادر على الاختراع كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين .. بل الإله الحق هو الذي يستحق أن يعبده فهو إله بمعنى مألوه لا إله بمعنى آله ..)، "الرسالة التدمرية" ص ١٨٦.

(١٠) البيت في اللسان:٥٦١/١٣، وتفسير الثعلبي:٩٨/١.

(١١) تفسير الثعلبي:٩٧/١-٩٨.

والسادس: وقيل: معناه: محتجب لأن العرب إذا عرفت شيئا، ثم حجب عن أبصارها سمّته إلها، قال: لاهت العروس تلوه لوها، إذ حجبت. قال الشاعر[١]:

لاهت فما عرفت يوما بخارجة   يا ليتها خرجت حتّى رأيناها

والله تعالى هو الظاهر بالربوبيّة [بالدلائل والأعلام] وهو المحتجب من جهة الكيفيّة عن الأوهام[٢].

والسابع: وقيل: معناه المتعالي، يقال: (لاه) أي: ارتفع[٣].

والثامن: وقد قيل: من [إلا هتك] ، فهو كما قال الشاعر[٤]:

تروّحنا من اللعباء قصرا[٥]   وأعجلنا الألاهة أن تؤوبا [٦]

والتاسع: وقيل: هو مأخوذ من قول العرب: ألهت بالمكان، إذا أقمت فيه، قال الشاعر:

ألهنا بدار ما تبين رسومها   كأن بقاياها وشام على اليد

فكأن معناه: الدائم الثابت الباقي[٧].

والقول الثاني : أن لفظ الجلالة(الله) مشتق من (الألوهية)، وهي العبادة ، من قولهم :فلان يتألَّه، أي يتعبد.

قال أبو زيد[٨]: "تَألهُ الرجل، إذا نسك"[٩]، وأنشد[١٠] :

لِلَّهِ دَرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِ   لَمَّا رَأَيْنَ خَلِقَ الْمُمَوَّهِ

سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ مِنْ تألهِي

أي من تعبد[١١].

وقد رُوي عن ابن عباس أنه قرأ :{وَيَذَرَكَ وءالِهَتَكَ}، قال: "معناه: عبادتك"[١٢]. وروي عن مجاهد مثل ذلك[١].

---

(١) تفسير الثعلبي: ٩٨/١، و تفسير القرطبي: ١٧/ ١٠١.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي:٩٨/١.

(٣) انظر: تفسير الثعلبي:٩٨/١.

(٤)تفسير الطبري: ٩/ ٣٥، وتفسير الثعلبي: ٩٨/١، ولسان العرب: ١/ ٢١٩.

(٥) في اللسان: عصرا.

(٦) انظر: تفسير الثعلبي:٩٨/١.

(٧) انظر: تاج العروس: ٩/ ٣٧٥، وتفسير الثعلبي:٩٨/١.

(٨)هو سعيد بن أوس بن ثابت، أبو زيد الأنصاري، صاحب النحو واللغة، مات سنة خمس عشرة ومائتين. انظر ترجمته في مقدمة "تهذيب اللغة" ١/ ٣٤ - ٣٥، "تاريخ بغداد" ٩/ ٧٧، "طبقات النحويين واللغويين" ص ١٦٥، "إنباه الرواة" ٢/ ٣٠.

(٩)الإغفال: ٦، والمخصص: ١٧/ ١٣٦.

(١٠) البيت لرؤبة، انظر: ديوانه:١٦٥، (المُدَّه) جمع مَادِه، بمعنى المادح، يقول: إن هؤلاء سبحن: إنا لله وإنا إليه راجعون، يقلنها حسرة كيف تنسك وهجر الدنيا.
ورد البيت في "الطبري" ١/ ٥٤، "الإغفال" ص ٦، "المخصص" ١٧/ ١٣٦، "المحتسب" ١/ ٢٥٦، "تفسير أسماء الله" للزجاج ص ٢٦، "اشتقاق أسماء الله" ص ٢٤، "التهذيب" (الله) ١/ ١٨٩، "شرح المفصل" ١/ ٣، "زاد المسير" ١/ ٩، وابن عطية ١/ ٥٧.

(١١) انظر: المخصص: ١٣٦/١٧، واللسان(أله):ص٤٦٩/١٣.

(١٢)أخرجه الطبري عن ابن عباس ومجاهد، من طرق، ١/ ٨٤، ٩/ ٢٥ - ٢٦، وذكره ابن خالويه في ص ٥٠، وابن جني في "المحتسب" وعزاه كذلك إلى علي وابن مسعود وأنس بن مالك وعلقمة الجحدري

وروي عن ابن عباس أيضا، قال :" الله: ذو الألوهية والمَعْبودية على خلقه أجمعين"[٢].
وعن ابن عباس كذلك:"{وَيَذَرَكَ وَإلاهَتَك}، قال : إنما كان فرعونُ يُعبَد ولا يَعبُد"[٣].
قال الطبري:"وكذلك كان عبدُ الله يقرؤها ومجاهد"[٤].
وقد سَمَّت العرب الشمس لما عبدت (إلاهَةَ)، و (الإلاهة) قال عتيبة بن الحارث اليربوعي[٥]:
تَرَوَّحْنَا مِنَ اللعْبَاءِ أَرْضًا وأَعْجَلْنَا الإلاَهَةَ أَنْ تَؤُوبَا
وإنما سموها (الإلاَهَة)، على نحو تعظيمهم لها وعبادتهم إياها كفرا، وعلى ذلك نهاهم الله وأمرهم بالتوجه في العبادة إليه في قوله جل وعلا: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ} [فصلت: ٣٧] [فصلت: ٣٧] الآية، وكذلك أيضًا كانوا يدعون معبوداتهم من الأصنام والأوثان (آلهة)، وهي جمع (إلاه) كإزار وآزرة، وإناء وآنية، قال الله تعالى: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف: ١٢٧]، وهي أصنام كان يعبدها قوم فرعون معه ، وعلى هذا قال قائلهم[٦]:
كَحَلْفَةٍ مِنْ أَبِي رِيَاحٍ يَسْمَعُهَا لاَهُهُ الكُبارُ
يريد: الصنم، وهذا البيت حجة لمن يقول بأن أصل(الله) من (لاه).
ثم اختلفوا ، هل اشتق اسم (الإله) من فعل العبادة ، أو من استحقاقها ، على قولين[٧]:
أحدهما : أنه مشتق من فعل العبادة ، فعلى هذا ، لا يكون ذلك صفة لازمة قديمة لذاته ، لحدوث عبادته بعد خلق خلقه ، ومن قال بهذا ، منع من أن يكون الله تعالى إلهاً لم يزل، لأنه قد كان قبل خلقه غير معبود .
والقول الثاني : أنه مشتق من استحقاق العبادة ، فعلى هذا يكون ذلك صفة لازمة لذاته ، لأنه لم يزل مستحقّاً للعبادة ، فلم يزل إلهاً[٨].

والتيمي وأبي طالوت وأبي رجاء، ١/ ٢٥٦، والفارسي في "الإغفال" ص ٥، وانظر: "المخصص" ١٧/ ١٣٦، "تفسير الماوردي" ٢/ ٢٤٨، "تهذيب اللغة" (الله) ١/ ١٩٠، "البحر" ٤/ ٣٦٧.
(١)انظر: تفسير الطبري(١٤٤):ص١/١٢٤ .
(٢) تفسير الطبري(١٤١):ص١/١٢٣.
(٣) تفسير الطبري(١٤٣):ص١/١٢٤.
(٤) تفسير الطبري:١/١٢٤.
(٥)نسبه الطبري لبنت عتيبة ٩/ ٢٦، ونسبه بعضهم لـ (مية) وهو اسمها وكذا (أم البنين) وقيل: لنائحة عتيبة، والأقرب أنه لبنت عتيبة ترثي أباها حين قتله (بنو أسد) يوم (خَوّ) مع أبيات أخرى ذكرها في "معجم البلدان" ٥/ ١٨.
(٦)من قصيدة للأعشى، قالها فيما كان بينه وبين بني جحدر، و (أبو رياح) رجل من بني ضبيعة، قتل جارا لبني سعد بن ثعلبة، فسألوه الدية، فحلف لا يفعل، ثم قُتِل بعد حلفته، و (لاهه): الهه، (الكبار): العظيم، ويروى (بحلفة) ويروى (كدعوة).
انظر: "ديوان الأعشى" ص ٧٢، "الجمهرة" ١/ ٣٢٧، "اشتقاق أسماء الله" ص ٢٧، "تفسير الثعلبي" ١/ ١٧ ب، "الزينة" ٢/ ١٨، "معاني القرآن" للفراء ١/ ٢٠٧، والقرطبي ٤/ ٥٣، "اللسان: (لوه) ١٣/ ٥٣٩، و(أله): ١٣/ ٤٦٩، وشرح المفصل" ١/ ٣، "الخزانة" ٧/ ١٧٦.
(٧)انظر: النكت والعيون: ٥١/١، و الإغفال" ص ٥، "المخصص" ١٧/ ١٣٦، وتفسير الثعلبي: ١/ ٩٢-٩٣، وتفسير أسماء الله" ص ٢٦، "اشتقاق أسماء الله" ص ٣٠٢٣، "تهذيب اللغة" (الله) ١/ ١٨٩.
(٨)انظر: "الإغفال" ص ٥، "المخصص" ١٧/ ١٣٦، وتفسير الثعلبي:١/٩٢-٩٣، "تفسير أسماء الله" ص ٢٦، "اشتقاق أسماء الله" ص ٣٠٢٣، "تهذيب اللغة" (الله) ١/ ١٨٩.

قال الماوردي:" وهذا أصح القولين، لأنه لو كان مشتقّاً من فعل العبادة لا من استحقاقها ، للزم تسمية عيسى عليه السلام إلهاً ، لعبادة النصارى له ، وتسمية الأصنام آلهة ، لعبادة أهلها لها ، وفي بطلان هذا دليل ، على اشتقاقه من استحقاق العبادة ، لا من فعلها ، فصار قولنا (إله) على هذا القول صفة من صفات الذات ، وعلى القول الأول من صفات الفعل"(١).

قوله تعالى:{الرَّحْمَنِ} [الفاتحة : ١]،أي:" ذي الرحمة العامة الذي وسعت رحمته جميع الخلق"(٢).

قال ابن عباس:" الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب... «الرحمن»:الرقيق الرفيق لمن أحب أن يرحمه"(٣).

وعن ابن عباس أيضا، "أن عثمان بن عفان سأل رسول الله- ﷺ- عن «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال: هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم «الله» إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب"(٤).

وروي عن الحسن قال:" الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه، تسمى به تبارك وتعالى"(٥).

وعن أبي سعيد الخدريّ، قال : "قال رسول الله -ﷺ-: « إنّ عيسى ابن مريم قال : الرحمن: رَحمنُ الآخرة والدنيا»"(٦).

وقال العَرْزَمي: "الرحمن: بجميع الخلق "(٧).

قوله تعالى:{الرَّحِيمِ} [الفاتحة : ١]، أي: "الرحيم بالمؤمنين"(٨).

قال ابن عباس:" الرحيم: البعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه العذاب"(٩).

وقال العَرْزَمي: " الرّحيم: بالمؤمنين "(١٠).

وقد روي عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «الرحيم: رحيمُ الآخرة »"(١١).

وأخرج البهقي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: "الرحمن: وهو الرقيق ، الرحيم: وهو العاطف على خلقه بالرزق ، وهما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر"(١٢).

قال الطبري:" أنّ المعنى الذي في تسمية الله بالرحمن ، دون الذي في تسميته بالرحيم: هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميعَ خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعضَ خلقه، إما في كل الأحوال ، وإما في بعض الأحوال. فلا شك - إذا كان

---

(١) انظر: النكت والعيون: ٥١/١.
(٢) التفسير الميسر:١.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم(٤):ص٢٥/١.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٥):ص٢٥/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٧):ص٢٦/١.
(٦)أخرجه الطبري(١٤٧):ص١٢٧/١.
(٧) أخرجه الطبري(١٤٦):ص١٢٧/١.
(٨) التفسير الميسر:١.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٦):ص٢٦/١.
(١٠) أخرجه الطبري(١٤٦):ص١٢٧/١.
(١١)أخرجه الطبري(١٤٧):ص١٢٧/١.
(١٢) الأسماء والصفات للبيهقي(٨٢):ص١٣٩/١.

ذلك كذلك - أنّ ذلك الخصوص الذي في وصفه بالرحيم لا يستحيل عن معناه ، في الدنيا كان ذلك أو في الآخرة ، أو فيهما جميعًا"[١].

وقال عطاء الخراساني:" : كان الرحمن ، فلما اختزلَ الرحمن من اسمه كان الرحمنَ الرحيمَ"[٢].

أراد عطاء أنه لما تسمَّى به الكذابُ مسيلمة - وهو اختزاله إياه ، يعني اقتطاعه من أسمائه لنفسه - أخبر الله جلّ ثناؤه أن اسمه " الرحمنُ الرحيمُ " ليفصِل بذلك لعباده اسمَهُ من اسم من قد تسمَّى بأسمائه ، إذ كان لا يسمَّى أحد " الرحمن الرحيم " ، فيجمع له هذان الاسمان ، غيره جلّ ذكره. وإنما يتسمَّى بعضُ خَلْقه إما رحيما ، أو يتسمَّى رَحمن. فأما " رحمن رحيم " ، فلم يجتمعا قطّ لأحد سواهُ ، ولا يجمعان لأحد غيره، فكأنّ معنى قول عطاء هذا : أن الله جل ثناؤه إنما فَصَل بتكرير الرحيم على الرحمن ، بين اسمه واسم غيره من خلقِه ، اختلف معناهما أو اتفقا.

والذي قال عطاءٌ من ذلك غيرُ فاسد المعنى ، بل جائز أن يكون جلّ ثناؤه خصّ نفسه بالتسمية بهما معًا مجتمعين، إبانةً لها من خلقه ، ليعرف عبادُه بذكرهما مجموعينِ أنه المقصود بذكرهما دون مَنْ سواه من خلقه ، مع مَا في تأويل كل واحد منهما من المعنى الذي ليس في الآخر منهما[٣].

الفوائد:

١-إثبات اسم من أسماء الله وهو الرحمن المتضمن للرحمة الواسعة : كما قال تعالى {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام : ١٤٧].

وقال تعالى {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا} [الكهف : ٥٨]، وقال تعالى:{وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف : ١٥٦].

٢- رحمته سبقت غضبه : كما قال ﷺ :"إن الله كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي"[٤].

٣-والله أرحم بعباده من الأم بولدها . كما في حديث عمر أنه قال: "قُدِم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى، إذْ وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله -ﷺ:- أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟، قلنا: لا والله، فقال) :الله أرحم بعباده من هذه بولدها"[٥].

٤-وقد ذهب أكثر العلماء إلى استحبابها قبل الأقوال والأفعال، فبِها بدأ الله كلامه، وكان يبدأ بها النبي ﷺ قبل أكله وشربه وجِماعه ودخوله إلى الخلاء ودخوله إلى البيت وخروجه منه، وغير ذلك.

---

(١) تفسير الطبري:١٢٨/١.

(٢) أخرجه الطبري(١٤٩):ص١٣٠/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري:١ /١٣٠.

(٤) رواه البخاري: كتاب التوحيد:(٦٨٧٢).

(٥)أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم: (٥٩٩٩)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم: (٢٧٥٤).

قال الطبري:"إن الله تعالى ذكره وتقدَّست أسماؤه أدّب نبيه محمدًا ﷺ بتعليمه تقديمَ ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وتقدَّم إليه في وَصفه بها قبل جميع مُهمَّاته، وجعل ما أدّبه به من ذلك وعلَّمه إياه ، منه لجميع خلقه سُنَّةً يستنُّون بها، وسبيلا يتَّبعونه عليها ، فبه افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم ، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل : " بسم الله " ، على من بطن من مراده الذي هو محذوف"[١].

٥- واتفق العلماء أنها جزء آية من سورة النمل:{ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [النمل: ٢٩- ٣٠]، وأنها ليست في أول سورة التوبة التي فُضح فيها المنافقون ووُعدوا فيها بأشد العذاب، فلا يليق أن تُبدأ برحمة الله.

٦- ومنها أن لفظ الجلالة{الله} : اسم الله رب العالمين لا يسمى به غيره؛ وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماء تابعة له، قد ورد في اسم الله الأعظم من الأحاديث والآثار والأقوال، نذطر منها[٢]:

١- لاوجود لاسم الله الأعظم لأن اسماءه تعالى كلها عظيمة:

يرى البعض أنه لا وجود لاسم الله الأعظم، بمعنى أن أسماء الله تعالى كلها عظيمة لا يجوز تفضيل بعضها على بعض، ذهب إلى ذلك قوم منهم أبو جعفر الطبري[٣] وأبو الحسن الأشعري وأبو حاتم [بن حبان[٤] والقاضي أبو بكر الباقلاني، ونحوه قول مالك وغيره، لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض وحمل هؤلاء ما ورد من ذكر الاسم الأعظم على أن المراد به العظيم[٥]، وعبارة الطبري اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم.

ويرى الامام السيوطي أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه فكأنه تعالى يقول [كل اسم من أسمائي يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم [٦].

وقال ابن حبان : الأعظمية الواردة في الأخبار المراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك كما أطلق ذلك في القرآن والمراد به مزيد ثواب الداعي والقارئ[٧].

---

(١) تفسير الطبري: ١١٤/١.

(٢) انظر: للفتاوى للسيوطي ١/٣٩٤.

٣) أبو جعفر الطبري هومحمد بن جرير الطبري ولد سنة ٢٢٥ هـ وتوفي ٣١٠هـ(انظر طبقات المفسرين ص٣٠).

(٤) وابن حبان : محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي الحافظ العلامة صاحب المسند الصحيح توفي ٣٥٤ (الوافي بالوفيات ٢٧٨/١)، وهي إحدي الروايات.

(٥) قال المناوي :قيل الاسم الأعظم بمعني العظيم ،وليس أفعل التفضيل ؛لان كل اسم من أسمائه عظيم ،وليس بعضها أعظم من بعض وقيل هو للتفضيل ،لأن كل اسم فيه أكثر تعظيماً لله فهو أعظم من الرب فإنه لا شريك له في تسميته به لا بالإضافة ولابدونها وأما الرب فيضاف للمخلوق)فيض القدير ٥١٠/١ رقم١٠٣١ ،تفسير بن كثير ١١/١وانظر علوم القران للزركشي ٤٣٨/١ وايثار الحق ;٣٢٩.

(٦) أنظر: فيض القدير ٥١٠/١ والسر القدسي في تفسير آية الكرسي (خطوط) وانظر المقصد الاسني للغزالي ص١٦٩ والثابت عند استقراء الأحاديث أن النبيﷺ قد أشار إلي مجموعة من الأسماء الحسني أنها متعينة لتكون اسم الله الأعظم ومن قرأ هذه المخطوطة تأكد له ذلك وأكثر هذه الأحاديث صحيحة فكيف يقول السيوطي بعد ذلك، (غذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم)ويؤكد علي أنها التساوي في العظمة.

(٧) انظر فيض القدير ٥١٠/١،البرهان في علوم القران ٤٣٨/١ ،وشرح صحيح مسلم ٩٣/٦ ونقل عن ابن حبان قوله :أعظم سورة أراد به في الأجر لا أن بعض القرآن أفضل من بعض)البرهان في علوم القران

٢- لم يطلع عليه أحد:
ويرى آخرون أنه مما استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه كما قبل بذلك في ليلة القدر وفي ساعة الإجابة وفي الصلاة الوسطى(١).
٣-(هو):
وقيل أن (هو) هو اسم الله الأعظم، نقله الإمام فخر الدين عن بعض أهل الكشف واحتج له بأن من أراد أن يعبر عن كلام عظيم بحضرته لم يقل أنت قلت كذا وإنما يقول هو تأدبا معه(٢).
٤- (الله)
وقيل أن (الله) هو اسم الله الأعظم، لأنه اسم لم يطلق على غيره ولأنه الأصل في الأسماء الحسنى ومن ثم أضيفت إليه(٣) قال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا إسماعيل بن علية عن أبي رجاء حدثني رجل عن جابر بن عبد الله بن زيد أنه قال: اسم الله الأعظم هو الله ألم تسمع أنه يقول:{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الحشر : ٢٢]، وقال ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء حدثنا إسحاق بن إسماعيل عن سفيان بن عيينة عن مسعر قال قال الشعبي اسم الله الأعظم يا الله(٤).
٥- (الله الرحمن الرحيم):
قال الحافظ ابن حجر (٥) في شرح البخاري(٦) ولعل مستنده ما أخرجه ابن ماجه[٧] عن عائشة أنها سألت النبي ﷺ أن يعلمها الاسم الأعظم، فلم يفعل فصلت ودعت اللهم إني أدعوك الله وأدعوك الرحمن وأدعوك الرحيم، وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم- الحديث، وفيه أنه ﷺ قال لها إنه لفي الأسماء التي دعوت بها.
قال وسنده ضعيف وفي الاستدلال به نظر انتهى، قلت أقوى منه في الاستدلال ما أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ فقال هو اسم من أسماء الله تعالى وما بينه وبين اسم الله

٤٣٨/١ وأجود من هذا ما قاله الزركشي من أن التفاضل واقع بين الآيات والسور والأسماء لنا تضمنته من المعاني
(فالتفضيل إنما هو بالمعاني وكثرتها ؛لا من حيث الصفة وهذا هو الحق)البرهان في علوم القرآن ٤٣٩/١ ونقل بن العربي التفضيل☹إنما صارت آية الكرسي عظم لعظم مقتضاها فإن الشيء إنما بشرف ذاته ومقتضاه ومتعلقاته البرهان ٤٤٢/١ وانظر مجموع الفتاوى ١٠٦٧/١٧ وشفاء العليل ص٥٨٤
(١) ويبدو أن هذا القول جانب الصواب لعدم توفر أدلته عليه وأيضاً :يتوفر الأدلة علي معرفته كما هو ظاهر.
(٢)انظر لوامع البينات ص ،والمقصد الاسني ص١٦٩ وتفسير أسماء الله الحسني ص٢٤،٢٦
(٣) قال الزجاج :الاسم الأعظم هو قولنا الله ويعد الأسماء الاخري مضافة غليه تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص٢٤.
(٤) مصنف بن أبي شيبة ٢٣٤/٧ رقم٣٥٦١٢ورقم٣٥٦١٣ عن جابر بن زيد والدر المنثور ١٢٢/٨ ومعني لا إله إلا الله للزركشي ص١٢٣ونقض الدارمي١٦٨،١٦٩/١ وقال الزركشي وقد تكلم كل ذي فن من العلوم علي هذا الاسم بما لو جمع لبلغ مالا تحصره دواوين .وما بلغت نفس امرئ قال مبلغاً...من القول غلا والذي فيه أعظم)معني لا إله إلا الله ص١٢٣
(٥) رواه ابن ماجه في سننه ٣٢٩/٢ رقم٣١١٠، والألوسي في تفسيره ٧٥/٣ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٧٤٦.
(٦) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٢٤/١١،وشرح النووي ١٨/١٧.
(٧) سنن ابن ماجه ١٢٦٧/٢رقم ٣٨٥٩ وضعفه ابن حجر في فتحه ٢٢٤/١١.

الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب[١]، وفي الفردوس للديلمي من حديث ابن عباس مرفوعا اسم الله الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر[٢].

٦- [الرحمن الرحيم][٣]

وقيل أن (الحي القيوم) هو اسم الله الأعظم، ولك لحديث الترمذي وغيره عن أسماء بنت يزيد أنه عليه السلام قال اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الحشر : ٢٢]، وفاتحه سورة آل عمران{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران : ٢][٤].

٧-(الحي القيوم)، وذلك لحديث ابن ماجه والحاكم عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه رفعه الاسم الأعظم في ثلاث سور: البقرة وآل عمران وطه، قال القاسم الراوي عن أبي أمامه التمستة فيها فعرفت أنه الحي القيوم، وقواه الفخر الرازي واحتج بأنهما يدلان على صفات العظمة بالربوبية ما لا يدل على ذلك غيرهما كدلالتهما [٥].

٨- (الحنان المنان بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام)

وذلك لحديث أحمد وأبي داود وابن حبان والحاكم عن أنس "أنه كان مع رسول الله- ﷺ -جالسا ورجل يصلي ثم دعا اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم، فقال- ﷺ- لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى" [٦].

٩- (بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام)

أخرج أبو يعلى من طريق السرى بن يحيى عن رجل من طيء وأثنى عليه خيرا قال كنت أسال الله تعالى أن يريني الاسم الأعظم فرأيت مكتوبا في الكواكب في السماء يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام"[٧] .

١٠- (ذو الجلال والإكرام)

وذلك لحديث الترمذي عن معاذ سمع النبي- ﷺ- رجلا يقول: يا ذا الجلال والإكرام فقال قد استجيب لك فسل [١]، وأخرج ابن جرير في تفسير سورة النمل عن مجاهد قال: الاسم الذي إذا

---

(١) المستدرك٧٣٨/١رقم٢٠٢٧ قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وشعب الإيمان ٤٣٧/٢.

(٢) روح المعاني ٦٤/٢٨،الدر المنثور ١٢٣،٥/٨/٤٧٨ عن ابن عباس.

(٣) الرحمن الرحيم وفاتحة سورة آل عمران " الله لا إله إلا هو الحي القيوم " في (ب)

(٤) رواه الترمذي في سننه ٥١٧/٥حديث رقم٣٤٧٨ وأبو داود في سننه٤٧٠/١ قال الألباني حسن

(٥) ومنهم من قال الاسم الأعظم الحي القيوم ويدل عليه وجهان:أحدهما أن أبي بن كعب طلب من المصطفي ﷺ ﷺ انه يعلمه الاسم الأعظم فقال هو في قوله تعالي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)وفي ألم الله لا غله إلا هو الحي القيوم)قالوا وليس ذلك في قولنا الله لا إله إلا هو لأن هذه الكلمة موجودة في آيات كثيرة فلما خص الاسم الأعظم بهاتين الآيتين علمنا أنه الحي القيوم الثاني أن الحي يدل علي كونه سبحانه عالماً متكلماً قادراً سميعاً بصيراً والقيوم يدل علي أنه قائم بذاته مقوم لغيره ومن هذين الأصلين تتشعب جميع المسائل المعتبرة في علم التوحيد ..)لوامع البينات ص، فيض القدير ٥١٠/١ وتفسير الثعالبي ٢٤١/١، ٢٠٢-

(٦) رواه أبو داود في سننه ٤٧٠/١ حديث رقم ١٤٩٥ والنسائي ٥٢٠/٣حديث رقم١٣٠٠ وابن ماجه ١٢٦٨/٢ حديث رقم ٣٨٥٨ واحمد في مسنده١٢٠/٢رقم٢٢٢٦ ،الترغيب والترهيب ٣١٨/٢ ، وجلاء الإفهام لابن القيم ص١٨٧وفي كتاب الدعاء للطبراني ٥٢/١ قال الحاكم :صحيح علي شرط مسلم وقال الألباني حسن صحيح.

(٧) رواه أبو يعلي في مسنده ورواته ثقات وذكره صاحب الترغيب والترهيب ٣١٨/٢ رقم ٢٥٤٠ وهو عن بعض الصحابة انظر جلاء الإفهام لابن القيم ص١٨٧ وأخرجه الطبراني في الدعاء ٥٢/١

دعى به أجاب يا ذا الجلال والإكرام[٢] واحتج له الفخر الرازي بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة في الإلهية، لأن في الجلال إشارة إلى جميع السلوب وفي الإكرام إشارة إلى جميع الإضافات [٣].

١١- (الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)

وذلك بدليل حديث أبي داود والترمذي وابن حبانوالحاكم عن بريدة: "أن رسول الله- ﷺ- سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقال: لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب"[٤]، وفي لفظ عند أبي داود :"لقد سألت الله باسمه الأعظم"، قال الحافظ ابن حجر: وهو أرجح من حديث السند[عن] جميع ما ورد في ذلك[٥].

١٢- (ربّ ربّ)

أخرج الحاكم عن أبي الدر داء وابن عباس قالا: اسم الله الأكبر رب رب[٦]، وأخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة مرفوعا وموقوفا إذا قال العبد: "يا رب يا رب" قال الله: "تعالى لبيك عبدي سل تعط"[٧].

١٣- وقد قيل (مالك الملك)

أخرج الطبراني في الكبير بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله- ﷺ-" اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء) إلى قوله: (وترزق من تشاء بغير حساب" [٨].

١٤- (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)

قال المناوي: اسم الله الاعظم الذي إذا دعي به أجاب ...دعوة يونس بن متي[٩]، وذلك لحديث النسائي والحاكم عن فضالة بن عبيد رفعه "دعوة ذي النون في بطن الحوت (لا إله إلا أنت

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه وقال حسن حديث رقم ٢٥٣٧وفي الترغيب والترهيب والمعجم الكبير ٥٦/٢رقم ٩٨ ومسند بن حميد ٦٦/١رقم١٠٧

(٢) الدر المنثور ٣٤/٣

(٣) كرامات الأولياء للالكائي ص٧٢،٨٠ انظر الرازي الآيات البينات ص

(٤) رواه أبو داود في سننه ٤٦٩/١رقم١٤٩٣ والترمذي ٥١٥/٥ رقم٣٤٧٥ الحاكم في مستدركه ٦٣٨/١رقم٨٥٨ وقال هذا حديث صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه

(٥) قال في الترغيب ٣١٧/٢رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم قال صحيح علي شرطيهما ..وقال ابو الحسن المقدسي وغسناده لا مطعن فيه ولم يرد في هذا الباب حديث أجود اسناداً وصححه الالباني :في صحيح الترغيب والترهيب ١٢٩/٢ رقم١٦٤٠ منه.

٦أخرجه الطبراني في الدعاء ٥٤/١رقم١١٩ عن أبي الدر داء وابن عباس رضي الله عنهما والحاكم في مستدركه ٦٨٤/١رقم١٨٦٠ ومصنف ابن أبي شيبة ٤٧،٢٣٣/٦رقم٢٩٣٦٥ ، ٣٥٦١٠.

(٧) ضعيف انظر فيض القدير ٤١١/١ رقم٧٧٧ وقال احتج بهذا الحديث من ذهب غلي ان اسم الله الاعظم هو الرب قال ابن تيمية ☹اسمه الرب ،ولهذا يقال في الدعاء يارب كما قال آدم ربنا ظلمنا أنفسنا (مجموع الفتاوى ٢٠٧/١

(٨) قال المناوي : قال الهيثمي : فيه جسر بن فرقد وهو ضعيف وأقول فيه أيضاً محمد بن زكريا الغلابي أورده الذهبي في الضعفاء ايضاًوقال وثقه ابن معين وقال أحمد ليس بقوي والنسائي والطبراني والدار قطني :ضعيف)فيض القدير ٥١١/١ اخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٧١/١٢ رقم ١٢٧٩٢ عن ابن عباس

(٩) فيض القدير ٥١٢/١ .

سبحانك إني كنت من الظالمين) لم يدع بها رجل مسلم قط إلا استجاب الله له"[١]، أخرج ابن جرير من حديث معبد مرفوعا "اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى"[٢]، أخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص مرفوعا" ألا أدلكم على اسم الله الأعظم دعاء يونس فقال: رجل هل كانت ليونس خاصة؟ فقال ألا تسمع قوله: (ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين)"[٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن كثير ابن سعيد معبد قال سألت الحسن عن اسم الله الأعظم قال: أما تقرأ القرآن؟ قول ذي النون[٤]: [لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين][٥].

١٥- (كلمة التوحيد: لا إلاه إلا الله)

قال به القاضي عياض [٦] [٧].

١٦- (الله. الله..الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم)

ما نقله الفخر الرازي عن زين العابدين أنه سأل الله أن يعلمه الاسم الأعظم فرأى في النوم هو الله. الله..الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم[٨].

١٧- وقيل هو مخفي في الأسماء الحسنى

ويؤيده حديث عائشة المتقدم لما دعت ببعض الأسماء و بالأسماء الحسنى فقال لها" إنه لفي الأسماء التي دعوت بها"[٩].

١٨- أنه كل اسم من أسمائه تعالى دعا به العبد مستغرقا

وقيل أنه كل اسم من أسمائه تعالى دعا العبد به ربه مستغرقا بحيث لا يكون في فكره حالة إذ غير الله فإن من دعا الله تعالى بهذه الحالة كان قريب الإجابة وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ٦٨٥/١رقم ١٨٦٢ وقال هذا حديث صحيح الإسناد

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٧٨/٩ ،والسيوطي في الدر المنثور ٦٩٩/٥

(٣) اخرجه الحاكم في مستدركه ٦٨٥/١ رقم١٨٦٥

(٤) قال ابن القيم (اما دعوة ذى النون :فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب ،واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو أبلغ أدوية الكرب والهم زاد المعاد ١٨٥/٤

(٥) الدر النثور ٦٦٩/٥

(٦) القاضي عياض بن موسي بن عياض العلامة صاحب التصانيف المالكي المذهب ولد سنة ٤٧٦ العبر ٢٦١/١

(٧) انظر فتح الباري ٢٠٧/١١

(٨) البرهان في علوم القرآن ٤٤/١ ،معارج القبول ٣٩٤/٢ ،لوامع البينات ص

(٩) سنن ابن ماجة: ٣١٨/١١.(صحيح وضعيف سنن ابن ماجة: ٣٨٥٩). عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ الْمُبَارَكِ الْأَحَبِّ إِلَيْكَ، الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ أَجَبْتَ، وَإِذَا سُئِلْتَ بِهِ أَعْطَيْتَ، وَإِذَا اسْتُرْحِمْتَ بِهِ رَحِمْتَ، وَإِذَا اسْتُفْرِجَتَ بِهِ فَرَّجْتَ» قَالَتْ: وَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «يَا عَائِشَةُ هَلْ عَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ دَلَّنِي عَلَى الِاسْمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ؟» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَعَلِّمْنِيهِ، قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَكِ يَا عَائِشَةُ» ، قَالَتْ: فَتَنَحَّيْتُ وَجَلَسْتُ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَقَبَّلْتُ رَأْسَهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِيهِ، قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَكِ يَا عَائِشَةُ أَنْ أُعَلِّمَكِ، إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَكِ أَنْ تَسْأَلِي بِهِ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا» ، قَالَتْ: فَقُمْتُ فَتَوَضَّأْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ اللَّهَ، وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ، وَأَدْعُوكَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ، وَأَدْعُوكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى كُلِّهَا، مَا عَلِمْتُ مِنْهَا، وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، قَالَتْ: فَاسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّهُ لَفِي الْأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَوْتِ بِهَا". ضعيف التعليق على ابن ماجة، التعليق الرغيب (٢ / ٢٧٥).

يزيد البسطامي[١] أنه سأله رجل عن الاسم الأعظم فقال: ليس له حد محدود إنما هو فراغ قلبك بوحدانيته [فإذا كنت كذلك فافرغ إلى أي اسم شئت فإنك تسير به إلى المشرق والمغرب[٢].

وأخرج أبو نعيم أيضا عن أبي سليمان الداراني[٣] قال : سألت بعض المشايخ عن اسم الله الأعظم قال: تعرف قلبك قلت نعم قال فإذا رأيته قد أقبل ورق فسل الله حاجتك فذاك اسم الله الأعظم [٤].

وأخرج أبو نعيم أيضا عن ابن الربيع السائح أن رجلا قال: له علمني الاسم الأعظم فقال اكتب بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أطع الله] يطعك كل شيء.

١٩- (اللهمّ)

حكاه الزركشي في شرح جمع الجوامع[٥] واستدل لذلك بأن الله دال على الذات والميم دالة على الصفات التسعة والتسعين ذكره أبو المظفر وهذا قال الحسن البصري اللهم مجمع الدعاء[٦] وقال النصر بن شميلمن قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه.

٢٠- (ألم)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (آلم) اسم من أسماء الله الأعظم[٧]، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال (آلم) قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى [٨].

مسألة:

اختلف العلماء هل البسملة آية قرآنية؟ وهل تقرأ في الصلاة؟، وفي ذلك أقوال:

أحدها: ذهب مالك والأوزاعي إلى أنها ليست من القرآن، ومنعا من قراءتها في الفرائض مطلقاً، وأجازا قراءتها في النافلة"[٩].

والثاني: أما أبو حنيفة والثوري وأتباعهم فقرأوها في افتتاح "الحمد" ولكن أوجبوا إخفاتها.

---

(١) أبو يزيد البسطامي : اسمه : هو أبو يزيد طيفور بن عيسى مروشان البسطامي، أحد الزهاد، أخو الزاهدين: آدم وعلي، وكان جدهم شروسان مجوسياً، فأسلم يقال: إنه روى عن إسماعيل السدي، وجعفر الصادق، وقد ولد العارف أبو يزيد سنة ١٨٨هـ ببسطام في بلاد خرسان في مجلة يقال لها محلة موبدان، وتوفي سنة ٢٦١هـ عن ثلاث وسبعين سنة. (انظر سير أعلام النبلاء، ١٣/ ٨٦، وانظر وفيات الأعيان ٢/ ٥٣١، وانظر طبقات الصوفية للسلمي ص ١٨ – ١٩ . وانظر الطبقات الكبرى ١/ ٧٦.)

(٢) حلية الأولياء ٣٩/١٠

(٣) أبو سليمان الداني : أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، من أهل داريّا، قرية من قرى دمشق في سوريا . وصفه الذهبي بـ "الإمام الكبير، زاهد العصر"، ولد سنة ١٤٠ هـ، وتوفي سنة ٢١٥ هـ.(انظر: بقات الصوفية، تأليف :أبو عبد الرحمن السلمي، ص٧٤-٧٩، دار الكتب العلمية، ط٢٠٠٣، وسير أعلام النبلاء: ١٨٣/١٠ وما بعدها)،

(٤) حلية الأولياء ١٦٣/١٠

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ١٤٦/١ :(انطلقوا علي اسم الله "اللهم "أعنهم ثم رجع رسول الله ﷺ ...).

(٦) انظر تفسير البغوي ٣٠٤/١ ،والدر المنثور ١٧٢/٢ والإتقان للسيوطي ٢٤/٢.

(٧) تفسير الطبري ١١٨/١ ،تفسير بن كثير ٦١/١ .

(٨) تفسير الطبري ١١٨/١ ،وزاد الميسر ١٥٣/٦ ،وتفسير الثعالبي ٣٠/١.

(٩)انظر: "بداية المجتهد" لابن رشد - ج ١ - ص ٩٦، و"التفسير الكبير" للفخر الرازي - ج ١ - ص ١٠٠

والثالث: في حين أن الإمام الشافعي قرأها في الجهريات جهراً وفي الإخفاتيات إخفاتاً، وعدها آية من "الفاتحة"، وهذا هو قول أحمد بن حنبل أيضاً، واختلف المنقول عن الشافعي في أنها آية من كل سورة أم أنها ليست بآية في غير "الفاتحة"[(١)].

ويترتب على القول بأن البسملة آية من الفاتحة أو ليست آية منها من حيث قراءة البسملة في الصلاة : أن من يقول أن البسملة آية من الفاتحة يقول بوجوب و يترتب على القول قرائتها في الصلاة [(٢)]،و لا تصح الصلاة إلا بقرائتها ؛ لأنها من الفاتحة ؛ لقوله ﷺ : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"[(٣)] ؛ ومن يقول: إنها ليست من الفاتحة ؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله يقول قرائتها جائزة[(٤)] ،ومن يقول ليست البسملة من الفاتحة ولا من غيرها يقول تكره قراءة البسملة في الصلاة فلا يقرأ بها المصلي في المكتوبة ولا في غيرها سرا ولا جهرا[(٥)] ،ويترتب على كون البسملة آية أو بعض آية حرمة مس المحدث حدثا أكبر أو أصغر ورقة مكتوب فيها البسملة عند القائلين بحرمة مس المحدث المصحف ،وهم جهور العلماء ؛ لأن البسملة ما دامت آية أو بعض آية فهي من المصحف فتأخذ حكمه .

والنصوص في ذلك متواترة، أما عن طريق العامة فهنالك روايات كثيرة تدل على ذلك:

١. عن ابن جريح عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي)، قال:" فاتحة الكتاب (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)" - وقرأ السورة، قال ابن جريح: "فقلت لأبي: لقد أخبرك سعيد عن ابن عباس أنه قال: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) آية؟" قال:"نعم"[(٦)].

٢. ما صحَّ عن ابن عباس أيضاً قال:"إن النبي (ﷺ) كان إذا جاءه جبرائيل فقرأ(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، علم أنها سورة"[(٧)].

٣. ما صح عن ابن عباس أيضاً قال: "كان النبيُّ (ﷺ) لا يعلم ختم السورة حتى تنزل (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)"[(٨)].

٤. ما صح عنه أيضاً قال: "كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، فإذا نزلت (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) علموا أن السورة قد انقضت."[(٩)].

٥. ما صح عن أم سلمة قالت: "كان النبي (ﷺ) يقرأ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ..) إلى آخرها - يقطعها حرفاً حرفاً"[(١٠)].

---

(١)انظر: "التفسير الكبير" في تفسير البسملة.

(٢)انظر تحفة الأحوذي ٤٧/٢ محمد عبد الرحمن المباركفوري أبو العلا دار الكتب العلمية - بيروت

(٣) رواه البخاري في صحيحه رقم ٧٥٦،ورواه مسلم في صحيحه رقم ٣٩٤

(٤) انظر تحفة الأحوذي ٤٧/٢

٥ - تفسير القرطبي ١١١/١ دار الحديث الطبعة الثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٦م ،و الاستذكار لابن عبد البر ٤٥٥/١ الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٢١ – ٢٠٠٠ تحقيق : سالم محمد عطا ، محمد علي

(٦)انظر: تفسير سورة الفاتحة من كتاب التفسير من المستدرك للحاكم ومن تلخيصه للذهبي - ص ٢٥٧ - ج ٢، وقد صرح الحاكم والذهبي بصحة إسناد الحديث .

(٧)أخرجه الحاكم في كتاب الصلاة من مستدركه - ص ٢٣١ - ج١

(٨)مستدرك الحاكم في كتاب الصلاة من مستدركه - ص ٢٣١ - ج ١

(٩)مستدرك الحاكم - ج ١ - ص ٢٣٢، قال: "هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين،" وصححه الذهبي أيضاً في التلخيص

(١٠)مستدرك الحاكم - ج ١ - ص ٢٣٢، والذهبي في تلخيصه، وقد صرحا بصحة الحديث

وعن أم سلمة من طريق آخر إن رسول الله (ﷺ) قرأ في الصلاة (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) وعدها آية، (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) آيتين، (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) ثلاث آيات..." الحديث[1].

٦. ما صح عن نعيم المجمر قال: "كنت وراء أبي هريرة فقرأ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) ثم قرأ بأم الكتاب حتى بلغ (وَلاَ الضَّالِّينَ)، قال: 'آمين'، فقال الناس: 'آمين'، فلما سلم قال: 'والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ" [2].

وعن أبي هريرة أيضاً، قال: "كان رسول الله (ﷺ) يجهر في الصلاة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ"[3].

٧. ما صح عن أنس بن مالك قال: "صلى معاوية بالمدينة فجهر فيها بالقراءة، فقرأ فيها (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) لأم القرآن، ولم يقرأ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) للسورة التي بعدها حتى قضى تلك القراءة، فلما سلم ناداه من سمع ذلك من المهاجرين والأنصار من كل مكان: 'يا معاوية، أسرقت الصلاة أم نسيت؟' فلما صلى بعد ذلك قرأ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) للسورة التي بعد أم القرآن." أخرج هذا الحديث الحاكم في المستدرك وصححه على شرط مسلم[4]، وأخرجه غير واحد من أصحاب المسانيد كالشافعي في مسنده[5]، وعلق على ذلك بقوله: "إن معاوية كان سلطاناً عظيم القوة شديد الشوكة فلولا أن الجهر بالبسملة كان كالأمر المقرر عند كل الصحابة من المهاجرين والأنصار لما قدروا على إظهار الإنكار عليه بسبب ترك التسمية"[6].

٨. ما صح - أيضاً - عن أنس بن، قال: "سمعت رسول الله (ﷺ) يجهر في الصلاة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّ الله الرحمن الرحيم"[7].

٩. ما صح عن محمد بن السري العسقلاني، قال: "صليت خلف المعتمر بن سليمان ما لا أحصي صلاة الصبح والمغرب، فكان يجهر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قبل فاتحة الكتاب وبعدها للسورة. وسمعت المعتمر يقول: 'ما آلوا أن أقتدي بصلاة أبي، وقال أبي: ما آلوا أن أقتدي بصلاة أنس بن مالك.' وقال أنس بن مالك: 'ما آلو أن أقتدي بصلاة رسول الله (ﷺ)'"[8].

وعن قتادة قال: "سئل أنس بن مالك كيف كانت قراءة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: 'كانت مداً ثم قرأ (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) يمد الرحمن ويمد الرحيم،'"[9].

---

(١) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

(٢)مستدرك الحاكم - ج ١ - ص ٢٣٢، والذهبي في تلخيصه وقد صرحا بصحة الحديث.

(٣) مستدرك الحاكم - ج ١ - ص ٢٣٢، والذهبي في تلخيصه وقد صرحا بصحة الحديث ، وأخرجه البيهقي في السنن الكبيرة، كما ذكره الرازي في تفسيره - ج ١ - ص ١٠٥

(٤)ورواها الحاكم في المستدرك الجزء ١ ص ٢٣٣ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم.

(٥) انظر: ترتيب مسند الإمام الشافعي: ١ / ٨٠، وسنن البيهقي: ٢ / ٤٢ - ٤٤، ومسائل فقهية: ص ١٦ - ٢٩، وبحار الأنوار: ١٩ / ٥٩، ومستدرك الحاكم: ٢٣١، ٢٣٢، وكنز العمال: ٤ / ٣٠، وتفسير الزمخشري :تفسير سورة الحمد.

(٦) كما نقله الرازي في التفسير الكبير - ج ١ - ١٠٥

(٧) أخرجه الحاكم وأورده الذهبي في باب الجهر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ من كتابيهما وقالا : رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات وجعلاه علة ونقيضا لحديث قتادة عن أنس.

(٨) أخرجه الحاكم في المستدرك وأورده الذهبي في التلخيص ونصا على أن رواته عن آخرهم ثقات وجعلاه علة ونقيضاً لحديث قتادة عن أنس، الباطل.

(٩)سنن البيهقي - باب افتتاح القراءة في الصلاة ببسم الله - الجزء ٢ ص ٤٦ ، والمستدرك ، حديث الجهر ببسم الله الجزء ١ ص ٢٣٣ " .

وعن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: "صليت خلف النبي وخلف أبي بكر وخلف عمر وخلف عثمان وخلف علي، فكلهم كانوا يجهرون بقراءة (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)"[١].

١٠. وقد ذكر الرازي أن البيهقي روى الجهر بالبسملة في سننه عن عمر بن الخطاب وابن عمر وابن الزبير ثم قال الرازي: "وأما علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) كان يجهر بالبسملة فقد ثبت بالتواتر ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى، والدليل عليه قول رسول الله (ﷺ): 'اللهم أدر الحق مع علي حيث دار"[٢].

وهنالك حجة أخرى على أن البسملة آية في كل سورة وهي أن الصحابة كافة ومن بعدهم إلى يومنا هذا أجمعوا إجماعاً عملياً على كتابة البسملة في بداية كل سورة عدا سورة براءة، كما كتبوا سائر الآيات بلا ميزة مع أنهم مطبقون على أن لا يكتبوا شيئاً من غير القرآن إلا بميزة عنه حرصاً منهم على أن لا يختلط فيه شيء من غيره، وقلَّ أن تجتمع الأمة على أمر كاجتماعها على ذلك، وهذا دليل على أن البسملة أية مستقلة في بداية كل سورة.

دليل آخر: من المشهور المأثور عن رسول الله (ﷺ) قوله: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أقطع[٣] أو أبتر أو أجذم"[١] فهل يمكن أن يكون القرآن وهو أفضل ما أوحاه الله إلى أنبيائه أقطع؟ وهل يمكن أن تكون الصلاة وهي خير العمل بتراء جذماء؟

---

(١) مستدرك الحاكم: ١ / ٢٣٢، والذهبي في تلخيصه وقد صرحا بصحة الحديث .

(٢)الجامع الصغير للسيوطي - حرف الكاف: ٢ /٩١، كنز العمال: ١ / ١٩٣ .

(٣)الجامع الصغير للسيوطي - حرف الكاف : ٢ /٩١، كنز العمال : ١ /١٩٣ . وانظر: التفسير الكبير للرازي - ج ١ في تفسير البسملة. قال الإمام النووى فى " الأذكار " ١ / ٩٤ : و قد روى موصولا كما ذكرنا و روى مرسلا و رواية الموصول جيدة الإسناد، و قال عبد القادر الأرناؤوط ١ / ٩٤ : أخرجه ابن السنى فى عمل " اليوم و الليلة " عن أبى هريرة و إسناده ضعيف . و رواه بنحوه الحاكم و الترمذى و البيهقى فى " شعب الإيمان " عن ابن عباس رضى الله عنهما و فى سنده يمان بن المقبرة و هو ضعيف.

أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (كُلُّ كَلَامٍ أَوْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ - أَوْ قَالَ : أَقْطَعُ -) وقد روي الحديث بألفاظ أخرى نحو هذا.

رواه الإمام أحمد في " المسند " (٣٢٩/١٤) طبعة مؤسسة الرسالة ، وآخرون كثيرون من أصحاب السنن والمسانيد.

وفيه علتان:

العلة الأولى : ضعف قرة بن عبد الرحمن ، قال أحمد بن حنبل : منكر الحديث جدا . وقال يحيى بن معين : ضعيف الحديث . وقال أبو زرعة : الأحاديث التى يرويها مناكير. انظر: "تهذيب التهذيب" (٣٧٣/٨)

العلة الثانية : أنه قد رجح بعض أهل العلم أن الصواب فيه : عن الزهري مرسلا ، - والمرسل من أقسام الحديث الضعيف -.

فقد أخرجه النسائي في "عمل اليوم والليلة" (٤٩٥ ، ٤٩٧) عن الزهري ، قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فذكره.

قال الدارقطني رحمه الله: "والصحيح عن الزهري المرسل " انتهى ".العلل " (٣٠/٨).

وضعفه الزيلعي في " تخريج الكشاف " (٢٤/١) ، وضعفه الشيخ الألباني في " إرواء الغليل " (٢٩/١-٣٢)، كما ضعفه المحققون في طبعة مؤسسة الرسالة. وقد حَسَّن الحديث أو صححه جماعة من العلماء ، فقد حسنه النووي وابن حجر ، وصححه ابن دقيق العبد وابن الملقن.

وسئل عنه الشيخ ابن باز رحمه الله فقال:

"جاء هذا الحديث من طريقين أو أكثر عند ابن حبان وغيره ، وقد ضعفه بعض أهل العلم ، والأقرب أنه من باب الحسن لغيره" انتهى". مجموع فتاوى ابن باز" (١٣٥/٢٥).

نستنتج مما سبق بأنه قد اختلف في العلماء في البسملة فذهب البعض إلى أنها ليست من فاتحة الكتاب، ولا من غيرها من السور والافتتاح بها للتيمن والتبرك . وذهب البعض إلى أنها من الفاتحة وليست من سائر السور ،وذهب آخرون إلى أنها آية مستقلة ،وهذا هو الراجح لجمعه بين النصوص التي تثبتأن البسملة من كتاب الله وبين الأدلة التي تثبت أن البسملة ليست من السور إلا أنها بعض آية من سورة النمل. والله أعلم.

القرآن

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)} [الفاتحة : ٢]

التفسير:

الثناء على الله بصفاته التي كلُّها أوصاف كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وفي ضمنه أَمْرٌ لعباده أن يحمدوه، فهو المستحق له وحده، وهو سبحانه المنشئ للخلق، القائم بأمورهم، المربي لجميع خلقه بنعمه، ولأوليائه بالإيمان والعمل الصالح.

قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}[الفاتحة:٢]، أي:" الشكر خالصًا لله"[٢].

قال الصابوني:" أي: قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي الحمدلله"[٣].

قال القاسمي:" أي: الثناء بالجميل، والمدح بالكمال ثابت لله دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه"[٤].

قال مقاتل بن سليمان:" يعني الشكر للَّه"[٥].

قال الواحدي:أي:" الثَّناء لله والشُّكرُ له بإنعامه"[٦].

قال النسفي: أي:" الوصف بالجميل على جهة التفضيل واجب لله"[٧].

قال السعدي:أي:" الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل، بجميع الوجوه"[٨].

قال ابن عباس:" {الحمد لله}: كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله، قال: شكرني عبدي"[٩].

والحديث معناه مقبول ومعمول به ، فقد افتتح الله تعالى كتابه بالبسملة ، وافتتح سليمان عليه السلام كتابه إلى ملكة سبأ بالبسملة ، قال تعالى: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) النمل/٣٠ ، وافتتح النبي صلى الله عليه وسلم كتابه إلى هرقل بالبسملة ، وكان ﷺ يفتتح خطبه بحمد الله والثناء عليه.

وقد ذهب أكثر الفقهاء إلى مشروعية البسملة واستحبابها عند الأمور المهمة.

وجاء في الموسوعة الفقهية (٩٢/٨): "اتفق أكثر الفقهاء على أن التسمية مشروعة لكل أمر ذي بال ، عبادة أو غيرها" انتهى. والله أعلم.

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي - ج ١ في تفسير البسملة.

(٢) تفسير الطبري:١٣٤/١.

(٣) صفوة التفاسير:١٩/١.

(٤) محاسن التأويل: ٢٢٦/١.

(٥) تفسير مقاتل: ٣٦/١.

(٦) الوجيز:٨٨.

(٧) تفسير النسفي: ٣١/١.[بتصرف بسيط].

(٨) تفسير السعدي:٣٩/١.

(٩) تفسير ابن أبي حاتم(٨):ص٢٦/١.

وعن ابن عباس أيضا:" {الحمد لله}: هو الشكر لله ، والاستخذاء لله ، والإقرار بنعمته وهدايته وابتدائه ، وغير ذلك"[١].

قال كعب:" {الحمد لله}: ثناء على الله"[٢].

قال علي:" كلمة رضيها الله لنفسه"[٣].

قال الأخفش: أي: "الشكر لله، والحمد أيضًا: الثناء"[٤].

قال ابن عثيمين:" {الحمد} وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ الكمال الذاتي، والوصفي، والفعلي؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله"[٥].

وفي نوع الالف واللام في قوله تعالى:{الْحَمْدُ لِلَّهِ}[الفاتحة:٢]، ثلاثة أقوال[٦]:

أحدهما: للعَهدِ، أي: الحمدُ المعهودُ.

والثاني: لتعريف الجنس، أي: مُطلقُ الحمد، قال ابن رجب:"وهو ضعيفٌ"[٧].

والثالث: للاستغراق، قاله أبو جَعفر الباقِرُ[٨] وغيره.

والقول الأخير هو الأصحُّ، أي: استغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيما وتمجيدا"[٩]، وفي الأثر: "اللهمّ لك الحمدُ كلُّه"[١٠]، وفي دُعاءِ القنوت: "ونثني عليك الخيرَ كلَّه"[١١]، وقوله: "لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك"[١٢].

و(الحمد) في اللغة: حمِدَ يَحمَد، حَمْدًا، فهو حامد، والمفعول مَحْمود وحَميد، حمِد الشَّيءَ: رضي عنه وارتاح إليه، وحمِد اللهَ: أثنى عليه وشكرَ نعمتَه قال الله تعالى:(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(الفاتحة:٢) قال الله تعالى: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ)(التوبة:١١٢)، أي: الرَّاضون بقضاء الله، الشَّاكرون لأنعمه، ويقال حمِد فلانًا على أمر أي: أثنى عليه، وعكسه ذمَّه[١٣].

---

(١) أخرجه الطبري(١٥١):ص١٣٥/١. اساده ضعيف، و الحديث نقله ابن كثير في التفسير ١ : ٤٣ ، والسيوطي في الدر المنثور ١ : ١١ ، والشوكاني في تفسيره الذي سماه فتح القدير ١ : ١٠ ، ونسبوه أيضًا لابن أبي حاتم في تفسيره .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم(١٠):ص٢٦/١، وتفسير الطبري(١٥٣):ص١٣٧/١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم(١٢):ص٢٧/١.

(٤) تهذيب اللغة: (حمد):ص٩١٣/١، واللسان(حمد):ص٩٨٧/٢. ولم أجد القول في معاني القرآن.

(٥) تفسير ابن عثيمين:٩/١.

(٦) انظر: تفسير الفاتحة لابن رجب: ٦٤.

(٧) تفسير الفاتحة: ٦٤.

(٨) انظر: تفسير الفاتحة لابن رجب: ٦٤.

(٩) محاسن التأويل: ٢٢٦/١.

(١٠)حديث حسن، رواه البيهقي: (٤٠٨٧).

(١١) البيهقي: ٢١١/٢.

(١٢)عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله -ﷺ- كان يقول فى آخر وتره : "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك". رواه أبو داود (١٤٢٧) والنسائي(١٧٤٧) والترمذي (٣٨٨٢) وابن ماجة (١١٧٩).

(١٣)د أحمد مختار عبد الحميد عمر(٢٠٠٨)، معجم اللغة العربية المعاصرة (الطبعة الأولى)، بيروت: عالم الكتب، صفحة ٥٥٦، جزء ١١. بتصرّف.

قال أحمد بن فارس في معجم مقاييس اللغة: (حمد) الحاء والميم والدال كلمة واحدة وأصل واحد يدلّ على خلاف الذم، يقال حمدت فلاناً أحمده، ورجل محمود ومحمد، إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة[١].

ويُعرّف (الحمد) في الاصطلاح بأنه: الثناء بالفضيلة[٢]،فيُقال: حمدتُ الرّجل، أي بمعنى: أثنيتُ عليه بفعلٍ جميلٍ قام به اختياره[٣]، وقيل إنّ الحمد هو: ثناء على المحمود لكمال ذاته وصفاته، والحمد المطلق لا يكون إلاّ لله[٤].

و(الحَمْدُ لِلهِ)، فيه إخبارٌ من الله – تعالى - لعباده بأسمائه الحُسنى وصفاته العلا، وإرشادٌ لهم بأن يُثنوا عليه بها ثناءً يليق بجلاله – جلّ في علاه – كما أثنى - سبحانه - على نفسه، فهو حميد يحب الحمد، ويحبّ من يحمده، ويثني عليه، عن الأسوَد بن سريع - رضي الله عنه - قال : "كنت شاعِرًا ، فأتيت النبي - ﷺ - فقلت : يا رسول الله ! إني مدحت ربي بمحامِد"، قال : "أما إن ربك يحب الحمد"[٥].

وقيل يُعرّف الحمد بأنه: الوصف بالجميل الاختياري على المنعم بسبب كونه منعماً على الحامد أو غيره[٦]، مثاله القول: بأنّ فلان كريم أو شجاع، (على المنعم): الذي أعطى النعمة، وهو الله عزّ وجلّ. يعّرف الحمد عند الأصوليين وغيرهم بأنه: ليس قول القائل: الحمد لله، إنما هو فعلٌ يُشعر بتعظيم المنعم، بسبب كونه منعماً، وذلك الفعل إما فعل اعتقاد بصفات الجلال والكمال، أو فعل لسانٍ ذَكَر ما يذكره القلب، أو فعل جوارح بالإتيان بأفعال دالة عليه[٧].

و(الشكر) لغةً :الاعتراف بالإحسان، ونشره، وحمد موليه، وهو الشكور أيضاً[٨] وقيل: الشين والكاف والراء أصول أربعة متباينة بعيدة القياس. فالأول: الشكر: الثناء على الإنسان بمعروف يوليكه. ويقال: إن حقيقة الشكر الرضا باليسير، والأصل الثاني: الامتلاء والغزر في الشيء، الأصل الثالث: الشكير من النبات، وهو الذي ينبت من ساق الشجرة، الأصل الرابع: الشكر، وهو النكاح[٩]

والشكر يكون على ثلاث منازل[١٠]:

الأول: شكر القلب.

قال الواحدي:" وهو الاعتقاد بأن الله ولي النعم، قال الله: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل: ٥٣]"[١١].

---

(١)أحمد بن فارس (١٩٧٩)، معجم مقايس اللغة، بيروت: دار الفكر، صفحة ١٠٠، جزء ٢. بتصرّف.

(٢)عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، فقه الأدعية والأذكار (الطبعة الثانية)، صفحة ٢٦٤-٢٦٨. بتصرّف.

(٣)عماد بن زهير حافظ (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، حمد الله ذاته الكريمه في آيات كتابه الحكيمة (الطبعة الأولى)، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، صفحة ١٦، جزء ١١. بتصرّف.

(٤)عطية بن محمد سالم، شرح بلوغ المرام، صفحة ٢-٦، جزء ٥٩. بتصرّف.

(٥)رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٥٩). وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٦٠).

(٦)محمد بن محمد الشنقيطي، شرح زاد المستقنع، صفحة ٣، جزء ٢. بتصرّف.

(٧)لمرداوي (٢٠٠٠)، التحبير شرح التحرير في أصول الفقه (الطبعة الأولى)، السعودية: مكتبة الرشيد، صفحة ٤٧-٤٩، جزء ١١. بتصرّف.

(٨)كتاب العين، للفراهيدي: السعودية: دار ومكتبة الهلال، صفحة ٢٩٢، جزء ٥. بتصرّف.

(٩) معجم مقاييس اللغة: ٢/ ١٠٠.

(١٠) انظر: التفسير البسيط: ١/ ٤٧٠.

(١١) التفسير البسيط:١/ ٤٧٠.

الثاني: شكر اللسان، ويكون بإظهار النّعمة بالذكر لها والحديث عنها، والثناء على من أسداها، قال سبحانه وتعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}[الضحى:١١].
الثالث: شكر العمل، وهو إخضاع النّفس بالطّاعة[١] قال الله سبحانه وتعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا} [السبأ: ١٣]، وفي الحديث: "قام النبيُّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- حتى تورَّمَتْ قدَماه، فقيل له: غفَر اللهُ لك ما تقدَّم من ذَنْبِك وما تأخَّر، قال: أفلا أكونُ عبدًا شَكورًا"[٢].
وقد جمع الشاعر أنواعه الثلاثة فقال[٣]:
أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ منِّى ثلاثةً   يَدِي ولِسَانِي والضَّمِيرَ المُحَجَّبَا
وأما (الحمد): فيكون باللسان وحده، فهو إحدى شعب الشكر[٤].
واختلف العلماء في الفرق بين الحمد والشكر، على أقوال:
أحدها: أنّ لفظ الحمد يُطلقُ للثناء على المحمود بجميل ما فيه من صفات وأفعال ونعم، أمّا الشكر فهو ثناء العبد على المحمود بنعمه فقط. وعلى هذا القول فالحمد أعمّ من الشكر، فكلّ شكر هو حمد، وليس كلّ حمد يُعتَبر شكراً، ولذلك ورد حمد الله سبحانه نفسه ولم يرد شكره، وهو كما الحال في حالة التفرقة بين الحمد والمدح، فالمدحُ أعم من الحمد ذلك أنّ المدح يكون للعاقل ولغير العاقل، ولا يلزم في المدح كون الممدوح مُختاراً، ومن هنا كان وصف اللؤلؤة بصفائها ونقائها مدحاً لا حمداً، أما الحمد فإنّه لا يُطلَق إلا للفاعل المُختار على اعتبار كون الصفات المُتّصف فيها والمحمودة له صفات كمال، ويكون الحمد صادراً عن عِلم وليس عن ظنّ، فيمكن القول بأن: المدح يكون أعمّ من الحمد، والحمد يكون أعمّ من الشكر[٥] .
والثاني: أن الحمد يكون أعمّ فيما يقع عليه، فالحمد يقع على الصّفات اللازمة والصّفات المُتعدّية، فيُقال: حمد فلانٌ فلاناً لفروسيته وشجاعته ولكرمه. فالحمد وصف المحمود بصفات الكمال اللازمة والمُتعدّية مع المحبة وتعظيم المحمود في القلب، ولا يخفى أنّ مدار الأعمال صلاحاً أو فساداً ينبني على القلب. قال رسول الله -عليه الصّلاة والسّلام-: "إنّما الأعمالُ بالنياتِ، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى دنيا يصيُبها، أو إلى امرأةٍ ينكحها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه"[٦] قال -عليه الصّلاة والسّلام-: "إنَّ الحَلالَ بيِّنٌ وإنَّ الحَرامَ بيِّنٌ وبينَهمَا مشْتَبَهَاتٌ لا يعْلَمُهُنَّ كثيرٌ من الناسِ، فمنْ اتَّقَى الشبهَاتِ استَبرَأَ لدينِهِ وعِرضِهِ، ومن وقعَ في الشبهَاتِ وقعَ في الحرامِ، كالراعِي يرعَى حولَ الحِمَى يوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فيهِ، ألا وإنَّ لكلِ ملِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمَى اللهِ محَارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإذَا فَسَدَتْ، فسدَ الجَسدُ كُلُّهُ، ألا وهِيَ القَلبُ"[٧].

---

(١) التَّفْسِيرُ البَسِيْط، للواحدي: ٤٧٠/١.
(٢) رواه البخاري عن المغيرة بن شعبة(٤٨٣٦).
(٣)يقول: إن نعمتكم علي أفادتكم مني يدي ولساني وجناني فهي وأعمالها لكم. ورد البيت بدون عزو في "غريب الحديث" للخطابي ١/ ٣٤٦، " الكشاف" ١/ ٤٧، "الفائق" ١/ ٣١٤، "الدر المصون" ١/ ٣٦، وانظر: "مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف" ص ٧.
(٤)انظر: الكشاف: ٩/١.
(٥)عماد بن زهير حافظ (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م)، حمد الله ذاته الكريمه في آيات كتابه الحكيمة (الطبعة الأولى)، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، صفحة ١٦، جزء ١١. بتصرّف.
(٦) رواه البخاري عن عمر بن الخطاب(١).
(٧) رواه مسلم عن النعمان بن بشير(١٥٩٩).

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: "الحمد يكون بالقلب واللسان، وأما الشكر فهو أخص من حيث الوقوع، فالشكر لا يكون إلا مع الصفات المُتعدّية. يُقال: شكر فلاناً لكرمه، ولا يُقال: شكره لفروسيته وشجاعته. فالشّكر يكون جزاءً على نعمة انتفع بها، بينما يأتي الحمد جزاءً كالشكر، ويأتي ابتداءً"[١].

والثالث:أن الحمد ثناء العبد على الممدوح بصفاته من أن يسبق إحسان الممدوح، وأمّا الشكر فهو ثناء على المشكور بما قدّم وأجزل من الإحسان، وعلى هذا القول قال علماء الإسلام: الحمد أعم من الشكر.

قال أحمد بن محمد الخطابي البستي:"الحمد نوع والشكر جنس، وكل حمد شكر، وليس كل شكر حمدا"[٢].

والرابع: وهناك من يقول بأنّ الحمد والشكر مُتَقاربان، والحمد أعَمُّ، لأنَّ العبد حمَد الممدوح على صِفاته الذاتيَّة وعلى كثرة عطائه، ولا تَشْكُره بالتالي على صِفاته[٣].

ويقال: " شكرته وشكرت له وباللام أفصح"[٤] المشهور باللام وهو الأكثر استعمالاً، قال تعالى:{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [لقمان:١٤]، وقال تعالى:{وَاشْكُرُواْ لِلّهِ} [البقرة:١٧٢]، ويأتي متعدياً بنفسه كما في قوله تعالى:{وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ} [النحل:١١٤].

وفي قول الشاعر[٥]:

شَكَرْتكَ إنَّ الشُّكْرَ حبلٌ من التقي وما كُلُّ من أوليته نعمةً يقضي

فقال شكرتك، مع أن الغالب في الاستعمال أن يقول: شكرت لك.

أما المدح: "فهو أعم من الحمد، لأنه يكون للحي وللميت وللجماد أيضاً، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم"[٦].

وللحمد صيغ، منها:

١- الحمد لله : عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : "لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي[٧] مما طلعت عليه الشمس"[١].

---

(١)سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم (١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م)، اللباب في تفسير الاستعاذة والبسملة وفاتحة الكتاب (الطبعة الأولى)، الرياض - المملكة العربية السعودية: دار المسلم للنشر والتوزيع، صفحة ٢١٨، جزء ١١.

(٢) غريب الحديث: ٣٤٦/١.

(٣)مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م)، (الطبعة الثالثة)، بيروت: دار الكتاب العربي، صفحة ٢٣٧، جزء ٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٤٤/١.

(٥) البيت لأبي نُخَيلة ، انظر: مروج الذهب: (٣/ ٢٨٧) ، و الأغاني: (٢٠/ ٣٩٢) . و طبقات الشعراء: لابن المعتز ص (٦٤).

(٦) تفسير ابن كثير: ٤٤/١.

(٧)وقد استشكل الكثيرون - كابن جرير الطبري، وابن العربي المالكي وغيرهما - كيف تتم المقارنة أصلاً بين الدنيا وما ذكر في الحديث؟ وكيف أطلق المفاضلة بين المنزلة التي أعطيها، وبين ما تطلع عليه الشمس، مع أن من شرط المفاضلة استواء الشيئين في أصل المعنى؟! ثم كيف يزيد أحدهما على الآخر، ولا استواء بين تلك المنزلة والدنيا بأسرها؟!

وجوابًا على ذلك - من وجوه - وباختصار نقول:

قال العلماء رحمهم الله - تعالى - : افتتحَ اللهُ كتابهُ العزيز بـ{ الْحَمْدُ لِلَّهِ } فاختار لفظ الجلالة (الله) ولم يقل :(الْحَمْدُ للكريم) ولا (للعظيم) وهو وإن كان حمداً للعظيم والكريم، إلا أن تخصيص الاسم الدالّ على الذات أبلغ فيالحمد والثناء من ذكر الوصف، لأنك لو قلت : الحمدُ للكريم، لأشْعَرَ أنكَ حَمَدْتَهُ مِن أجْلِ كَرَمِه، فإن قلت : الحَمْدُ لله، أثبَتَّ لَهُ الحَمْدَ لذاته - سبحانه وتعالى – كان ذلك أبلغ.

٢- الحمد لله رب العالمين : قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة : ٢]، وقوله - تعالى { وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات ١٨٢].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنه - قالا : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "إن الله - تعالى - اصطفى من الكلام أربعا : سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فمن قال سبحان الله كتبت له عشرون حسنة وحطت عنه عشرون سيئة، ومن قال الله أكبر مثل ذلك، ومن قال لا إله إلا الله مثل ذلك، ومن قالالحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة وحط عنه ثلاثون خطيئة"(٢).

٣- لربي الحمد : عن حذيفة - رضي الله عنه - أنه : "صلى مع رسول الله - ﷺ - ذات ليلة، فسمعه حين كبر، قال : الله أكبرُ ذا الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، وكان يقول في ركوعه سبحان ربي العظيم، وإذا رفع رأسه من الركوع قال : لربي الحمد، لربي الحمد، وفي سجوده سبحان ربي الأعلى، وبين السجدتين رب اغفر، لي رب اغفر لي، وكان قيامه وركوعه، وإذا رفع رأسه من الركوع وسجوده، وما بين السجدتين قريبا من السواء"(٣).

٤- له الحمد : اقتران الحمد بالكلمة الطيبة : شهادة التوحيد : عن أبي أيوب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ-: "من قال لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير عشرا، كان كمن أعتق رقبة من ولد إسماعيل"(٤).

أولاً: إن قوله ﷺ: ((أحب إليَّ من الدنيا))؛ أولًا: يفضي إلى درجات الآخرة، وكل ما كان مفضيًا إلى درجات الآخرة، يكون أفضل وأحب من الدنيا؛ لأن الدنيا مفضية إلى الهلاك.

وثانيًا: كانت هي أحب إليه من كل شيء؛ لأنه لا شيء إلا الدنيا والآخرة، فأخرج الخبر عن ذكر الشيء بذكر الدنيا؛ إذ كان لا شيء سواها إلا الآخرة.

وثالثًا: أن يكون خاطب أصحابه بذلك، على ما قد جرى من استعمال الناس بينهم في مخاطبتهم، من قولهم - إذا أراد أحدهم الخبر عن نهاية محبته للشيء -: هو أحب إليَّ من الدنيا، وما أعدل به من الدنيا شيئًا؛ كما قال - عز وجل:{ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ } [العلق: ١٥٥]، ومعنى ذلك: لنهينَنَّه ولنُذلنَّه؛ لأن الذين خوطبوا بهذا الخطاب كان في إذلالِهم مَن أرادوا إذلالَه السَّفعُ بالناصية، فخاطبهم بالذي كانوا يتعارفون بينهم.

ورابعًا: أن أفعل قد لا يراد بها المفاضلة؛ كقوله - عز وجل:{ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا } [الفرقان: ٢٤٤]، ولا مفاضلة بين الجنة والنار.

وخامسًا: أن يراد المفاضلة بين ما دلت عليه وبين ما دل عليه غيرُها من الآيات المتعلقة به، فرجحها، وجميع الآيات وإن لم تكن من أمور الدنيا فإنها أنزلت لأهل الدنيا، فدخلت كلها فيما طلعت عليه الشمس، والله أعلم.

[انظر: شرح صحيح البخاري (٢٤٩/١٠)، لابن بطال، وفتح الباري (٥٨٣/٨)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٢٦/٨)، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٤٠/١٠)].

(١) رواه مسلم(٢٦٩٥).

(٢) رواه : (أحمد والحاكم والضياء) انظر : (صحيح الجامع ١٧١٨)

(٣) سنن النسائي ٢/ ١٩٩ رقم ١٠٦٩.

(٤) متفق عليه، ولفظ (الترمذي) : (كانت له عدل أربع رقاب من ولد إسماعيل). (صحيح). (صحيح الجامع ٦٤٣٥).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل عملا أكثر من ذلك)[١].

٥- لك الحمد : عن أنس بن مالك قال : كنت مع رسول الله ﷺ جالسا يعني ورجل قائم يصلي فلما ركع وسجد وتشهد دعا فقال في دعائه اللهم اني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم إني أسألك فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه تدرون بما دعا قالوا : الله ورسوله أعلم قال : "والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى"[٢].

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الحمد عن الرسول -عليه الصّلاة والسّلام-، منها:

- روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "كلمتانِ خفيفتانِ علي اللسانِ، ثقيلتانِ في الميزانِ، حبيبتانِ إلى الرحمنِ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه، سبحانَ اللهِ العظيمِ"[٣] .

- عن أبي مالك الأشعري قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: الطَّهورُ شطرُ الإيمانِ، والحمدُ للهِ تملأُ الميزانَ، وسبحان اللهِ والحمدُ للهِ تملآنِ [أو تملأُ] ما بين السماواتِ والأرضِ، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصبرُ ضياءٌ، والقرآنُ حُجَّةٌ لكَ أو عليكَ، كل الناسِ يغدُو فبايعٌ نفسَه فمُعْتِقُها أو مُوبِقُها"[٤] .

- قال رسول الله -عليه الصّلاة والسّلام-: "إنَّ اللهَ اصطفى مِنَ الكلامِ أربعًا: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، فمَن قال سبحانَ اللهِ كُتِبَ له عشرون حسنةً وحُطَّتْ عنه عشرون سيِّئةً، ومَن قال اللهُ أكبَرُ فمِثْلُ ذلك، ومَن قال لا إلهَ إلَّا اللهُ فمِثْلُ ذلك، ومَن قال الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ مِن قِبَلِ نفسِه كُتِبَتْ له ثلاثون حسنةً وحُطَّتْ عنه ثلاثون سيِّئةً، وفي روايةٍ: مَن قال سبحانَ اللهِ كُتِبَ له عشرون حسنةً وحُطَّتْ عنه عشرون سيِّئةً مِن غيرِ شكٍّ. وفي روايةٍ: فمَن قال سبحانَ اللهِ كُتِبَتْ له عشرون حسنةً وحُطَّتْ عنه عشرون سيِّئةً، ومَن قال الحمدُ للهِ فمِثْلُ ذلك، ومَن قال لا إلهَ إلَّا اللهُ فمِثْلُ ذلك، ومَن قال اللهُ أكبَرُ مِن قِبَلِ نفسِه كُتِبَ له ثلاثون حسنةً وحُطَّتْ عنه ثلاثون سيِّئةً"[٥] .

وفي رواية: ن سمرة بن جندب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "أحب الكلام[٦] إلى الله أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، لا يضرك بأيِّهن بدأت[٧]، ولا تسمين

---

(١) متفق عليه، (صحيح الجامع ٦٤٣٧)

(٢)سنن النسائي:٣/ ٥٢ رقم ١٣٠٠.

(٣)رواه البخاري عن ابي هريرة(٦٦٨٢).

(٤) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري(٢٢٣).

(٥)رواه الهيثمي، في مجمع الزوائد، عن أبي سعيد الخدري وأبو هريرة، الصفحة أو الرقم: ٩٠/١٠، خلاصة حكم المحدث : رجالهم رجال الصحيح.

(٦)قال النووي: "هذا محمول على كلام الآدمي، وإلا فالقرآن أفضل، وكذا قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل المطلق، فأما المأثور في وقت أو حال ونحو ذلك فالاشتغال به أفضل، والله أعلم"؛ شرح مسلم (٩٥/٩).

(٧)قال الصنعاني: "قوله ﷺ: ((لا يضرك بأيِّهن بدأت)): دل على أنه لا ترتيب بينها، ولكن تقديم التنزيه أولى؛ لأنه تقدم التخلية - بالخاء المعجمة - على التحلية - بالحاء المهملة - والتنزيه: تخلية عن كل قبيح، وإثبات الحمد

غلامك يسارًا ولا رباحًا ولا نجيحًا ولا أفلح، فإنك تقول: أثَمَّ هو؟ فلا يكون فيقول: لا، إنما هن أربع فلا تزيدن عليَّ"[1].

وقد ثبت فضل الشكر في الشريعة من أوجهٍ كثيرةٍ، منها:[2]

١- إنَّ الله سبحانه وتعالى أثنى في كتابه العزيزعلى أهل الشكر، ووصف أفضل خلقه بذلك، فقال عن نوح عليه السلام: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}[الإسراء: ٣].

٢- إنَّ الله عز وجلَّ جعل الهدف من الشكّر تفضله بالنعم، قال سبحانه وتعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[النحل: ٧٨].

٣- إنَّ الله وعد الشاكرين من عباده بأحسن الجزاء، فقال: {وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}[آل عمران: ١٤٥].

٤- إنَّ الله سبحانه وتعالى قد سمّى نفسه شاكراً شكوراً، وذلك بأن يقبل العمل القليل من العبد ويثني على فاعله، قال سبحانه وتعالى: {وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ١٥٨].

٥- قول الله سبحانه وتعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}[البقرة: ١٤٢]، أي أنّ الله سبحانه وتعالى أمر عباده المؤمنين بذكره وشكره، ونهاهم عن نسيانه وكفره، فذِكْر الله تعالى بأسمائه وصفاته من موجبات محبة الله للعبد، وفي شكره بإقامة الصلاة وأداء العبادات من مقتضيات رحمته وفضله[3].

٦- قول الله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[ابراهيم: ٧] فقد وعد الله تعالى لمن يشكر نعمه بزيادة تلك النعم[4]

٧- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "إذا مات ولدُ العبدِ المؤمنِ قال اللهُ للملائكةِ: قبَضْتُم ولَد عبدي؟ قالوا: نَعم قال: قبَضْتُم ثمرةَ فؤادِه؟ قالوا: نَعم قال: فما قال؟ قالوا: استرجَع وحمِدك قال: ابنوا له بيتًا في الجنَّةِ وسمُّوه بيتَ الحمدِ"[5].

٨- عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن اللهَ ليرضى عن العبدِ أن يأكلَ الأكلةَ فيحمدَه عليها. أو يشربَ الشربةَ فيحمدَه عليها"[6].

٩- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدَأُ بالحمد للَّهِ فَهوَ أقطعُ، وفي روايةٍ: بالحمدِ فَهوَ أقطعُ، وفي روايةٍ: كل كلامٍ لا يُبدَأُ فيهِ بالحمد للَّهِ فَهوَ أجذَمُ، وفي رواية: كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأُ فيهِ ببسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ فَهوَ أقطعُ"[7].

والوحدانية والأكبرية: تحلية بكل صفات الكمال، لكنه لما كان تعالى منزَّهةً ذاتُه عن كل قبيح، لم تضرَّ البداءة بالتحلية وتقديمها على التخلية"؛ سبل السلام (٢٦/٤).

(١)أخرجه مسلم رقم: (٢١٣٧).

(٢)وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت (١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ)، الموسوعة الفقهية الكويتية (الطبعة الأولى)، مصر: مطابع دار الصفوة، صفحة ١٧٥، جزء ٢٦٦.

(٣)جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري (٢٠٠٣)، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (الطبعة الخامسة)، السعودية: مكتبة العلوم والحكم، صفحة ١٣٢، جزء ١١. بتصرّف.

(٤) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

(٥)رواه ابن حبان، في صحيح ابن حبان، عن أبي موسى الأشعري، الصفحة أو الرقم: ٢٩٤٨، أخرجه في صحيحه.

(٦)رواه مسلم عن أنس بن مالك(٢٧٣٤).

(٧)رواه النووي في الأذكار، عن أبي هريرة: ص١٤٩. حديث حسن، روي موصولا ومرسلا ورواية.

قوله تعالى:{ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الفاتحة:٢]، أي:" مالك العالمين"[١].

قال الواحدي:أي:" مالك المخلوقات كلها"[٢].

قال التستري:أي:" سيد الخلق المربي لهم، والقائم بأمرهم، المصلح المدبر لهم قبل كونهم، وكون فعلهم المتصرف بهم لسابق علمه فيهم، كيف شاء لما شاء، وأراد وحكم وقدر من أمر ونهي، لا رب لهم غيره"[٣].

و(الرب): " هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور"[٤].

قال السعدي:" (الرب): هو المربي جميع العالمين -وهم من سوى الله- بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء. فما بهم من نعمة، فمنه تعالى، وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر. ولعل هذا [المعنى] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب. فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة"[٥].

و{العالمين} : "كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وُصفوا بذلك؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته"[٦].

قال مقاتل:" {الْعَالَمِينَ}:" عني: الجن والإنس مثل قوله: لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً}[الفرقان:١] "[٧].

واختُلف في اشتقاق (الرب) على أقوال[٨] :

أحدها : أنه مشتق من المالك ، كما يقال رب الدار أي مالكها، ومنه قول صفوان بن أمية[٩]:" لأن يَرُبَّنِي رجل من قريش أحب إلي من أن يَرُبَّنِي رجل من هوازن ، يعني: أن يكون ربًا فوقي، وسيدًا يملكني"[١٠].

---

(١) تفسير النسفي: ٣١/١.[بتصرف بسيط].

(٢) الوجيز:٨٨.

(٣) تفسير التستري:٢٣.

(٤) تفسير ابن عثيمين:١٠/١.

(٥) تفسير السعدي:٣٩.

(٦) تفسير ابن عثيمين:١٠/١.

(٧) تفسير مقاتل: ٣٦/١.

(٨) انظر: النكت والعيون: ٥٤/١.

(٩)صفوان بن أمية بن خلف الجمحي القرشي، أسلم بعد الفتح، وروى أحاديث وشهد اليرموك، توفي سنة إحدى وأربعين. انظر ترجمته في "الإصابة" ٢/ ١٨٧، "تجريد أسماء الصحابة" ١/ ٢٦٦، "سير أعلام النبلاء" ٢/ ٥٦٢، "طبقات ابن سعد" ٥/ ٤٤٩.

(١٠) التفسير البسيط: ٤٨٧/١، و ذكره الأزهري في "التهذيب"، وفيه: أن صفوان كان يرد بذلك على أبي سفيان". التهذيب" (رب) ٢/ ١٣٣٦، وذكره ابن هشام في "السيرة"، وذكر عن ابن إسحاق أنه كان يرد به على (جبلة بن الحنبل) وقال ابن هشام (كلدة بن الحنبل) "السيرة" لابن هشام ٤/ ٧٢ - ٧٣.

ومن ملك شيئا فهو ربّه ، يقال: هو ربّ الدار وربّ الضيعة[١]، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لرجل: "أَرَبُّ إبلٍ أنت أم رَبُّ غنم؟ "[٢]، وقال النابغة[٣]:

فَإِنْ تَكُ رَبَّ أَذْوَادٍ بِحُزْوى   أَصَابُوا مِنْ لِقَاحِكَ مَا أَصَابُوا

فـ(الرب)[٤]: بمعنى المالك للشيء، والأمثلة عليه كثيرة، نذكر منها قوله عز وجل: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الفاتحة:٢]، فهو سبحانه مالك كل شيء، ونحو هذا قوله عز وجل: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}[المؤمنون:٨٦]، أي: إنه سبحانه هو مالك السماوات السبع والعرش العظيم وسيدهما، فلا مالك لهما سواه، ولا سيد لهما غيره. ونحوه قوله تعالى: {وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ }[الأنعام:١٦٤]، قال القرطبي :أي: "مالكه"[٥].

والثاني : أنه مشتق من السيد ، لأن السيد يسمى ربّاً، قال تعالى:{ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً} [يوسف : ٤١] يعني سيده، وقوله: {اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} [يوسف: ٤٢]. ومنه لَبِيد بن ربيعة [٦]:

وأَهْلَكْنَ يومًا ربَّ كِنْدَة وابنَه   ورَبَّ مَعدٍّ ، بين خَبْتٍ وعَرْعَرِ

يعني بربِّ كندة : سيِّد كندة. ومنه قول نابغة بني ذُبيان [٧]:

تَخُبُّ إلى النُّعْمَانِ حَتَّى تَنالَهُ   فِدًى لكَ من رَبٍّ طَرِيفِي وَتَالِدِي

فـ(الرب): بمعنى السيد المطاع، والرئيس وصاحب السلطة النافذ الحكم، والمعترف له بالرفعة والسيادة، والمالك لصلاحيات التصرف، ومنهقوله سبحانه: {وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ} [آل عمران:٦٤]، وقوله تعالى:[اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ] [يوسف:٤٢][٨]، وقوله تعالى: {قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ }[يوسف:٥٠]، و(الربّ)

---

(١) انظر: "تهذيب اللغة" (رب) ٢/ ١٣٣٦، " الزينة" ٢/ ٢٧، "اشتقاق أسماء الله" ص ٣٢، والتفسير البسيط: ٤٨٧/١.

(٢)أخرجه أحمد في (مسنده) عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت النبي - ﷺ - فصعد في النظر وصوَّب وقال: "أَرَبُّ إبل .... " الحديث ٤/ ١٣٦، وذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٢٥/ ب، والرازي في "الزينة" ٢/ ٢٩.

(٣) البيت في رواية الواحدي في تفسيره: ٤٨٧/١، وأما رواية البيت في "الديوان":

فَإِنْ تَكُنِ الفَوَارِسُ يَوْمَ حِسْيٍ   أَصَابُوا مِنْ لِقَائِكَ مَا أَصَابُوا

"الديوان" ص ٨٤، ونحو رواية الديوان في "مجاز القرآن" ١/ ٣١١، "الزاهر" ١/ ٥٧٥، "الزينة" ٢/ ٢٧، وبمثل رواية الواحدي ورد في "تفسير الثعلبي" ١/ ٢٥/ ب، ولعله أخذه عنه، و (حُزْوى) بضم الحاء موضع بنجد، انظر: "معجم البلدان" ٢/ ٢٥٥.

(٤)وورد ذكر(الرب) في القرآن في أكثر من (٩٧٨) موضع.

(٥) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ١٣٧، ولسان العرب:٣٩٩/١.

(٦)ديوانه القصيدة : ١٥ / ٣٢ . وسيد كندة هو حجر أبو امرئ القيس . ورب معد : حذيفة بن بدر ، كما يقول شارح ديوانه ، وأنا في شك منه ، فإن حذيفة بن بدر قتل بالهباءة . ولبيد يذكر خبتًا وعرعرًا ، وهما موضعان غيره .

(٧)ديوانه : ٨٩ ، والمخصص ٧ : ١٥٤ . الطريف والطارف : المال المستحدث ، خلاف التليد والتالد : وهو العتيق الذي ولد عندك .

(٨) ومنه قوله تعالى:{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا}[لأنعام:١٦٤]، أي: أغير الله أتخذ إلهاً أعبده. ومنها قوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ }[الأعراف:٥٤]، أي: إن المعبود الحق الذي ينبغي أن يُفرد بالعبادة هو الله دون سواه. ومنها قول الباري سبحانه: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ }[يونس:٣]، أي: إن الله سبحانه هو المعبود الحق الذي ينبغي أن تخلص له العبادة.

بمعنى الملك والسيد، قال تعالى:{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ}[قريش:٣]، وقوله سبحانه: {قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [المؤمنون:٨٦][(١)].

وذهب ابن عاشور إلى أن "الأكثر في كلام العرب ورود (الرب) بمعنى المالك والسيد[(٢)].

والثالث: أنه مشتق من (الصلح)، لأن الرجل المصلح للشيء يُدعى ربًّا ، ومنه قول الفرزدق بن غالب[(٣)]:

كانُوا كَسَالِئَةٍ حَمْقَاءَ إذْ حَقَنتْ   سِلاءَها فِي أدِيمِ غَيْرِ مَرْبُوبِ

يعني بذلك : في أديم غير مُصلَحٍ. ومن ذلك قيل : إن فلانًا يَرُبُّ صنيعته عند فلان ؛ إذا كان يحاول إصلاحها وإدامتها ، ومن ذلك قول علقمة بن عَبَدة[(٤)]:

فكُنْتَ امرَأً أَفْضَتْ إليك رِبَابَتِي   وَقَبْلَكَ رَبَّتْني ، فَضِعْتُ رُبُوبُ

يعنى بقوله : أفضتْ إليك، أي وصلتْ إليك رِبَابتي ، فصرتَ أنت الذي ترُبُّ أمري فتصلحه[(٥)].

ومنه قول الشاعر[(٦)]:

يَرُبُّ الذِّي يَأْتِي مِنَ الخَيْرِ أَنَّهُ   إذَا فَعَلَ المَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَّمَا

فالمعنى: على هذا أنه يربي الخلق ويغذوهم بما ينعم عليهم[(٧)].

فالرب هو الكفيل والرقيب، والمتكفل بالتعهد وإصلاح الحال، ومنه قوله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء:٧٧]، وقوله عز وجل :

---

(١) هذا، وقد ذكر بعض المفسرين أن لفظ (الرب) في القرآن جاء بمعنى كبير القوم، وتأول عليه قوله تعالى على لسان قوم موسى: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ }[المائدة:٢٤]، وذلك أن هارون عليه السلام كان أسن من موسى عليه السلام، وكان معظَّماً في بني إسرائيل محبَّباً، لسعة خُلُقه، ورحب صدره، فكأنهم قالوا: اذهب أنت وكبيرك. وقد ذكر هذا القول الدامغاني كأحد معنيين للفظ (الرب). قال ابن عطية معقباً على هذا القول: "وهذا تأويل بعيد، وهارون إنما كان وزيراً لموسى، وتابعاً له في معنى الرسالة".[المحرر الوجيز: ١٧٥/٢].

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ١٦٦/١ ومابعدها.

(٣)ديوانه : ٢٥ . سلأ السمن يسلؤه : طبخه وعالجه فأذاب زبده . والسلاء ، بكسر السين : السمن . وحقن اللبن في الوطب ، والماء في السقاء : حبسه فيه وعبأه . رب نحى السمن يربه : دهنه بالرب ، وهو دبس كل ثمرة ، وكانوا يدهنون أديم النحى بالرب حتى يمتنوه ويصلحوه ، فتطيب رائحته ، ويمنع السمن أن يرشح ، من غير أن يفسد طعمه أو ريحه . وإذا لم يفعلوا ذلك بالنحى فسد السمن . وأديم مربوب : جدا قد أصلح بالرب . يقول : فعلوا فعل هذه الحمقاء ، ففسد ما جهدوا في تدبيره وعمله .

(٤)) ديوانه : ٢٩ ، والمخصص ١٧ : ١٥٤ ، والشعر يقوله للحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان ، وهو الحارث الأعرج المشهور . قال ابن سيده : " ربوب : جمع رب ، أي الملوك الذين كانوا قبلك ضيعوا أمري ، وقد صارت الآن ربابتي إليك - أي تدبير أمري وإصلاحه - فهذا رب بمعنى مالك ، كأنه قال : الذين كانوا يملكون أمري قبلك ضيعوه " . وقال الطبري فيما سيأتي : " يعني بقوله : ربتني : ولي أمري والقيام به قبلك من يربه ويصلحه فلم يصلحوه ، ولكنهم أضاعوني فضعت " . والربابة : المملكة ، وهي أيضًا الميثاق والعهد . وبها فسر هذا البيت ، وأيدوه برواية من روى بدل " ربابتي " ، " أمانتي " . والأول أجود .

(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٤١/١-١٤٢.

(٦)ورد البيت بدون عزو في "الزاهر" ١/ ٥٧٦، "تهذيب اللغة" (رب) ٢/ ١٣٣٦، "تفسير الثعلبي" ١/ ٢٥/ ب، "الوسيط" للواحدي ١/ ١٧، "اللسان" (ربب) ٣/ ١٥٤٧، ورواية البيت في غير الثعلبي (من العرف) بدل (من الخير)، (سئل) بدل (فعل).

(٧) التفسير البسيط: ٤٨٦/١.

{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}[المزمل:٩][١]، قال ابن كثير:" أي: هو الذي جعل المشرق مشرقاً، تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها"[٢]. ونظيره قوله تعالى:{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [المزمل: ٩]، أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب لا إله إلا هو.

والرابع : أن الرب: المدَبِّر ، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ :{وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأحْبَارُ}وهم العلماء ، سموا ربَّانيّين ، لقيامهم بتدبير الناس بعلمهم ، وقيل : ربَّةُ البيت ، لأنها تدبره .

والخامس: الرب مشتق من التربية، ومنه قوله تعالى :{ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي في حُجُورِكُمْ} [النساء : ٢٣] فسمي ولد الزوجة ربيبة ، لتربية الزوج لها ، ومنه قوله تعالى:{قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ }[يوسف:٢٣] [٣]، ومنه قول الشاعر[٤]:

فَإِنْ كُنْتِ مِنِّي أَوْ تُرِيدِين صُحْبَتِي   فَكُونِي لَهُ كَالسَّمْنِ رُبَّتْ لَهُ الأَدَم

قال الطبري:" فربّنا جلّ ثناؤه : السيد الذي لا شِبْه لهُ ، ولا مثل في سُؤدده ، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ، والمالك الذي له الخلق والأمر"[٥].

قال الماوردي:"فعلى هذا ، أن صفة الله تعالى بأنه رب ، لأنه مالك أو سيد ، فذلك صفة من صفات ذاته ، وإن قيل لأنه مدبِّر لخلقه ، ومُربِّيهم ، فذلك صفة من صفات فعله ، ومتى أدْخَلت عليه الألف واللام . اختص الله تعالى به ، دون عباده ، وإن حذفتا منه ، صار مشتركاً بين الله وبين عباده "[٦].

---

(١)انظر: المصطلحات الأربعة في القرآن، أبو الأعلى المودودي، هذه رساله ألفها الاستاذ السيد أبو الأعلى المودودي في سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١ م ، ونشر فصولها تباعا في مجلته الشهرية " ترجمان القرآن " ثم جمعها ونشرها في رسالة سماها " المصطلحات الأربعة في القرآن ": ص: ٢٨ ومابعدها.

(٢) تفسير ابن كثير: ١٤٠/٦.

(٣) لا يذهبن بأحد الظن أن يوسف عليه الصلاة والسلام أراد بكلمة (ربي) في الآية عزيز مصر ، كما ذهب إليه بعض المفسرين، وإنما يرجع الضمير في (انه) إلى الله الذي قد استعاذ به يوسف عليه السلام بقوله: (معاذ الله) .

ولما كان المشار إليه قريبا من ضمير الاشارة فأي حاجة بنا إلى أن نلتمس له مشارا إليه آخر لم يذكر قريبا منه. ونقول : ما نفاه الاستاذ المودودي من أن الضمير في (إنه) يعود على عزيز مصر رواه الطبري في التفسير ١٠٨/١٢ من وجوه عن مجاهد وابن اسحاق، ولم ينقل غيره . وقد روى الوجه الذي ذهب إليه الاستاذ المودودي الطبرسي في (مجمع البيان) ٢٢٣/٥ مقال : " .. وقيل : أن الهاء عائد إلى الله سبحانه ، والمعنى أن الله ربي رفع من محلي وأحسن إلى وجعلني نبياً فلا أعصيه أبدا "

(٤)البيت لعمرو بن شأس، كان له ابن يقال له (عرار) من أمة سوداء، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به، فقال قصيدة يخاطبها، ومنها هذا البيت، يقول: إن كنت تريدين مودتي، فأحسني إليه كما تستصلحين وعاء السمن حتى لا يفسد عليك، و (الأَدَم) جمع أَدِيم: الجلد المدبوغ، و (الرُّبُّ): خلاصة التمر بعد طبخه وعصره. ورد البيت في "شعر عمرو" ص ٧١، "الشعر والشعراء" ص ٢٧٤، "طبقات الشعراء" للجمحي ص ٨٠، "أمالي القالي" ٢/ ١٨٩، "اشتقاق أسماء الله" ص ٣٣، "الصحاح" (ربب) ١/ ١٣١، "اللسان".

(٥) تفسير الطبري: ١٤٢/١.

(٦) النكت والعيون: ٥٤/١.

قال ابن القيم:" ربوبيته للعالم تتضمن تصرفه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن، يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويصرف الأمور بمشيئته وإرادته، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه"(١).

وقد ذهب الزمخشري ومن تابعه إلى أن لفظ (الرب) لم يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً(٢)، وقد رد ابن عاشور قول الزمخشري بقوله: "وجمعه على (أرباب) أدل دليل على إطلاقه على متعدد، فكيف تصح دعوى تخصيص إطلاقه عندهم بالله تعالى؟"(٣)، واستدل ابن عاشور على إطلاقه غير مضاف على غيره سبحانه، بقوله تعالى: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }[يوسف:٣٩]، فهذا إطلاق لـ (الرب) غير مضاف على غير الله تعالى.

وأما(العالَمون): فـ"جمع (عالَم)، والعالَم : جمعٌ لا واحدَ له من لفظه ، كالأنام والرهط والجيش ، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جِمَاع لا واحد له من لفظه، والعالم اسم لأصناف الأمم ، وكل صنف منها عالَمٌ ، وأهل كل قَرْن من كلّ صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالَم ، وكل أهل زمان منهم عالمُ ذلك الزمان. والجنُّ عالم ، وكذلك سائر أجناس الخلق ، كلّ جنس منها عالمُ زمانه. ولذلك جُمع فقيل : عالمون ، وواحده جمعٌ ، لكون عالم كلّ زمان من ذلك عالم ذلك الزمان"(٤)، قال العجاج(٥) :

يا دار سلمى يا اسلمي ثم اسلمي فَخِنْدِفٌ هَامَةُ هَذَا الْعَالَمِ

واختُلِف في (العالم)، على أقوال(٦) :

أحدها : أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وهذا قول أبي إسحاق الزجَّاج(٧)، وقتادة(٨)، ومجاهد(٩)، وابن عباس(١٠) في رواية الضحاك عنه.

قال الثعلبي:"واحتجوا بقوله: {قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا}[الشعراء:٢٣-٢٤]"(١١).

والثاني: أنّه الإنس ، والجنّ ، وهذا قول ابن عباس(١٢)، وسعيد بن جبير(١٣)، ومجاهد(١٤)، وابن جريج(١)، ومقاتل بن سليمان(٢).

---

(١) الصواعق المرسلة: ١٢٢٣/٤.
(٢) انظر: الكشاف: ١٠/١.
(٣) التحرير والتنوير: ١٦٧/١.
(٤) تفسير الطبري: ١٤٣/١، وانظر: معاني القرآن للزجاج: ٤٦/١، والنكت والعيون: ٥٤/١.
(٥)ديوانه : ٦٠ ، وطبقات فحول الشعراء : ٦٤ ، وخندف : أم بني إلياس بن مضر ، مدركة وطابخة ، وتشعبت منهم قواعد العرب الكبرى .
(٦) انظر: النكت والعيون: ٥٤/١-٥٥.
(٧) انظر: معاني القرآن: ٤٦/١.
(٨) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.
(٩)حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.
(١٠)انظر: تفسير الطبري(١٥٦):ص١٤٤/١.
(١١) تفسير الثعلبي: ١١٢/١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٧)، و(١٥٨):ص١٤٤/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٥٩)، و(١٦٠):ص١٤٤/١-١٤٥.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٦١)، و(١٦٢):ص١٤٥/١.

ودليلهم قوله تعالى:{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً}[الفرقان: ١]، ولم يكن نذيرا للبهائم[٣].

كما ويقوي هذا القول، جمع الكلمة على (عالمون)، وهو جمع لايكون إلا مع العاقل! فيكون هذا دليلا على أن الحديث عن عوالم عاقلة.

والثالث : أن العالم: الدنيا وما فيها[٤].

والرابع: أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، لقوله تعالى : {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: ١٦٥]، أي من الناس[٥]، وقال العجّاج[٦]:

فَخِنْدِفٌ هامَةُ هَذَا العَالَمِ   مبارك للأنبياء خاتم

وقال جرير بن الخطفى [٧]:

تنصفه[٨] البرية وهو سام   ويضحي العالمون له عيالا

والخامس: أن العالم عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم : الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم : عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. وهذا قول الفراء وأبي عبيدة[٩].

والسادس: أن العالمين، أي: المخلوقين. قاله أبو عبيدة[١٠]، وأنشد قول لبيد بن ربيعة[١١]:

ما إن رأيت ولا سمعـ   ـتُ بمثلهم في العالمينا

والسابع: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم[١٢]، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء[١٣]: هم الروحانيّون، وابن قتيبة[١٤]، وهو معنى قول ابن عباس كذلك: "كل ذي روح دبّ على وجه الأرض"[١٥].

والثامن: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق[١٦].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٦٥):ص١٤٦/١.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٦/١.
(٣) انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ٤١٦/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون: ٥٥/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري: ١٤٤/١.
(٦)هو عبدالله بن رؤبة أبو الشعثاء، اشتهر بالعجاج الراجز، لقي أبا هريرة، وسمع منه أحاديث، والبيت في ديوانه: ٦٠.
(٧) ديوانه: ٧٥٠/٢.
(٨) تنصفه: أي تطلب فضله.
(٩) انظر: حكاه عنهما القرطبي في تفسيره: ٢١٣/١. وقول أبي عبيدة: أن العالمين: المخلوقين.
(١٠) انظر: مجاز القرن:٢٢/١.
(١١) ديوانه: ١٢/١، والأغاني: ٣٧٩/١٥، ونسبه القرطبي للأعشى، ولم نقف عليه للأعشى.
(١٢) حكاه عنه القرطبي في تفسيره:٢١٣/١.
(١٣) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.
(١٤) انظر: غريب القرآن: ٣٨، قال:"(العالَمُونَ): أصناف الخلق الرُّوحانِيِّين، وهم الإنس والجن والملائكة، صِنْفٍ منهم عالَم".
(١٥) انظر: تفسير الثعلبي: ١١٢/١، وزاد المسير: ١٢/١، وتفسير القرطبي: ٢١٣/١.
(١٦) تفسير الثعلبي:١١٢/١.

قال الشنقيطي:" لم يبين هنا ما (العالمون)، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: {قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا}[الشعراء:٢٣-٢٤]"[١].

والظاهر أن{ العالَمين}: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و(العالَم) جمع لا واحدَ له من لفظه، و(العوالم) أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم[٢]. والله أعلم.

واختلفوا في اشتقاقه على وجهين [٣]:

أحدهما : أنه مشتق من العلم ، وهذا تأويل مَنْ جعل العالم اسماً لما يعقل .

والثاني : أنه مشتق من العلامة ، لأنه دلالة على خالقه ، وهذا تأويل مَنْ جعل العالم اسماً لكُلِّ مخلوقٍ .

قال الخليل : "العلم والعلامة والمعلم : ما دل على الشيء، فالعالم دال على أن له خالقا ومدبرا"[٤]، وقد ذكر أن رجلا قال بين يدي الجنيد[٥] : الحمد لله فقال له : أتمها كما قال الله قل رب العالمين فقال الرجل : ومن العالمين حتى تذكر مع الحق؟ قال : قل يا أخي؟ فإن المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر[٦] .

واختلفوا في مبلغ (العالمين) وكيفيتهم، فقال: أبو العالية:"الجن عالم والإنس عالم، وسوى ذلك للأرض أربع زوابا في كل زاوية ألف وخمس مئة عالم، خلقهم لعبادته"[٧].

وهذه الأخبار ليست دقيقة، قال ابن كثير بعد أن أورد قول أبي العالية: " وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح"[٨]. وهذا حق .

وقال كعب الأحبار: "لا يحصي عدد العالمين إلّا الله، قال الله: {وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}[المثر:٣١]"[٩].

قال أبو حيان:"ونقل عن المتقدمين أعداد مختلفة في العالمين وفي مقارها ، الله أعلم بالصحيح"[١٠].

وفي قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} [الفاتحة : ٢]، ثلاثة قراءات[١١]:

إحداهما:{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، قرأ بها نافع، ابن كثير، أبو عمرو، ابن عامر، عاصم، حمزة، الكسائي.

---

(١) أضواء البيان:٥/١.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٤٣/١، معاني القرآن للزجاج: ٤٦/١.

(٣) انظر: تفسير الثعلبي:١١٢/١، والنكت والعيون:٥٥/١.

(٤) العين: ١٥٣/٢(علم).

(٥)أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، أصله نهاوند في همدان (مدينة اذرية)، ومولده ومنشؤه ببغداد. انظر: تاريخ بغداد" (٨/ ١٦٨)، و سير أعلام النبلاء" (١١/ ٤٣).

(٦) تفسير القرطبي: ٢١٥/١.

(٧) تفسير الطبري(١٦٤):ص ١٤٦/١، وابن ابي حاتم(١٥):ص٢٧/١

(٨) تفسير ابن كثير:١٣٢/١.

(٩) تفسير الثعلبي:١١٢/١.

(١٠) البحر المحيط: ١٣/١.

(١١) انظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ابن جني: ٣٧/١.

قال الهمذاني: "(الحمد) رفع بالابتداء، وخبره الظرف هو (الله)، متعلق بمحذوف، أي: الحمد ثابت أو مستقر لله"[١]، وهو اجود القراءات، لما فيه من التعميم والدلالة على ثبات المعنى واستقراره.

والثانية: {الْحَمْدِ لِلَّهِ}، قرأ بها الحسن البصري وابن عبلة، وزيد بن علي، وهي قراءة شاذة.

والثالثة: {الْحَمْدُ لُله}. مضمومة الدال واللام، قرأ بها بعض أهل البادية.

قال ابن جني:" وكلاهما شاذ[أي: القراءة الثانية والثالثة] في القياس والاستعمال؛ إلا أن من وراء ذلك ما أذكره لك؛ وهو أن هذا اللفظ كثر في كلامهم، وشاع استعماله، وهم لِمَا كثر من استعمالهم أشد تغييرًا، كما جاء عنهم لذلك: لم يَكُ، ولا أَدْرِ، ولم أُبَلْ، وأَيْشٍ تقول، وجا يجي، وسا يسو، بحذف همزتيهما، فلما اطرد هذا ونحوه لكثرة استعماله أتبعوا أحد الصوتين الآخر، وشبهوهما بالجزء الواحد وإن كانا جملة من مبتدأ وخبر؛ فصارت "الْحَمْدُ لُله" كعُنُق وطُنُب، و"الْحَمْدِ لِله" كإِبِل وإِطِل"[٢].

وفي { رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة : ٢]، ثلاثة قراءات متواترة[٣]:

إحداها: {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، : قرأ بها نافع، ابن كثير، أبو عمرو، ابن عامر، عاصم، حمزة، الكسائي.

فـ(رب العالمين) أي مالكهم، وكل من ملك شيئا فهو ربه، فالرب: المالك[٤]، وجرّ على النعت لله سبحانه وتعالى أو على البدل[٥].

والثانية: {رَبَّ الْعَالَمِينَ}، وهي قراءة الكسائي.

ومن نصب(رب العالمين) فإنما ينصبه لى المدح والثناء، كأنه لما قال: (الحمد لله) استدل بهذا اللفظ على أنه ذاكر لله فكأنما قال: (أذكر رب العالمين)، فعلى هذا لو قرىء في غير القرآن (رب العالمين) مرفوعا على المدح أيضا لكان جائزا على معنى (هور رب العالمين)[٦]، وقيل النصب -هنا- على النداء، ذكره الكسائي: أي الحمد لله رباً وإلهاً[٧].

والثالثة: {رَبُّ الْعَالَمِينَ}:قرأ بها أبو جعفر.

والرفع على: (هو ربّ العالمين)[٨].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: إثبات الحمد الكامل لله عزّ وجلّ، وذلك من "أل" في قوله تعالى: {الحمد} ؛ لأنها دالة على الاستغراق.

٢- ومنها: أن الله تعالى مستحق مختص بالحمد الكامل من جميع الوجوه؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابه ما يسره قال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات"؛ وإذا أصابه خلاف ذلك قال: "الحمد لله على كل حال"[١].

---

(١) الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتجب الهمذاني، دار الزمان، المدينة المنورة: ٦٩/١.
(٢) المحتسب: ٣٧/١.
(٣)انظر: الكتاب الفريد في اعراب القران المجيد: ٧٣/١، و مجمع البيان، الطبرسي: ٢٩/١.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ١٣٦/١.
(٥)انظر: الكتاب الفريد في اعراب القران المجيد: ٧٣/١
(٦) مجمع البيان، الطبرسي: ٢٩/١.
(٧) انظر: انظر: الكتاب الفريد في اعراب القران المجيد: ٧٣/١.
(٨) انظر: الكتاب الفريد في اعراب القران المجيد: ٧٣/١، و مجمع البيان، الطبرسي: ٢٩/١.

٣- ومنها: تقديم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية؛ وهذا إما لأن "الله" هو الاسم العَلَم الخاص به، والذي تتبعه جميع الأسماء؛ وإما لأن الذين جاءتهم الرسل ينكرون الألوهية فقط..
٤- ومنها: عموم ربوبية الله تعالى لجميع العالم؛ لقوله تعالى: {العالمين}.

القرآن

{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)} [الفاتحة : ٣]

التفسير:
الرَّحْمَنِ الذي وسعت رحمته جميع الخلق، الرَّحِيمِ، بالمؤمنين، وهما اسمان من أسماء الله تعالى.

قوله تعالى:{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}[الفاتحة:١]، " أي:ذو الرحمة الواسعة، والموصل للرحمة من يشاء من عباده"(٢).

قال مقاتل:" اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر الرحمن يعني المترحم، الرحيم يعني المتعطف بالرحمة"(٣).

قال المراغي:أي:" المفيض للنعم المحسن على عباده بلا حصر ولا نهاية"(٤).

قال العز بن عبدالسلام:أي:" الراحم، أو الرحمن أبلغ"(٥).

قال الشنقيطي(٦): "هما وصفان لله - تعالى - واسمان من أسمائه الحسنى، مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشدُّ مبالغة من الرحيم، لأن الرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، وللمؤمنين في الآخرة، والرحيم ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة، وعلى هذا أكثر العلماء"(٧).

قال أبو السعود:" صفتان لله فإن أريد بما فيهما من الرحمة ما يختص بالعقلاء من العالمين أو ما يفيض على الكل بعد الخروج إلى طور الوجود من النعم فوجه تأخيرهما عن وصف الربوبية ظاهر وإن أريد ما يعم الكل في الأطوار كلها حسبما في قوله تعالى ورحمتى وسعت كل شىء فوجه الترتيب أن التربية لا تقتضي المقارنة للرحمة فإيرادهما في عقبها للإيذان بأنه تعالى متفضل فيها فاعل بقضية رحمته السابقة من غير وجوب عليه وبأنها واقعة على أحسن ما يكون والاقتصار على نعته تعالى بهما في التسمية لما أنه الأنسب بحال المتبرك المستعين باسمه الجليل والأوفق لمقاصده"(٨).

---

(١) سنن ابن ماجة(٣٨٠٣):ص١٢٥٠/٢.
(٢) تفسير ابن عثيمين:٥/١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦/١.
(٤) تفسير المراغي:٣١/١ .
(٥) تفسير العز بن عبدالسلام: ٨٩/١ .
(٦)هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي المدني، ولد بموريتانيا عام ١٣٢٥ هـ، حوالي١٧ فبراير١٩٠٥ ، بمدينة تنبه في موريتانيا، اجتهد في طلب العلم فأصبح من علماء موريتانيا، وتولى القضاء في بلده، فكان موضع ثقة حكَّامها ومحكوميها، وكان من أوائل المدرّسين في الجامعة الإسلامية سنة ١٣٨١هـ، ثم عيّن عضوًا في مجلس الجامعة، كما عيّن عضوًا في مجلس التأسيس لرابطة العالم الإسلامي، وعضوًا في هيئة كبار العلماء ٨ /٧ /١٣٩١ هـ، توفي بمكة بعد أدائه لفريضة الحج في السابع عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، وصُلِّي عليه بالمسجد الحرام، ودفن بمقبرة المعلاة بمكة.
(٧)انظر "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" لعبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله نشر مؤسسة الرسالة (ص/٣٩).
(٨) تفسير أبي السعود:١٥/١..

قال السعدي : "اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله. فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها، واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم. فالنعم كلها، أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. يقال في العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم [به] كل شيء، قدير، ذو قدرة يقدر على كل شيء"[1].

قال الصابوني:" صفتان مشتقتان من الرحمة، أي الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمَّ فضله جميع الأنام، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان"[2].

قال ابن العثيمين:"{ الرَّحْمَنِ}: صفة للفظ الجلالة، و{الرحيم}: صفة أخرى، والرحمن هو ذو الرحمة الواسعة، والرحيم هو ذو الرحمة الواصلة، فالرحمن وصفه، والرحيم فعلُه، ولو أنه جيء بـ"الرحمن" وحدَه، أو بـ"الرحيم" وحده، لشمل الوصف والفعل، لكن إذا اقترنا فسِّر (الرَّحْمَنِ) بالوصف، و(الرَّحِيم) بالفعل"[3].

قال ابن القيم[4] :{"الرحمن} فإن رحمته تمنعُ إهمالَ عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غايةَ كمالِهم، فمن أعطى اسم "الرحمن" حقه عَرَف أنه متضمِّن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظمَ من تضمنه إنزال الغيث، وإنبات الكلأ، وإخراج الحَب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظَّ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمرًا وراء ذلك"[5].

قال الماتريدي:" اسمان مأخوذان من الرحمة، لكنه روى فيهما: «رقيقان أحدهما أرق من الآخر»[6]، وكأن الذي روي عنه هذا أراد به: لطيفان أحدهما ألطف من الآخر، دليل ذلك وجهان:

أحدهما: مجيء الأثر في ذلك -اللطيف- في أسماء الله تعالى مع ما نطق به الكتاب، ولم يذكر في شيء من ذلك رقيق، ومعنى اللطيف: استخراج الأمور الخفية وظهورها له؛ كقوله: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ }، إلى قوله: {لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان : ١٦].

---

(١)انظر "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" لعبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله نشر مؤسسة الرسالة (ص/٣٩).

(٢) صفوة التفاسير:١٩/١.

(٣)تفسير العلامة محمد العثيمين (٢ /٦).

(٤)هو الفقيه، المفتي، الإمام الرباني شيخ الإسلام الثاني أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي، ثم الدِّمشقي، الشهير بـ"ابن قيم الجوزية"، عاش في دمشق ودرس على يد ابن تيمية الدمشقي، ولازمه قرابة ١٦ عامًا، وتأثر به، وسجن في قلعة دمشق في أيام سجن ابن تيمية، وخرج بعد أن توفِّي شيخه عام ٧٢٨ هـ، ومن تلاميذه: ابن رجب الحنبلي، وابن كثير، والذهبي، وابن عبدالهادي، والفيروزآبادي صاحب "القاموس المحيط" - رحمهم الله تعالى - وغيرهم، وتوفي - رحمه الله - ليلة الخميس، ثالث عشرين من رجب الفرد سنة (٧٥١١هـ)، ودفن بدمشق بمقبرة الباب الصغير.

(٥)انظر: تفسير القرآن الكريم؛ لابن القيم - نشر دار ومكتبة الهلال - بيروت ص/١٢، وينتبه أن هذا التفسير ليس مَن جمع ابن القيم- رحمه الله - ؛ وإنما مِن صُنع بعض المعاصِرين في أوساط هذا القرنِ العشرين الذي جمعه من مؤلفات ابن القيم وقد أثنى عليه أهل العلم والله أعلم.

(٦) القول لخالد بن صفوان التميمي كما سيأتي، انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٢١):ص٢٨/١.

والثاني: أن اللطيف حرف يدل على البر والعطف، والرقة على رقة الشيء التي هي نقيض الغلظ والكثافة، كما يقال: فلان رقيق القلب.

وقوله: أحدهما أرق من الآخر، بمعنى اللطف - يحتمل وجهين:

أحدهما: التحقيق بأن اللطف بأحد الحرفين أخص وأليق، وأوفر وأكمل، فذلك رحمته بالمؤمنين أنه يقال: رحيم بالمؤمنين على تخصيصهم بالهداية لدينه؛ ولذا ذكر أمته وإن أشركهم في الرزق فيما يراهم غيرهم؛ ألا ترى أنه لا يقال: رحمن بالمؤمنين، وجائز القول: رحيم بهم، وكذلك لا يقال: رحيم بالكافرين، مطلقا؟!.

ووجه آخر: أن أحدهما ألطف من الآخر؛ كأنه وصف الغاية في اللطف حتى يتعذر وجه إدراك ما في كل واحد منهما من اللطف، أو يوصف بقطع الغاية عما يتضمنه كل حرف"(١).

قال القرطبي: "إنما وصف نفسه بـ {الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة:٣] بعد قوله:{رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:٢] ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب، كما قال تعالى:{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ} [الحجر:٤٩-٥٠]"(٢).

و قال ابن عرفة: "قدم أولا الوصف بـ{رَبِّ العَالمِينَ}، تنبيها على أصل النشأة، وأنه هو الخالق المبدئ، ثم ثنى بحال الإنسان في الدّنيا من النعم والإحسان، فلولا رحمة الله تعالى لما كان ذلك"(٣).

وفي اشتقاق{الرحمن}، قولان(٤) :

أحدهما:أنه اسم عبراني معرب ، وليس بعربي ، كالفسطاط رومي معرب ، والإستبرق فارسي معرب ، لأن قريشاً وهم فَطَنَةُ العرب وفُصَحَاؤهم ، لم يعرفوهُ حتى ذكر لهم ، وقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم : { . . . وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً } [الفرقان : ٦٠] ، وهذا قول ثعلب(٥)، واستشهد بقول جرير(٦)(٧) :

أو تتركون إلى القسّين هجرتكم ومسحكم صلبهم رحمن قربانا

قال : ولذلك جمع بين الرحمن والرحيم ، ليزول الالتباس ، فعلى هذا يكون الأصل فيه تقديم الرحيم على الرحمن لعربيته ، لكن قدَّم الرحمن لمبالغته .

وحكي عن ثعلب أنه قال:"إن جمهور العرب كانوا لا يعرفون "الرحمن" في الجاهلية، الدليل على هذا أنهم لما سمعوا النبي - ﷺ - يذكره قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رجلًا باليمامة

---

(١) تفسير الماتريدي:٣٦٠/١-٣٦١.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢١١/١.

(٣) تفسير ابن عرفة:٣٥/١.

(٤) انظر: النكت والعيون: ٥٢/١.

(٥)انظر: "الزينة" ٢/ ٢٥، "الزاهر" ١/ ١٥٣، "اشتقاق أسماء الله" ص ٤٣، "تهذيب اللغة" (رحم) ٢/ ١٣٨٣، "تفسير الماوردي" ١/ ٥٢ "تفسير القرطبي" ١/ ٩١، "اللسان" (رحم) ٣/ ١٦١٢.

(٦)هو أبو حَرْزَة، جرير بن عطية بن حذيفة من بني كليب بن يربوع، أحد فحول الشعراء في صدر الإسلام، توفي سنة عشر ومائة. انظر ترجمته في "الشعر والشعراء" ص ٣٠٤، "طبقات فحول الشعراء" ٢/ ٢٩٧، "الخزانة" ١/ ٧٥.

(٧)البيت من قصيدة له يهجو فيها الأخطل وهو نصراني، فحكى في البيت قول النصارى، ولهذا نصب (رحمن): (قربانا) أي قائلين ذلك، ويروى البيت (هل تتركن)، (مسحكم) وفي "الزينة" (رخمن) بالمعجمة وهو بمعنى: الحاء. انظر: "الزينة" ٢/ ٢٥، "الزاهر" ١/ ١٥٣، "اشتقاق أسماء الله" ص ٤٣، "تهذيب اللغة" (رحم) ٢/ ١٣٨٣، "تفسير الماوردي" ١/ ٥٢ "تفسير القرطبي" ١/ ٩١، "اللسان" (رحم) ٣/ ١٦١٢.

[1]، وذلك قوله تعالى: {قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} [الفرقان: ٦٠] وإنما يذكر بعض الشعراء الرحمن في الجاهلية، إذ لقنه من أهل الكتاب، أو أخذه عن بعض من قرأ الكتب كأمية بن أبي الصلت[2]، وزيد بن عمرو[3]، وورقة بن نوفل[4]، ولا تجعل هذا حجة على ما عليه أكثرهم"[5].

وأنكر ذلك الطبري فقال: "وقد زعم بعض أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف (الرحمن) ولم يكن ذلك في لغتها "[6]. ثم أنشد لبعض الجاهلية[7]:

أَلا ضربَتْ تلكَ الفتاةُ هَجِينَهَا أَلَا قَضَبَ الرحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا

وقال سلامة بن جَندلٍ السَّعْدي [8]:

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا عَجْلَتَيْنَا عَلَيْكُمُ وَمَا يَشَإِ الرحْمَنُ يَعْقِدْ وَيُطْلِقِ

وقال الواحدي:" ومراد أبي العباس[9] أن الرحمن يتكلم به بالعبرانية، وتتكلم به العرب، فلما لم يخلص في كلامهم، ولم ينفردوا به دون غيرهم، أتى بعده بالرحيم الذي لا يكون إلى عربيا، ولا يلتبس بلغة غيرهم"[10]

---

(١)انظر: تفسير الطبري : ١٩/ ٢٩، وتفسير القرطبي: ١٣/ ٦٤.

(٢)واسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف الثقفي، سمع النبي - ﷺ - شعره فقال: "آمن شعره وكفر قلبه" وكان يخبر أن نبيا يخرج قد أظل زمانه، فلما خرج النبي - ﷺ - كفر به حسدا، ومات كافرا سنة ثمان أو تسع.
انظر: "الشعر والشعراء" ص ٣٠٠، "طبقات فحول الشعراء" ص ١٠١، "الاشتقاق" ص ١٤٣، "الخزانة" ١/ ٢٤٧.

(٣)زيد بن عمرو بن نفيل، والد سعيد بن زيد أحد العشرة، مات قبل المبعث. انظر: "الإصابة" ١/ ٥٦٩، "تجريد أسماء الصحابة" ١/ ٢٠٠.

(٤)هو ورقة بن نوفل بن أسد، ابن عم خديجة رضي الله عنها، قال ابن منده: اختلف في إسلامه، والأظهر أنه مات قبل الرسالة، وبعد النبوة وكذا قال الذهبي في "تجريد أسماء الصحابة" ٢/ ١٢٨، وانظر: "الإصابة" ٣/ ٦٣٣، "الخزانة" ٣/ ٣٩١.

(٥) حكاه عنه الواحدي في التفسير البسيط: ٤٥٦/١-٤٥٧، ولم أجده، ولعله في كتب ابن الأنباري المفقودة، وأورد نحوه الطبري في تفسيره" ١/ ١٣١، وانظر: "الاشتقاق" ص ٥٨، والماوردي في "تفسيره" ١/ ٥٢، والقرطبي في "تفسيره" ١/ ١٠٤.

(٦)تفسير الطبري: ١/ ١٣١، كما انكر ذلك الزجاجي في "اشتقاق أسماء الله" ص ٤٢، وابن سيده في "المخصص" ١٧/ ١٥١ وغيرهم.

(٧)لم أتعرف على قائله، واستشهد به ابن سيده في المخصص ١٧ : ١٥٢ ، وعلق على البيت محمد محمود التركزي الشنقيطي ، وادعى أن البيت مصنوع ، وأن " بعض الرجال الذين يحبون إيجاد الشواهد المعدومة لدعاويهم المجردة ، صنعه ولفقه ، وأن الوضع والصنعة ظاهران فيه ظهور شمس الضحى ، وركاكته تنادي جهارًا بصحة وضعه وصنعته ، والصواب وهو الحق المجمع عليه ، أن الشاعر الجاهلي المشار إليه ، هو الشنفرى الأزدي ، وهذا البيت ليس في شعره " ، وأنه ملفق من قول الشنفرى : أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي ، والتَلَهُّفُ ضَلَّةٌ ... بما ضَرَبَتْ كَفُّ الفَتَاةِ هَجِينَهَا
والشنقيطي رحمه الله كان كثير الاستطالة ، سريعًا إلى المباهاة بعلمه وروايته . والذي قاله من ادعاء الصنعة لا يقوم . وكفى بالبيت الذي يليه دليلا على فساد زعمه أن الدافع لصنعته : إيجاد الشواهد المعدومة ، لدعاوى مجردة . وليس في البيت ركاكة ولا صنعة .[حاضية الطبري: ١٣١/١].

(٨)ديوانه : ١٩ ، وقد جاء في طبقات فحول الشعراء : ١٣١ في نسب الشاعر : سلامة بن جندل بن عبد الرحمن " ، وهذه رواية ابن سلام ، وغيره يقول : " ابن عبد " ، فإن صحت رواية ابن سلام ، فهي دليل آخر قوي على فساد دعوى الشنقيطي .

(٩)هو أبو العباس ثعلب.

(١٠) التفسير البسيط: ٤٥٨/١-٤٥٩.

القول الثاني : أن (الرحمن) اسم عربي كالرحيم لامتزاج حروفهما ، وقد ظهر ذلك في كلام العرب ، وجاءت به أشعارهم ، قال الشنفري[١] :

أَلاَ ضَرَبَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ هَجِينَهَا   أَلاَ ضَرَبَ الرَّحْمنُ رَبِّي يَمِينَهَا

والراجح-والله أعلم-: "أنه مشتق من الرحمة، وأنه اسم عربي لوجود هذا البناء في كلامهم، كاللهفان والندمان والغضبان"[٢].

قال الليث: "{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} اسمان، اشتقاقهما من (الرحمة)"[٣].

وقال أبو عبيدة: "هما صفتان لله تعالى، معناهما ذو الرحمة"[٤].

قال الواحدي:" وأما ما احتج به أبو العباس من قوله: {وَمَا الرَّحْمَنُ} [الفرقان: ٦٠] فهو سؤال عن الصفة، ولذلك قالوا: {وَمَا الرَّحْمَنُ}، ولم يقولوا: ومن، والقوم جهلوا صفته، والاسم كان معلوما لهم في الجملة، وقيل: هذا على جهة ترك التعظيم منهم"[٥].

وقال ابن عطية: "وإنما وقفت العرب على تعيين الإله الذي أمروا بالسجود له، لا على نفس اللفظة"[٦].

قال الماوردي:" فإذا كانا اسمين عربيين فهما مشتقان من (الرحمة)، والرحمة هي النعمة على المحتاج ، قال الله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : ١٠٧] ، يعني نعمةً عليهم ، وإنما سميت النعمةُ رحمةً لحدوثها عن الرحمة، والرحمن أشدُّ مبالغةً من الرحيم ، لأن الرحمن يتعدى لفظه ومعناه ، والرحيم لا يتعدى لفظه ، وإنما يتعدى معناه ، ولذلك سمي قوم بالرحيم ، ولم يتَسَمَّ أحدٌ بالرحمن ، وكانت الجاهليةُ تُسمِّي اللهَ تعالى به وعليه بيت الشنفرى ، ثم إن مسيلمة الكذاب تسمَّى بالرحمن ، واقتطعه من أسماء الله تعالى ، قال عطاء : فلذلك قرنه الله تعالى بالرحيم ، لأن أحداً لم يتسمَّ بالرحمن الرحيم ليفصل اسمه عن اسم غيره ، فيكون الفرق في المبالغة ، وفرَّق أبو عبيدة بينهما ، فقال بأن الرحمن ذو الرحمة ، والرحيم الراحم"[٧] .

واختلفوا في اشتقاق (الرحمن والرحيم)، على قولين [٨]:

أحدهما : أنهما مشتقان من رحمة واحدةٍ ، جُعِل لفظ الرحمن أشدَّ مبالغة من الرحيم .

قال وكيع: "(الرحيم) أشد مبالغة؛ لأنه ينبئ عن رحمته في الدنيا والآخرة ورحمة الرحمانية في الدنيا دون الآخرة"[١].

---

(١)لم أتعرف على قائله، واستشهد به ابن سيده في المخصص ١٧ /١٥٢، والواحدي في التفسير البسيط: ٤٥٦/١، والطبري: ١٣١/١.

(٢) التفسير البسيط: ٤٥٨/١، وانظر: انظر: "تفسير الطبري" ١/ ٥٥، "اشتقاق أسماء الله" ص ٣٨، "المخصص" ١/ ١٣١.

(٣)تهذيب اللغة" (رحم) ٢/ ١٣٨٣.

(٤)"مجاز القرآن" ١/ ٢١، "تهذيب اللغة" (رحم) ٢/ ١٣٨٣، والنص من "التهذيب"، وقد رد الطبري على أبي عبيدة قوله وأغلظ له حيث قال: (وقد زعم بعض من ضعفت معرفته بتأويل أهل التأويل، وقلت روايته لأقوال السلف من أهل التفسير أن (الرحمن) مجازه: ذو الرحمة ..) الطبري في "تفسيره" ١/ ١٣٠-١٣١.

(٥) التفسير البسيط: ٤٥٨/١-٤٥٩. وجعله الطبري من إنكار العناد والمكابرة، وإن كانوا عالمين بصحته، وليس ذلك منهم إنكارا لهذا الاسم، الطبري في "تفسيره" ١/ ١٣٠-١٣١.

(٦)المحرر الوجيز: ١/ ٦٤، وانظر ابن كثير في "تفسيره" ١/ ٢٣، والقرطبي في "تفسيره" ١٣/ ٦٧.

(٧) النكت والعيون:٥٢/١-٥٣.

(٨) انظر: النكت والعيون: ٥٣/١.

وقالوا: إنهما بمعنى واحد كندمان ونديم، ولهفان ولهيف، وجيء بهما للتأكيد والإشباع، كقولهم: جادٌّ ومُجِدٌّ، وقول طَرْفَه[٢][٣]:

مَالِي أَرَانِي وابْنَ عَمِّي مَالِكًا   مَتَى أَدْنُ مِنْه يَنْأَ مِنِّي وَيَبْعُدِ

وقول عدي [٤][٥]:

وَقدَّدَت الأَدِيَم لِرَاهِشَيْه   وأَلْفى قَولَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا

في أمثال لهذا، وروي عن ابن عباس أنه قال:" الرحمن الرحيم، اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر"[٦].

قال الحسين بن الفضل: "غلط الراوي؛ لأن الرقة في صفة الباري لا تصح. وإنما هما أسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر"[٧].

قال الواحدي: "يدل على هذا ما روي في الخبر: "إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف"[٨]، وسمعت من يقول: معنى قول ابن عباس (اسمان رقيقان) أي يدلان فينا على الرقة"[١].

---

(١) حكاه عنه الواحدي في التفسير البسيط: ٤٦٠/١، ولم أجده عن وكيع فيما اطلعت عليه. والله أعلم.

(٢)هو الشاعر الجاهلي المشهور، عُدَّ بعد امرئ القيس في الشعر، واسمه (عمرو) ولقب بـ (طَرْفَه) وأحد الطرفاء لبيت قاله، قتل وهو ابن ست وعشرين سنة، وقيل: ابن عشرين. ترجمته في "الشعر والشعراء" ص ١٠٣، "الخزانة" ٢/ ٤١٩.

(٣)البيت من معلقة طرفة المشهورة، يتحدث عما كان بينه وبين ابن عمه (مالك) من جفوة وخصام، (ينأ عني) و (يبعد) معناهما واحد، وإنما جاء بهما لأن اللفظين مختلفان، والمعنى يبعد ثم يبعد بعد ذلك، وقيل: ينأ: بالفعل، ويبعد: بالنفس لشدة بغضه لي. أورد البيت الثعلبي في "تفسيره" ١/ ١٩ أ، وانظر: "ديوان طرفة" ص ٣٤ تحقيق وتحليل د. علي الجندي.

(٤)عدي بن زيد بن حماد، من بني امرئ القيس بن زيد بن مناة بن تميم شاعر فصيح، من شعراء الجاهلية، وكان نصرانيا، قتله النعمان بن المنذر ملك الحيرة. ترجمته في "الشعر والشعراء" ص ١٣٠، "معاهد التنصيص" ١/ ٣٢٥، "الخزانة" ١/ ٣٨١.

(٥)من قصيدة قالها عدي بن زيد، في قصة طويلة مشهورة بين الزَّباء وجذيمة وردت في كتب التاريخ والأدب. ويروى (قدمت) و (الراهش) عرق في باطن الذراع و (المين) بمعنى: الكذب، ورد البيت في "معاني القرآن" للفراء ١/ ٣٧، "الشعر والشعراء" ص ١٣٢، "إعراب القرآن" للنحاس ١/ ١٧٥، "تفسير الثعلبي" ١/ ١٩ أ، ٧٣ أ، "أمالي المرتضى" ٢/ ٢٥٨، "المستقصى" ١/ ٢٤٣، "مغني اللبيب" ٢/ ٣٥٧، "الهمع" ٥/ ٢٢٦، "معاهد التنصيص" ١/ ٣١٠، "اللسان" (مين) ٧/ ٤٣١١، والقرطبي في "تفسيره" ١/ ٣٩٩، "الدر المصون" ١/ ٣٥٨.

والشاهد (كذبا ومَيْنا) فأكد الكذب بالمين وهو بمعناه.

(٦)ذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ٩٩، وابن الأنباري في "الزاهر" ١/ ١٥٢، والأزهري في "تهذيب اللغة" (رحم) ٢/ ١٣٨٣، والواحدي في التفسير البسيط: ٤٦١/١، والقرطبي في "تفسيره" ١/ ٩٢، وابن كثير عن القرطبي في "تفسيره" ١/ ٢٢، وقد أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسنديهما عن ابن عباس، قال: (الرحمن الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب قال: الرحمن الرحيم: الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه) في سنده ضعف. انظر الطبري ١/ ٥٧، "تفسير ابن أبي حاتم" (رسالة دكتوراه) ١/ ١٤٨، وابن كثير في "تفسيره" ١/ ٢٣، "المفسر عبد الله بن عباس والمروي عنه" (رسالة ماجستير) ١/ ١٣٠.

(٧) ذكره الواحدي في التفسير البسيط: ٤٦٢/١،

(٨)أخرجه مسلم (٢٥٩٣) كتاب البر، باب: فضل الرفق، وأبو داود (٤٨٠٧) كتاب الأدب، باب: في الرفق، وأحمد في "مسنده" عن علي ١/ ١١٢، وعن عبد الله بن مغفل ٤/ ٨٧، وأخرج البخاري عن عائشة وفيه: (إن

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن خالد بن صفوان التميمي في قوله: "{الرحمن الرحيم}، قال: هما رقيقان أحدهما أرق من الآخر"[٢].

والقول الثاني : أنهما مشتقان من رحمتين ، والرحمة التي اشتق منها الرحمن ، غير الرحمة التي اشتق منها الرحيم ، ليصح امتياز الاسمين ، وتغاير الصفتين ، ومن قال بهذا القول اختلفوا في الرحمتين على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الرحمن مشتق من رحمة الله لجميع خلقه ، والرحيم مشتق من رحمة الله لأهل طاعته.

قال الضحاك:" الرحمن بجميع خلقه، والرحيم بالمؤمنين خاصة"[٣].

والقول الثاني : أن الرحمن مشتق من رحمة الله تعالى لأهل الدنيا والآخرة ، والرحيم مشتق من رحمتِهِ لأهل الدنيا دُون الآخرة .

والقول الثالث : أن الرحمن مشتق من الرحمة التي يختص الله تعالى بها دون عباده ، والرحيم مشتق من الرحمة التي يوجد في العباد مثلُها .

وقد اخرج ابن أبي حاتم عن الحسن:" الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه"[٤].

قال الشيخ ابن عثيمين : وذكر هذين الاسمين الكريمين في البسملة التي تتقدم فعل العبد وقوله ، إشارة إلى أن الله إذا لم يرحمك فلن تستفيد لا من هذا الفعل ولا من هذا القول ، ولهذا قال النبي ﷺ : " لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته"[٥].

وفي قوله تعالى: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة : ٣]، ثلاثة أوجه للقراءة[٦]:

أحدها: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، قرأ بها نافع، ابن كثير، أبو عمر، ابن عامر، عاصم، حمزة، الكسائي.

وبالخفض صفات مدح، فالخفض على النعت، وقيل في الخفض إنه بدل أو عطف بيان[٧].

والثاني: رالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، قرأ بها عيسى و ابن عمرو.

والثالث: {الرَّحِيمِ مَّالك}، قرأ بها السوسي، وأبو عمرو، ويعقوب، المطوعي، وابن محيصن، الحسن، اليزيدي.

الفوائد:

الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله (٦٩٢٧) كتاب استتابة المرتدين، باب: إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي - ﷺ -.

(١) التفسير البسيط: ٤٦٢/١، و القرطبي، وذكر نحوه عن الخطابي ١/ ٩٢، وذكره ابن كثير في "تفسيره" في القرطبي ١/ ٢٢.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم(٢١):ص٢٨/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٠):ص٢٨/١.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم(٢٢):ص٢٨/١.

(٥)رواه البخاري في صحيحه ٩٨/٨، حديث رقم ٦٤٦٧، باب القصد والمداومة على العمل.

(٦)انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥م: ٣٥/١.

(٧) انظر: البحر المحيط :٣٥/١.

١-من فوائد الآية: إثبات هذين الاسمين الكريمين. {الرحمن الرحيم} لله عزّ وجلّ؛ وإثبات ما تضمناه من الرحمة التي هي الوصف، ومن الرحمة التي هي الفعل..
٢- ومنها: أن ربوبية الله عزّ وجلّ مبنية على الرحمة الواسعة للخلق الواصلة؛ لأنه تعالى لما قال: {رب العالمين} كأن سائلاً يسأل: "ما نوع هذه الربوبية؟ هل هي ربوبية أخذ، وانتقام؛ أو ربوبية رحمة، وإنعام؟ " قال تعالى: {الرحمن الرحيم} .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد"(١)".

القرآن

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)} [الفاتحة : ٤]

التفسير:
وهو سبحانه وحده مالك يوم القيامة، وهو يوم الجزاء على الأعمال. وفي قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته تذكير له باليوم الآخر، وحثٌّ له على الاستعداد بالعمل الصالح، والكف عن المعاصي والسيئات.

قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[الفاتحة:٤]، "أي: هو سبحانه المالك للجزاء والحساب، المتصرف في يوم الدين تصرّف المالك في ملكه"(٢).

قال التستري:" أي: يوم الحساب"(٣).

قال ابن عباس:" يقول : لا يملك أحدٌ في ذلك اليوم معهُ حكمًا كمِلْكِهم في الدنيا"(٤).

قال مقاتل: "يعنى: مالك يوم الحساب كقوله- سبحانه- {إِنَّا لَمَدِينُونَ}[الصافات:٥٣]، يعني لمحاسبون وذلك أن ملوك الدُّنْيَا يملكون فِي الدُّنْيَا فأخبر- سُبْحَانَهُ- أَنَّهُ لا يَمْلك يوم الْقِيَامَة أحد غيره فذلك قوله- تعالى-:{وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}[الإنفطار:١٩]"(٥).

و(المالك) في اللغة: "(الفاعل) من الملك، يقال: ملك فلان الشيء يملِكُه مُلكا ومِلكا ومَلْكا ومَلَكة، ومَمْلَكة ومَمْلُكة، ويقال: إنه لحسن الملْكَة والمِلْك، وأصل المُلك والمِلك راجع إلى معنى واحد، وهو الربط والشد، فمالك الشيء من ربطه لنفسه وملكه ما يختص به، وشد بعقد يخرج به عن أن يكون مباحا لغيره، وملك القوم من غلبهم وربط أمرهم"(٦).

ومن هذا يقال: ملكت العجين أي شددت عجنه، قال أوس بن حجر(٧)(١):

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٥) (ج ٤ / ص ٢١٠٩).
(٢) صفوة التفاسير:١٩/١.
(٣) تفسير التستري:٢٣.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره(١٦٦):ص١٤٩/١، وابن أبي حاتم(٢٤):ص٢٩/١.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٦/١.
(٦) انظر: تهذيب اللغة: (ملك) ٤/ ٣٤٤٩، والمحكم: (ملك) ٧/ ٤٥، والحجة" لأبي علي الفارسي ١/ ١٣، ١٧، والمخصص" لابن سيده ١٧/ ١٥٧، وتفسير أسماء الله للزجاج ص ٣٠، واشتقاق أسماء لله للزجاجي ص ٤٣، ٤٤، والتفسير البسيط: ٤٩٧/١.
(٧)أوس بن حجر من شعراء الجاهلية وفحولها، وأحد شعراء تميم، انظر ترجمته في "الشعر والشعراء" ص ١١٤، "الخزانة" ٤/ ٣٧٩، "معاهد التنصيص" ١/ ١٣٢.

فملك باللِيط الذي تحت قشرها كغِرْقيء بَيضٍ كنه القَيضُ من عَلِ
قوله: ملك: أي: شدد.
ومنه قول قيس بن الخطيم[٢][٣]:
ملكت بها كفي فأنهرت فتقها يرى قائم من خلفها ما وراءها
أي: شددت بالطعنة كفي.
ويقال: ما تمالك فلان أن فعل كذا، أي لم يستطع أن يضبط نفسه. قال الشاعر[٤]:
فلا تمالك[٥] عن أرض لها عمدوا
وملاك الأمر: ما يضبط به الأمر، يقال: القلب ملاك الجسد[٦].
وأبو مالك: كنية الكبر والسن، كني به لأنه يغلب الإنسان ويشده عما يريد، فلا ينبسط انبساط الشاب[٧]، قال الشاعر[٨]:
أبا مالك إن الغواني هجرنني أبا مالك إني أظنك دائبا
ويقال للرجل إذا تزوج: ملك فلان، يملك ملكا؛ لأنه شد عقد النكاح. وأملك إملاكا إذا زوج[٩].
و{ يَوْمِ الدِّينِ}: أي يوم الحساب، قال ابن عباس:" الدين يوم حساب الخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيرا فخير، وإن شر شرا إلا من عفا عنه"[١٠].
وفي قوله تعالى:{يَوْمِ الدِّينِ}[البقرة:٤]، تأويلان:

---

(١) ديوان أوس: ٩٧، وانظر: الحجة للفارسي ١/ ١٧، وتهذيب اللغة" (ملك) ٤/ ٣٤٥٠، والخصائص" ٢/ ٣٦٣، ٣/ ١٧٢، واشتقاق أسماء الله" ص ٤٦، والصحاح" (ملك) ٤/ ١٦١٠، والمحكم" (ملك) ٧/ ٤٦، واللسان" (ملك) ٧/ ٤٢٦٨، والخزانة" ٢/ ٣٩٦.
وقوله (ملك): شدد، و (الليط): القشر، و (القيض): القشر الغليظ فوق البيضة، و (الغرقىء): القشر الرقيق للبيضة، وهو يصف قوسا يقول: إنه قواه وذلك حين قشره فترك القشر الرقيق ليقويه به.
(٢)هو قيس بن الخطيم بن عدي بن الخزرج، شاعر فارس، لقي النبي - ﷺ - ومات كافرا، ترجمته في "طبقات فحول الشعراء" ٩١/ ٩٢، "الإصابة" ٣/ ٢٨١، "الخزانة" ٧/ ٣٤.
(٣)انظر: "ديوان قيس" ص ٨، "تهذيب اللغة" (ملك) ٤/ ٣٤٥٠، "الصحاح" ٤/ ١٦٠٩، "المحكم" ٧/ ٤٦، "تاج العروس" ١٣/ ٦٥٣، "اللسان" ٧/ ٤٢٦٨، (المعاني الكبير) ٢/ ٩٧٨، ٩٨٣، "الحجة" للفارسي ١/ ١٣، ١٧، "الخزانة" ٧/ ٣٥.
والبيت من قصيدة لقيس قالها حين أصاب بثأره من قاتلي أبيه وجده، يقول: شددت بهذِه الطعنة كفى ووسعت خرقها، حتى يرى القائم من دونها الشيء وراءها..
(٤)ورد في "التهذيب" (ملك) ١٠/ ٢٧١، غير منسوب، وكذا في "اللسان" (ملك) ١٠/ ٤٩٤.
(٥)تمالُك) بضم اللام في "تهذيب اللغة" وفي الحاشية: (جـ)، (ل) بفتح اللام، "تهذيب اللغة" ١٠/ ٢٧١، وبالفتح في "اللسان" ١٠/ ٤٩٤.
(٦) انظر: التفسير البسيط: ٤٩٧/١-٤٩٨، و لتهذيب" (ملك) ٤/ ٢٤٥٠، وانظر: "المحكم" ٧/ ٤٦، "اللسان" (ملك) ٧/ ٤٢٦٨.
(٧) انظر: التفسير البسيط: ٤٩٩/١، وذكر الأزهري نحوه في التهذيب عن ابن الأعرابي: ٤/ ٣٤٥١، وانظر: "اللسان" (ملك) ٧/ ٤٢٦٩.
(٨)أورده الأزهري بدون نسبه في "التهذيب" (ملك) ٤/ ٣٤٥١ و (أبا) ١/ ١٠٤، "اللسان" (ملك) ٧/ ٤٢٦٩، وكذا الزمخشري في "أساس البلاغة" (ملك) ٢/ ٤٠١.
(٩) انظر: "التهذيب" (ملك) ٤/ ٣٤٤٩، وانظر: "اللسان" (ملك) ٧/ ٤٢٦٨.، والتفسير البسيط: ٤٩٩/١.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٥):ص٢٩/١.

أحدهما : أنه يوم الجزاء. يعني: يوم يدين الله العباد بأعمالهم. وهذا قول الضحاك[١]، وقتادة[٢]، وحمبد الأعرج[٣].
دليله قوله: {أَإِنَّا لَمَدِينُونَ}[الصافات:٥٣]، أي "مجرّبون"[٤].
والثاني : أنه الحساب. ومعنى الآية: قاضي يوم الحساب، وهذا قول ابن عباس[٥]، والسدي[٦]، ومقاتل[٧]، وابن جريج[٨]، واختاره أبو عبيد [٩].
ودليهم: قوله تعالى:{ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}[التوبة:٣٦]، أي:"الحساب المستقيم"[١٠].
ومنه قوله ﷺ: "الكيس من دان نفسه "[١١]. أي حاسبها[١٢].
قال أبو عبيدة:" {الدِّينِ} الحساب والجزاء، يقال فى المثل: «كما تدين تدان»[١٣]"[١٤].
قال الطبري:" : والدين في هذا الموضع، بتأويل الحساب والمجازاة بالأعمال ، كما قال كعب بن جُعَيْل [١٥]:

إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمَيْنَاهُم ودِنَّاهُمُ مِثْلَ ما يُقْرِضُونَا

وكما قال الآخر[١٦] :

وَاعْلَمْ وأَيْقِنْ أَنَّ مُلْكَكَ زائلٌ واعلمْ بأَنَّكَ مَا تدِينُ تُدَانُ

يعني : ما تَجْزِي تُجازى.

---

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره:١١٥/١.
(٢) أخرجه الطبري(١٦٩):ص١٥٥/١-١٥٦.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٢٦):ص٢٩/١.
(٤) تفسير الثعلبي:١١٥/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٦٧):ص١٥٦/١.
(٦) انظر: تفسير الثعلبي:١١٥/١.
(٧)انظر: تفسير الثعلبي:١١٥/١.
(٨) أخرجه الطبري(١٧٠):ص١٥٧/١.
(٩) انظر: مجاز القرآن: ٤٣٩/١.
(١٠)تفسير الثعلبي:١١٥/١.
(١١)الحديث أخرجه الترمذي عن شداد بن أوس، وقال: حديث حسن. الترمذي (٢٤٥٩)، أبواب صفة القيامة، وابن ماجه (٤٢٦٠) كتاب: الزهد، باب: ذكر الموت، والإمام أحمد في "مسنده" ٤/ ١٢٢، وهو بنصه في "تهذيب اللغة" (دان) ٢/ ١١٣٦.
(١٢) التفسير البسيط: ٥٠٥/١.

(١٣)هذا المثل فى الكامل ١٨٥، الجمهرة ٢/ ٣٠٦، جمهرة الأمثال ٢/ ١٥٤، الميداني ٢/ ٢٧٣، اللسان، التاج (دين) ، الفرائد ٢/ ١٢٢..
(١٤)مجاز القرآن:٢٣/١ .
(١٥)الكامل للمبرد ١ : ١٩١ ، ووقعة صفين لنصر بن مزاحم ١ : ٥٢ ، المخصص ١٧ : ١٥٥ .
(١٦)الكامل للمبرد ١ : ١٩٢ منسوبًا إلى يزيد بن أبي الصعق الكلابي ، وكذلك في جمهرة الأمثال للعسكري : ١٩٦ ، والمخصص ١٧ : ١٥٥ ، وفي اللسان (زنأ) و (دان) منسوبين إلى خويلد بن نوفل الكلابي ، وفي الخزانة ٤ : ٢٣٠ إلى بعض الكلابيين . يقولون : إن الحارث بن أبي شمر الغساني كان إذا أعجبته امرأة من قيس عيلان بعث إليها واغتصبها ، فأخذ بنت يزيد بن الصعق الكلابي ، وكان أبوها غائبًا ، فلما قدم أخبر . فوفد إليه فوقف بين يديه وقال : يَا أَيُّهَا المَلِكُ المُقِيتُ ! أَمَا تَرى ... لَيْلاً وصُبْحًا كَيْفَ يَخْتَلِفَانِ ؟
هَلْ تَسْتَطِيعُ الشَّمْسَ أن تَأْتِي بها ... لَيْلاً ؟ وهل لَكَ بِالْمَلِيك يَدَانِ؟
يَا حَارِ ، أَيْقِنْ أَنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ ... .

ومن ذلك قول الله جل ثناؤه{ كَلا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ }- يعني : بالجزاء -{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} [سورة الانفطار : ٩ ، ١٠] يُحصون ما تعملون من الأعمال ، وقوله تعالى{فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ}[سورة الواقعة : ٨٦] ، يعني غير مجزيّين بأعمالكم ولا مُحاسَبين"(١).

وفي أصل (الدين) في اللغة، قولان(٢) :

أحدهما : العادة ، ومنه قول المثقَّب العَبْدِي(٣) :

تَقُولُ وَقَدْ دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي   أَهذَا دِينُهُ أَبَداً وَدينِي

أي عادته وعادتي .

والثاني : أنَّ أصل الدين الطاعة ، ومنه قول زهير بن أبي سُلمى(٤) :

لَئِن حَلَلْتَ بِجَوٍ في بَنِي أَسَدٍ   في دِينِ عَمْرٍو وَمَالتْ بَيْنَنَا فَدَكُ

أي في طاعة عمرو .

وفي هذا اليوم قولان(٥) :

أحدهما : أنه يوم ، ابتداؤه طلوع الفجر ، وانتهاؤه غروب الشمس .

والثاني : أنه ضياء ، يستديم إلى أن يحاسب الله تعالى جميع خلقه ، فيستقر أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار .

وفي اختصاصه بملك يوم الدين تأويلان(٦) :

أحدهما : أنه يوم ليس فيه ملك سواه، فكان أعظم من مُلك الدنيا التي تملكها الملوك ، وهذا قوله الأصم(٧) .

والثاني : أنه لما قال {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، يريد به ملك الدنيا ، قال بعده : {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} يريد به ملك الآخرة ، ليجمع بين ملك الدنيا والآخرة .

قال الواحدي:" وخص هذا اليوم بأنه مالكه، تعظيما لشأنه وتهويلا لأمره، كقوله: {إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ } [العاديات: ١١] وهو خبير سائر الأيام. وللدين معان كثيرة في اللغة، وكل موضع انتهينا إليه من القرآن ذكرنا ما فيه"(٨).

---

(١) تفسير الطبري: ١٥٥/١.

(٢) انظر: النكت والعيون: ٥٦/١-٥٧.

(٣) ديوانه: ١٩٥، وانظر: الكامل ١/ ٣٢٩، الصناعتين ص ٨٦ "اللسان" (درأ) ١٣٤٩، الطبري ١/ ٥١١، "تأويل مختلف الحديث" ٨٢، "تهذيب اللغة" ٢/ ١١٦٦، "تاج العروس" (درأ) ١/ ١٥٠.

(٤)البيت في "شرح ديوانه" ص ١٨٣، و"تفسير ابن جرير" ١٠/ ١٠٩.

و"جو": موضع في ديار بني أسد، و"عمرو": هو عمرو بن هند بن المنذر بن ماء السماء، و"فدك": قرية معروفة شمال الحجاز.

والشاعر يخاطب الحارث بن ورقاء الأسدي، الذي أغار على إبل زهير، وأسر راعيه وكانت بنو أسد تحت نفوذ عمرو بن هند ملك العراق، فهدد زهير الحارث بهجاء لاذع إن لم يرد الإبل والراعي، يقول بعد البيت المذكور:

ليأتينك مني منطق قذع ... باق، كما دنس القبطية الودك

انظر: "شرح الديوان" ص ١٦٤، ١٨٣.

(٥) انظر: النكت والعيون: ٥٧/١.

(٦) انظر: النكت والعيون: ٥٧/١.

(٧) انظر: النكت والعيون: ٥٧/١.

(٨) التفسير البسيط: ٥٠٥/١.

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة، عن النبي- ﷺ- قال: "قال الله تعالى: كتبت الصلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال العبد: مالك يوم الدين قال: فوض عبدي وأثنى علي"(١).

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[الفاتحة:٤]، على ثلاثة قراءات متواترة(٢):

القراءة الأولى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، بألف، قرأ بها عاصم والكسائي، ويعقوب.

وحجتهم(٣):

أولا: أن الملك داخل تحت المالك. والدّليل له: قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ}[آل عمران : ٢٦]، ولم يقل: ملك الملك.

والثاني: ويعضده قوله تعالى: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار : ١٩](٤).

والثالث:أن {مالك} أمدح من {ملك}، لأنه يجمع الاسم والفعل.

والرابع: ومما يقوي هذه القراءة من التنزيل قوله {وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار: ١٩] فقولك: الأمر له، وهو مالك الأمر بمعنى، ألا ترى أن لام الجر معناها الملك(٥).

وأكثر أهل اللغة اختاروا (مالك)، منهم: "أبو عبيدة، وأبو حاتم(٦)،والأصمعي، والأخفش، وأبو العباس(٧)"(٨).

وقالوا: إنه أجمع وأوسع، لأنه يقال: مالك الطير والدواب والوحوش وكل شيء، ولا يقال: ملك كل شيء، إنما يقال: ملك الناس، قالوا: ولا يكون مالك الشيء إلا وهو يملكه، وقد يكون ملك الشيء وهو لا يملكه كقولهم: (ملك العرب والعجم)، ولأنه يجمع الفعل والاسم(٩)، ولأن معنى الآية أنه يملك الحكم يوم الدين بين خلقه دون غيره، فالوصف يكون مالكا(١٠).

القراءة الثانية: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، بغير ألف. قرأ بها الباقون.

وحجتهم(١١):

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٢٣):ص٢٩/١ .

(٢) انظر: السبعة في القراءات: ١٠٤، والحجة للقراء السبعة: ٦٢، وتفسير البيضاوي: ٢٨/١.

(٣) انظر: السبعة في القراءات: ١٠٤، والحجة للقراء السبعة: ٦٢.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ٢٨/١.

(٥) انظر: الحجة: ١٩/١.

(٦)أبو حاتم هو: سهل بن محمد الجشمي السجستاني. نزيل البصرة وعالمها، من أئمة اللغة والشعر، والنحو إلى أنه لم يكن فيه حاذقًا، تلقى على أبي زيد، وأبي عبيدة والأصمعي، توفي سنة (٢٥٥ هـ).

(٧) احتج أبو العباس لهذه القراءة فقال: "(مالك يوم الدين) معناه يملك إقامة يوم الدين، على معنى يملك أن يأتي به، وإذا كان المعنى على هذا فالوجه (مالك) لا (ملك)".[التفسير البسيط: ٥٠١/١، و ذكر الأزهري نحوه عن المنذري عن أبي العباس. "التهذيب" (ملك) ٤/ ٣٤٤٩، وانظر: "الحجة" ١/ ١٥].

(٨)انظر: "تفسير الثعلبي" ١/ ٢٨/ أ، "الزينة" ١/ ١٠٠، ١٠١، "معاني القرآن" للأخفش ١/ ١٦٠، "التهذيب" (ملك) ٤/ ٣٤٤٩، والتفسير البسيط: ٥٠١/١.

(٩)ذلك أن (مالكا) يجمع لفظ الاسم ومعنى الفعل فلذلك يعمل (فاعل) فينصب كما ينصب الفعل. انظر: "الكشف" لمكي ١/ ٢٦.

(١٠)انظر: "الحجة" لأبي علي الفارسي ١/ ١٢، ١٥، ١٦، "الكشف" ١/ ٢٥، ٢٦.

(١١) انظر: السبعة في القراءات: ١٠٤، والحجة للقراء السبعة: ٦٢.

أولا: قوله تعالى: {مَلِكِ النَّاسِ} [الناس : ٢]، وقوله: { الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ } [الحشر: ٢٣، والجمعة:١]، وقوله: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ}[طه:١١٤، والمؤمنون:١١٦].
والثاني: أن (الملك) أخص من (المالك) وأمدح؛ لأنه قد يكون المالك غير ملك، ولا يكون الملك إلا مالكا.

قال أبوبكر البغدادي: "قال أبو حمدون عن اليزيدي عن أبي عمرو:" {ملك} يجمع مالكا، و {مالك} لا يجمع ملكا"[١].
والثالث: أن قوله {مالك يوم الدين}، إنما هو ذلك اليوم بعينه، في حين أن {ملك يوم الدين}، ملك ذلك اليوم بما فيه.

وتفسير الآية على هذا الوجه من القراءة: أن "لله المُلْك يوم الدين خالصًا دون جميع خلقه ، الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكًا جبابرة ينازعونه الملك ، ويدافعونه الانفرادَ بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية، فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصَّغَرة الأذِلّة، وأنّ له - من دُونهم ، ودون غيرهم - المُلك والكبرياء ، والعزة والبهاء ، كما قال جلّ ذكره وتقدست أسماؤه في تنزيله :{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة غافر: ١٦]. فأخبر تعالى ذكره أنه المنفرد يومئذ بالمُلك دون ملوك الدنيا ، الذين صارُوا يوم الدّين منْ مُلكهم إلى ذِلّة وصَغار ، ومن دُنياهم في المعاد إلى خسار"[٢].

واختار البيضاوي القراءة الثانية، حيث قال:" وهو المختار، لأنه قراءة أهل الحرمين ولقوله تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}[غافر:١٦]، ولما فيه من التعظيم، والمالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء من الملك، والملك هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين من الملك"[٣].

قال الواحدي:" (الملك) أشمل وأتم؛ لأنه قد يكون مالك ولا ملك له، ولا يكون مَلِك إلى وله مُلك، ولأنه لا يقال: مالك على الإطلاق، حتى يضاف إلى شيء، ويقال: ملك على الإطلاق"[٤].

كما وقد اختار الإمام الطبري القراءة الثانية، إذ يقول: وأولى التأويلين بالآية قراءةُ من قرأ {مَلِكِ} بمعنى (المُلك)، لأن في الإقرار له بالانفراد بالمُلك ، إيجابًا لانفراده بالمِلْك ، وفضيلة زيادة المِلك على المالك ، إذْ كان معلومًا أن لا مَلِك إلا وهو مالكٌ ، وقد يكون المالكُ لا ملكًا "[٥].

ثم ذكر الطبري بأن الله نبه على أنه مالكهم بقوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} فحمل قوله {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} على وصف زائد أحسن[٦].

ومن نصر القراءة الأولى، أجاب ابن جرير الطبري بأن قال: ما ذكرت لا يرجح قراءة ملك؛ لأن في التنزيل أشياء على هذِه الصورة قد تقدمها العام وذكر بعده الخاص، كقوله {اقْرَأْ

---

(١) السبعة في القراءات: ١٠٤.
(٢) تفسير الطبري:١٤٩/١.
(٣) تفسير البيضاوي: ٢٨/١.
(٤) التفسير البسيط: ٤٩٩/١، وانظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٧٧ - ٧٩، والكشف" ١/ ٢٦.
(٥) تفسير الطبري: ١٥٠/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري:١٥٠/١.

بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)} [العلق: ١ - ٢]، وقوله: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البقرة: ٣]، ثم قال: {وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البقرة: ٤]. في أمثال كثيرة لهذا[١].

قال ابن كثير: قرأ بعض القراء(ملك يوم الدين) وقرأ آخرون(مالك) وكلاهما صحيح متواتر في السبع، ويقال (ملك) بكسر اللام وبإسكانها، ويقال: (مليك) أيضا، وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ (ملكي يوم الدين)، وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى وكلتاهما صحيحة وحسنة[٢].

قال ابن عثيمين:" وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي أن ملكه جلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكون ملكاً، ولكن ليس بمالك: يسمى ملكاً اسماً وليس له من التدبير شيء؛ ومِن الناس مَن يكون مالكاً، ولا يكون ملكاً: كعامة الناس؛ ولكن الرب عزّ وجلّ مالكٌ ملِك"[٣].

قلت: ولا وجه لتفضيل قراءة على أخرى -كما فعل بعض المفسرين-؛ إذ لا يظهر وجه للتفضيل هنا، وكل قراءة تدل على معنى جميل في ذاته. والله أعلم.

القراءة الثالثة:{مَلِكَ}، على وزن{فَعِلَ}، قرأ بها ابن كثير، أبو عمرو.

وفي الآية قراءات شاذة، وهي[٤]:

١- (مَلْكِ) على وزن(فَعْلِ)، قرأ بها عاصم الجحدي، وأبو عمرو.

٢- (مَلِكِي) بإشباع(الكاف)، وهي قراءة أحمد بن صالح عن ورش عن نافع.

٣- (مَلَكَ يومَ) بصيغة فعل الماض، قرأ بها عاصم بن ميمون الجحدي، والحسن، وعلي بن أبي طالب.

٤- (مالكَ): قرأ بها المطوعي، والأعمش.

٥- (مَلُكَ) على وزن(فَعُلَ): قرأ بها عاصم الجحدي، ورواها الجعفي وعبدالوارث عن أبي عمرو.

٦- (ملكاً): روى ابن أبي عاصم عن اليمان.

٧- (مالكٌ يومَ): قرأ بها خلف ابن هشام.

٨-(مليكِ) على وزن (فعيلِ): وهي قراءة أبي بن كعب

٩-(مالك) بالإمالة بين بين، وهي قراءة قتيبة بن مهران عن الكسائي.

١٠-وقرئ:{مالكا}، بالنصب على المدح أو الحال.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: إثبات ملك الله عزّ وجلّ، وملكوته يوم الدين؛ لأن في ذلك اليوم تتلاشى جميع الملكيات، والملوك.

فإن قال قائل: أليس مالك يوم الدين، والدنيا؟

فالجواب: بلى؛ لكن ظهور ملكوته، وملكه، وسلطانه، إنما يكون في ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى ينادي: {لمن الملك اليوم} [غافر: ١٦] فلا يجيب أحد؛ فيقول تعالى: {لله الواحد القهار}

---

(١) انظر: التفسيرالبسيط: ٥٠٢/١، والحجة: ١٨/١-١٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٤/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين:١٢/١.

(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ٢٨/١، وتفسير القرطبي: ٣٦/١-٣٧، و الكتاب الفريد في اعراب القران المجيد: ٧٦/١-٧٧، و مجمع البيان، الطبرسي: ٣٢/١، و البحر المحيط في التفسير: ٣٨/١-٣٩.

[غافر: ١٦] ؛ في الدنيا يظهر ملوك؛ بل يظهر ملوك يعتقد شعوبهم أنه لا مالك إلا هم؛ فالشيوعيون مثلاً لا يرون أن هناك رباً للسموات، والأرض؛ يرون أن الحياة: أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وأن ربهم هو رئيسهم..
٢-ومن فوائد الآية: إثبات البعث، والجزاء؛ لقوله تعالى: {مالك يوم الدين}.
٣- ومنها: حث الإنسان على أن يعمل لذلك اليوم الذي يُدان فيه العاملون.

القرآن

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)} [الفاتحة : ٥]

التفسير:
إنا نخصك وحدك بالعبادة، ونستعين بك وحدك في جميع أمورنا، فالأمر كله بيدك، لا يملك منه أحد مثقال ذرة. وفي هذه الآية دليل على أن العبد لا يجوز له أن يصرف شيئًا من أنواع العبادة كالدعاء والاستغاثة والذبح والطواف إلا لله وحده، وفيها شفاء القلوب من داء التعلق بغير الله، ومن أمراض الرياء والعجب، والكبرياء.

قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}[الفاتحة:٥]، "أي: نخصَّك يا ألله بالعبادة"[١].

قال ابن عباس:" إياكَ نُوحِّد ونخاف ونرجو يا ربَّنا لا غيرك "[٢].

قال قتادة: يأمركم أن تخلصوا له العبادة، وأن تستعينوه على أمركم"[٣].

قال مقاتل:" يعني: نوحّد ،كقوله- سُبْحَانَهُ- فِي المفصل: {عابِداتٍ}[التحريم:٣]، يعني: موحدات"[٤].

قال الطبري:أي:" لك اللهم نَخشعُ ونَذِلُّ ونستكينُ ، إقرارًا لك يا رَبنا بالرُّبوبية لا لغيرك"[٥].

قال ابن عطية: " معناه نقيم الشرع والأوامر مع تذلل واستكانة"[٦].

قال الصابوني: أي:" فلا نعبد أحداً سواك، لك وحدك نذلُّ ونخضع ونستكين ونخشع"[٧].

قال البيضاوي[٨] والزمخشري[٩]:أي:" نخصك بالعبادة".

قال ابن كثير:" أي : لا نعبد إلا إياك، وقدم المفعول وهو { إياك } ، وكرر ؛ للاهتمام والحصر، وإنما قدم : { إياك نعبد } على { وإياك نستعين } لأن العبادة له هي المقصودة ، والاستعانة وسيلة إليها ، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم"[١٠].

---

(١) صفوة التفاسير:١٩/١.
(٢)أخرجه الطبري(١٧١):ص١٥٧/١، وابن أبي حاتم(٢٧):ص٢٩/١.
(٣) اخرجه ابن ابي حاتم(٢٩):ص٢٩/١.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٣٦/١،
(٥) تفسير الطبري:١٥٧/١.
(٦) المحرر الوجيز: ٧٢/١.

(٧) صفوة التفاسير:١٩/١.
(٨) تفسير البيضاوي: ٢٩/١.
(٩) الكشاف: ١٣/١.
(١٠) تفسير ابن كثير: ١٣٤/١-١٣٥.[بتصرف بسيط]. وللرازي في هذا التقديم تعليلات يطول ذكرها. انظر (تفسيره) ١/ ٢٥٤.

قال الثعلبي:" أي: نوحد ونخلص ونطيع ونخضع، والعبادة رياضة النفس على حمل المشاق في الطاعة"[(١)].

قال التستري:" أي نخضع ونذل ونعترف بربوبيتك ونوحدك ونخدمك، ومنه اشتق اسم العبد"[(٢)].

قال الخطيب المكي:أي:" نفردك وحدك بالدعاء الذي هو مخ العبادة فلا ندعو غيرك ولا نؤمل في سواك لاعتقادنا الجازم بأنه ليس غيرك من يسمع النداء ويجيب الدعاء، أو يحقق الرغبات ويستحق العبادة. فأنت أنت الفعال لما تريد، المؤثر في كل شيء، المقصود قبل كل أحد، المعطي المانع لا شرك لك"[(٣)].

وفي: {إِيَّاكَ}[الفاتحة:٥]، قولان [(٤)]:

أحدهما : أنها اسم الله تعالى مضاف إلى الكاف ، وهذا قول الخليل[(٥)]، وأبي عثمان المازني[(٦)(٧)].

قال سيبويه: "حدثني من لا أتهم عن الخليل: أنه سمع أعرابيا يقول: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب"[(٨)].

وحكى سيبويه أيضا عن الخليل أنه قال: "لو أن قائلا قال: إياك نفسك لم أُعَنِّفْه [(٩)]،لأنَّ هذه الكاف مجرورة"[(١٠)].

واعترض ابن جني قائلا:" أما قول الخليل إن إيا اسم مضمر مضاف، فظاهر الفساد، وذلك أنه إذا ثبت أنه مضمر، فلا سبيل إلى إضافته على وجه من الوجوه، لأن الغرض في الإضافة إنما هو التعريف والتخصيص، والمضمر على نهاية الاختصاص، فلا حاجة به إلى الإضافة"[(١١)].

والثاني : أنها كلمة واحدة كُنِّيَ بها عن اسم الله تعالى ، وليس فيها إضافة لأن المضمر لا يضاف ، وهذا قول الأخفش[(١٢)]، وحكاه ابن كيسان عن بعض النحويين[(١٣)]، واختاره ابن جني[(١٤)].

---

(١) تفسير الثعلبي:١١٧/١.

(٢) تفسير التستري:١٢.

(٣) تفسير الخطيب المكي:١/ ١٣.

(٤) انظر: سر صناعة الإعراب لابن جني: ٣٢٠/١-٣٢١، والإغفال(رسالة ماجستير):٥٢، والنكت والعيون: ٥٧/١، والتفسير البسيط: ٥٠٥/١-٥٠٦.

(٥)انظر: سر صناعة الإعراب لابن جني: ٣٢٠/١، والنكت والعيون: ٥٧/١، والتفسير البسيط: ٥٠٦/١.

(٦)هو أبو عثمان بكر بن محمد المازني الشيباني، النحوي المشهور، أستاذ أبى العباس المبرد، اختلف في سنة وفاته فقيل: (٢٣٦ هـ)، وقيل: (٢٤٨ هـ)، وقيل: غير ذلك. انظر ترجمته في "طبقات النحويين واللغويين" ص ٨٧، "تاريخ بغداد" ٧/ ٩٣، "إنباه الرواة" ١/ ٢٤٦، "معجم الأدباء" ٢/ ٣٤٥، "نزهة الألباء" ص ١٤٠.

(٧) انظر: التفسير البسيط: ٥٠٦/١.

(٨) الكتاب: ٢٧٩/١، وانظر: سر صناعة الإعراب: ٣٢٠/١.

(٩)أعنفه: أعنف به وعليه أي أخذه بشدة وقسوة. مادة "ع ن ف" اللسان "٤/ ٣١٣٢".

(١٠) الكتاب: ٢٧٩/١، وانظر: سر صناعة الإعراب: ٣٢٠/١.

(١١) سر صناعة الإعراب: ٣٢١/١.

(١٢) انظر: سر صناعة الإعراب: ٣٢٠/١.

(١٣) انظر: سر صناعة الإعراب: ٣٢٠/١.

(١٤) انظر: سر صناعة الإعراب: ٣٢٠/١، حيث قال:" وتأملنا هذِه الأقوال على اختلافها والاعتدال لكل قول منها، فلم نجد فيها ما يصح مع الفحص والتنقيب غير قول أبي الحسن الأخفش".

قال الزمخشري:" وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون، وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب: «إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب» فشيء شاذ لا يعوّل عليه"[١].

قال الراغب الأصفهاني:" والقولان لا تنافي بينهما في الحقيقة، لأن ذلك بنظرين مختلفين، وذاك أن الضمير المتصل إذا قدم أو فصل بينه وبين المتصل به لا يحسن النطق به مفرداً، فضم إليه: " إيا " ليصير بذلك كلاماً مستقلاً، فمن قال: الضمير هو الكاف، فإنما اعتبر بذلك بعد انضمام " إيا " إلى الضمير، والعرب كما أنهم يتحرون بالحروف المركبة إفادة المعنى، فقد يأتون ببعضها تهذيباً للفظ وتحسيناً له، بدلالة إدخالهم الحروف بين الحرفين المتنافرين في التركيب، لئلا يقبح التفوه بهما"[٢].

وفي قوله تعالى:{نَعْبُدُ}[الفاتحة:٥]، ثلاثة تأويلات [٣]:

أحدها : أن العبادة الخضوع ، ولا يستحقها إلا الله تعالى ، لأنها أعلى مراتب الخضوع ، فلا يستحقها إلا المنعم بأعظم النعم ، كالحياة والعقل والسمع والبصر .

والثاني : أن العبادة الطاعة .

والثالث : أنها التقرب بالطاعة .

قال الماوردي:" والأول أظهرها ، لأن النصارى عبدت عيسى عليه السلام ، ولم تطعه بالعبادة ، والنبي- ﷺ- مطاع ، وليس بمعبودٍ بالطاعة"[٤] .

قال الراغب:" إن قيل: كيف قال: " إياك " نعبد ولو قال: " نعبدك " كان أوجز منه لفظاً؟ قيل: إن عادتهم أن يقدموا من الفاعل والمفعول ما القصد الأول إليه، والاهتمام متوجه نحوه، وإن كان في ذكر الجملة القصدان جميعاً.

تقول: بالأمير استخف الجند - إذا كان القصد الأول ذكر من وقع به استخفاف الجند - و " الأمير أستخف بالجند - إذا كان القصد الأول إلى من أقدم على الاستخفاف بهم.

ولما كان القصد الأول - في هذا الموضع - ذكر المعبود دون الإخبار عن إتخاذ عبادتهم، كان تقديم ذكره أولى.

وعلى هذا قوله تعالى: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} وأيضاً، ففي ذكر المفعول إشارة إلى إثبات الحكم المذكور ونفيه عن غيره تقول: إليك أفزع تنبيهاً أني لا أفزع إلا إليك.

وإذا قال: أفزع إليك، فليس فيه المعنى وعلى هذا فسر ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما فقال: معناه: لا نوجد غيرك وقال بعضهم: إنما نبه تعالى بتقديم ذكر أن تكون نظر العباد من المعبود إلى عبادتهم له لا من العبادة إلى المعبود، وعلى ذلك فضل ما حكي الله عن نبينا - عليه السلام - إذ قال: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} فنظر من الله تعالى إلى نفسه على ما حكى عن موسى عليه السلام حين قال: {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي} فقدم ذكر نفسه، ونظر منها إلى ربه"[٥].

---

(١) الكشاف: ١٣/١.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني: ٥٧/١-٥٨.

(٣) انظر: النكت والعيون: ٥٧/١-٥٨.

(٤)النكت والعيون: ٥٨/١.

(٥) تفسير الرابغ الأصفهاني: ٥٩/١.

والعبادة لغة: "التذلل.. وبعير معبد: مذلل. وطريق معبد: مسلوك مذلل[1].

قال الزجاج:" معنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، يقال هذا طريق معبد إذا كان مذللا بكثرة الوطء، وبعير معبد، إذا كان مطليا بالقطران"[2].

قال ابن فارس: العين والباء والدال أصلان صحيحان. كأنهما متضادان، والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل. والآخر على شدة وغلظ. فالأول: العبد المملوك.. والمعبد: الذلول.. والطريق المعبد المسلوك المذلل، والأصل الآخر: العبدة وهي القوة والصلاة يقال: هذا ثواب له عبدة، إذا كان صفيقاً قوياً[3].

قال الطبري:" وأنها تسمي الطريقَ المذلَّلَ الذي قد وَطِئته الأقدام ، وذلّلته السابلة : معبَّدًا . ومن ذلك قولَ طَرَفَة بن العَبْد [4]:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجياتٍ وأَتْبَعت   وَظِيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ

يعني بالموْر : الطريق. وبالمعبَّد : المذلَّل الموطوء"[5].

والعبادة اصطلاحاً هو: " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"[6][7].

---

(١)لسان العرب، مادة عبد ٣/ ٢٧٤.

(٢) معاني القرآن: ٤٨/١.

(٣)معجم مقاييس اللغة ٤/ ٢٠٥، ٢٠٦ باختصار.

(٤)ديوان الستة الجاهليين : ٣١ . يصف ناقته . تباري : تجاريها وتسابقها . والعتاق جمع عتيق : وهو الكريم المعرق في كرم الأصل . وناجيات : مسرعات في السير ، من النجاء ، وهو سرعة السير . والوظيف : من رسغي البعير إلى ركبتيه في يديه ، وأما في رجليه فمن رسغيه إلى عرقوبيه . وعنى بالوظيف هنا : الخف .

(٥) تفسير الطبري: ١٦١/١.

(٦)العبودية، ص٣١.

(٧) فالمراد بـ"ما يحبه الله ويرضاه": كل أمر يجري وفق شرع الله سبحانه وتعالى من الواجبات والمندوبات والمباحات. وكذلك ترك المنهيات، فإن الله يحب أن نترك ما نهانا عنه، من الأقوال والأفعال: (إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال) فمن ترك ذلك فقد أرضى ربه. وقال تعالى:{ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } [الإسراء: ٣١]، وقال:{ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً } [الإسراء: ٣٢]، وقال:{ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء: ٣٦]، وقال:{ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً } [الإسراء: ٣٧٧]، ترك كل ذلك يرضي الله سبحانه وتعالى ويحب الله تاركيه ما داموا قد تركوها من أجله.

والمراد بقوله: "الباطنة والظاهرة" فهناك أعمال للقلوب وهي باطنة لا يطلع عليها إلا الله سبحانه وتعالى، وقد نحس بآثارها على المتصف بها: فمما ورد في ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى:{ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً } (الأحزاب: ٣٥٥).

إن الاستسلام لأمر الله، والتصديق الجازم بما أنزله على رسوله، والإخبات لأمر الله والاستمرار عليه والخشوع بتدبر أوامر الله ونواهيه والتذلل لها، وصدق الحال والإخلاص في الأعمال.... كل هذه أعمال باطنة وصفات قلبية لا نحس إلا بآثارها على المتصف بها.

أما الأقوال والأعمال الظاهرة فكل ما نقوله ضمن حدود الشرع وأحكامه وما نعمله من أعمال وفق أحكام الشرع وليست متناقضة معها فهو داخل في العبادة. فالأب عندما يؤدب أولاده قال قولاً ظاهراً فهو في عبادة، والمدرس إذا ألقى درساً في أي موضوع تجريبي تطبيقي- مسألة في الرياضيات، أو معادلة كيماوية، أو قانوناً طبيعياً- أو في علم نظري: في التربية أو مهارة أدبية في التعبير فكأنما قال حكماً شرعياً في الفقه أو

قال المراغي: "العبادة: خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقادا بأن له سلطانا لا يدرك العقل حقيقته لأنه أعلى من أن يحيط به فكره ، أو يرقى إليه إدراكه"[١].

قال ابن كثير: "والعبادة في الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف"[٢].

قال الواحدي:" معنى «العبادة»: الطاعة مع الخضوع والتذلل، وهو جنس من الخضوع، لا يستحقه إلى الله عز وجل، وهو خضوع ليس فوقه خضوع، وسمي العبد عبدا لذلته وانقياده لمولاه"[٣].

قوله تعالى:{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[الفاتحة:٥]، "أي: ونخصّك بطلب شيئاً الإعانة"[٤].

قال مقاتل:" عَلَى عبادتك"[٥].

قال ابن عباس:" على طاعتك وعلى أمورنا كلها"[٦].

قال الثعلبي:أي:" نستوفي ونطلب المعونة على عبادتك وعلى أمورنا كلّها"[٧]

الحديث النبوي أو التفسير، فهو مأجور على كل ذلك لأنه أوصل منفعة لطلابه يستفيدون منها في حياتهم العلمية والعملية.

وكذلك الأعمال التي يقوم بها الأفراد هي عبادة: عيادة المريض عبادة، صلة الرحم عبادة، وكما تقدم إماطة الأذى عن الطريق عبادة، إصلاح ذات البين عبادة، إكرام الضيف عبادة، إعانة الأخرق عبادة،.... وهكذا.

يقول محمد قطب "وهكذا يقضون الحياة كلها في عبادة... عبادة تشمل نشاط الروح كله، ونشاط العقل كله، ونشاط الجسد كله، ما دام هذا كله متوجهاً به إلى الله، وملتزماً فيه بما أنزل الله، وهذا هو المفهوم الصحيح للعبادة كما أنزله الله.. المفهوم الشامل الواسع العميق { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ } [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].[مفاهيم ينبغي أن تصحح، ص٢٠٥، طبعة دار الشروق].

ولقد ضمر معنى العبادة في نفوس بعض المسلمين وعقولهم بحيث حصروها في الشعائر التعبدية: الصلاة، الزكاة الصوم، الحج، وربما أضاف بعضهم إليها الذكر، والجهاد ولكن دلالة العبادة أوسع بكثير من ذلك، فإنها تشمل الحياة كلها. وهذا ما تدل عليه نصوص الكتاب والسنة وفهم صحابة رسول الله ﷺ، فقد أطلق القرآن الكريم مصطلح (العمل الصالح) على كل ما يقوم به الإنسان من جهد بشري يبتغي به وجه الله تعالى، أو يقوم به نتيجة تكليف من الله تعالى، أو ما فيه منفعة لنفسه، ولمن حوله أو للمخلوقات عامة، ولو تتبعنا هذا المصطلح لوجدناه يشمل مجالات الحياة كلها:

١- في قوله تعالى:{ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: ٩٧]، أي أقام حياته على الطاعة وعمل الخير.

٢- وفي قوله تعالى:{ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا } [الكهف: ٨٧-٨٨]، حيث أطلق العمل الصالح على ما يقتضيه الإيمان من الواجبات، ومنها طاعة أولي الأمر والالتزام بأنظمة الدولة ومصالح المجتمع.

٣- في قوله تعالى:{ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً }[الفرقان: ٧٠].

(١) تفسير المراغي: ٣٣/١.
(٢)تفسير ابن كثير: ٢١٤/١. وهذه تسمى أركان العبادة.
(٣) التفسير البسيط: ٥١٦/١.
(٤) صفوة التفاسير: ١٩/١.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٦/١،
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٣٠):ص٢٩/١.
(٧) تفسير الثعلبي: ١١٨/١.

قال الصابوني: أي:" وإيَّاك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم، ولا يملك القدرة على عون أحدٌ سواك"[١].

قال ابن كثير:أي:" ولا نتوكل إلا عليك"[٢].

قال الزمخشري:أي:" نخصك بطلب المعونة"[٣].

قال ابن عطية:" معناه نطلب العون منك في جميع أمورنا، وهذا كله تبرؤ من الأصنام"[٤].

قال الخطيب المكي:أي:" نفردك وحدك بالاستعانة فإنه لا حول لنا ولا قوة إلا بما منحتنا من قوة الروح، وما أودعته إيانا من سائر القوى الخفية الكامنة في أجسامنا، ولولاك ما استطعنا تحمل المشاق ومكافحة الخطوب والأحداث، بل لم نذق لذة الحياة. ولذلك فإنا نفوض إليك كل أمورنا ونرجو عونك على بلوغ آمالنا ودفع الشر عنا بما لك من كامل العلم بما ينفعنا وما يرضيك عنا يا أكرم الأكرمين"[٥].

وقيل: (الواو) في قوله تعالى:{ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، للحال والمعنى نعبدك مستعينين بك[٦].

والأصل في {نستعين}: "نستعون، لأنه إنما معناه من المعونة والعون، ولكن الواو قلبت ياء لثقل الكسرة فيها، ونقلت كسرتها إلى العين، وبقيت الياء ساكنة، لأن هذا من الإعلال الذي يتبع بعضه بعضا نحو أعان يعين وأقام يقيم"[٧].

وفي تكرار {إياك}، قولان:

أحدهما: أن التكرار لغرض التوكيد، والإهتمام، والإختصاص.

قال أبو بكر: "وإنما كرر {إياك} للتوكيد، كما تقول: بين زيد وبين عمرو خصومة، فتعيد (بين)"[٨].

قال الثعلبي:" وإنّما كرّر {إِيَّاكَ}، ليكون أدلّ على الإخلاص والاختصاص والتأكيد لقول الله تعالى خبرا عن موسى: {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً}[طه:٣٣-٣٤]، ولم يقل: كي نسبحك ونذكرك كثيرا، وقال الشاعر[٩]:

وجَاعِلِ الشَّمس مِصْرًا لا خَفَاءَ بِه   بَيْن النَّهارِ وَبيْنَ اللَّيل قد فَصَلا

ولم يقل بين النهار والليل. وقال الآخر[١٠]:

---

(١) صفوة التفاسير:١٩/١-٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير: ١٣٤/١.

(٣) الكشاف: ١٣/١.

(٤) المحرر الوجيز: ٧٢/١.

(٥) تفسير الخطيب المكي: ١٣/١.

(٦) انظر: تفسير البيضاوي: ٣٠/١.

(٧) معاني القرآن للزجاج: ٤٩/١.

(٨) حكاه عنه الواحدي في التفسير البسيط: ٥١٧/١.

(٩)في اللسان (مصر) منسوبًا إلى أمية بن أبي الصلت . واستدركه ابن بري ونسبه لعدي بن زيد ، والبيت منسوب لعدي في تفسير الطبري:١٦٥/١، والمصر : الحاجز والحد بين الشيئين . يقول : جعل الشمس حدا وعلامة بين الليل والنهار .

(١٠) البيت لأعشى هَمْدان، انظر: ديوان الأعشين : ٣٢٣ ، والأغاني ٦ / ٤٦ ، ٦١ ، وتفسير الطبري: ١٦٥/١، وأعشى همدان هو عبد الرحمن بن عبد الله الهمداني أبو مصبح ، كان أحد الفقهاء القراء ، ثم ترك

بَيْنَ الأشَجِّ وبَيْنَ قَيْسٍ باذخٌ بَخْ بَخْ لوَالِدِهِ وللمَولُودِ "[١].

قال ابن عطية:" وتكررت {إِيَّاكَ}، بحسب اختلاف الفعلين، فاحتاج كل واحد منهما إلى تأكيد واهتمام"[٢].

قال أبو حيان :" كرر {إياك} ليكون كل من العبادة والاستعانة سيقا في جملتين، وكل منهما مقصودة، وللتنصيص على طلب العون منه"[٣].

قال أبو السعود: "تكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة"[٤].

قال الراغب:" و قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، لكان يصح أن يعتقد أن الاستعانة بغيره، وكان إعادته أبلغ"[٥].

والثاني: أن الأفصح إعادة الضمير مع كل فعل اتصل به، فيقال: اللهم إنا نعبدك ونستعينك ونحمدك ونشكرك، وإن كان ترك الإعادة جائزا. وهذا قول الطبري[٦].

والراجح أن الغرض من التكرار للتوكيد والتنصيص، والإهتمام،" لأن العرب إذا جمعت فعلين واقعين اكتفت بوقوع أحدهما من وقوع الآخر، فيقولون: قد أكرمتك وألطفت، قال الله تعالى: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [الضحى: ٣]، أراد (وما قلاك) [٧]فاكتفى بوقوع الأول من وقوع الثاني"[٨]. والله أعلم.

وفي تقديم العبادة على الاستعانة، في الآية أقوال[٩]:

أحدها: أنه على التقديم والتأخير.

والثاني: أن (الواو) لا تقتضي الترتيب.

قال الراغب: والوجه - في ذلك - أن الله تعالى علم خلقه بذلك أن يقدموا حقه ثم يسألوه ليمونوا مستحقين للإجابة"[١٠].

ذلك وقال الشعر . يمدح عبد الحمن بن الأشعث بن قيس الكندي ، وكان خرج على الحجاج ، فخرج معه الفقهاء والقراء ، فلما أسر الحجاج الأعشى ، قال له : ألست القائل : وأنشده البيت - والله لا تبخبخ بعدها أبدًا! وقتله . الأشج : هو الأشعث والد عبد الحمن ، وقيس جده . وبخ بخ : كلمة للتعظيم والتفخيم .

(١) تفسير الثعلبي:١١٨/١.

(٢) المحرر الوجيز: ٧٢/١.

(٣)البحر المحيط" ١/ ٢٥.

(٤) تفسير أبي السعود: ١٧/١.

(٥) تفسير الراغب الأصفهاني:٥٩/١.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٦٤/١-١٦٥.

(٧)قال أبو حيان: "حذف المفعول اختصارا في (قلى) إذ يعلم أنه ضمير المخاطب وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم -. "البحر المحيط" ٨/ ٤٨٥.

وقال الرازي في حذف الكاف وجوه:

١ - اكتفاء بالكاف في (ودعك)، ولأن رؤوس الآيات بالياء، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف.

٢ - الإطلاق، أنه ما قلاك، ولا أحدا من أصحابك، ولا أحدا ممن أحبك". [انظر: مفاتيح الغيب: ٣١/ ٢٠٩، وانظر تفسير القرطبي ٢٠/ ٩٤].

(٨) التفسير البسيط: ٥١٧/١.

(٩) انظرك تفسير الرابغ الأصفهاني: ٥٩/١-٦٠.

(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني: ٥٩/١.

والثالث: أن قوله: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}: في موضع الحال، أجازه الراغب[١]، واستشهد بقول الشاعر[٢]:

بَأَيْدِيّ رِجَالٍ لَمْ يشُيِمُوا سُيُوفَهُمْ   ولم يكْثُر الْقَتْلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

فقوله:ولم يكثر القتلى بها، في موضع الحال.

والاستعانة لغة: مصدر استعان وهو من العون بمعنى المعاونة والمظاهرة على الشيء ، يقال: فلان عوني أي معيني وقد أعنته ، والاستعانة طلب العون ، قال تعالى : وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ، والعون : الظهير على الأمر ، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء . وقد حكي في تكسيره أعوان ، والعرب تقول : إذا جاءت السنة جاء معها أعوانها ، يعنون بالسنة : الجدب . وبالأعوان : الجراد والذئاب والأمراض ، وتقول : أعنته إعانة واستعنته واستعنت به فأعانني وتعاونوا على واعتونوا : أعان بعضهم بعضا، وتعاونا : أعان بعضنا بعضا ، والمعونة : الإعانة ، ورجل معوان حسن المعونة ، وكثير المعونة للناس وكل شيء أعانك فهو عون لك كالصوم عون على العبادة [٣].

والاستعانة اصطلاحا: " طلب العون من الله والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه. " [٤].

قال السعدي إن الاستعانة هي : " الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ، ودفع المضار مع الثقة به في تحصيل ذلك "[٥].

والاستعانة تجمع بين أصلين[٦]:

أحدهما: الثقة بالله.

والثاني:الإعتماد عليه.

والتوكل أيضا يلتئم من هذين الأصلين، لذلك قد سوى ابن القيم بين التوكل والاستعانة وقال في تعريفهما: " التوكل والاستعانة ، حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالى ، والإيمان بتفرده بالخلق ، والتدبير والضرر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ

---

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني: ٦٠/١.

(٢)شرح ديوان الحماسة" اللمرزوقي ص ١٢٢،"لسان العرب" (شيم) ٤/ ٢٣٨٠، "المعاني الكبير" ٣/ ١٢٦٥.

والبيت أنشده المبرد، ونسبه للفرزدق، وقال عنه المبرد: هذا البيت طريف عند أصحاب المعاني، وتأويله: لم يشيموا: أي: لم يُغمدوا، ولم تكثر القتلى، أي: لم يغمدوا سيوفهم إلا وقد كثرت القتلى حين سلت. الكامل ١/ ٤٠١، وقال المحقق: لم أجده في ديوان الفرزدق، ط: دار صادر. وبحثت عنه في ط: دار بيروت، فلم أجده أيضًا. وأنشده الزجاج، "معاني القرآن" ٤/ ٧٧، ولم ينسبه. وفيه: ولم يكثروا. وأنشده ابن الأنباري، الإنصاف ٢/ ٦٦٧، ولم ينسبه، وفي الحاشية: وقد وجدته في ديوان الفرزدق بيتاً مفرداً.

(٣)لسان العرب لابن منظور (١٣ \ ٢٩٨ - ٢٩٩) ، وانظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ١٩٨٢ م (٦ \ ٢١٦٨ - ٢١٦٩) ، والمفردات في غريب القرآن ، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، تحقيق وضبط : محمد خليل عيتاني ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٢٦ هـ ، ص (٣٥٦).

(٤) مجموع الفتاوى: ١٠٣/١.

(٥)تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الصفا بالزقازيق (١ \ ١٥).

(٦) مدارج السالكين: ٧٥/١.

لم يكن ، وإن شاءه الناس فيوجب له هذا اعتمادا عليه (واستعانة به) وتفويضا إليه ، وطمأنينة به ، وثقة به ، ويقينا بكتابته لما توكل عليه فيه واستعان به عليه ، وأنه ملي به ، ولا يكون إلا بمشيئته شاء الناس ذلك أم أبوه"(١).

وبعض أهل العلم مثل ابن القيم -رحمه الله- يذكر أكثر من عشرة أوجه في وجه تقديم {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} على {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ويمكن أن تراجع في كتابه مدارج السالكين.

كما وأن "تحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى"(٢)، وهذا التفات، والالتفات لا شك أنه تفننٌ في الخطاب، وله من الدلالات البلاغية في كل مقامٍ ما يناسبه، وهو في الجملة لا شك أنه أدعى إلى تنشيط السامع، وهو أدلُّ على الفصاحة والبلاغة والقدرة على التفنن بالكلام، فهذا الالتفات تارةً يكون من الغائب إلى المخاطب مثل هنا، فهو يتحدث عن الله -عز وجل- على سبيل الغيبة، الحمد لله هو رب العالمين، هو الرحمن الرحيم، ثم قال: إياك، فتوجه إلى المخاطب، وعلل ذلك هنا فقال: كأنه لما أثنى عليه اقترب منه فناسب أن يوجه الخطاب إليه، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) الفاتحة]، وهذا مثل قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ} [(٢٢) يونس]، فالكلام للمخاطب، ثم قال:{وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} [(٢٢) يونس] حيث تحول عكس ما عليه الحال هنا، أي تحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة، وعلى كل حال فالالتفات أنواع، والكلام عن هذا الموضوع يوجد في كتب البلاغة مفصلاً، ولهذا قال تعالى:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] "وفي هذا دليلٌ على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجمال صفاته الحسنى، وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك، ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب"(٣)(٤).

قال ابن كثير في تفسير: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة : ٥]: "والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين ، وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن ، وسرها هذه الكلمة : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة : ٥] فالأول تبرؤ من الشرك ، والثاني تبرؤ من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله عز وجل. وهذا المعنى في غير آية من القرآن ، كما قال تعالى : { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [هود : ١٢٣] { قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا } [الملك : ٢٩] { رَبَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا } [المزمل : ٩] ، وكذلك هذه الآية الكريمة : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }"(٥).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها

---

(١) مدارج السالكين: ٨٢/١.
(٢)تفسير ابن كثير: ٢١٥/١
(٣)أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت (٧٢٣) (ج ١ / ص ٢٦٣) ومسلم في كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٤) (ج ١ / ص ٢٩٥).
(٤)تفسير ابن كثير: ٢١٥/١.
(٥) تفسير ابن كثير:١٣٤/١-١٣٥.

لعبدي ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد:{الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قال: الله: حمدني عبدي، وإذا قال:{الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ}، قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال:{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال:{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل"[١]".

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة : ٥]، على أوجه[٢]:

أحدها:(إِيَّاكَ)، بتشديد (الياء)، قرأ بها نافع، ابن كثير، أبو عمرو، ابن عامر، عاصم، حمزة، الكسائي.

قال القرطبيّ:"الجمهورُ من القُرّاءِ والعلماءِ على شدِّ الياء من (إياك) في الموضعين"[٣].

فإن {إيّاك} منصوب بوقوع الفعل عليه، وهو (نعبد)، وتقديم المفعول لقصد الاختصاص والاهتمام به، والمعنى: نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة[٤].

والثاني:(إِيَاكَ): في الموضعين، بتخفيف(الياء)، قراءة شاذة، لعمرو بن فائد[٥] عن أبيّ.

قال ابنُ كثير: "قرأ السّبعةُ والجمهورُ بتشديد الياء من (إيّاك)، وقرأ عَمرو بن فايد بتَخفيفها مع الكسر وهي قراءةٌ شاذّةٌ مردودةٌ؛ لأنّ (إيا) ضوءُ الشّمس"[٦].

قال القرطبيّ:" وقرأ عَمرو بنُ فائد: (إِيَاكَ) بكسر الهمزة وتَخفيف الياء، وذلك أنّه كَرِهَ تضعيفَ الياء لِثقَلِها وكونِ الكسرة قبلَها. وهذه قراءةٌ مَرغوبٌ عنه، فإن المعنى يصير: شمسك نعبد أو ضوءك، إياةُ الشمس -بكسر الهمزة-: ضوءها "[٧].

والثالث: (أَيَّاك) بفتح الهمزة وتشديد الياء، قرا بها الفضلُ الرّقاشيّ، وهي لغةٌ مشهورةٌ.

والرابع: (هَيَّاكَ)، في الموضعين [بالهاء بدل الهمزة]، قرأ بها أبو السّوار الغنويّ، وهي لغة، قال الشّاعر[٨]:

فَهَيَّاكَ وَالأَمْرَ الَّذِي إِنْ تَرَاحَبَتْ مَوَارِدُهُ ضَاقَتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهُ

---

(١)أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها (٣٩٥) (ج ١ / ص ٢٩٦).

(٢) انظر: إعراب القراءات السبع وعللها : ١ /٢٠١ ـ ٢٠٢، والبحر المحيط: ٢٣/١-٢٤.

(٣) تفسير القرطبي: ١ /١٤٦.

(٤)انظر: الكتاب الفريد في اعراب القران المجيد: ٨٠/١.

(٥) وهذا الوجه من القراءة ليس بشيء؛ لأنّها قطعًا ليستْ ثابتة ولا هي قراءةٌ صحيحةٌ متواترةٌ، بل هي مثال لما لا ينبغي أن يُذكَرَ إلاّ لبيانه على سبيل الخطأ والشّذوذ في مثل تلك القراءة. فلا هي في القراءات العشر الصُّغرى ولا الكبرى ولا في الأربع الزّائدة، وقد انفردتْ المصادرُ بنسبتها في الشّواذّ لعَمرو بن فائد الإسواريّ المعتزليّ. ذكر ذلك الإمام ابنُ الجزريّ في غاية النّهاية ج١ص٦٠٢ في ترجمته وكذا في كتاب الشّواذّ للكرمانيّ ص٤٢، وبعضُ كتبِ التّفسير كما في معجم القراءات القرآنيّة للدكتور عبد العال ص١٥٤ ج١، ومعجم الدكتور الخطيب ص ١٤، وفي بعض المصادر أنّ عَمرًا هذا نسبَها لأُبَيّ، وحاشاهُ فهاهي القراءات المتواترة الّتي تنتهي إليه ليس فيها هذا الخطأ البَيِّن؛ فهي قراءةٌ مُنكَرَةٌ .

(٦) تفسير ابن كثير: ١٣٤/١.

(٧) تفسير القرطبي: ١ /١٤٦.

(٨) البيت لطفيل الغنويّ كما في أساس البلاغة (ص١٥٧ رحب)، وشرح شافية ابن الحاجب :٤ /٤٧٤.

نستنتج مما سبق بأن(إِيَاكَ)، بالتّخفيف تُفسِدُ المعنى. وعلى قولِ الشّافعيّ وجماعة إنْ قرأَها بدون تشديد بَطُلَتْ صلاتُهُ، وقالَ بعضُهم إن تعمّدَ فيُخشَى عليه الشِّركُ؛ لأنّ الإيا هو ضوءُ الشَّمس فيصيرُ معناها: نعبدُ ضوءَ شمسِكَ بدل نعبدُكَ. والعِياذُ باللهِ.

والخامس:(نَعْبُدُ)، قرأ بها نافع، ابن كثير، أبو عمرو، ابن عامر، عاصم، حمزة، الكسائي.

والسادس: (يُعْبُدُ)، بالياء، مبنيا للمفعول، قرأ بها الحسن وأبو مجلز، وعلي بن داود [1].

قال أبو حيان:" وقراءة من قرأ إياك (يُعبد) بالياء مبنياً للمفعول مشكلة ، لأن {إياك} ضمير نصب ولا ناصب له وتوجيهها إن فيها استعارة والتفاتاً ، فالاستعارة إحلال الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع ، فكأنه قال أنت ، ثم التفت فأخبر عنه أخبار الغائب لما كان إياك هو الغائب من حيث المعنى فقال: يعبد ، وغرابة هذا الالتفات كونه في جملة واحدة ، وهو ينظر إلى قول الشاعر [2] :

أَأَنْتَ الهِلاَلِيُّ الَّذي كُنْتَ مَرَّةً سَمِعْنَا بِهِ وَالأَرْحَبِيُّ المُغَلَّبُ

وإلى قول أبي كثير الهذلي [3]:

يا لَهْفَ نَفْسِي كانَ جِدّةُ خالِدٍ وبَياضُ وَجْهِكَ للتّرَابِ الأعْفَرِ"[4].

ومنه قول كثير [5][6]:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

والسابع:(نعبدْ)، حكاه أبو حيان عن بعض أهل مكة[7].

والثامن: (نِعْبُدُ)، بكسر النون، قرأ بها زيد بن علي ، ويحيى بن وثاب ، وعبيد بن عمير الليثي[8].

والتاسع: (نعبُدو)، بإشباع الضمة، قراءة نافع برواية وَرْش.

والعاشر: (نَسْتَعِينُ)، قرأ بها نافع، ابن كثير، أبو عمرو، ابن عامر، عاصم، حمزة، الكسائي.

والحادي عشر:(نِسْتَعِينُ)، بكسر (النون)، قراءة، عبيد بن عمير الليثي ، وزر بن حبيش ، ويحيى بن وثاب ، والنخعي ، والأعمش، وهي لغة قيس ، وتميم ، وأسد ، وربيعة[1].

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٢٣/١.

(٢)البيت من الطويل، وهو بلا نسبة في الدرر ١/ ٢٨٣، ورصف المبانى ص ٢٦، والمغرب ١/ ٦٣، وهمع الهوامع ١/ ٨٧.

(٣) انظر: أمالي ابن الشجري:١١٧/١ن وديوان الهذليين:١٠١/٢، ومجاز القرآن: ٢٤/١، وتفسير الطبري: ٦٧/١، والمحرر الوجيز: ١٠٤/١.

وفي البيت يرثي الشاعر صديقا له اسمه خالد (جدة) يعني: شبابه، (الأعفر) يقول: دفن في أرض ترابها أعفر: أي: أبيض.

(٤) البحر المحيط: ٢٤/١-٢٥.

(٥)هو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة من خزاعة، كان أحد العشاق المشهورين، وصاحبته (عزة) وهي من ضمرة، وإليها ينسب، كان كثير رافضيا توفي في اليوم الذي توفي فيه عكرمة مولى ابن عباس. انظر ترجمته في: "الشعر والشعراء" ص ٣٣٤، "طبقات فحول الشعراء" ٢/ ٥٣٤، "الخزانة" ٥/ ٢٢١.

(٦)من قصيدة لكثير في ذكر (عزة) قوله (مقلية) من القلي وهو البغض، (تقلت) تبغضت، ورد البيت في "الشعر والشعراء" ص ٣٤٣، "ديوان كثير" ص ١٠١، نشر دار الثقافة بيروت، "أمالي ابن الشجري" ١/ ٤٩، ١١٨، "المحكم" ٣/ ١٤٤، "الخزانة" ٥/ ٢١٩.

(٧) انظر: البحر المحيط: ٢٣/١.

(٨) انظر: البحر المحيط: ٢٣/١.

قال القرطبي: "(وإياك نِستعين) عطف ملة على جملة، أي نطلب العون والتأييد والتوفيق، هي لغة تميم وقيس وأسد وربيعة، ليدل على أنه من استعان، فكُسرت النون كما تُكسر ألف الوصل[٢].

قال أبو حيان: "إن فتح نون(نستعين) هي لغة الحجاز، وهي الفصحى، وقرأ بكسرها وهي لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وكذلك حكم حرف المضارعة في هذا الفعل وما أشبهه[٣].

الفوائد:

١-من فوائد الآية: إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: {إياك نعبد} ؛ وجه الإخلاص: تقديم المعمول.

٢-ومنها: أن العبادة تطلق في المعنى الشرعي على أمرين، الأمر الأول: بالنظر إلى فعل العبد، والثاني: بالنظر إلى المفعولات والأعمال التي تعبَّد الله -عز وجل- الناس بها

٣- ومن الفوائد: أن العبادة اسمٌ جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فهذا بالاعتبار الثاني أي باعتبار المفعولات والأعمال التي شرعها الله -عز وجل- لعباده ليتقربوا بها إليه.

وإذا نظرنا إلى العبادة بالاعتبار الأول، أي باعتبار أنها نفس فعل العبد الذي هو صفة من صفاته، نقول: إن العبادة هي الانقياد لله -عز وجل-، بمعنى الإسلام، أي إسلام الوجه لله -تبارك وتعالى- والخضوع له بالطاعة، يعني فعل العبد لا نفس العبادات التي شرعها الله -عز وجل-، لأن العبادة مصدر، تارةً يراد بها المفعول، وتارةً تطلق على نفس الفعل، كما تقول القرآن يطلق على نفس المقروء الذي هو الكتاب الذي بين أيدينا، ويطلق على القراءة، وكذلك الوحي يطلق على هذا القرآن أنه وحي، يعني ما نتج عن الإيحاء وهو هذا الكتاب، وتارةً يطلق على نفس العملية التي هي الإيحاء، فتارةً يطلق على هذا المعنى، وتارةً يطلق على المعنى الآخر، فهما إطلاقان معروفان، "وقدم المفعول وهو إياك، وكرر للاهتمام والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك"[٤].

قال ابن عاشور:"...وهو شرائع الإسلام"[٥].

وبنحو ذلك في حديث رسول الله ﷺ فمن ذلك قوله ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة فأفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"[٦].

وقد قال ﷺ: "تبسمك في وجه أخيك صدقة"[٧].

وقد مر شاب على النبي ﷺ فرأى أصحاب النبي ﷺ جلدة ونشاطة فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: "إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج

---

(١)انظر: البحر المحيط: ٢٣/١.

(٢) تفسير القرطبي: ١٤٥/١-١٤٦.

(٣)البحر المحيط في التفسير: ٤٣/١.

(٤) تفسير ابن كثير: ٢١٤/١.

(٥) انظر: التحرير والتنوير: ٧٦/١٩.

(٦)صحيح مسلم رقم ٣٥ باب عدد شعب الإيمان ١/ ٦٣.

(٧)رواه الترمذي في جامعه عن أبي ذر رقم ١٩٥٦ باب ما جاء في صنائع المعروف ٤/ ٣٣٩.

يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان"(١).

وقال النبي ﷺ: "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجراً فقال: في كل كبد رطبة أجر"(٢).

وقال رسول الله ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"(٣).

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: "نزع رجل لم يعمل خير قط غصن شوك عن الطريق إما كان في شجرة فقطعه فألقاه وإما كان موضوعاً فأماطه، فشكر الله له بها فأدخله الجنة"(٤).

هذا وغيره من الأعمال التي تنبع من نفس تحب الخير وترغب في العطاء، ويبتغي بذلك وجه الله، أي تقدم نفعاً للمجتمع فهو عبادة، لذلك قال العلماء النية تقلب العادة عبادة.

٤- ومنها أن المفهوم العام للعبادة له آثار إيجابية على سلوك الناس، ومن أبرز هذه الآثار: أن الإنسان العاقل عندما يقدم على عمل ويعتبره عبادة فإنه سيؤديه على أحسن وجه لأنه يرجو ثوابه عند الله على مقدار إخلاصه وصدقه في أدائه، سواء كان يؤدي حرفة أو تعليماً أو أداء وظيفة إدارية، أو يقدم بحثاً علمياً فإنه في عبادة وبالتالي سيبذل أقصى ما يستطيع من جهد، لأن في حسه أنه يؤدي عبادة والله مطلع عليه "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"(٥).

٥- ومنها ان الإحسان في العبادة "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(٦).

٦- ومن الفوائد في مفهوم العبادة الشامل، هو أن الإنسان سيتجنب الكثير من الأعمال التي لا تدخل دائرة العبادة. أي الأعمال غير المشروعة أو المحرمة، لأن الأعمال كلها إما أن تكون في دائرة المشروع الجائز، أو في دائرة المنهي عنه فتركه للمنهي عنه أيضاً عبادة يؤجر عليها. قال رسول الله ﷺ: ".. وفي بضع أحدكم صدقة قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"(٧).

٧- ومنها: إخلاص الاستعانة بالله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {وإياك نستعين} ، حيث قدم المفعول.

---

(١)مجمع الزوائد ٤/ ٣٢٥، ورجال المعجم الكبير رجال الصحيح.

(٢)متفق عليه: صحيح البخاري رقم ٢٣٣٤ باب الآبار ٢/ ٨٧٠، ورواه مسلم رقم ٢٢٤٤ باب فضل ساقي البهائم ٤/ ١٧٦١.

(٣)متفق عليه واللفظ للبخاري رقم ٢١٩٥ باب فضل الزرع ٢/ ٨١٧، ومسلم رقم ١٥٥٢، ٣/ ١١٨٨.

(٤)رواه ابن حبان في صحيحه رقم ٥٤٠ ٢/ ٢٩٧.

(٥)مجمع الزوائد ٤/ ٩٨، وقال : رواه أبو يعلى، ورواه الطبراني في الأوسط رقم ٨٩٧.

(٦)متفق عليه: رواه البخاري رقم ٥٠ باب سؤال جبريل ١/ ٢٧، ومسلم رقم ٩ كتاب الإيمان ١/ ٣٩.

(٧)رواه مسلم رقم ١٠٠٦ باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٢/ ٦٩٧.

فإن قال قائل: كيف يقال: إخلاص الاستعانة لله وقد جاء في قوله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى} [المائدة: ٢] إثبات المعونة من غير الله عزّ وجلّ، وقال النبي ﷺ: "تعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة"[(١)]؟

فالجواب: أن الاستعانة نوعان: استعانة تفويض؛ بمعنى أنك تعتمد على الله عزّ وجلّ، وتتبرأ من حولك، وقوتك؛ وهذا خاص بالله عزّ وجلّ؛ واستعانة بمعنى المشاركة فيما تريد أن تقوم به: فهذه جائزة إذا كان المستعان به حياً قادراً على الإعانة؛ لأنه ليس عبادة؛ ولهذا قال الله تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى} [المائدة: ٢].

فيمكن القول بأن والاستعانة نوعان:

احدهما: نوع خاص بالله تعالى :لا يُطلب إلا منه سبحانه وتعالى، ولا يُقصد غيره فيه، ويكون ذلك في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله سبحانه، كالاستعاذة، والمدد، وجلب الخير، ودفع الضر، وإجابة الدعاء، والاستغاثة، وطلب النجاح والشفاء، وطلب الولد والرزق.

والثاني: ونوع هو في مقدور الناس : كالاستعانة بشخص في حمل شيء لا يستطيع حمله، أو الاستعانة به في إنهاء معاملة أو مصلحة مشروعة، أو الاستعانة به في أن يشفع له شفاعة حسنة لدى مسئول للتوصل إلى حقه، أو لدفع الضرر عنه، كذلك كل ما يعجز عنه الإنسان في أمور الدنيا ويحتاج إلى مساعدة غيره فيه، ويكون ذلك في الأمور التي تدخل في قدرة الإنسان وتصرفه، فهي استعانة جائزة مشروعة.

فإن قال قائل: وهل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال؟

فالجواب: لا؛ الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز حيث كان المستعان به قادراً عليها؛ وأما إذا لم يكن قادراً فإنه لا يجوز أن تستعين به: كما لو استعان بصاحب قبر فهذا حرام؛ بل شرك أكبر؛ لأن صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئاً؛ فكيف يعينه!!! وكما لو استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه، مثل أن يعتقد أن الوليّ الذي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده: فهذا أيضاً شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك.

فإن قال قائل: هل يجوز أن يستعين المخلوقَ فيما تجوز استعانته به؟

فالجواب: الأولى أن لا يستعين بأحد إلا عند الحاجة، أو إذا علم أن صاحبه يُسَر بذلك، فيستعين به من أجل إدخال السرور عليه؛ وينبغي لمن طلبت منه الإعانة على غير الإثم والعدوان أن يستجيب لذلك.

٨-ومن الفوائد أن كلمة الاستعانة تُشعر بوجوب العمل، والأخذ بالأسباب، لأن الاستعانة طلب العون من الله تعالى على أداء عمل أو إتمامه، وذلك في كل ما للإنسان فيه كسب، كطلب الشفاء من الله تعالى مع بذل سبب العلاج وأخذ الدواء، وطلب الرزق مع بذل السبب، وطلب النصر على العدو مع مجاهدته وإعداد العدة، وطلب النجاح في الامتحان من الله تعالى مع الجد والاجتهاد في تحصيل الدروس، وهكذا.

وكل من ترك الأخذ بالأسباب يكون قد جانب الصواب، وكل من اعتمد على الله تعالى دون أن يبذل الأسباب فقد أخطأ الاعتقاد، فإن العبد لا يستغني عن العون الإلهي مهما أوتي من

---

(١)أخرجه البخاري ص٢٣٢، كتاب الجهاد، باب ٧٢: فضل من حمل متاع صاحبه في السفر حديث رقم ٢٨٩١؛ وأخرجه مسلم ص٨٣٧، كتاب الزكاة، باب ١٦: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم ٢٣٣٥ [٥٦] ١٠٠٩، واللفظ لمسلم.

قوة وحصافة، ولابد له من العمل والتوكل، ولا ينفع التوكل بدون عمل، ولا ينفع عمل بدون توكل واستعانة.

٩- ومن الفوائد اشتمال هذه الآية {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، على توحيد الربوبية والاستعانة به سبحانه وتعالى ، وهي أفضل الوسائل للإعانة على العبادة، والتعبد يكون باسم الله، واسم الرحمن، واسم الرب، والمسلم يعبد الله تعالى بألوهيته، ويستعين بربوبيته.

عن الحسن : أن الله تعالى أنزل مئة وأربعة كتب جمع معانيها في أربعة هن : التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور، وجمع معانيها في القرآن، وجمع معاني القرآن في الفاتحة، وجمع معاني الفاتحة في : {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[١].

وإذا قرأ العبد" الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ "وعند التلفظ بـ" وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ "تغمره السكينة والطمأنينة، لأنه قد توكل على الله، وألقى إليه مقاليد أموره في الدنيا والآخرة، لعينه سبحانه على الوصول إليها.

القرآن

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)} [الفاتحة : ٦]

التفسير:

دُلَّنا، وأرشدنا، ووفقنا إلى الطريق المستقيم، وثبتنا عليه حتى نلقاك، وهو الإسلام، الذي هو الطريق الواضح الموصل إلى رضوان الله وإلى جنته، الذي دلّ عليه خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ، فلا سبيل إلى سعادة العبد إلا بالاستقامة عليه.

قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة : ٦]، " أي: دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم"[٢].

قال ابن أبي زمنين: "اي أرشدنا الطريق"[٣].

قال النسفي:" أي ثبتنا على المنهاج الواضح"[٤].

قال الزجاج: اي: ثبتنا على المنهاج الواضح"[٥].

قال مقاتل:" يعني دين الإسلام، لأن غير دين الإسلام لَيْسَ بمستقيم"[٦].

قال القاسمي:" أي ألهمنا الطريق الهادي، وأرشدنا إليه، ووفقنا له"[٧].

قال الخطيب المكي:أي:" نور قلوبنا بهدايتك الربانية لنعرف السبل الموصلة إليك، فأنت وحدك الذي تنعم بالهداية وتوفق من أردت إلى اتباع أوامرك الإلهية"[٨].

---

(١) كتاب الصلاة ابن القيم وأخرجه البيهقي عن الحسن في "شعب الإيمان"، و ذكره كل من ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ٦٠٧/٢٢، وابن قيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٩٥/١).

(٢) صفوة التفاسير:٢٠/١.
(٣) تفسير ابن أبي زمنين: ١١٩/١.
(٤) تفسير النسفي: ٣٢/١.
(٥) معاني القرآن: ٤٩/١.[بتصرف بسيط].
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٦/١.
(٧) محاسن التأويل: ٢٣٠/١.
(٨) تفسير الخطيب المكي: ١٣/١.

قال البيضاوي:" بيان للمعونة المطلوبة فكأنه قال: كيف أعينكم فقالوا اهْدِنَا. أو إفراد لما هو المقصود الأعظم"[١].

قال الطبري:" وإنما وصفه الله بالاستقامة ، لأنه صواب لا خطأ فيه"[٢].

قال ابن عثيمين:" والمراد بـ "الهداية" هداية الإرشاد، وهداية التوفيق؛ فأنت بقولك: {اهدنا الصراط المستقيم} تسأل الله تعالى علماً نافعاً، وعملاً صالحاً"[٣].

قال الراغب :"الهداية: دلالة بلطف"[٤].

وفي الصحاح: الهداية بمعنى الارشاد والدلالة[٥]، ويقال: هديتُهُ الطريقَ والبيتَ هداية، أي عَرَّفتُه به[٦].

و{الصراط}: هو الطريق السهل[٧]، والسبيل الواضح[٨].

فـ"الطريق: هو كل ما يطرقه طارقٌ، معتادًا كان أو غير معتادٍ، والسبيل من الطُّرق: ما هو مُعتادُ السلوكِ، والصراط من السبيل: ما لا التِواء فِيه ولا اعوِجاج، بل يكون على سبيلِ القَصْدِ، فهو أخصُّ منها"[٩].

وفي قوله تعالى:{اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ}[الفاتحة:٦]، تأويلان[١٠] :

أحدهما : معناه أرْشُدْنا ودُلَّنَا .قاله علي بن أبي طالب[١١]، وأبيّ بن كعب[١٢]، والسدي[١٣]، ومقاتل[١٤].

والثاني : معناه ألهمنا (وفقنا)، وهذا قول ابن عباس[١٥].

و«الهداية»: قد يأتي في كلام العرب: بمعنى التوفيق[١٦]، فمن ذلك قول الشاعر[١٧]:

لا تَحْرِمَنِّي هَدَاكَ الله مَسْألتِي   وَلا أكُونَنْ كمن أوْدَى به السَّفَرُ

يعنى به : وفَّقك الله لقضاء حاجتي. ومنه قول الآخر [١]:

---

(١) تفسير البيضاوي:٣٠/١.

(٢) تفسير الطبري: ١٧٧/١.

(٣) تفسير ابن عثيمين:١٦/١.

(٤)المفردات في غريب القرآن: مادة هدى:، ص ٥٣٨.

(٥)الصحاح: مادة: الهُدى:، ج٦، ص٢٥٣٣.

(٦)المصباح المنير مادة (شَاءَ) و(هَدَى) ٣٣٤/١.

(٧)والطريق عمومًا لا يقتضي السهولة؛ انظر الفروق اللغوية للعسكري (١/٢٩٨)، وقال في القاموس المحيط (ص٦٧٥): "الصِّراطُ - بالكسر - : الطريقُ، وجِسْرٌ مَمْدُودٌ على متْنِ جَهَنَّمَ."

(٨)لسان العرب (٧/ ٣١٣).

(٩)لكليات؛ لأبي البقاء الكفوي (ص٥١٣).

(١٠) انظر: النكت والعيون:٥٨/١.

(١١) انظر: تفسير الثعلبي:١١٨/١.

(١٢)انظر: تفسير الثعلبي:١١٨/١.

(١٣)انظر: تفسير الثعلبي:١١٩/١.

(١٤)انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٦/١، وتفسير الثعلبي:١١٩/١.

(١٥)انظر: تفسير الطبري(١٧٣):ص١٦٦/١، وتفسير ابن أبي حاتم(٣١)، و(٣٦):ص٣٠/١.

(١٦) انظر: تفسير الطبري: ١٦٧/١.

(١٧) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الطبري: ١٦٧/١، وفي أمالي المرتضى:١٦٠/١، من ابيات لودقة الأسدي يقولها لمعن بن زائدة.

ولا تُعْجِلَنِّي هدَاكَ المليكُ   فإنّ لكلِّ مَقامٍ مَقَالا

فمعلوم أنه إنما أراد : وفقك الله لإصابة الحق في أمري.

ومنه قول الله جل ثناؤه:{وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، أي:" لا يُوفِّقهم ، ولا يشرَحُ للحق والإيمان صدورَهم"[٢].

وذكر السمين الحلبي وجوها في معنى (الهداية) [٣]:

أحدها: الإرشاد.

والثاني: الدلالة.

والثالث: التقدم، ومنه هوادي الخيل لتقدمها قال امرؤ القيس[٤]:

فألحقه بالهاديات ودونه   جواحرها في صرة لم تزيل

فقوله :الهاديات، أي: أوائل بقر الوحش.

والرابع: التبيين نحو: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ } [فصلت: ١٧] . أي بينا لهم.

والخامس: الإلهام، نحو: { أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠] أي ألهمه لمصالحه.

والسادس: الدعاء كقوله تعالى: { وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ } [الرعد: ٧]، أي: داع.

والسابع: وقيل هو الميل، ومنه {إنا هدناَ إليك} [الأعراف: ٥٦] ، والمعنى: مل بقلوبنا إليك، قال السمين الحلبي:"وهذا غلط، فإن تيك مادة أخرى من هاد يهود"[٥].

قال الحسن بن الفضل: "(الهدى) في القرآن على وجهين:

الوجه الأول: هدى دعاء وبيان كقوله: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ }[الشورى:٥٢]، وقوله:{وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ}[الرعد:٧]، و{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ}[فصّلت:١٧].

الوجه الثاني: هدى توفيق وتسديد كقوله: {يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ}[النحل:٩٣]، وقوله:{إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}[القصص:٥٦]"[٦].

وأما {الصراط}، ففيه ثلاثة أقوال[٧] :

أحدها : أنه السبيل المستقيم ، ومنه قول جرير[٨] :

أَميرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِراطٍ   إذَا اعْوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيم

يريد على طريق الحق[٩].

ومنه قول الهُذلي أبي ذُؤَيْب[١] :

---

(١)نسبه المفضل بن سلمة في الفاخر : ٢٥٣ ، وقال : " أول من قال ذلك طرفة بن العبد ، في شعر يعتذر فيه إلى عمرو بن هند " ، وليس في ديوانه ، وانظر أمثال الميداني ٢ / ١٢٥ .

(٢) تفسير الطبري:١٦٧/١.

(٣)انظر: الدر المصون: ٦٣/١.

(٤) ديوانه: ٢٢، وانظر: شرح المعلقات السبع للزوزني: ٣١، إذ الرواية فيه (فالحقنا). وجواحرها،أي: متخلفاتها. لم تزيل: لم تتفرق.

(٥) الدر المصون: ٦٣/١.

(٦) تفسير الثعلبي:١١٩/١.

(٧) انظر: النكت والعيون:٥٨/١.

(٨)) ديوانه : ٥٠٧ ، يمدح هشام بن عبد الملك . والموارد جمع موردة : وهي الطرق إلى الماء . يريد الطرق التي يسلكها الناس إلى أغراضهم وحاجاتهم ، كما يسلكون الموارد إلى الماء.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ١٧٠/١.

صَبَحْنَا أَرْضَهُمْ بالخَيْلِ حَتّى   تركْنَاها أَدَقَّ مِنَ الصِرّاطِ
وقال عامر بن الطفيل[٢]:
خشونا أرضهم بالخيل حتّى   تركناهم أذل من الصراط
والثاني : أنه الطريق الواضح، ومنه قوله تعالى:{وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُون} [الأعراف : ٨٦]، وقال الشاعر[٣] :
فَصَدَّ عَنْ نَهْجِ الصِّرَاطِ الْقَاصِدِ
والثالث: أن الصراط: الطريق، بلغة الروم. قاله النقاش[٤].
قال ابن عطية:" وهذا ضعيف جدا"[٥].
قال الماوردي: و{الصراط}: " مشتق من مُسْتَرَطِ الطعام ، وهو ممره في الحلق"[٦] .
قال الطبري: "أجمعَت الأمَّةُ من أهل التأويل جميعًا على أنَّ {الصراطَ المستقيمَ}، هو: الطريقُ الواضحُ الذي لا اعوجاج فيه، وكذلك ذلك في لغة جميع العرب"[٧].
قال ابن القيم رحمه الله: "و{الصراط}: ما جَمَع خمسةَ أوصاف: أنْ يكون طريقًا مستقيمًا، سهلاً، مسلوكًا، واسعًا، موصلاً إلى المقصود، فلا تُسمِّي العربُ الطريقَ المُعْوَجَّ: صراطًا، ولا الصعبَ المشق، ولا المسدود غير الموصل، ومَن تأمَّلَ مواردَ الصراط في لسانهم واستعمالهم، تبيَّن له ذلك... ولا تكون الطريقُ صراطًا حتى تتضمَّن خمسةَ أمور: الاستقامةَ، والإيصالَ إلى المقصود، والقُرْبَ، وسعتَه للمارّين عليه، وتعيُّنَه طريقًا للمقصود"[٨].
وفي الدعاء بهذه الهداية ، ثلاثة تأويلات[٩] :
أحدها : أنهم دعوا باستدامة الهداية ، وإن كانوا قد هُدُوا .
والثاني : معناه زدنا هدايةً. وضعفه الطبري[١٠].
قال الزمخشري:" ومعنى طلب الهداية- وهم مهتدون- طلب زيادة الهدى بمنح الإلطاف، كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً} ، {وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا}"[١١].
والثالث : أنهم دعوا بها إخلاصاً للرغبة ، ورجاءً لثواب الدعاء .
واختلفوا في المراد بالصراط المستقيم ، على أقوال[١٢] :

---

(١) نسبه إليه الطبري: ١٧٠/١، والبيت ليس في ديوانه، ونسبه القرطبي في تفسيره ١ : ١٢٨ لعامر بن الطفيل ، وليس في ديوانه ، فإن يكن هذليا ، فلعله من شعر المتنخل ، وله قصيدة في ديوان الهذليين ٢ / ١٨ - ٢٨ ، على هذه القافية . ولعمرو بن معد يكرب أبيات مثلها رواها القالي في النوادر ٣ / ١٩١ .
(٢) انظر: الفروق اللغوية: ٣١٣، وتفسير الثعلبي:١١٩/١.
(٣) انظر: النكت والعيون: ١،٥٨، وتفسير الطبري: ١٧٠/١، ومجاز القرآن: ٢٤/١، والمحرر الوجيز: ٧٤/١، وتفسير القرطبي: ١٢٨/١، وفيه: "الصراط الواضح". وهو بلا نسبة.
(٤) انظر: المحرر الوجيز: ٧٤/١.
(٥)المحرر الوجيز: ٧٤/١.
(٦) النكت والعيون:٥٨/١.
(٧)تفسير الطبري (١/ ١٧٠).
(٨)دائع الفوائد (٢/ ١٦).
(٩) انظر: النكت والعيون:٥٨/١-٥٩.
(١٠) انظر: تفسير الطبري: ١٦٧/١-١٦٨.
(١١) الكشاف: ١٥/١.
(١٢)انظر: النكت والعيون:٥٩/١، وتفسير الثعلبي:١١٩/١-١٢٠.

أحدها : أنه كتاب الله تعالى ، وهو قول علي[١]، وعبد الله [٢]، ويُرْوَى عن النبي -صلى الله عليه وسلم-[٣] .
والثاني : أنه دين الله الإسلام ، وهو قول جابر بن عبد الله [٤]، ومحمد بن الحنفية[٥]، وزيد بن أسلم[٦]، وابن عباس[٧] في رواية ميمون بن مهران عنه، ورواه نواس بن سمعان الأنصاري عن النبي -ﷺ-[٨] .
والثالث : أنه الطريق الهادي إلى دين الله تعالى ، الذي لا عوج فيه ، وهو قول ابن عباس [٩]، ومجاهد[١٠].
والرابع : هو رسول الله-ﷺ- وأخيار أهل بيته وأصحابه ، وهو قول الحسن البصري[١١]، وأبي العالية الرياحي[١٢]، وأبي بريدة[١٣].
والخامس: أنه طريق السواد الأعظم. قاله عبدالعزيز بن يحيى[١٤].
والسادس: أنه يعني صراطا لا تزيغ به الأهواء يمينا وشمالا. قاله أبو بكر الورّاق[١٥].
والسابع: أنه يعني طريق الخوف والرجاء. قاله محمد بن علي النهدي[١٦].
والثامن: أنه طريق العبودية. قاله أبو عثمان الداراني[١٧].
والتاسع: أنه طريق السنّة والجماعة لأن البدعة لا تكون مستقيمة. قاله عبدالله التستري[١٨].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٧٦):ص١٧٣/١، وتفسير الثعلبي:١٢٠/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٧٧):ص١٧٣/١، وتفسير الثعلبي:١٢٠/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٢):ص٣٠/١. قال ابن كثير: «وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ» ١/ ٢١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٧٨):ص١٧٣/١، وتفسير الثعلبي:١٢٠/١.
(٥)انظر:تفسير الطبري(١٨١):ص١٧٥/١، والنكت والعيون:٥٩/١، وتفسير الثعلبي: ١٢٠/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٨٥):ص١٧٦/١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٨٠):ص١٧٥/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري: (١٨٦)، و(١٨٧):ص١٧٦/١، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٣):ص٣٠/١. قال ابن كثير: وهو إسناد حسن صحيح".١/ ٢١.
(٩)انظر: تفسير الطبري(١٧٣):ص١٦٦/١، و(١٧٩):ص١٧٤/١-١٧٥، وتفسير ابن أبي حاتم(٣٦):ص٣٠/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٥):ص٣٠/١.
(١١)انظر: النكت والعيون:٥٩/١، وتفسير الثعلبي:١٢٠/١.
(١٢)انظر: تفسير الطبري(١٨٤):ص١٧٥/١، والنكت والعيون:٥٩/١، وتفسير الثعلبي:١٢٠/١، والكامل لابن عدي: ٣/ ١٦٣.
(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:١٢٠/١، وتفسير أبي حمزة الثمالي: ١٦٧، وشواهد التنزيل: ١/ ٧٤ ح ٨٦، ونهج الايمان لابن جبر عن كتاب ابن شاهين: ٥٤.
(١٤) انظر: تفسير الثعلبي:١٢١/١.
(١٥) انظر: تفسير الثعلبي:١٢١/١.
(١٦) انظر: تفسير الثعلبي:١٢١/١.
(١٧) انظر: تفسير الثعلبي:١٢١/١.
(١٨) انظر: تفسير الثعلبي:١٢١/١.

والعاشر: أنه سؤال الجنة، لقوله تعالى: وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ [محمد: ٤- ٥]، وقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ [يونس: ٩] الآية[١].

الحادي عشر: أن المعنى: علمنا العلم الحقيقيّ فذلك سبب الخلاص، وهو المعبّر عنه بالنور في قوله: يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ [النور: ٣٥][٢].

الثاني عشر: أن المراد: زدنا هدى استنتجاحا لما وعدت بقولك: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ [التغابن: ١١] . وقولك: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً [محمد: ١٧][٣].

الثالث عشر: أن المراد: احرسنا عن استغواء الغواة واستهواء الشهوات، واعصمنا من الشبهات [٤].

الرابع عشر: أنه عنى الهداية العامة، وأمر أن ندعو بذلك- وإن كان هو قد فعله لا محالة- ليزيدنا ثوابا بالدعاء، كما أمرنا أن نقول: اللهم صلّ على محمد[٥].

قال ابن كثير: "وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة فإن من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم واقتدى بالذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن"[٦].

وقال القاسمي:" فهذه الأقاويل اختلفت باختلاف أنظارهم إلى أبعاض الهداية وجزئياتها، والجميع يصح أن يكون مرادا بالآية- إذ لا تنافي بينها- وبالله التوفيق» كلام الراغب. وبه يعلم تحقيق معنى الهداية في سائر مواقعها في التنزيل الكريم، وأن الوجوه المأثورة في آية ما- إذا لم تتناف- صح إرادتها كلها، ومثل هذا يسمى: اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ"[٧].

واختلفت القراءة في قوله تعالى:{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة : ٦]، على وجوه[٨]:

أحدها: (أرْشدنا)، قرأ بها عبدالله ابن مسعود[٩].

والثاني: (الصِّرَاطَ)، قرأ بها نافع، أبو عمرو، ابن عامر، عاصم، الكسائي، قالون، ورش، خلف، خلاد، قنبل.

والثالث:(الصّراط): بين الصاد والزاي، قرأ بها حمزة، وأبو عمرو، خلف، خلاد، الدوري، ابن سعدان.

والرابع: (الزراط)، قراءة حمزة برواية الأصمعي عن أبي عمرو.

والخامس: (السراط)، بالسين، قرأ بها ابن كثير برواية القواس، الكسائي، ابو عمرو، قنبل، ابن مجاهد، و يعقوب، رويس اللؤلوي، وابن محيصن.

و(السراط): "من الاتراط بمعنى الابتلاع، كأن الطريق يسترط من يسلكه[١].

---

(١) انظر: محاسن التأويل: ٢٣٢/١.
(٢) انظر: محاسن التأويل: ٢٣٢/١.
(٣) انظر: محاسن التأويل: ٢٣٢/١.
(٤) انظر: محاسن التأويل: ٢٣٢/١.
(٥) انظر: محاسن التأويل: ٢٣٢/١.
(٦) تفسير ابن كثير: ٢١/١.
(٧) محاسن التأويل: ١٣٢/١-٢٣٣.
(٨) انظر: تفسير الثعلبي: ١١٩/١، وتفسير القرطبي: ١٤٧/١-١٤٨، والبحر المحيط: ٤٥/١.
(٩) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٦/١.

والسادس:(صراطاً مستقيماً)، بالتنوين من غير لام التعريف، قرأ بها نصر بن علي عن الحسن.
قال الثعلبي:" وكلّها لغات فصيحة صحيحة، إلّا إن الاختيار: (الصاد)، لموافقة المصحف لأنها كتبت في جميع المصاحف بالصاد. ولأن آخرتها بالطاء لأنهما موافقتان في الاطباق والاستعلاء"(٢).
قال الفراء: "اللغة الجيدة بالصاد، وهي لغة قريش الأول، وعامة العرب يجعلونها سينا، وبعض قيس يشمون الصاد، فيقول: (الصراط) بين الصاد والسين، وكان حمزة يقرأ(الزراط) بالزاي، وهي لغة لعذرة وكلب وبني القيْن"(٣).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: لجوء الإنسان إلى الله عزّ وجلّ بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لا بد في العبادة من إخلاص؛ يدل عليه قوله تعالى: {إياك نعبد} ؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة؛ يدل عليه قوله تعالى: {وإياك نستعين} ؛ ومن اتباع للشريعة؛ يدل عليه قوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم} ؛ لأن {الصراط المستقيم} هو الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ.

٢- ومن فوائد الآية: بلاغة القرآن، حيث حذف حرف الجر من {اهدنا} ؛ والفائدة من ذلك: لأجل أن تتضمن طلب الهداية: التي هي هداية العلم، وهداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: هداية علم، وإرشاد؛ وهداية توفيق، وعمل؛ فالأولى ليس فيها إلا مجرد الدلالة؛ والله عزّ وجلّ قد هدى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدًى للناس} [البقرة: ١٨٥] ؛ والثانية فيها التوفيق للهدى، واتباع الشريعة، كما في قوله تعالى: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين} [البقرة: ٢] وهذه قد يحرمها بعض الناس، كما قال تعالى: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى} [فصلت: ١٧] : {فهديناهم} أي بيّنّا لهم الحق، ودَلَلْناهم عليه؛ ولكنهم لم يوفقوا..

٣- ومن فوائد الآية: أن الصراط ينقسم إلى قسمين: مستقيم، ومعوج؛ فما كان موافقاً للحق فهو مستقيم، كما قال الله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه} [الأنعام: ١٥٣] ؛ وما كان مخالفاً له فهو معوج.

القرآن

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)} [الفاتحة : ٧]

التفسير:
طريق الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، فهم أهل الهداية والاستقامة، ولا تجعلنا ممن سلك طريق المغضوب عليهم، الذين عرفوا الحق ولم يعملوا به، وهم اليهود، ومن كان على شاكلتهم، والضالين، وهم الذين لم يهتدوا، فضلوا الطريق، وهم النصارى، ومن اتبع سنتهم.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤٧/١-١٤٨.
(٢) تفسير الثعلبي:١١٩/١.
(٣) حكاه عنه ابن الجوزي: ٢٠/١، وقال بمعناه في(كتاب فيه لغات القرآن):" و «الصراط» فيه لغات أربع: فاللغة الجيدة لغة قريش الأولى التي جاء بها الكتاب؛ بالصاد، وعامة العرب يجعلونها سينا، فيقولون: السراط، بالسين".[كتاب فيه لغات القرآن، للفراء: ١٠]. نسخة مكتبة الشاملة، والكتاب غير مطبوع.
ونسبه أبو حيان:٤٥/١، لأبي جعفر الطوسي، وكذا الهرري في الحدائق: ٧٥/١.

قوله تعالى: { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ }[الفاتحة:٧]، " أي طريق من تفضّلت عليهم بالجود والإنعام"[١].

قال ابن عباس:" يقول: طريق من أنعمت عليهم"[٢].

قال الصابوني:أي" من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وَحَسُنَ أولئك رفيقاً"[٣].

قال الثعلبي:" يعني: طريق الذين أنعمت عليهم بالتوفيق والرعاية، والتوحيد والهداية، وهم الأنبياء والمؤمنون الذين ذكرهم الله تعالى في قوله:{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء : ٦٩]"[٤].

قال الطبري:" وفي هذه الآية دليلٌ واضح على أنّ طاعة الله جَلّ ثناؤه لا ينالها المُطيعون إلا بإنعام الله بها عليهم ، وتوفيقه إياهم لها. أوَ لا يسمعونه يقول : {صراط الذين أنعمت عليهم}، فأضاف كلّ ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه إنعام منه عليهم"[٥].

واختلف في المراد بالذين أنعم الله عليهم في الآية، على أقوال[٦]:

أحدها : أنهم المؤمنون، قاله ابن عباس[٧]، ومجاهد[٨]، واختاره ابن كثير[٩].

والثاني : أنهم الأنبياء. قاله ربيع [١٠]، وقتادة[١١].

والثالث: أنهم الملائكة .

والرابع : أنهم المؤمنون بالكتب السالفة، قبل التحريف والنسخ، قاله ابن عباس[١٢]، وحكاه مكي[١٣].

يدل عليه قوله تعالى:{يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} [البقرة: ٤٠، ٤٧، ١٢٢].

والخامس: أن "المنعم عليهم محمد ﷺ وأبو بكر وعمر". حكاه مكي عن ابي العالية[١٤].

---

(١) صفوة التفاسير: ٢٠/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٣٧):ص٣١/١.
(٣)صفوة التفاسير: ٢٠/١.
(٤) تفسير الثعلبي:١٢١/١.
(٥) تفسير الطبري: ١٧٩/١.
(٦) انظر: النكت والعيون:٥٩-٦٠، وتفسير ابن كثير: ٢٢٣.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٩٠):ص١٧٨/١، والحديث منقطع، لأن ابن جريج لم يسمع من ابن عباس.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٩):ص٣١/١، وانظر تفسير ابن كثير: ٢٢٣.
(٩) تفسير ابن كثير: ٢٢٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٨٩):ص١٧٨/١.
(١١) انظر: المحرر الوجيز: ٧٥/١.

(١٢)انظر: تفسير الثعلبي: ١٢٢/١، والمحرر الوجيز: ٧٥/١. ولفظه:" «المنعم عليهم أصحاب موسى قبل أن يبدلوا» .
(١٣) انظر: المحرر الوجيز: ٧٥/١، وتفسير البيضاوي: ٣٠/١، والنكت والعيون:٥٩-٦٠، وتفسير ابن كثير: ٢٢٣.
(١٤) انظر: المحرر الوجيز: ٧٥/١.

والسادس: أنهم المسلمون. وهو قول وكيع[١].
والسابع: أنهم النبي-ﷺ-، ومَنْ معه مِنْ أصحابه ، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد[٢].
والثامن. أنهم أصحاب الرسول صلّى الله عليه ورضي عنهم وأهل بيته. قاله شهر بن حوشب[٣].
والتاسع: أنه صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين". قاله ابن عباس في رواية الضحاك عنه[٤]، وهو قول جمهور المفسرين[٥].

قال ابن عطية:" وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً، وَإِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً} [النساء: ٦٦- ٦٩]، فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد"[٦].

والقول الأول أشبه بالصواب، لكونه أعم وأشمل. والله أعلم.

قال البيضاوي:" الإنعام: إيصال النعمة، وهي في الأصل الحالة التي يستلذها الإنسان فأطلقت لما يستلذه من النعمة وهي اللين، ونعم الله وإن كانت لا تحصى كما قال: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوها}، تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي.
والأول قسمان: موهبي وكسبي، والموهبي قسمان: روحاني كنفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى كالفهم والفكر والنطق، وجسماني: كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء والكسبي تزكية النفس عن الرذائل وتحليتها بالأخلاق السنية والملكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة وحصول الجاه والمال.
والثاني: أن يغفر له ما فرط منه ويرضى عنه ويبوئه في أعلى عليين مع الملائكة المقربين أبد الآبدين.

والمراد هو القسم الأخير وما يكون وصلة إلى نيله من الآخرة فإن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر"[٧].

وفي تفسير (الإنعام) في قوله{ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتح:٧]،وجوه:
أحدها: بالثبات على الإيمان والاستقامة. قاله عكرمة[٨].
والثاني: أن المراد: {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، بالشكر على السرّاء والصبر على الضرّاء. قاله علي بن الحسين بن داود[١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٩١):ص١/١٧٨.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٩٢):ص١/١٧٩.
(٣) انظر: تفسير الثعلبي: ١/١٢٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٨٨): ص١/١٧٨،وابن أبي حاتم(٣٨):ص١/٣١، والضحاك لم يسمع من ابن عباس فهو ضعيف.
(٥) انظر: المحرر الوجيز: ١/٧٥.
(٦)المحرر الوجيز: ١/٧٥.
(٧) تفسير البيضاوي: ١/٣٠-٣١.
(٨) انظر: تفسير الثعلبي:١/١٢٢.
(١) انظر: تفسير الثعلبي:١/١٢٢.

والثالث: أنه يعني: أتممت عليهم النعمة. قاله الحسين بن الفضل[١].
والرابع: بخلقهم للسعادة.
والخامس: بأن نجاهم من الهلكة.
والسادس: بالهداية واتباع الرسول.
قال أبو حيان:" ولم يقيد الأنعام ليعم جميع الأنعام"[٢].
قال الثعلبي:" وأصل (النعمة): المبالغة والزيادة، يقال: دققت الدواء فأنعمت دقّه أي بالغت في دقه، ومنه قول النبي صلّى الله عليه وآله:" إن أهل الجنة يتراءون الغرفة منها كما يتراءون الكوكب الدرّي الشرقي أو الغربي في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما"[٣]، أي زادا عليه. وقال أبو عمرو: بالغا في الخير"[٤].
قوله تعالى: {غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ}[الفاتحة:٧]، أي:" غير صراط الذين غضبت عليهم، ولا الضالين عن الهدى"[٥].
قال صديق خان: " أي غير صراط الذين غضبت عليهم وهم اليهود، لقوله تعالى فيهم:{ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ}[المادة:٦٠]، ولا الضالين عن الهدى، وهم النصارى لقوله عز وجل:{ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ}[المادة:٧٧]"[٦].
قال مقاتل:" يعني دلنا عَلَى دين غير اليهود الَّذِين غضب اللَّه عليهم، فجعل منهم القردة والخنازير، {وَلَا الضَّالِّينَ}، يقول: ولا دين المشركين يعني النصارى"[٧].
قال السعدي: أي: غير صراط " الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم"[٨].
قال الصابوني:" أي لا تجعلنا يا ألله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم، السالكين غير المنهج القويم، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية"[٩].
قال الراغب:" أصل (الغضب): غليان دم القلب إرادة الانتقام، ومبدأ الغضب: انفعال مكروه، بدلالة قوله عليه السلام: " إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار " وقال عليه السلام: " اتقوا الغضب، فإنها جمرة توقد في قلب ابن آدم ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فمن وجد من ذلك شيئاً، فليلزم الأرض "[١٠]"[١].

---

(١) انظر: تفسير الثعلبي:١/١٢٢.
(٢) البحر المحيط: ١/٢٨.
(٣)الجامع الصغير: ٢/ ٢٠٣.
(٤) تفسير الثعلبي:١/١٢٢.
(٥) تفسير البغوي: ١/٧٦.
(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن: ١/٥٢.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان: ١/٣٦.
(٨) تفسير السعدي: ٣٩.
(٩) صفوة التفاسير: ١/٢٠.
(١٠) هذا طرف من خطبة النبي ﷺ من بعد صلاة العصر إلى مغيربان الشمس، أنظر: المصنف لابن أبي شيبة(٢٥٨٩٣):ص١٣/٦٤-٦٥، كتاب الأدب، ورواه عبدالرزاق(٢٠٧٢٠)، من طريقة أحمد:٣،٦١، وحماد بن سلمة، والطيالسي(٢١٥٦)، وعبد بن حميد(٨٦٤)، وأحمد:١٩/٣، وأبي يعلى(١٠٩٦، ١١٠١*- والحاكم:٥٠٥/٤، وقال: لم يحتج الشيخان بابن جدعان، وعلّق عليه الذهبي بانه: صالح الحديث.

قال ابن أبي زمنين:" هذا دعاء أمر الله رسوله أن يدعو به، وجعله سنة له وللمؤمنين"(٢).

أخرج الطبري عن عدي بن حاتم ، قال : "قال لي رسول الله ﷺ : إنّ {المغضوبَ عليهم} اليهود"(٣)، [و] "إن {الضَّالين} : النَّصارى"(٤). وروي عن ابن عباس(٥)، ومجاهد(٦)، والربيع(٧)، وابن زيد(٨).

وفي غضب الله عليهم ، أربعة أقاويل(٩) :

أحدها : أنه الغضب المعروف من العباد .

قال الطبري:" غير أنه - وإن كان كذلك من جهة الإثبات(١٠) - فمخالف معناه منه معنى ما يكون من غضب الآدميين الذين يزعجهم ويحركهم ويشق عليهم ويؤذيهم، لأن الله جل ثناؤه لا تحل ذاته الآفات ، ولكنه له صفة ، كما العلم له صفة ، والقدرة له صفة ، على ما يعقل من جهة الإثبات ، وإن خالفت معاني ذلك معاني علوم العباد ، التي هي معارف القلوب ، وقواهم التي توجد مع وجود الأفعال وتعدم مع عدمها"(١١).

والثاني : أنه إرادة الانتقام ، لأن أصل الغضب في اللغة هو الغلظة ، وهذه الصفة لا تجوز على الله تعالى .

قال تعالى: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}[سورة الزخرف : ٥٥] .

وكما قال : {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ}[سورة المائدة : ٦٠].

والثالث : أن غضبه عليهم هو ذَمُّهُ لهم لأفعالهم.

والرابع : أنه نوع من العقوبة سُمِّيَ غضباً ، كما سُمِّيَتْ نِعَمُهُ رَحْمَةً.

قال الطبري:" فكلّ حائدٍ عن قَصْد السبيل ، وسالكٍ غيرَ المنهج القويم ، فضَالٌّ عند العرب ، لإضلاله وَجهَ الطريق. فلذلك سمى الله جل ذكره النصارَى ضُلالا لخطئهم في الحقِّ مَنهجَ السبيل ، وأخذهم من الدِّين في غير الطريق المستقيم.

فإن قال قائل : أوَ ليس ذلك أيضًا من صفة اليهود ؟

قيل : بلى!

فإن قال : كيف خَصّ النصارَى بهذه الصفة ، وَخصّ اليهودَ بما وصفَهم به من أنهم مغضوب عليهم ؟

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني: ٦٦/١.

(٢) تفسير ابن أبي زمنين:١١٩/١.

(٣) تفسير الطبري(١٩٣)-(١٩٥):ص١٨٥/١-١٨٦.

(٤) تفسير الطبري(٢٠٧)-(٢٠٩):ص١٩٢/١-١٩٣.

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٠٠):ص١٨٧/١، و(٢١٥)، و(٢١٧):ص١٩٣/١-١٩٤.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٠٢):ص١٨٨/١، و(٢١٤):ص١٩٣/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري (٢٠٣):ص١٨٨/١، و(٢١٨):ص١٩٥/١.

(٨) انظر: تفسير الطبري (٢٠٥)، و(٢٠٦):ص١٨٨/١، و(٢١٩)، و(٢٢٠):ص١٩٥/١.

(٩) انظر: تفسير الطبري: ١٨٨/١-١٨٩، والنكت والعيون: ٦١/١.

(١٠)الإثبات : مذهب أهل السنة في إثبات الصفات لله تعالى كما وصف نفسه ، وإثبات القدر بلا تأويل ، خلافا لأهل القدر ، وهم نفاته ، وللجهمية والمعطلة للصفات .

(١١) تفسير الطبري: ١٨٩/١.

قيل : كلا الفريقين ضُلال مغضوبٌ عليهم ، غيرَ أن الله جلّ ثناؤه وَسم كل فريق منهم من صِفَته لعباده بما يعرفونه به ، إذا ذكرهُ لهم أو أخبرهم عنه. ولم يسمِّ واحدًا من الفريقين إلا بما هو له صفةٌ على حقيقته ، وإن كان له من صفاتِ الذمِّ زياداتٌ عليه"[١].

واختلفت القراءة في قوله تعالى: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)} [الفاتحة : ٧]، على وجوه[٢]:

أحدها:(سراط)، قراءة ابن كثير، وقنبل، وابن محيصن، والشنبوذي.

والثاني: (صراط): إشمام الصاد الزاي، قراءة حمزة، والمطوعي، وخلف.

والثالث: (صراطَ مَنْ)، قراءة شاذة لابن مسعود، وعمر، وابنالزبير، وزيد بن علي.

والرابع: (عليهِمْ)، بكسر الهاء وجزم الميم، قرأ بها نافع، ابن كثير، أبو عمرو، ابن عامر، عاصم، حمزة، الكسائي، ورش، خلاد، قنبل، خلف.

والخامس:(عليْهُمْ)، بضم الهاء وجزم الميم، قرأ بها حمزة، ويعقوب، والطوعي، والشنبوذي، والأعمش.

والسادي: (عليْهُمُ)، بضم الهاء والميم من غير إلحاق واو، قرأ بها ابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر.

والسابع: (عليْهُمُو)، بكسر الهاء وضم الميم وإلحاق الواو، قراءة ابن كثير، وقالون، والخفاف عن أبي عمرو، وأبو جعفر، وابن أبي إسحاق، الأعرج، وابن محيصن.

والثامن: (عليْهِمُو)، قرأ بها الأعرج، وعبدالله بن عطاء الخفاف عن أبي عمرو، والحسن البصري.

والتاسع: (عليْهِمِي)، قراءة شاذة للحسن البصري.

والعاشر: (غيرِ)، بالجر، قرأ بها نافع، ابن كثير، أبو عمرو، ابن عامر، عاصم، حمزة، الكسائي.

الحادي عشر: (غيرَ)، بالنصب على الحال، قرأ بها أبي بن كعب، وابن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وروى الخليل عن ابن كثير. وهي قراءة شاذة.

الثاني عشر: (وغيْرِ)، قرأ بها أبي بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وهي قراءة شاذة.

ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها (آمين)، ويقال (أمين) بالقصر أيضاً، ومعناه اللهم استجب[٣].

والدليل على استحباب التأمين:

أولا: عن وائل بن حجر: سمعت النبي ﷺ قرأ {غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ} فقال : " آمين " ومد بها صوته [١]. وقال الترمذي هذا حديث حسن، وروي عن علي وابن مسعود وغيرهم[١].

---

(١) تفسير الطبري: ١٩٥/١.

(٢) انظر: السبعة في القراءات: ١٠٨، والحجة للقراء السبعة: ٥٨/١ وما بعدها، والدر المنثور: ٤١/١، والبحر المحيط: ١٤/١، وتفسير الثعلبي: ١٢٢/١-١٢٣.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٢٨/١، وتفسير ابن كثير: ٢٣٢.

(١)المسند: (١٨٨٩٥، ١٨٨٩٦): ٣١٥/٤-٣١٦. سنن الترمذي: الرقم(٢٤٨). (حديث حسن)، ولأبي داود رفع بها صوته(سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب التأمين وراء الإمام: ٢٤٨، ٢٤٩"٢٧/٢") زقال أبو عيسى:

ثانيا: عن أبي هريرة قال: "كان رسول الله ﷺ إذا تلا {غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ} قال " آمين " حتى يسمع من يليه من الصف الأول"[٢].

ثالثا: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:"إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه"[٣].

رابعا: ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال:"إذا قال أحدكم في الصلاة آمين، والملائكة في السماء آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه"[٤].

قال ابن كثير:" قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل في الإجابة، وقيل في صفة الإخلاص"[٥].

خامسا: وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً: "إذا قال - يعني الإمام - ولا الضالين، فقولوا آمين، يجبكم الله"[٦].

قال ابن كثير:" قال أصحابنا وغيرهم ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفي جميع الأحوال"[٧].

واختلف في تشديد(الميم) في (آمين)، على قولين:

أحدهما: روي عن الحسن وجعفر الصادق: أنهما شددا (الميم) من (آمين)، من (أمّ)، إذا قصد، أي نحن قاصدون نحوك[٨]، ومنه قوله تعالى: {ءَامِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ}. حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري[٩].

ونسبه الإمام النووي للواحدي، واستغرب التشديد، وقال:"عدّها كثير من أهل اللغة من لحن العوام، وقال جماعة من أصحابنا: من قالها في الصلاة، بطلت صلاته"[١].

حديث وائل بن حجر حديث حسن ورواه النسائي(١٤٥/٢)، وله في الكبرى(٩١٤)، وابن ماجة في سننه(٨٥٥): ٢٧٨/١ و (٣٨٠٢): ١٢٤٩/٢، ورواه الدارمي: (١٢٥٠)، والدارقطني(٣٣٤/١-٣٣٥)، وقال أبو عيسى: سمعت محمدا يقول: وحديث سفيان أصح من حديث شعبة في هذا، وأخطأ شعبة في مواضع من هذا الحديث، فقال عن حجر أبي العنبس، وإنما هو خحر بن عنبس ويكنى أبا السكن، وزاد فيه عن علقمة بن وائل، وليس فيه عن علقمة، وإنما هو: عن حجر بن عنبس عن وائل بن حجر، وقال: وخفض بها صوته، وإنما هي ومد بها صوته.، وقال الترمذي هذا حديث حسن، وروي عن علي وابن مسعود وغيرهم.

(١) حديث علي رواه ابن ماجة(٨٥٤)، وابن أبي حاتم في العلل(٢٥١/١)، وقال البوصيري: هذا إسناد ضعيف، وفيه مقال، وابن أبي ليلى وهو محمد بن عبدالرحمن ضعفه الجمهور، وله شاهد من حديث وائل بن حجر. وقال ابو حاتم: هذا عندي خطأ إنما هو سلمة، عن حجر أبي العنبس، عن وائل بن حجر، عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، ثم قال أبو حاتم: كان ابن أبي ليلى سيء الحفظ.

(٢) رواه أبو داود(٩٣٤)، وابن ماجة(٨٥٣)، وابن عبد البر في التمهيد: ١٣/٧)، وأبو يعلى:٦٢٢٠/١١، وقال البوصيري(٢٩٦/١): هذا إسناد ضعيف، أبو عبدالله لا يعرف حاله، وبشر ضعفه أحمد، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات.

(٣) رواه البخاري:(٧٨٠)(٧٨١)(٧٨٢)(٤٤٧٥)(٦٤٠٢)، ومسلم: (٤١٠).

(٤) رواه مسلم:برقم(٧٤): ٤١٠.

(٥) تفسير ابن كثير: ١٤٥/١.

(٦) رواه مسلم: (٦٢)-٤٠٤، وأبو داود:(٩٧٢)، وأحمد: (١٩٦٤٩)- ٤٠١/٤).

(٧) تفسير ابن كثير: ١٤٥/١.

(٨) ذكره النووي في التبيان: ١٢٦، وانظر: تفسير القرطبي: ١٢٩/١، وتفسير ابن كثير: ١٤٥/١.

(٩) هو ابن أبي قاسم القشيري، النيسابوري، مات(٥١٤هـ)، انظر: سير أعلام النبلاء:٤٢٦/١٩.

(١)التبيان: ١٢٦.

والثاني: أن تشديد (الميم) خطأ. قاله الجوهري[١].

واختلف في معنى(آمين)، على أقوال[٢]:

أحدها: أن معناه:"رب افعل". رواه ابن عباس عن رسول الله-ﷺ-[٣].

والثاني: أن المعنى: كذلك فليكن. قاله الجوهري[٤]، وحكاه الثعلبي عن ابن عباس وقتادة[٥].

والثالث: أن معناه: لا تخيب رجاءنا. قاله الترمذي[٦].

والرابع: أن معناه: اللهم استجب لنا. قاله الحسن[٧]، وأحمد بن يحيى ثعلب[٨]، وهو قول الأكثرين[٩].

والخامس: أن (آمين)، اسم من أسماء الله تعالى. قاله مجاهد[١٠]، وهلال بن يساف[١١]، وجعفر الصادق[١٢].

قال : ابن العربي" ولم يصح" [١٣].

والسادس: أن"(آمين)، خاتم رب العالمين، يختم بها دعاء عبده المؤمن". قاله علي بن أبي طالب[١٤].

والسابع: أن (آمين)، اسم خاتم يطبع به كتب أهل الجنة التي تؤخذ بالإيمان[١٥].

قال ابن عطية:" ومعنى (آمين) عند أكثر أهل العلم: اللهم استجب، أو أجب يا رب، ونحو هذا"[١٦].

وفي (آمين)، لغتان[١٧]:

إحداهما: (أمين) بقصر الألف، ومنه قول الشاعر[١]:

---

(١) انظر: الصحاح(أمن)، وتفسير القرطبي: ١٢٨/١.

(٢) انظر: تفسير الثعلبي: ١٢٥/١، وتفسير ابن كثير: ٢٣٢، والدرّ المنثور: ١/ ١٧، وفتح القدير: ١/ ٢٦.

(٣)تفسير أبي الليث:٨٤/١، حديث ضعيف جدا من أجل الكلبي وأبي صالح، وذكره السيوطي في الدر المنثور: ٤٥/١، ونسبه للثعلبي. فيدخل في باب تفسير القرآن في الرأي.

(٤) انظر: الصحاح(أمن)، وتفسير القرطبي: ١٢٨/١، وتفسير ابن كثير: ١٤٥/١.

(٥) انظر: تفسير الثعلبي: ١٢٥/١، ولفظه(كذلك ليكن).

(٦) انظر: تفسير ابن كثير: ١٤٥/١، وتفسير القرطبي: ١٢٨/١.

(٧) انظر: المحرر الوجيز: ٧٩/١، والأضداد للأنباري: ٣٨٢.

(٨) انظر: المحرر الوجيز: ٧٩/١.

(٩) انظر: تفسير القرطبي: ١٢٨/١، وتفسير ابن كثير: ١٤٥.

(١٠) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١٢٥/١، والقرطبي: في تفسيره: ١٢٨/١، وانظر: فيض القدير: ١/ ٨٠، ح ٢٠.

(١١) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١٢٥/١، والقرطبي: في تفسيره: ١٢٨/١.

(١٢) حكاه عنه القرطبي في تفسيره: ١٢٨/١.

(١٣) أحكام القرآن: ٦/١، وانظر: مصنف ابن ابي شيبة:٤٢٦/٢، والمحرر الوجيز:٧٩/١، وتفسير ابن كثير: ٢٣٢.

(١٤) انظر: المحرر الوجيز: ٧٩/١.

(١٥) انظر: المحرر الوجيز: ٧٩/١.

(١٦) المحرر الوجيز: ٧٩/١.

(١٧) وفي تفسير الثعلبي: ١٢٥/١ ، (فطحل) :(فعطل).

(١) انظر: اللسان والصحاح، وتاج العروس، وإصلاح الكنطق، في مادتي :(فحطل وفطحل)، تفسير الثعلبي:١٢٥/١، وفي الصحاح: إذ دعوته، وبخطه في الهامش: إذ رأيته.

تباعد منّي فطحل إذ سألته أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

والثانية: (آمين)، بمد (الألف)، قال الشاعر[1]:

يا ربّ لا تَسْلُبَنِّي حُبَـها أبدًا ويَرْحَمُ اللهُ مَنْ قال : آمينَا

قال الثعلبي: "وهو مبني على الفتح مثل (أين)[2]".

وقد اتفق العلماء على أنه يسن للمنفرد والمأموم أن يقول : (آمين)، فالمنفرد يؤمِّن بعد قراءته للفاتحة، والمأموم يؤمن بعد قراءة الإمام[3].

واختلف أهل العلم في جهر الإمام:بـ(آمين)، على وجوه:

أحدها: أن الإمام يجهر في ذلك. وهذا مذهب الشافعي[4]، وأحمد[5]، ومالك في رواية المدنيين[6]، واختاره القرطبي[7].

قال الربيع :"سألت الشَّافِعِي عن الإمام إذا قال : {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}الآية ، هل يرفع صوته بآمين ؛ قال : نعم ، ويرفع بها من خلفه أصواتهم"[8].

والثاني: أن الإمام لا يجهر بها. وهذا مذهب الحنفية وبعض المدنيين من أصحاب مالك، وهو قول الطبري[9]، وبه قال ابن حبيب[10]، وابن أبي قاسم[11]، والمصريين من أصحاب مالك[12].

ودليلهم ما رواه مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " وإذا قال - يعني الإمام - {ولا الضالين}، فقولوا آمين"[13].

واستأنسوا أيضاً بحديث أبي موسى عند مسلم " وإذا قرأ { وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ }، فقالوا: آمين"[14].

والثالث: أنه مخير. قاله ابن بكير[15].

قال ابن عطية:" وقد روي عن مالك رضي الله عنه: أن الإمام يقولها أسرّ أم جهر"[16].

---

(١)البيت للمجنون في ديوانه ص٢١٩؛ ولعمر بن أبي ربيعة في لسان العرب ١٣/ ٢٧ "أمن"، وليس في ديوانه؛ وبلا نسبة في إصلاح المنطق ص١٧٩؛ وإنباه الرواة ٣/ ٢٨٢؛ وشرح المفصل ٤/ ٣٤.

(٢) تفسير الثعلبي:١/١٢٥.

(٣) انظر: الموسوعة الفقهية: ١/١١-١٢.

(٤) تفسير الشافعي: ١/١٩٦.

(٥) انظر: التمهيد: ٧/١٥.

(٦) انظر: الإستذكار: ٤/٢٥٣.

(٧) انظر: تفسير الشافعي: ١/١٢٩.

(٨) تفسير الشافعي: ١/١٩٦.

(٩) انظر: الإستذكار: ٤/٢٥٤، والتمهيد: ٧/١٣، وتفسير القرطبي :١/١٢٨، ولم أقف على قوله تفسيره.

(١٠) انظر: المحرر الوجيز:١/٧٩، وتفسير القرطبي: ١/١٢٩.

(١١) انظر: الإستذكار: ٤/٢٥٣.

(١٢) انظر: الإستذكار: ٤/٢٥٣.

(١٣) صحيح البخاري(٧٤٩):ص١/٢٧١، ومسلم(٤١٥):ص١/٣١٠.

(١٤) الموطأ: ١/٨٧، رواه البخاري: (٧٩٨)، ومسلم: (٤٠٩) من طريق مالك، به.

(١٥) انظر: المحرر الوجيز: ١/٧٩.

(١٦) المحرر الوجيز: ١/٧٩.

والصحيح هو القول الأول، وعليه تدل الأحاديث الصحيحة ، والآثار الواردة عن الصحابة رضي الله عنهم[1] ، كما ويجب التنبه إلى أن هذه السنة من سنن الصلاة لا يجوز أن تكون سببا للشقاق والنزاع بين المسلمين والله أعلم.

الفوائد:

١- من الفوائد: إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم عليهم؛ لأنها فضل محض من الله.

٢- ومنها: ذكر التفصيل بعد الإجمال؛ لقوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم} : وهذا مجمل؛ {صراط الذين أنعمت عليهم} : وهذا مفصل؛ لأن الإجمال، ثم التفصيل فيه فائدة: فإن النفس إذا جاء المجمل تترقب، وتتشوف للتفصيل، والبيان؛ فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة

---

(١) روى أبو داود (٧٩٩) عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : " تَرَكَ النَّاسُ التَّأْمِينَ ! ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَالَ : غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ . رفع صوته فقال : آمِينَ " قال الدارقطني : إسناده حسن ، وقال البيهقي : حسن صحيح ، وصححه الألباني فقال : " معناه صحيح ، فإن له شاهدا من حديث وائل بن حجر بسند صحيح. " انتهى من " سلسلة الأحاديث الضعيفة " (٣٦٨/٢). زاد ابن ماجة (٨٤٣) في روايته للحديث : (حَتَّى يَسْمَعَهَا أَهْلُ الصَّفِّ الْأَوَّلِ ، فَيَرْتَجُّ بِهَا الْمَسْجِدُ". وهذه الزيادة ضعيفة لا تصح ، انظر : "تلخيص الحبير" (٢٣٨/١) ، "الأحاديث الضعيفة "(٩٥١) ، (٩٥٢). وروى الترمذي من حديث سفيان الثوري بسنده عن وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ قَالَ : " سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ فَقَالَ : (آمِينَ) وَمَدَّ بِهَا صَوْتَهُ".قال النووي في المجموع (٣٢٨/٣) : إسناده حسن ، وصححه الألباني .

وقال البيهقي (٥٩/٢) وروينا عن ابن عمر رضى الله عنه " أنه كان يرفع بها صوته ، إماما كان أو مأموما ". وهذا الأثر رواه البخاري عن ابن عمر معلقا ، بصيغة الجزم ، ولفظه : وَقَالَ نَافِعٌ : " كَانَ ابْنُ عُمَرَ لَا يَدَعُهُ ، وَيَحُضُّهُمْ ، وَسَمِعْتُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ خَيْرًا. " قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (٣٠٧/٢).(وَيَحُضُّهُمْ)، أي: على قولها (آمين). (خَيْرًا)، أَي: فَضْلًا وَثَوَابًا . ووجه الاستدلال بِأَثَرِ اِبْنِ عُمَرَ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ كَانَ يُؤَمِّنُ إِذَا خَتَمَ الْفَاتِحَةَ ، وَذَلِكَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا أَوْ مَأْمُومًا" انتهى.

وروى البيهقي (٥٩/٢) ، وابن جبان في "الثقات" عن عَطَاء قَالَ: " أَدْرَكْتُ مِائَتَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ، إِذَا قَالَ الْإِمَامُ : وَلَا الضَّالِّينَ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِآمِينَ ".

وقال الإمام البخاري رحمه الله : بَاب جَهْرِ الْمَأْمُومِ بِالتَّأْمِينِ ، وروى فيه قول الرسول ﷺ : "إِذَا قَالَ الإِمَامُ : {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{ فَقُولُوا : آمِينَ". قال الحافظ ابن حجر : "قَالَ الزَّيْنُ بْنُ الْمُنِيرِ : مُنَاسَبَةُ الْحَدِيثِ لِلتَّرْجَمَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ فِي الْحَدِيثِ الْأَمْرَ بِقَوْلِ آمِينَ ، وَالْقَوْلُ إِذَا وَقَعَ بِهِ الْخِطَابُ مُطْلَقًا ، حُمِلَ عَلَى الْجَهْرِ ، وَمَتَى أُرِيدَ بِهِ الْإِسْرَارُ أَوْ حَدِيثُ النَّفْسِ: قُيِّدَ بِذَلِكَ . وَقَالَ اِبْنُ رُشيد : تُؤْخَذُ الْمُنَاسَبَةُ مِنْهُ مِنْ جِهَاتٍ : مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ " إِذَا قَالَ الْإِمَامُ ، فَقُولُوا " فَقَابَلَ الْقَوْلَ بِالْقَوْلِ ، وَالْإِمَامُ إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ جَهْرًا ، فَكَانَ الظَّاهِرُ الِاتِّفَاقَ فِي الصِّفَةِ... ".انتهى من " فتح الباري " (٣١١/٢).

وقال النووي في " الأذكار" (ص ٥١) : " ويجهر به (التأمين) الإمام والمنفرد في الصلاة الجهرية ، والصحيح أن المأموم أيضا يجهر به ، سواء كان الجمع قليلا أو كثيرا " انتهى .

وقال ابن القيم رحمه الله: "السنةُ المحكمةُ الصحيحةُ : الجهرُ بآمين في الصلاة ، لقوله ﷺ في الصحيحين :"إذا أمن الأمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه" ؛ ولولا جهره بالتأمين لما أمكن المأموم أن يؤمن معه ويوافقه في التأمين ، وأصرح من هذا حديث وائل بن حجر وحديث أبي هريرة رضي الله عنهما ... وذكر الحديثين المتقدمين ، ثم قال : وسئل الشافعي عن الإمام هل يرفع صوته بآمين ؟ قال : نعم ، ويرفع بها من خلفه أصواتهم . فقيل له : وما الحجة ؟ فقال : قول رسول الله ﷺ : (إذا أمن الإمام) ؛ فيه دلالة على أنه أمر الإمام أن يجهر بآمين ، لأن من خلفه لا يعرفون وقت تأمينه إلا بأن يسمع تأمينه. " انتهى من " إعلام الموقعين " (٣٩٦/٢-٣٩٨).

لقبوله متشوفة إليه؛ ثم فيه فائدة ثانية هنا: وهو بيان أن الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم.

٣- ومنها: انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم؛ وقسم مغضوب عليهم؛ وقسم ضالون؛ وقد سبق بيان هذه الأقسام..

وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل؛ أو العناد؛ والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوب عليهم. وعلى رأسهم اليهود؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق. وعلى رأسهم النصارى؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة. أعني النصارى؛ أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم، واليهود سواءً. كلهم مغضوب عليهم.

٤- ومن الفوائد: بلاغة القرآن، حيث جاء التعبير عن المغضوب عليهم باسم المفعول الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى، ومن أوليائه.

٥-ومنها: أنه يقدم الأشد، فالأشد؛ لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفة للحق من الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه. بخلاف المخالف عن جهل.

وهذا الذي سردناه في تفسير السورة، قطرة من بحر؛ ومن أراد التوسع في ذلك فأنصحه بكتاب "مدارج السالكين" لابن القيم رحمه الله. والله الموفق.

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء الأول من التفسير بفضل من الله وإحسان، ويليه الجزء الثاني بإذن الله تعالى، وبدايته تفسير الآية (١) من سورة «البقرة».

فهرست الجزء الأول